ايتالو سفيفو

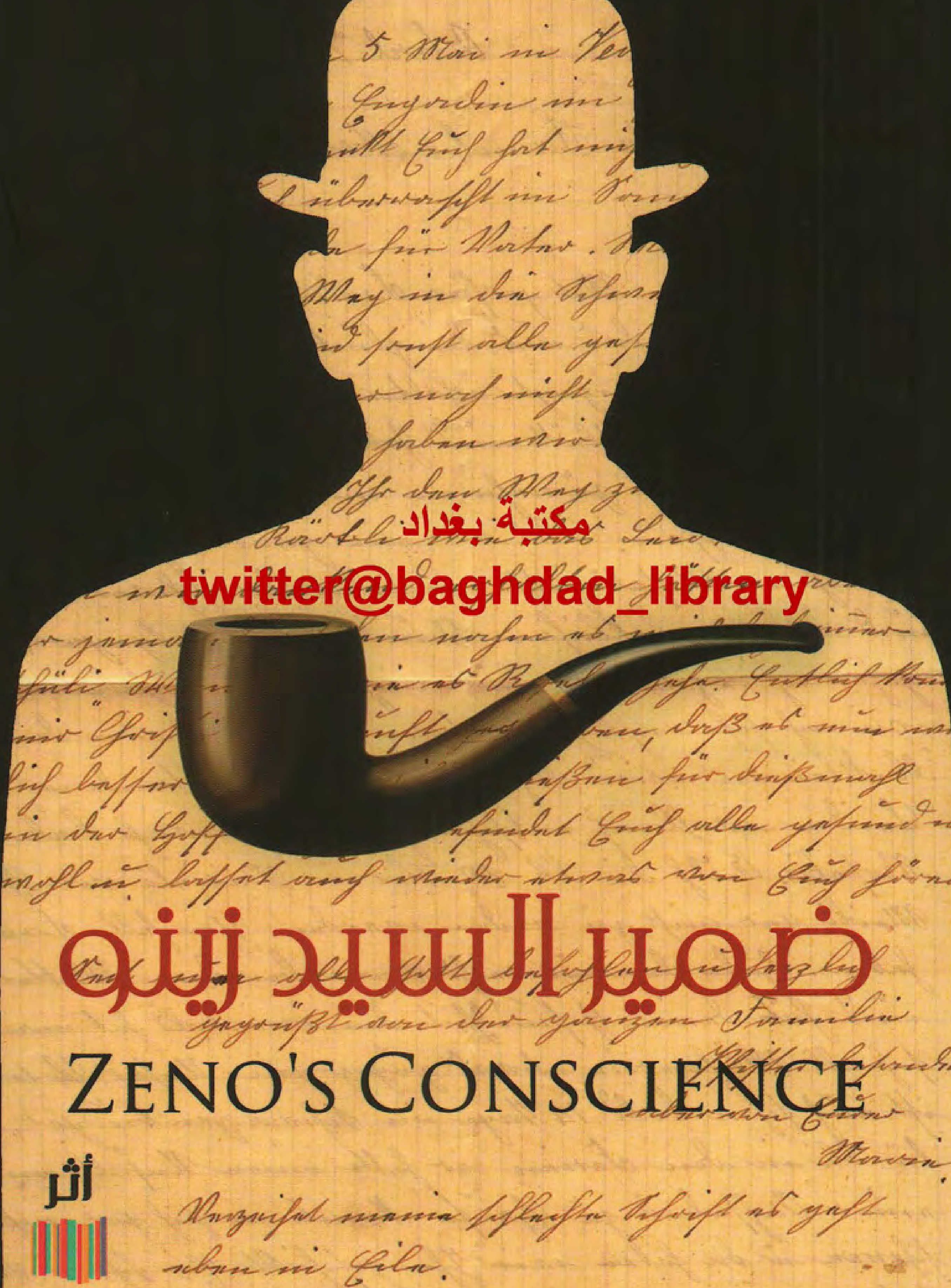

مكتبة بغداد
twitter@baghdad_library

ضمير السيد زينو

ZENO'S CONSCIENCE

أثر

ضمير السيد زينو

إيتالو سفيفو

ترجمة

معاوية عبد المجيد

أثر

twitter @baghdad_library

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الطبعة الأولى
1434 هـ - 2013 م

ردمك 978-614-01-0746-5

Italo Svevo
La coscienza di Zeno
Confessions of Zeno *or* Zeno's Conscience

جميع الحقوق محفوظة

أثر
للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية – الدمام
تلفون: 00966505774560
الموقع الإلكتروني: www.darathar.net
Email: info@darathar.net

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

آرون هكتور شميتس

(Aron Hector Schmitz)

twitter @baghdad_library

الكاتب والكتاب

الروائي المجهول

ولد آرون هكتور شميتس (Aron Hector Schmitz) في تريستا Trieste، سادس إخوته الثمانية، في التاسع عشر كانون الأول عام 1861، من والد يهودي نمساوي يدعى فرانس، ووالدة يهودية إيطالية اسمها أليغرا مورافيا. وكان والده تاجراً ثرياً، أرسل أولاده إلى ألمانيا ليتعلموا اللغة وأصول التجارة كي يساعدوه في المستقبل. لكن هكتور ما إن أتقن الألمانية - إلى جانب إتقانه للفرنسية، والإيطالية من قبل - حتى انكبّ على قراءة غوته وشيلر وأدباء القارة وفلاسفتها، وأهمل دراسته التجارية ليكتب القصص القصيرة والمسرحيات التي لم يكمل معظمها.

عاد إلى تريستا عام 1878 ليلتحق بالمعهد العالي للتجارة؛ وكان والده يمرّ بصعوبات مادية، فعمل في أحد المصارف. لكّنه ما زال يفكر بإتمام قصصه، ويتقلب من مدرسة فكرية إلى أخرى، حتى نجح عام 1880 في التعاون مع إحدى الجرائد المهمة (l'Indipendente di Trieste). وكتب فيها مقالات نقدية في المسرح والأدب والفنون الأخرى، إضافة إلى بعض القصص والمونولوجات، تحت اسم مستعار اي. ساميلي.

بدأ بتأليف روايته الأولى (حياة) عام 1885، وهو على قناعة تامة بأنها لن تنجح. ونشرها عام 1892 على حسابه الخاص، وتحت الاسم المستعار النهائي «إيتالو سفيفو» (Italo Svevo). فما لبثت الصحافة أن

twitter @baghdad_library

شنّت هجوماً حاداً عليه وانتقدت الرواية من ناحية الأسلوب والحبكة والختام، بل وحتى العنوان. وتوفي والده في العام نفسه.

ثم باشر بتدريس مادة المراسلات التجارية في المعهد ذاته من عام 1893 حتى 1901. وبعد وفاة والدته عام 1895، خطب قريبته من أمه ليفيا فينيسياني وتزوجها في العام اللاحق بمراسم كاثوليكية.

وكانت فكرة الانقطاع عن الأدب تراوده بينما كتب قصصاً ذات طابع سياسي مثل (القبيلة). وألّف روايته الثانية (شيخوخة)، ونشرها على حلقات في الجريدة نفسها، ثم كاملة عام 1898 على حسابه الشخصي أيضاً. وعندما منيت هذه الرواية بالفشل أيضاً، قرر أن يعتزل الكتابة نهائياً ليتفرغ للعمل في مصنع حميه فينيسياني عام 1899. فانهمك بالعمل الحقيقي وإدارة العمّال والمشاريع في تريستا والبندقية ولندن، وقضى تلك الحقبة بالسفر من مكان لآخر في أوروبا مكتسباً خبرة مهنية، وعزف على الكمنجة في أوقات فراغه ليحول بينه وبين الكتابة. ورغم اعتباره العمل واجباً أخلاقياً تجاه العائلة، إلا أنه ظلّ غير راض عن إنجازاته التجارية. وكتب مسوّدات لمسرحيات بفصل واحد في تلك الأعوام من الصمت الأدبي.

في عام 1906 يرغب سفيفو بتحسين لغته الانكليزية، فيتعرف على الكاتب الايرلندي جيمس جويس الذي يدرّس اللغة الانكليزية في مدينة تريستا حينذاك. ويترك هذا اللقاء آثاره على حياة سفيفو، فيتبادل الكاتبان وجهات النظر. إذ يحصل جويس على معلومات عميقة عن الدين اليهودي، تتضح في رائعته (يوليسيس)؛ كما يقرأ بعض أعمال سفيفو، فيشجّعه على معاودة الكتابة، واصفاً إياه بالكاتب المجهول. فيباشر الأخير بتأليف بعض المسرحيات وإتمام أخرى. ويتعرف على علم التحليل النفسي، في تلك المرحلة أيضاً، من خلال علاقته بوليم شتيكل تلميذ فرويد، وإدواردو فيس الذي يروّج للتحليل النفسي في تريستا.

ومع اندلاع الحرب العظمى عام 1914 ودخول إيطاليا غير المتوقع فيها عام 1915، تتوقف أعماله التجارية ويهاجر قسم من العائلة إلى فلورنسا وآخر إلى زوريخ. فيبقى وحيداً مع زوجته في تريستا لينعم بالسلام رغم رؤيته للقذائف تتهاوى على المنطقة الصناعية. وفي هذا الهدوء يتعمّق بقراءة فرويد، ويترجم (تفسير الأحلام) إلى الإيطالية؛ ويراسل عدة دوريات أدبية، ويكتب (نظرية السلام) عام 1918.

وفي عام 1919، يوقف جميع كتاباته ليتفرغ لتأليف روايته الثالثة (ضمير السيد زينو) ويستمر في كتابتها حتى عام 1922. وينشرها عام 1923 على حسابه الخاص أيضاً. ويقلق بشأن النقد الإيطالي لها باعتبارها ممتعة لكنها غريبة عن الأجواء الروائية التقليدية. يرسل نسخة منها إلى جويس، المقيم في باريس حينذاك. فيعمّمها الأخير في الأوساط الثقافية لتنال إعجاب الجميع، ويتحمّس بنيامين كريميو إلى ترجمة أجزاء منها وفاليري لاربو إلى التعقيب عليها. فيخرج الكاتب من عزلته بعد أن كتب مونتالي مقالاً بعنوان (تحية تقدير إلى إيتالو سفيفو).

وتبدأ مرحلة الاعتراف بأهميته بعد ذلك؛ فتترجم أعماله ولا سيما الرواية الأخيرة إلى اللغات الأوروبية؛ وتتّسع الدراسات عن أدبه في أوروبا وإيطاليا أيضاً. وتُخرَج العديد من أعماله المسرحية على الخشبة، كما يُدعى لإلقاء المحاضرات في المجال الفلسفي والأدبي والفني، والمشاركة في منتديات النخبة الثقافية في القارة برمّتها.

وما فتئ الكاتب ينعم بنجاحه ويؤلّف القصص القصيرة حتى تفاجئه المنية في 13 أيلول 1928 بعد حادث سير. فتبقى الكثير من قصصه المنجزة غير مكتملة لأنّها محاولة لتأليف جزء ثان لهذه الرواية التي حملته إلى الشهرة.

twitter @baghdad_library

الأدب نجاة الحياة

أضحت رواية ضمير السيد زينو عملاً أدبياً خالداً في المكتبة العالمية. وارتقى سفيفو إلى مستوى الأدباء الكلاسيكيين بالنسبة للأدب الإيطالي المعاصر؛ لأنّ مؤلفاته وسّعت آفاق الرواية الإيطالية بعد أن كانت، في القرن التاسع عشر، حبيسة الرومانسية الحالمة - ممثّلة بجابريلي دانونزيو - التي تميل إلى تجميل الواقع بالأسلوب المنمّق والبلاغة الرفيعة. لكنه لم يندفع مع الشبان التعبيريين الهادفين إلى تدمير قيمة الأدب التقليدية. لذا كانت رؤيته الفلسفية للحاضر الأوروبي في غاية الرصانة، فقدّم نموذجاً إنسانياً يعيش ضمن موجة الشكوك النفسية التي رافقت عصر الحداثة، ويفتقر للموضوعية والتوازن الذي نعم بهما بطل الرواية في العصر السابق. وتمكّن الكاتب من رصد هذه الإشكاليات الأخلاقية التي رافقت التحولات الجذرية في المجتمع الإيطالي، والتغير الذي طرأ عليه إبان انتقاله إلى الحقبة الصناعية من حيث القيم والمبادئ المدنية.

ولابدّ أنه قرأ واقعه الشخصي ليتنبأ بالاضطرابات القادمة، حيث كان والده نمساوياً وأمّه إيطالية؛ فهو يعتبر الألمانية والإيطالية لغتيه الأم، واختار لنفسه اللقب «إيتالو سفيفو» بناء على ذلك: «إيتالو» تعني (إيطالي)، و«سفيفو» تعني (جرماني). وكان يهودي الأب والأم، لكنه اعتنق الكاثوليكية قبيل زواجه. وإلى جانب الانتماء الديني، كان سفيفو - من خلال آرائه وكتاباته الأدبية والفكرية - يتنقل بين مدارس الفلسفة الأوروبية. فهو من أوائل الملاحظين لسوء الفهم الذي تعرضت له فلسفة نيتشه في التأويل الفاشي والنازي، ودعا إلى تناول فكرة الإنسان المثالي بعمق. وأشاد بالعَود الأبدي، وبضرورة اعتبار (الوجود-الفناء)، (السلام-النزاع)، (الصحة-العافية)، كثنائيات حتمية لا تقصي بعضها ضمن كيانها

الواحد إنما تتصارع وتتفق وتتبادل الصلاحيات خلال ديمومة الزمن. بل تفاءل في خلود الخير والشرّ على حدّ سواء، وانتقد حصرهما بأطراف متناحرة. كما يثني سفيفو على النظرية الداروينية، لكنه لا يتفاءل بالارتقاء لأنه يرى الكائن البشري محدوداً. ويرفض من الفلسفة الوضعية اعتبارها للعلم قاعدة وحيدة للمعرفة، ويرفض بالمقابل أي تفسير ميتافيزيقي. ولا يقبل الماركسية كحلّ اجتماعي، بل أداة تحليلية ونقدية في الحكم على الحضارة الأوروبية وآلياتها الاقتصادية والطبقية. ولا يعارض التحليل النفسي كتقنية لمعرفة النفس البشرية، لكنه يضع النظرية الفرويدية على المحكّ في رواية ضمير السيد زينو، وينتقد طرحها كعلاج طبي وكرؤية شمولية للوجود. فهو يتأثر بجويس في إبراز اللاوعي كإيحاء أدبي، وينزع إلى البحث عن آلية روائية جديدة وتفاعلية في الحلول الشكلية. لذا نلاحظ أكثر من كاتب في الرواية وأكثر من قارئ بالنتيجة.

ثم إنّه عاش في مدينة إيطاليّة تقع تحت سيطرة النمسا منذ عقود. وشهد لحظة تاريخية عندما انتصرت إيطاليا في الحرب، واستردّت تريستا فأصبحت المدينة - التي تقع في أقصى الشمال الشرقي للبلاد - ثانوية ومنعزلة جداً لبعدها عن المركز، بعد أن كانت ميناء بالغ الأهمية في العصر النمساوي.

ويبدو التهكّم من الواقع المضطرب جليّاً في ثنايا الرواية، لأنّ السخرية من الحاضر أفضل طريقة لنقده. فالكاتب يضع المونولوج العميق محل الوقت المنتظم، ويسرد المجريات وفق أهمية الموضوعات الحياتية على حساب الحبكة التقليدية، مسلّطاً الضوء على القيمة العميقة للأحداث. فهنا لا يقصّ الراوي حكاية بطل نبيل منذ ولادته حتى بلوغ أمجاده. إنما يقوم الراوي-البطل بالاعتراف بفشله وأكاذيبه كي يخفي جرائمه وسرقاته ليدمجها في الحدث، مستعيناً بقدرته على المراوغة وتزييف الوقائع والالتفاف حولها. ولا يفلح إلاّ في الاحتيال بطريقة

twitter @baghdad_library

سرده للماضي ليخبّئ انكساراته المريرة ونجاحاته المشكوك بأمرها؛ كأنّ الكتابة قفص اتهام يلجأ إليه بنفسه ليعترف بذنوبه مصرّاً على براءته منها. فتقع لحظة الاعتراف الطاهرة في فخّ المساءلة، ويصعب التمييز بين الصدق والحقيقة. وانشغل الكثير من النقّاد بتفكيك لغز الدكتور س.؛ وهو الشخصية الغامضة المتخفية التي تمرّ كطيف في الرواية، مع أنّ دورها أساسيّ فيها. فرأى بعضهم أنّه الكاتب سفيفو بعينه، ورأى آخرون أنه الحرف الأول من اسم سيجموند فرويد. كما تطرّق الباحثون لاسم البطل (زينو Zeno)، فافترضوا أن يكون تحريفاً للكلمة اليونانية (Xenos) والتي تعني «الغريب»؛ لعلّه أيُّ إنسان يعيش التبدلات ولا يتعايش مع المحيط، فيشعر «باغترابه» عن نفسه كلما اتخذ قراراً حتى يعدل عنه، ويجدّد انتماءه للمرض حالما يبلغ شواطئ السلامة.

وبعيداً عن الدلالات الرمزية، فالكاتب نفسه يصف هذه الرواية - في إحدى مراسلاته مع مونتالي - كسيرة ذاتية لا تمتّ له بصلة. إذ من الواضح أنها تستند على تجربته الضيّقة لكنها تأخذ خطاً أوسع لتعالج، أو لتطرح، أزمة وجودية. وحتى لو كان سفيفو قد قال، في مرحلة صمته الأدبي، إنّ الأدب شيء مؤذٍ وغير ذي جدوى؛ لكنه رآه كمحاولة لإنقاذ الحياة وتعويض لها فيما بعد. فالتجربة المعاشة يحفظها الأدب، ويخلّدها بمجرّد نقلها إلى الورق وانتزاعها من موضوعية الزمن. أما الحياة التي لا تروى فهي وحدها التي تفنى. ويرى سفيفو أنّ التجميع الأدبي لشظايا التجارب الشخصية من شأنه أن ينقذها وينجيها من الحياة الحقيقية المرعبة. وتبقى كوميدية مهما كانت تراجيدية. فالكلمة، سواء صادقة أم كاذبة، تحيي كلّ التجارب الماضية من جديد وتنعش كلّ الرغبات التي أجهضها الواقع؛ كأنّ الكتابة تشبه طوق النجاة.

المترجم

1. تقديم

أنا الطبيب الذي يرد ذكره في هذه القصة، أحياناً، بكلمات تفتقر إلى اللطف. ومن يعلم شيئاً عن التحليل النفسي يعرف كيف يصنف الكراهية التي يكنّها لي هذا المريض.

لن أتحدث عن التحليل النفسي، فالكتاب يحتوي عليه بما فيه الكفاية. لكن عليّ الاعتذار لأنني أقنعت المريض بكتابة سيرته الذاتية، فالكثير من الأحداث سوف تثير اشمئزاز الباحثين في علم النفس. ولكنّه كان متقدماً في السن، فاعتقدت أنه سيستعيد نضارته من خلال استحضار ماضيه، وأنّ كتابة السيرة الذاتية قد تكون خير بداية للتحليل النفسي.

وما زلت عند فكرتي هذه لأنها أوصلتني إلى نتائج لم تكن في الحسبان. وربما كانت النتائج في ازدياد لو أنّ المريض لم يتملّص من متابعة العلاج في ذروته، سارقاً مني ثمار جهد طويل في تحليل ذكرياته.

وأنشر ذكرياته هذه انتقاماً منه، وأتمنى أن يزعجه ذلك. ورغم هذا، فليعلم أنني مستعد لأقاسمه المكافآت الرائعة التي سأنالها عن هذه الرواية، شرط أن يستأنف العلاج.

كم كان يبدو فضولياً لمعرفة ما يجري في خلده! ليته يعي حجم المفاجآت التي ستواجهه إذا قرأ التعليق على الحقائق والأكاذيب الكثيرة التي قام بتكديسها هاهنا!..

الدكتور س.

twitter @baghdad_library

2. تومهيد

هل أرى طفولتي وأكثر من خمسين عاماً تفصلني عنها؟!.. قد تستطيع عيناي الوصول إليها إذا كان الضوء - الذي ما زال يرتدّ منها - لا تحجبه الكثير من العوائق، فأيامي وبعض الساعات تبدو كجبال شاهقة.

أوصاني الدكتور - الذي كان سيغادر تريستا في هذه الأيام ولمدة طويلة - أن لا أبالغ في النظر بعيداً. فهو يقدّر الأمور الحديثة أيضاً ولا سيّما أحلام الليل واليقظة. لابدّ لي رغم هذا من ترتيب بعض الأشياء كي أساعده في مهمّته، لذا قررت أن أبدأ من الأصل.

فما إن خرجت من العيادة حتى اشتريت كتيّباً عن التحليل النفسي، وقرأته. ولم يكن صعباً على الفهم، لكنه كان مملاً.

وبعد وجبة الغداء، استلقيت على ديوان مريح، وفي يديّ قلم وورقة. جبهتي تبدو ملساء لأني محوت كل جهد من ذهني، وعقلي يبدو منفصلاً عني: أراه يعلو ويهبط... هذا كلّ ما يفعله. أقبض على القلم كي أذكّر عقلي بمهمّته، وأنّ التفكير وظيفته. وهاهي جبهتي تتجعد لأنّ كلّ كلمة تتألف من حروف عديدة. فيهيمن عليّ الحاضر ويتلاشى الماضي.

حاولت البارحة أن أتجرّد عن أحاسيسي كلها، ولكن المحاولة انتهت بنوم عميق. ولم أجن منها سوى راحة نفسية وحدس عنيد بأني قد رأيت شيئاً مهمّاً أثناء نومي، لكنني نسيته، وضاع إلى الأبد.

وبفضل القلم أبقى يقظاً اليوم. فأتخيّل أموراً غريبة لا تمتّ لأيامي

twitter @baghdad_library

الماضية بصلة: كقاطرة تنفث دخاناً في صعودها وتجرّ عربات لا تحصى، علم الله من أين أتت وأين تمضي ولماذا تصادف وجودها هنا!

وأثناء النعاس أتذكر ما كان يؤكّده الكتيّب بأنّ هذه الطريقة تساعد على تذكّر الطفولة الأولى، أي عندما يكون المولود ملفوفاً في القماط. فأرى على الفور طفلاً ملفوفاً في القماط! ولكن لمَ عليّ أن أكون أنا ذلك الطفل؟ إنه لا يشبهني إطلاقاً. بل قد يكون ابن أخت زوجتي الذي ولد منذ أسبوع بيدين صغيرتين وعينين كبيرتين كأنّه معجزة. يا لك من طفل مسكين! أجل.. سأتذكر طفولتي! ليس بوسعي إخبارك حتى عن جدوى تذكر طفولتك، وأنت تعيشها الآن، كي تحافظ على عقلك وصحتك. متى ستدرك أهمية أن تحفظ حياتك عن ظهر قلب، بما فيها تلك الأيام التي سوف تنوي نسيانها؟ وبينما ستحثّ جسدك الصغير - من دون وعي - على البحث عن السعادة، سوف تودي بك اكتشافاتك اللذيذة في المرض والألم الذي دفعك إليه أولئك الذين لم يرغبوا يوماً بذلك. ما العمل؟ فمن المستحيل أن أراقب المهد الذي تنام فيه.

في صدرك أيها الطفل ستحدث اختلاطات غامضة. فكل دقيقة تمرّ تحمل أموراً جديدة. لديك من احتمالات المرض أكثر مما ينبغي، فليست كل الدقائق صافية. كما أنك سليل عائلة أعرفها جيداً أيها الطفل. فحتى لو كنت تمضي الآن ساعات هنيئة، إلاّ أنّ العقود التي هيّأت لك فرصة الوجود لم تكن كذلك بالتأكيد.

هاأنذا بعيد تماماً عن الصور التي تسبق النوم... سأعيد الكرّة غداً!

3. التدخين

نصحني الدكتور بالقيام بتحليل تاريخي حول جنوحي إلى عادة التدخين عندما تحدثتُ له عن ذلك:

- الكتابة يا سيدي! الكتابة! ستشهد على أهميّتها عندما تنجح في رؤية نفسك بصورة كاملة.

أعتقد أنني أستطيع الكتابة عن التدخين هنا على الطاولة، بدل أن أسترخي على الديوان وأحلم. لا أعرف كيف أبدأ، سأطلب المساعدة من السجائر الكثيرة التي دخّنتها والتي تشبه هذه التي في يدي. بل أذكر أنني اكتشفت شيئاً كنت قد نسيته، وهو أنّ السجائر الأولى التي دخّنتها لم تعد متوفرة في الأسواق. ففي الأعوام السالفة كان هناك نوع نمساوي يباع في علب صغيرة خُتمت عليها علامة النسر ذي الرأسين. تتراءى لي الآن إحدى تلك العلب وقد تجمّعت فيها وجوه عديدة، تكفي ملامحها لأحدد أسماء أصحابها، ولكنها لا تكفي لأكون سعيداً برؤيتها فجأة. أحاول أن أحصل على المزيد، فأجلس على الديوان. وسرعان ما يختفي الأشخاص من مخيّلتي، ويظهر بعض المهرّجين ليسخروا مني، فأعود محبطاً إلى الطاولة.

كان أحد تلك الوجوه لفتى في عمري يدعى جوزيبي، ذي صوت أجش؛ والآخر لأخي الذي يصغرني بعام وتوفيّ منذ سنين خلت. كان جوزيبي يهدينا من تلك السجائر لأنه - كما يبدو - كان يحصل على كثير من المال من أبيه. ولكنني متأكد أنه كان يمنح أخي أكثر ممّا كان

twitter @baghdad_library

يمنحني. ومن هنا قضت الضرورة أن أسعى لإيجاد منهل آخر للسجائر. وهكذا حدث أني سرقت! حيث كان أبي، في فصل الصيف، يترك بزّته في إحدى الغرف. فأقترب من الجيب الصغير الممتلئ دوماً بالنقود، وآخذ منها عشرة قروش كافية لشراء تلك العلبة النفيسة التي تحتوي على عشرة سجائر، فأدخّن الواحدة تلو الأخرى حتى لا أحافظ طويلاً على مكاسب ما سرقته.

تنام هذه الذكريات في أعماقي، وعلى مقربة مني. وهاهي الآن تستيقظ، لأنني لم أعرها أهمية في السابق. عسى أن يُكتب لي الشفاء من هذه العادة القذرة بمجرّد تسجيل بداياتها على الورق! أشعل سيجارة أخيرة للتحقق من ذلك، فقد أتقزّز منها وأرميها حالاً.

ثم أتذكر أنّ أبي فاجأني في أحد الأيام عندما دخل إلى الغرفة ورأى بزّته بين يدي. فقلت له - بسفاهة أشمئزّ من تذكّرها الآن - إنني كنت أعدّ أزرار البزّة لأشبع فضولي. لا أعرف إن كان اشمئزازاً كهذا له دور كبير في العلاج. سخر أبي حينها من ميولي إلى الرياضيات والخياطة، ولم ينتبه إلى أصابعي التي تندسّ في جيب البزّة. كانت تلك السخرية ستكفي لأمتنع بعدها عن السرقة لو أنها موجّهة لبراءتي الجريحة. أي أنني تابعت السرقة، ولكن من دون علمي بذلك. إذ كان والدي يترك نصف سيجار هنا ونصفاً آخر هناك على الطاولات وفوق الخزائن. وكنت أظنّ أنها طريقته الخاصة في رميها، بل كنت واثقاً من أنّ الخادمة كاتينا سترميها مع النفايات. وهكذا كنت أذهب لأدخنها خلسة، ولكنها كانت تصيبني بالقشعريرة والغثيان وتملئ جبهتي عرقاً بارداً حتى عندما اعتدت على تدخينها وأنا على علم بأضرارها. وأخشى أن يقال إنني فقدت عنفوان طفولتي حينها.

أذكر تماماً كيف أشفاني أبي من هذه العادة: ففي يوم صيفي كنت

عائداً من نزهة مدرسية، وكنت متعباً، أتصبب عرقاً. فساعدتني أمي على تغيير ملابسي، ووضعت عليّ غطاء كي أغفو قليلاً على الأريكة نفسها التي كانت تجلس عليها منهمكة بخياطة ثوب ما. وكنت حينئذ أقترب من النوم، لكن عيناي كانتا تتقدان بالنشاط فيتأخر النعاس على النيل مني. إذ كنت أشعر بطبيعة اللذة - آنذاك - في أخذ قسط من الراحة بعد جهد كبير، لدرجة أني ما زلت أشعر باللذة نفسها كلّما تخطر هذه الصورة في ذهني، وكأنني الآن هناك بالقرب من ذلك الشخص العزيز الذي رحل عن هذا العالم.

أذكر جيداً تلك الغرفة الواسعة والمنعشة حيث كنا أطفالاً نلعب فيها، وقد قمنا بتقسيمها في هذه الأيام التي تفتقر إلى الرحابة. وما يثير استغرابي أنّ أخي لا يظهر في هذا المشهد، رغم أنه شارك في تلك النزهة على الأغلب، ولا بدّ أن يشارك في الاسترخاء أيضاً. هل استلقى على الطرف الآخر من تلك الأريكة الكبيرة؟ لا أذكر سوى متعة الراحة وأمي وصوت والدي الذي دخل إلى الغرفة وصاح:

- ماريا!

أشارت أمي إليّ بإيماءة ترافق صوتاً خفيفاً يخرج من شفتيها. فكانت تظنني مستغرقاً في النوم، في حين كنت واعياً لما يحدث حولي. نظر أبي إليّ بينما أصطنع النوم العميق، فأخفض صوته وقال بأسى:

- أعتقد أنني أصبحت مجنوناً. لقد تركت، منذ نصف ساعة، نصف سيجار فوق تلك الخزانة، إني واثق من ذلك. لا أجد شيئاً منه الآن. حالتي تسوء باستمرار. الأشياء تختفي من حولي. هل يعقل ذلك؟

- لم يدخل أحدهم تلك الغرفة بعد وجبة الغداء.

أجابت أمي بصوت منخفض، يكشف عن سعادة كامنة، كي لا

twitter @baghdad_library

توقظني. وهمس أبي:

– وأنا أعرف ذلك جيداً. هذه هي المشكلة! أعتقد أنني جننت.

وغادر أبي تلك الغرفة.

فتحت عينيّ قليلاً ونظرت إليها تواصل عملها وابتسامتها. من المؤكد أنها لم تكن تصدّق ما قاله والدي لتسخر من مخاوفه. ولطالما أثّرت فيّ تلك الابتسامة حتى إنني تذكرتها عندما ارتسمت على شفاه زوجتي ذات يوم.

لم تكن قلّة المال إذن ما أعاقني عن الاستمتاع بهذه العادة السيئة، بل كانت هناك الكثير من التحذيرات التي استطاعت أن تحول بيني وبين تلك المتعة.

أذكر أنني دخنت كثيراً، وأنني لم أترك مكاناً إلا واختبأت فيه لفعل ذلك. وكانت أطول مدة اختباء أذكرها جيداً، بسبب تداعياتها المؤذية على صحّتي، تلك التي رافقني فيها شابان إلى أحد مخازن النبيذ المظلمة. لم أعد أذكر منهما شيئاً سوى زيّهما الصبيانيّ، إذ كانا يلبسان جوارب طويلة تصل إلى صدريهما وتملأ جسدين نحيلين سحقهما الزمن. وكان لدينا الكثير من السجائر، وأردنا أن نعرف من يستطيع أن يدخّن عدداً أكثر في وقت أقلّ. وفزت أنا بالتحدي، ولكنني – وبشيمي البطولية – تظاهرت بعدم شعوري بالوهن الذي سبّبه لي هذا الرهان الغريب. وبعد ذلك خرجنا إلى الهواء الطلق تحت أشعة الشمس. كان عليّ أن أغمض عينيّ كي لا أقع أرضاً من شدة الدوار. وبعد أن استعدت توازني بدأت أفخر بانتصاري. فقال لي أحدهما:

– لا يهمّني إن خسرت في اللعبة، فأنا أدخن للمتعة حصراً.

ما زالت هذه الجملة المفيدة ترن في رأسي، إلا أني لا أذكر شيئاً من وجه الفتى، المفيد أيضاً، والذي ينبغي أن ينظر إليّ في تلك اللحظة.

ولم أعد أعرف بعدئذ إن كان عليّ أن أحبّ أم أكره السجائر ونكهتها والحالة التي كان النيكوتين يدخلني فيها.

عندما عرفت أنه من الأفضل أن أكره السجائر بات وضعي أكثر سوءاً. كان ذلك في سنّ العشرين تقريباً، حين أصبت بألم شديد في الحلق مرافقاً لارتفاع في درجة حرارتي لعدة أسابيع. فوصف لي الطبيب الراحة الكلية في السرير والامتناع التام عن التدخين. تلك العبارة (الامتناع التام) أغضبتني كثيراً! كنت أمرّ بحالة فراغ عدميّ رهيب كي أقاوم به الإلحاح الفظيع الذي ينتج على الفور في ظلّ فراغ آخر.

عندما غادر الطبيب، بقي والدي بقربي بعض الوقت والسيجار في فمه. كانت والدتي قد توفيت قبل عدة سنوات. وقبل أن يخرج هو الآخر لمس جبهتي الساخنة بودّ وقال لي:

– لا تدخّن ثانية، هيّا!

أحاط بي قلق عظيم، ففكرت: (بما أني سوف أقلع عن التدخين لأنه يؤذي صحتي، فإني أرغب أن أدخن للمرة الأخيرة). أشعلت سيجارة، وسرعان ما شعرت بنفسي طليقاً من ذلك القلق رغم أنّ حرارتي ترتفع، ولوزتي الحلق تحترقان على إثر كل سحبة كأنهما تمسّان جمرة ملتهبة. فأنهيت السيجارة كلها بإخلاص من يمارس شعائر دينية. ودخنت بعدها الكثير من السجائر أثناء المرض دون اكتراث بالألم المتزايد. وكان أبي يدخل إلى الغرفة والسيجار في فمه ليقول لي:

– أحسنت فعلاً! اصبر يومين آخرين بدون السجائر وستتعافى!

كانت جملة كهذه كافية لأتمنى أن يخرج أبي فوراً فأدخن سيجارة أخيرة بسرعة. وكنت أتظاهر في بعض الأحيان بالنوم كي أجعله ينسحب قبل أن يدخل إلى غرفتي.

سبّبت لي تلك الوعكة ثاني ما كنت أقلق منه، وهو الجهد الذي

twitter @baghdad_library

بذلته كي أتخلص من القلق الأول. فكانت أيامي تنتهي بسجائر كثيرة وقرارات الإقلاع عن التدخين. بل إنّ هذا الوضع - صراحة - لم يتغير مع مرور الوقت، فظاهرة السجائر الأخيرة التي ابتكرتها في سنّ العشرين ما زالت حيّة. لقد خففت لاحقاً من وطأة القرارات، وغالباً ما كانت ذاتي الحكيمة تصفح عن ضعفي. فعندما يشيخ المرء يصبح أكثر قدرة على السخرية من الحياة ومكوّناتها. وأضيف أنني منذ مدّة أدخن أكثر من السابق سجائر ليست بأخيرة.

أجد على واجهة القاموس إحدى مذكراتي، وقد سجّلتها بكتابة جميلة وخطّ منمّق: (اليوم، الثاني من شباط عام 1886، أنتقل من كليّة القانون إلى كليّة الكيمياء، أشعل السيجارة الأخيرة).

كانت تلك سيجارة أخيرة في غاية الأهمية، تصطحب معها الكثير من الأمنيات. فقد أضجرتني الشرائع والنظم حينئذ، لأنها بدت لي بعيدة عن الواقع والحياة. بينما كنت مندفعاً نحو العلوم التطبيقية لأني رأيت فيها الحياة ذاتها بكل ما فيها من قوارير مخبرية. فكانت تلك السيجارة الأخيرة تعني الرغبة في النشاط اليدوي وفي أن أكون زاهداً وقوياً وذا فكر مطمئن.

وإن كانت رغبتي العارمة في الكيمياء قد أغلقت باب كليّة القانون في وجهي، إلا أنّ تركيبات الكربون باتت تشعرني بالاختناق الذي لا بدّ لي أن أتخلص منه.

للأسف! ارتكبت خطأ في اختياري للكيمياء، وكان هذا الخطأ مسجّلاً بسيجارة أخيرة أيضاً وجدت تاريخها على ظهر إحدى الكتب. لم تكن هذه السيجارة الأخيرة تقلّ أهمية عن سابقاتها. فكنت مستعداً للخضوع ثانية أمام التعقيدات النظرية آملاً في التخلص من الكربون وتركيباته. لقد تبيّن لي أنني لست ملائماً لدراسة الكيمياء، ربما لعدم

كفاءتي العملية. فكيف لي أن أكون ماهراً وأنا أدخن بشراهة الأتراك[1]؟

يراودني شك في هذه اللحظة، وهو أنني أحببت السيجارة كثيراً كي أتّهمها بعجزي. هل كنت سأصبح الرجل المثاليّ القويّ الذي رغبت دوماً أن أكون لو أنني أقلعت نهائياً عن التدخين؟ قد يكون هذا الشك هو الرابط بيني وبين عادتي السيئة، لأنها أسهل الوسائل كي تحيا شاعراً بعظمتك الكامنة. إنني أقدّم هذه الفرضية كي أبرّر ضعف إرادتي عندما كنت شاباً، ولكنني لست مقتنعاً بها تماماً. فما زلت حتى الساعة - وقد تقدّمت بي السن وأصبحتُ غير ذي لزوم - أقضي الوقت متنقلاً بين سيجارة أخيرة وقرار حازم بوقف التدخين. فما الذي تعنيه لي تلك القرارات اليوم؟ ربما لخّصت إحدى شخصيات غولدوني حالتي بقولها: (أريد أن أموت بكامل عافيتي بعد أن عشت عمري كله مريضاً).

ذات مرة كان عليّ أن أنتقل من السكن الجامعي. وكان ينبغي أن أطلي جدران الغرفة من حسابي الخاص قبل أن أخرج منها، لأنني ملأت جدرانها بالتواريخ. ربما تركتُ تلك الغرفة بالتحديد لأنها غدت مقبرة لقراراتي الحازمة، ولم يعد من الممكن أن أكتب المزيد في غرفة يشاركني الآخرون فيها.

أظنّ أنّ السيجارة عندما تكون الأخيرة لها طعم باهر حقاً. حتى السجائر الأخرى لها طعم خاص بها، لكنه ليس مميزاً كالأخيرة. فهي تحتوي على نكهة الشعور بقوة الإرادة وتوحي بغد يفيض بالصحة والعافية. بينما تؤجّل السجائر الأخرى الآمال بالغد الأفضل، ولكنها تمنحك في الآن ذاته شعوراً لذيذاً بالحرية.

(1) في الثقافة الشعبية الإيطالية ارتبطت شراهة التدخين بالأتراك المعروفين بذلك. المترجم.

twitter @baghdad_library

سجّلت تلك التواريخ – على جدران الغرفة – بألوان عديدة، حتى بالزيتية منها. فاللون يصبغ القرار – المتجدد عن حسن نية – بقوّة تعبيريّة صارخة تجعله يتألّق أمام القرار السابق الباهت. وكنت أفضّل بعض التواريخ لما فيها من تناسق بين الأرقام. فأذكر يوماً من القرن المنصرم بدا لي تاريخياً لنعي هذه العادة: (اليوم التاسع من الشهر التاسع لعام 1899). ألا يبدو حاسماً؟ بل وحمل إليّ القرن العشرون تواريخ موسيقية أكثر روعة: (اليوم الأول من الشهر الأول لعام 1901). أقسم أنني سأبدأ حياة جديدة لو عاد إليّ مثل ذلك التاريخ.

ولكن التقويم لا يبخل بالتواريخ الجيدة، ولو أحسنتَ استخدام القليل من الخيال لوجدتَ التواريخ كلّها تصلح لسيجارة أخيرة وقرار حازم. خذ مثلاً هذه التي تحتوي – برأيي – على أمر مطلق[1] عالي الجودة (اليوم الثالث من الشهر السادس في العام 1912 الساعة 24). تبدو كأرقام الفوز التي تتضاعف في لعبة قمار. أما العام 1913 أشعرني بالتردد قليلاً، إذ لا يوجد شهر ثالث عشر يتطابق مع أرقام السنة. وبالرغم من هذا لا تحتاج السيجارة الأخيرة للكثير من الانسجام في تاريخ اشتعالها كي تصبح مهمة. فتأتي أهمية بعض التواريخ التي سجّلتها على كتب ودفاتر مفضّلة من عدم التوافق بين الأرقام. مثلاً: (اليوم الثالث من الشهر الثاني للعام 1905 الساعة السادسة) لهذا التاريخ إيقاعه الخاص، إذا تأملتَ جيداً، فكلّ عدد يناقض العدد السابق. وقد أستعين بالأحداث التاريخية كي أحتفل بقراري الحاسم كوفاة البابا بيوس التاسع، وكعيد ميلاد ابني مثلاً. فتستغرب العائلة من ذاكرتي التي تحفظ الأيام الحزينة

(1) إشارة ساخرة إلى مصطلح فلسفي يدلّ على المبدأ العقلي وأساس نظرية الأخلاق العملية عند كانت. المترجم.

وتلك السعيدة، وتحسبني رجلاً طيباً!

وحاولت أن أعطي معنىً فلسفياً لعقدتي مع السيجارة الأخيرة كي أخفّف من مظهر العقدة الساذج. فعندما تتّخذ موقفاً صارماً تقول: (لن أكرّر هذا ثانية!). ولكن هذا الموقف الصارم يتبدد حالما توفي بما وعدت. فلا يمكنك أن تتخذ موقفاً إلا إذا نكثت عهدك به. ثم إنّ الزمن بالنسبة لي ليس ذلك الشيء الخارق الذي لا يتوقف أبداً. إنه يعود بالنسبة لي، بالنسبة لي فقط.

كي تكون مريضاً عليك أن تكون مقتنعاً بذلك، وأنا ولدت حاملاً معي هذه القناعة. ولو أنني لم أشرحها لطبيب ما عندما كنت في العشرين لما استطعت أن أتذكر منها شيئاً. كم غريب أن نتذكر كلماتنا التي أطلقنا سراحها أكثر من أحاسيسنا التي تبقى أسيرة في قلوبنا!

قيل لي حينها إنّ ذلك الطبيب يعالج الأمراض العصبية بوساطة الكهرباء، فذهبت إليه علّني أشفى من عادتي السيئة. وكان للطبيب كرش كبير وأنفاس لاهثة، توحي بالربو، وترافق طنين الآلة الكهربائية التي استخدمها فوراً في الجلسة الأولى. وهذا ما أثار انتباهي، فقد ظننت أنه سيدرس حالتي أولاً كي يكتشف السم الذي يسري في عروقي. ولكنه أكد لي أنني بصحة جيدة، وأنّ معدتي بحاجة إلى الأملاح لأنني لم أهضم جيداً ما أكلته من قبل، وأنني لم أنم جيداً وهذا ما سبّب تقلصاً في الحركة التمعجية للأمعاء، وكرّر هذه الكلمة الغريبة مراراً حتى لم أعد أنساها. ووصف لي بعض الأدوية التي دمّرتني فيما بعد، وما زلت أعاني من الحموضة القاسية بسببها.

أردت مساعدة الطبيب، عندما أدركت أنه لن يتوصل لوحده أبداً إلى مسألة النيكوتين، فعبّرت عن شكوكي في تشخيص وضعي السيئ. ولكنه رفع كتفيه مستخفاً:

twitter @baghdad_library

– تقلص تمعجي في الأمعاء... نقص في الأملاح... هذا ما لديك... لا علاقة للنيكوتين!

أجريت عنده سبعين جلسة إلكترونية. ولو أنني لم أحكم بكفايتها لكان الطبيب سيجريها حتى اليوم. ولم أكن أنتظر معجزة توحي له بإيجاد حل لمشكلتي، فكنت أركض إلى الجلسات آملاً بإقناعه بأن يمنعني عن التدخين. ومن يعلم كيف كانت ستجري الأمور لو أنّ قراراتي شجّعتني على وقف التدخين! ووصفت له مرضي ذات مرة: (إنني لا أركّز في دروسي، ولا أستطيع النوم حتى ترنّ أجراس الكنائس. ولهذا السبب فقط أراني أتخبط بين كليّة القانون والكيمياء، فكلا العلمين يتطلّب نظاماً معيّناً يبدأ في ساعة معينة، وأنا لا أستطيع أن أحدد الساعة التي أستيقظ فيها). فأجابني حكيم الزمان وعيناه تحدّقان في ساعة الحائط بدل أن ينظر إلى مريضه: (الكهرباء تشفي من كل أنواع الأرق).

توصلت في نهاية المطاف للحديث معه كما لو كان خبيراً في التحليل النفسي الذي كنت أستلطفه للتو. قصصت عليه مأساتي مع النساء. فلم تكن تكفيني واحدة، ولا الكثير منهن. بل كنت أشتهيهن جميعاً! كنت أرتبك في الشارع بشدة، فالنساء ملكي كيفما كنّ. فأحدّق فيهنّ طويلاً بوقاحة تعكس احتياجي لأن أكون همجياً. وأعريهنّ في مخيّلتي تاركاً لهن أحذيتهن، ثم أعانقهن حتى أتبيّن معرفتي بهن جميعاً.

وعندما كنت أبلغ الصراحة القصوى، كان الطبيب يقاطعني متنهداً: (أتمنى أن لا تشفيك الجلسات الكهربائية من هذه المأساة. أتعلم؟ إنني لن أمسّ تلك الآلة إذا حرمتني من إحساس كهذا).

فروى لي حكاية تعجبه كثيراً عن شخص نزلت به مأساة مشابهة، فذهب إلى طبيب شهير وتوسل إليه الشفاء. وعندما استطاع الطبيب شفاءه

هاجر البلاد نهائياً، لأنّ المريض توعده بالقتل إذا فشل في علاجه... وعندها صرخت: (لكن الإثارة التي تضطهدني ليست طبيعية، وإنما بسبب النيكوتين الذي يتغلغل في عروقي!). فهمس الطبيب بهيئة رجل حصيف: (لا أحد يرضى بما كُتب له).

وشرعت أقنعه بأساليب لا تروق له، كتوصيفي لبعض أعراض المرض: (الشرود أيها الطبيب! يمنعني الشرود أيضاً عن الدراسة. فكنت أحضّر بعناية لبعض الامتحانات الرسمية. ثم اكتشفت أنني درست ما عليّ تقديمه في الأعوام القادمة، فأجّلت الامتحانات كلها. ولا أخفيك أنني لم أدرس بما فيه الكفاية تلك النصوص التي درستها بالخطأ، لأنني انشغلت ببنت جيراننا التي لم تسمح لي بمغازلتها طويلاً. فكنت أنسى امتحاناتي عندما تطلّ من النافذة. أليس طائشاً من يقضي وقته هكذا؟)

– مازلت أذكر وجهها الأبيض الصغير وشعرها الأشقر المتمايل، وكم حلمت بضمّها على مخدتي.

فقال الطبيب: (في مغازلة النساء لذة حقيقية. لن تستطيع مغازلتهن عندما تصبح في سني).

ولكنني تأكدت مؤخراً أنّ الطبيب لا يفقه شيئاً في فن الغزل. فها أنا تجاوزت الخمسين عاماً، وما زلت على يقين أنني إن لم أقلع عن التدخين أو لم يشفني الطب النفسي فسأعبّر جيداً عن رغبتي في الممرضة التي ستشرف عليّ قبل مماتي؛ إن سمحت لي زوجتي طبعاً.. وربما تكون زوجتي ذاتها.

كنت أصارح الطبيب كأني أعترف في الكنيسة. لم تكن تعجبني المرأة كاملة، بل كل جزء منها على حدة. فأعشق الساقين تحت الجوارب الأنيقة، وأهوى العنق النحيف والمشدود والنهدين الخفيفين. وكنت أستمر في تعداد الأعضاء النسائية إلى أن قاطعني قائلاً: (لكن هذه

twitter @baghdad_library

الأجزاء تجعل من المرأة كاملة). فقلت حينها جملة مهمة:
– إنّ الحبّ الحقيقيّ هو الذي يجعلك تعانق امرأة واحدة كاملة، بما فيها شخصيتها وذكاءها.

وحتى ذلك الحين لم أكن قد عرفت حباً حقيقياً، وحتى عندما صادفته لاحقاً لم يتمكن من معالجتي. لكن الأهم هو أنني تابعت بحثي عن الشفاء إلى أن وجدت حكيماً متفائلاً استطاع التحقق من تحليلي الشخصي للآفة.

عثرت على صديق لا يمتهن الطب، لكنه استوعب حالتي. لم أحصل منه على فائدة كبيرة، لكنه استطاع أن يمدّني بآرائه التي ما زالت ترافقني حتى الآن.

كان صديقي سيّداً ثريّاً يقضي وقت فراغه في نشاطات أدبية. لكن حديثه كان أفضل بكثير من كتاباته، لذا خسر العالم فرصة الاطّلاع على هذا الأديب. كان ضخماً وسميناً، يمارس حمية بنشاط مذهل عندما تعرّفت عليه. وتوصّل بأيام قليلة إلى نتائج عظيمة جعلته محطّ أنظار الجميع. وكان يغيظني لأنه يفعل جيداً ما يريد، فصرت أتردد إليه طوال مدة علاجه. وكان يسمح لي بتلمّس بطنه التي تنحف يوماً بعد يوم. فأردت أن أثبط من عزيمته حسداً على نجاحه:
– وماذا ستفعل بهذا الجلد كله حينما تنتهي من الحمية؟

فأجابني بهدوء يجعل من وجهه النحيف مضحكاً:
– سأباشر دورات التدليك بعد يومين.

كان أسلوبه في العلاج يراعي أصغر التفاصيل، وكان دقيقاً جداً في مواعيده. فوثقت به وشرحت له علتي. قلت له إنني لا أجد صعوبة بتناول وجبة واحدة يومياً، على أن أتوقف عن التدخين، فأضطر لأخذ هذا القرار المرهق ذاته في كل لحظة. وما دمت أتّخذ قراراً كهذا فلا

يدور في ذهني سواه، فوحده يوليوس قيصر كان بوسعه القيام بأشياء متعددة في الآن ذاته. حمداً للسماء أنّ أحداً لا يسألني إن كنت أعمل عندما كان الوكيل أوليفي حياً؛ وكيف يمكن أن يكون شخص مثلي لا يعرف إنجاز شيء في هذه الحياة سوى الأحلام أو الدندنة على الكمنجة التي لا تجذبني أبداً؟

لم يجبني صديقي حينها، لأنه كان شخصاً جدّياً وعليه أن يفكّر مليّاً قبل أية إجابة. ثم قال لي، بصيغة تليق بأستاذ جامعي، إنّ مرضي الحقيقي لم يكن في التدخين، إنما في قراري بالتوقف عنه. فكان عليّ إذن أن أترك التدخين دون اتّخاذ قرار بشأنه. وأضاف أنني أمتلك شخصين في أعماقي تشكّلا مع مرور الوقت، أولّهما قياديّ وثانيهما ليس إلاّ عبداً للأول، وأنّ العبد يطمح للحريّة كلّما شعر بنقص سيطرة القائد. إذ يجدر بي أن أترك للعبد الحرية المطلقة، وأن أواجه عادتي السيئة بقوة كأنني لم أعرفها من قبل. فليس عليّ أن أحاربها، بل أن أتجاهلها وأنسى أنني هجرتها كما لو كانت رفيقاً أخلّ بصداقته. (أمرك بسيط، أليس كذلك؟).

وفعلاً بدا لي الأمر بسيطاً. واستطعت أن أتناسى السجائر لساعات باذلاً جهداً جباراً في تناسي قراري. ولكنني شعرت بعدئذ بطعم غريب في فمي، ربما يشبه ما يشعر به الطفل الرضيع، فاشتهيت سيجارة. وبعد أن دخنتها ندمت كثيراً، وجدّدت العهد الذي أردت التخلص منه.

وتعددت الوسائل وكانت النتيجة نفسها.

أمدّني السيد أوليفي، وكيل الأعمال اللعين، بفكرة تنصّ على تحصين القرار عبر الرهان. لم أغيّر نظرتي بهذا الرجل أبداً. ولطالما رأيته عجوزاً محدودباً لكنه قوي، كما أراه الآن وقد بلغ الثمانين من العمر. وكنت أكرهه لأنه تولّى إدارة شؤوننا المالية. كان يعمل لأجلي

twitter @baghdad_library

وما زال، لكنني لا أحبه لأنه أعاقني عن تسلّم صلاحياته كما أعتقد.

وكان الرهان أن يدفع أحدنا مبلغاً طائلاً من المال للآخر إذا استسلم ودخّن قبله، ثم يذهب كل واحد منّا في سبيله. إذ أراد أن يسحب ما استطاع من تركة والدتي التي أديرها أنا شخصياً، بعد أن أرغمني على عدم تبذير تركة والدي.

أصابني ذاك الرهان بالهلاك، إذ لم أكن أتأرجح بين سيد وعبد يتناوبان. بل لم أعد إلاّ عبداً ذليلاً للسيد أوليفي الذي أكره. دخّنت سيجارة بغضب شديد. وعزمت على أن أخدعه بالتدخين خلسة، لكني لم أعد أرى نفعاً في الرهان حينئذ. فبحثت عن تاريخ يتوافق جيداً مع تاريخ الرهان كي يبدو أنّ السيد أوليفي دخن سيجارة أخيرة معي أيضاً. وبعد ذلك وصلت إلى حالة لا تطاق من التفكير بالأمر وبرغبتي الجامحة في التدخين. فذهبت إليه واعترفت باستسلامي لأتخلص من ثقل تلك الحالة. فوضع العجوز المال في جيبه وابتسم. وسرعان ما أخرج سيجاراً ضخماً من جيبه الأخرى وأشعله فرحاً بانتصاره. ولم أشكّ لوهلة أنه قد غشّ في الرهان، فمن الواضح أنّ الآخرين يختلفون عني كليّاً.

أتمّ ابني سنواته الثلاث عندما خطرت في بال زوجتي فكرة حسنة. اقترحت عليّ أن أقفل على نفسي في مصحّة كي أتخلّص من عادة التدخين. فوافقت على الفور، لأني أردت أن أكون شخصاً متّزناً قبل أن يصبح ابني قادراً على الحكم عليّ. بل كان السبب الأهم هو أنّ حالة السيد أوليفي الصحية تدهورت، وكان يهدد بالاستقالة، مما يجعلني مرغماً على تولّي مهامه حينما اعتبرت نفسي غير كفء على عمل كهذا وأنا أحمل ذلك النيكوتين كله في جسدي.

فكّرنا أولاً في الذهاب إلى سويسرا، بلد المصحّات التقليدي. ولكننا علمنا أنّ طبيباً يدعى مولي كان قد افتتح مصحّة في تريستا.

فكلّفت زوجتي بمتابعة الموضوع. واقترح الطبيب عليها أن يضعني في شقّة صغيرة في المصحّة تحت رقابة ممرضة يساعدها آخرون أيضاً. وكانت زوجتي لا تكفّ عن الضحك على فكرة أن أكون محتجزاً، وكنت أضاحكها من قلبي على فكرتها الممتعة هذه. فكانت المرّة الأولى التي تساعدني فيها على محاولات العلاج. إذ لم تكن تحمل علّتي على محمل الجدّ، بل كانت ترى في التدخين أسلوباً غريباً في الحياة لا يسبّب الملل لصاحبه. أظن أنها استغربت مني لأنني لم أتحسّر أبداً على حريتي الضائعة من زواجي بها، فكانت تشغلني أمور أخرى أتحسّر عليها.

حضرنا بعض الملابس، وترجهنا فوراً إلى المصحة في اليوم الذي أمهلني فيه وكيلي شهراً واحداً لأستلم مهامه.

استقبلنا الطبيب على باب المصحة. كان شاباً جذّاباً يقظاً، تلمع عيناه السوداوتان وبشرته السمراء تحت شمس الصيف الحارقة، وكانت ثيابه الناصعة تشهد على أناقته من حذائه حتى ياقته. لقد نال إعجابي، كما نلت إعجابه طبعاً. وشعرت قليلاً بالحرج عندما أدركت سبب إعجابه بي، فقلت له:

– ألا تقدّر سيادتك إذن ضرورة العلاج أو مدى الجديّة التي أتحلّى بها؟

فأجابني بابتسامة جرحتني رغم رقّتها:

– ولم لا يا سيدي؟ قد يكون التدخين ضاراً بالنسبة لك أكثر مما نعتقد نحن الأطباء. ما لا أفهمه هو أنك لم تخفف من عدد السجائر التي تدخنها بدلاً من الانقطاع المفاجئ عن التدخين. لك أن تدخن ولكن دون أن تبالغ في هذا.

وفي حقيقة الأمر لم أكن قد فكرت يوماً في تخفيف التدخين عندما كنت أرغب في وقفه نهائياً. ولكن توقيت هذه النصيحة لم يضعف إلاّ

twitter @baghdad_library

من قراري، فقلت بحزم:

- دعني أجرّب هذه الطريقة في العلاج بما أنني جئت حتى هنا.
- تجربة؟ - وضحك الطبيب بنبرة مستعلية - على العلاج أن يستمرّ حتى ينجح بما أنك تهيّأت له. لن تستطيع الخروج من هنا إلاّ إذا استخدمت عضلاتك بالتشاجر مع جوفانا المسكينة. ولن يدوم أيّ إجراء تتّخذه للخروج أكثر من مدّة العلاج نفسها.

توجّهنا إلى الشقّة بالعودة إلى الطابق الأرضي بعد أن صعدنا إلى الطابق الثاني.

- أرأيت؟ ذلك الباب المغلق يمنع الذهاب إلى الجانب الآخر من الطابق الأرضي حيث يوجد المخرج. لا أحد يملك مفتاحه، حتى الممرضة جوفانا نفسها. إنها تصعد إلى الطابق الثاني إذا أرادت الخروج، وتملك وحدها مفاتيح الباب الذي يوصل إلى ذلك البهو. وثمة مراقبون في الطابق الثاني على أيّ حال. لا بأس بهذه المصحة المجهّزة للأطفال والنسوة النفساوات، أليس كذلك؟

ضحك الطبيب حينئذ، ربما لفكرة احتجازي بين الأطفال. ونادى جوفانا وقدّمني إليها قائلاً: (إنه السيد الذي ستستعدّين لمشاجرته).

كانت جوفانا سيدة في عمر يصعب تحديده، يتراوح بين الأربعين والستين عاماً. وكان لعينيها الصغيرتين بريق حادّ، ولشعرها لون رماديّ كثيف.

رمقتني جوفانا، ثم تضرّج وجهها وصرخت بصوتها الرفيع: (سأفعل ما عليّ فعله، لكني لن أستطيع مشاجرتك حقاً. وإذا حاولت أن تهدّدني سأنادي الممرّض ذا البنية القوية. وإذا لم يأت على الفور سأدعك تذهب حيث تشاء، فأنا لا أريد أن أخاطر بحياتي).

أدركت أنّ الطبيب قد أوكل إليها هذه المهمّة مع وعده لها بصرف مكافأة مادية كبيرة، وهذا ما جعلها تبدو قلقة جداً. ولكن كلماتها أثارت حفيظتي، فاتخذت موقفاً مناسباً بكامل إرادتي وصرخت ملتفتاً إلى الطبيب: (ومن قال لهذه السيدة إنني سأهاجمها؟ أريد منك أيها الطبيب أن تحذرها بعدم إزعاجي أبداً. لقد أحضرت معي بعض الكتب، وأرغب في كمية هائلة من السلام).

صار الطبيب يؤنّب جوفانا التي أرادت أن تعتذر، فاستمرت في مهاجمتي:

- لديّ طفلتان صغيرتان، وأريد أن أعيش.
- وأنا لا يشرّفني أن أمزّقك إرباً. - أجبت بنبرة لا تساعد على تهدئة الممرضة المسكينة.

أراد الطبيب أن يبقيها بعيدة، فطلب منها أن تحضر شيئاً ما من الطابق العلوي. ثم استدار إليّ وعرض شخصاً آخر يحلّ محلّها كي يهدئ من روعي، ولكنه أضاف: (إنها ليست امرأة شريرة. ولن تسبب لك المزيد من الإزعاج لأنني أوصيتها أن تكون أكثر لطفاً).

فوافقت على تحمّلها، رغبة في إبداء عدم اكتراثي بمن يراقبني مهما كان. وشعرت بحاجتي إلى الراحة، فأخرجت من جيبي السيجارة ما قبل الأخيرة، ودخنتها بشغف. وقلت للطبيب إنني حملت معي سيجارتين فقط، لأنني قررت الإقلاع عن التدخين في تمام منتصف الليل. خرج الطبيب وزوجتي التي قالت مبتسمة: (حسناً. تماسكْ إذن بما أنك قررت هذا!).

بدت لي ابتسامتها، التي أحببتها دوماً، ساخرة. فشعرت في تلك اللحظة بإحساس جديد نشأ عن يقيني بأنّ محاولة جدية كهذه سيكون مآلها الفشل دون ريب. وأحسست بصداع، لم أدرك سببه إلاّ عندما وجدت نفسي وحيداً. وكان ذلك إحساساً بالغيرة القاتلة من الطبيب

twitter @baghdad_library

الشاب. إذ كان طليقاً ووسيماً، تشبّهه الناس بعذراء الإغريق[1]. فما الذي يمنع زوجتي من الوقوع في غرامه؟ لقد رأيته يمعن النظر في قدميها الأنيقتين عندما خرجا. ولكنها كانت المرّة الأولى التي أشعر فيها بالغيرة منذ أن تزوجت. يا للتعاسة! شعرت بالتعاسة نظراً لما كنت عليه من سجين وضيع. ثم قاومت ذلك الشعور، وأقنعت نفسي أنّ ابتسامة زوجتي كانت تلك المعتادة ولم تكن لتسخر مني لأنها عرفت كيف تبعدني عن المنزل. فكانت هي صاحبة الفكرة رغم أنها لم تكن تعطي أهمية لإدماني على التدخين، ولكنها فعلت ذلك كله لتشعرني بالرضا. وتذكرت أنه من الصعب أن يعشق الطبيب زوجتي. وإذا كان قد حدّق في قدميها، فلأنه فكّر بالتأكيد بشراء حذاء يناسب قدمي عشيقته. ودخنت السيجارة الأخيرة على عجل قبل منتصف الليل، في الساعة الحادية عشر التي لا تصلح مطلقاً لسيجارة أخيرة.

اخترت كتاباً، وقرأت دون تركيز، بل إنّ بعض الرؤى أخذت تراودني. فكلما أمعنت النظر في صفحة ما، امتلأتْ بصور الطبيب وأمجاده في الأناقة والجمال. فلم أستطع المقاومة، واستدعيت الممرضة علّني أبدّد الوقت في الثرثرة.

جاءت الممرضة، ورمقتني بارتياب، وصرخت بصوتها الحاد: (إياك أن تفكر في إقناعي بأشياء منحرفة!). أردت طمأنتها فكذبت عليها قائلاً إنّ هذه الأشياء لا تخطر في ذهني إطلاقاً، وإنما مللت من القراءة وفضّلت أن أدردش معها فحسب.

(1) La Venere De› Medici : تمثال من المرمر لإلهة الخصب أفروديت في الميثولوجيا الإغريقية، ويعدّ عملاً خالداً. وُيعرف باسم عذراء ميدتشي لأنّ أميراً من هذه الأسرة النبيلة أمر بنحته ليضعه في حديقة داره في مدينة فلورنسا في القرن السابع عشر. المترجم.

جلسنا وجهاً لوجه. وأثار تقززي وجهُها العجوز ونظراتها المضطربة، التي تشبه نظرة الحيوانات الضعيفة. كم أشفقت على نفسي وأنا أجاهد في تحمّل مثل هذه الرفقة! لكنني لا أعرف اختيار الرفاق حتى في الأحوال العادية، فغالباً ما كانوا يختارونني أولاً ويتأقلمون معي كما فعلت زوجتي تماماً.

توسلت إلى جوفانا أن تسلّيني قليلاً، ولكنها أكّدت لي أنّ لا شيء يجول في بالها قد يستدعي اهتمامي. فطلبت منها أن تحدثني عن عائلتها على الأقل، مبرراً أنّ لدى كل إنسان في هذا الكون عائلة أو أكثر. فاستسلمت حينها وبدأت تحدثني كيف أجبرت على وضع ابنتيها في مدرسة للفقراء. أصغيت إليها برحابة صدري كلها، وأضحكتني فكرة تخيّلها حاملاً لثمانية عشر شهراً باستعجال شديد. لكن الفكرة لم تدم طويلا، فسرعان ما أظهرت طبعها العنيف، وما عدت أطيق الإصغاء إليها، خاصة عندما حاولت إثارة عواطفي. فبدأت تتذمر من قلّة المعاش، وأنّ الطبيب كان مخطئاً عندما قال لها إنّ كرونين اثنين في اليوم تكفيان لتستقبل مدرسة الفقراء عائلتها كلها. وراحت تعدد لي أشياء كثيرة كان عليها أن توفرها لابنتيها كالطعام والملابس. فأردت تغيير الموضوع كي أصون أذني من مأساتها التي أستحق عليها مكافأة لشدة تألّمي بسماعها. فقلت لها: (ألا أستطيع الحصول على سيجارة؟ سيجارة واحدة لا غير! أعدك بدفع عشرة كرونات بالمقابل. ولكن غداً، فلست أملك قرشاً واحداً الآن). فذهلت جوفانا من العرض الذي أخافها. وبدأت تصرخ، وأرادت أن تستدعي الممرّض ذي البنية القوية.

تراجعت عن اقتراحي فوراً علّها تغلق فمها. وسألتها إن كان يوجد في هذا السجن ما يُشرب، كي أتّقي غضبها وتعود إليّ رصانتي. فسارعت في إجابتها، ولكن بنبرة أخرى - فاجأتني - ومن دون صراخ: (وكيف

twitter @baghdad_library

لا! لقد أعطاني الطبيب قبل أن يغادر زجاجة كونياك. هاهي لم يمسسها أحد. انظر!).

لم أر سبيلاً آخر في الخلاص من ذلك الظرف سوى السكر. هذا ما أوصلتني إليه ثقتي بأفكار زوجتي! فلا يعقل أنّ حالة الإدمان على التدخين تستحق الوصول إلى ما وصلت إليه حينها. فقد مرّت نصف ساعة على سيجارتي الأخيرة، ولم أفكر بها مطلقاً إذ انشغلت بغيرتي من الطبيب. شفيت من الإدمان كلياً إذن؛ ولكني غدوت أضحوكة دون أمل بالشفاء.

نزعتُ غطاء الزجاجة وسكبت كأساً. وكانت جوفانا تحدّق بالمشروب بلهفة، لكني ترددت في عرضه عليها.

— هل لي بزجاجة أخرى إذا أفرغت هذه؟

فأجابتني بتلك النبرة الهادئة: (طبعاً! فالسيدة التي تدير المخزن ستغادر بعد قليل). سكبت لها الكأس حتى فاض، لأني لم أكن أعاني من البخل يوماً.

ولم تكد تشكرني حتى شربت الكأس كله، ونظرت إلى الزجاجة بعينين ماكرتين. فأردت أن أسكرها وكانت هي من ألهمني هذه الفكرة. ولم يكن تحقيقها بالأمر اليسير عموماً.

لم أعد أذكر بالضبط ما قالته الممرضة بلهجتها التريستية الصافية بعد أن شربت كؤوساً كثيرة، لكنني امتلكت الانطباع بأني لو لم أكن منشغلاً في مخاوفي لبقيت جالساً أصغي إليها طويلاً وبسرور. إذ اعترفت لي قبل كل شيء أنّ هذا العمل هو الذي كانت تتوق إليه. فجميع البشر يستحقون قضاء ساعتين وأكثر كل يوم على كرسي مريح ليشربوا خمراً جيد الصنع.

حاولت أن أحادثها فسألتها إن كان عملها منتظماً بهذا الشكل

عندما كان زوجها حياً، فانفجرت من الضحك. وأخبرتني أنّ زوجها كان يضربها أكثر مما يعانقها، مما جعل أي عمل يبدو كنقاهة، حتى قبل وصولي إلى المصحّة.

ثم نذرت نفسها للتأملات، وسألتني إن كنت أؤمن بأنّ الموتى يرون ما يفعل الأحياء. فأجبتها بنعم، ولكنها كانت تود التأكد إن كان الموتى، عندما يصلون إلى العالم الآخر، يعرفون كل ما حدث عندما كانوا أحياء. فاستوقفني السؤال لوهلة، وكانت تتحدث بصوت عذب أشعرني بحضور الموت حقاً.

- هل خنت زوجك سيدتي؟

طلبت مني أن أخفض صوتي، ثم اعترفت بخيانتها له في الأشهر الأولى من الزواج، وبعد أن اعتادت عليه قررت أن تحبه.

- هل كانت ابنتك الأولى من الرجل الآخر إذن؟

فأجابتني بصوت منخفض أيضاً أنها عرفت ذلك لأنّ البنت تشبه عشيق أمها كثيراً. وكانت الخيانة تؤلمها جداً إلى درجة الضحك، فهذه الأمور مضحكة حتى عندما تسبّب الألم. وسرى مفعول هذا الألم عندما توفيّ زوجها، لأنها لم تكن تعير الأمر أهمية من قبل. فأردت أن أهوّن عليها، بعطف أخوي، وقلت إنّ الأموات يعرفون كل شيء، لكنهم قد لا يكترثون لبعض الأمور. وهتفت ضارباً قبضة يدي على الطاولة: (وحدهم الأحياء يتألمون!).

أحسست برضّة في يدي، وما من شيء أفضل من ألم جسدي يلهمك أفكاراً جديدة. خطر ببالي أنّ الطبيب قد يكون في المصحة بينما تستغلّ زوجتي فترة غيابي لتخونني. وقد تعود إليّ راحة البال إذا صدّقت في هذا التخمين. فطلبت من ممرضتي أن ترى إن كان الطبيب موجوداً، مبرراً بحاجتي إلى التحدث إليه، وقد عرضت عليها

twitter @baghdad_library

زجاجة الكونياك كاملة بالمقابل. اعترضت على العرض لأنها لا تحب أن تبالغ في الشرب. لكنها أسدت لي الخدمة، وقامت بتسلق الدرج مترنحة حتى الطابق الثاني. وعادت على الفور، وتزحلقت محدثة ضجة كبيرة. فهمستُ بحماس: (فليمحقك الشيطان!). لو كسرت عظام رقبتها لوفّرت عليّ عناء كبيراً.

دخلت إليّ باسمة لأنها كانت تعيش حالة تلك الآلام غير المؤلمة بالضرورة. وقالت لي بمكر - رافعة يدها وإصبعاً مشدوداً مهددة - إنها تحدثت مع الممرض، وكان يريد أن ينام، لكنه أكّد استعداده لمواجهتي في حال أصبحت شريراً. ثم أضافت بفتور أنّ الطبيب لم يعد إلى المصحة منذ الساعة التي خرج فيها مع زوجتي. منذ تلك الساعة بالضبط! بل كان الممرض يتمنى أن يعود الطبيب لأنّ أحد المرضى بحاجة إليه، أما الآن فلم يعد يتمنى الممرض ذلك.

أردت أن أتفحص ما إذا كانت ابتسامتها، التي تنسجم مع وجهها، مبتذلة أم أنها عائدة إلى الطبيب الذي يقضي وقته مع زوجتي بدل أن يكون معي، وأنا مريضه. فأحاطني غضب جعل رأسي يدور. عليّ أن أعترف، كما فعلت دوماً، أنّ في داخلي يتصارع شخصان، أولهما، العقلاني، كان يقول لي: (أيها الأبله! لماذا تظن بزوجتك ظناً سيئاً؟ إنها ليست بحاجة لأن تبقيك حبيساً في المصحة كي تستغل الفرصة)؛ وثانيهما، ومن المؤكد أنه الذي كان يحلم بسيجارة، قال لي: (أيها الأبله! ألا تذكر الراحة التي يجنيها الشريك في غياب شريكه؟ ومع من؟ مع طبيب يتلذذ بأموالك!).

قالت جوفانا بعد أن أنهكها المشروب: (نسيت باب الطابق الثاني مفتوحاً، ولم أعد قادرة على الصعود مجدداً. ثمة بعض الأشخاص هناك، وسيكون مظهرك رائعاً وأنت تحاول الهرب). فأجبت بقليل من الرياء

كاف لخداع تلك المسكينة: (لقد تغلغل الكثير من الكونياك في دمي، ولم أعد أهتم بالسجائر حقاً!). صدقتني بسرعة، فقلت لها إني لست من كان يود التخلص من التدخين، بل كانت زوجتي. فعندما أدخن السيجارة العاشرة أصبح مقرفاً للغاية. وإنّ أي امرأة تقترب مني كانت ستواجه خطورة في ذلك. فقهقهت جوفانا وقالت مستلقية على الكرسي: (إنها زوجتك إذن من يمنعك عن تدخين السجائر العشر التي ترضيك!).

– أجل، إنها كذلك. كانت تحرّم التدخين عليّ على الأقل.

لم تكن جوفانا غبية عندما تثمل. افتعلت ضحكة عنيفة كادت أن توقعها أرضاً. وعندما عادت إليها أنفاسها، رسمت بجمل متباعدة لوحة رائعة تعبّر عن مرضي: (عشر سجائر... نصف ساعة... نضغط العداد... ثم نتابع...).

فصححت لها: (أحتاج لحوالي الساعة كي أدخن عشرة سجائر، وأحتاج لساعة أخرى تقريباً كي أنتظر تأثيرها الكامل). فاستعادت جديتها ونهضت فجأة دون جهد كبير، وقالت إنها تفضل الذهاب إلى النوم قبل أن يباغتها صداع في الرأس. فعرضت عليها أن تأخذ زجاجة الكونياك معها لأني أخذت حاجتي من هذا المشروب، وطلبت منها بنفاق مكشوف أن تأتيني في الغد بزجاجة من النبيذ الممتاز. ولكنها لم تعر ذلك اهتماماً، بل رمقتني بنظرة شريرة أرهبتني، قبل أن تخرج والزجاجة تحت إبطها.

تركت باب شقتي مفتوحاً. وبعد لحظات وجدت علبة سجائر في وسط الغرفة، فحملتها وفتحتها بسرعة. كانت تحتوي على إحدى عشر سيجارة تماماً من تلك السجائر الهنغارية العادية، ملأتها المسكينة لتطمئنّ أكثر. ولكن أول سيجارة دخنتها كانت لذيذة للغاية، فاجتاحتني طاقة إيجابية على الفور. إذ أعجبت بنفسي لأني نجحت في التهكم من هذه المصحة التي تصلح لحبس الأولاد المشاكسين وليست لشخص مثلي.

twitter @baghdad_library

ثم اكتشفت أني نجحت في التهكم من زوجتي بانتقامي منها شر انتقام، إذ تحوّلت غيرتي إلى فضول يمكن تحمّله. جلست مطمئناً في ذلك المكان أدخن ما تبقّى من تلك السجائر الكريهة.

بعد حوالي النصف ساعة تذكرت أنّ عليّ الهروب من هذه المصحة حيث تنتظر مني الممرضة مكافأة ما. فخلعت حذائي وخرجت إلى الممر. وكان باب غرفتها موارباً، وبدا لي أنها نائمة لأني سمعت انتظام أنفاسها العالية. صعدت بحذر شديد إلى الطابق الثاني، ولبست حذائي خلف ذلك الباب الذي يفتخر به الطبيب مولي. خرجت إلى البهو، ثم نزلت الدرج بهدوء كي لا أثير الشكوك. وعندما وصلت إلى بهو الطابق الأول لحقت بي ممرضة شابة أنيقة، وسألتني باحترام: (هل تبحث عن أحدهم سيدي؟). كانت جميلة حقاً ولم يكن لديّ مانع من تدخين السجائر المتبقية بالحديث معها. ابتسمتُ بعدوانية: (أيمكنني التحدث إلى الطبيب مولي؟). فاستغربت بشدة: (لا يوجد الطبيب في هذه الساعة المتأخرة أبداً). تابعت: (أيمكنك أن تقولي لي أين أعثر عليه الآن؟ ففي بيتي مريض بأشد الحاجة إليه). أعطتني عنوان بيته بلطف، فكررته أمامها أكثر من مرة لأقنعها بجدية ما كنت فيه. ولم تكن في نيّتي العجلة لولا أنها استدارت بفتور وذهبت إلى شأنها. كان عليّ أن أخرج حتى من السجن مطروداً!

لم يكن في جيبي قرشاً واحداً أمنحه للبوّاب، فهمست بإذنه: (سأمنحك الإكرامية في المرّة القادمة).

لا يستطيع أحد تكهّن المستقبل، ولكن الأمور عندي في تكرر دائم، إذ لم أكن أستبعد أنني مررت في حالة كهذه من قبل.

كان الليل حاراً وساكناً، فخلعت قبعتي لأشعر بالحرية. نظرت إلى النجوم بإعجاب، كأنني أمسكتها بيدي منذ برهة... فقد أقلع عن التدخين

غداً، بعيداً عن تلك المصحة. مررت من إحدى المقاهي الساهرة لأحصل على علبة سجائر فاخرة، إذ ليس من المعقول أن أختم مسيرتي كمدخن أصيل بإحدى سجائر جوفانا البائسة. وكان البائع يعرفني جيداً، فاستدنت منه ثمن العلبة.

وصلت إلى منزلي وقرعت الجرس بانفعال. وأطلّت الخادمة من النافذة، فشعرت بفتور شديد أنّ الطبيب موجود في بيتي. ثم أطلّت زوجتي التي ما إن عرفتني حتى أطلقت ضحكتها الرنانة في الحي الهادئ، وكانت كافية لتمحو الشكوك من مخيلتي.

ومع هذا لعبت دور المحقق في المنزل. ووعدت زوجتي بقصّ ما حدث لي من مغامرات ظنت أنها تعرفها كلها في الغد. سألتني:

- لمَ لا تنام؟

- يبدو أنك انتهزت فرصة غيابي لتغيّري موقع هذه الخزانة. - تعلّلت بذلك.

أعرف جيداً أنّ زوجتي تغيّر أماكن الأشياء في المنزل من حين لآخر، لكني كنت أفتّش عن أثر لجسد الطبيب الأنيق في كل ركن وزاوية.

زفّت زوجتي عليّ نبأ ساراً. فأثناء عودتها من المصحة التقت بابن السيد أوليفي، وقال لها إنّ صحة والده العجوز تحسنت بعد أن وصف له طبيبه الجديد دواء جيداً.

وقبل أن أغفو فكرت بأني كنت على صواب عندما هربت من المصحّة. فلديّ الوقت كله لأشفى بتأنّ من الإدمان. وما زال الولد - الذي ينام في الغرفة المجاورة - صغيراً على انتقاد والده أو على تقليده. فلم يكن هناك أبداً ما يستدعي العجلة.

twitter @baghdad_library

4. وفاة والدي

غـادر الدكتـور س. المدينـة، وتركنـي بحيرة في ما إذا كانت سـيرة والـدي ضروريـة للعـلاج. فـإن وصفت والدي بـأدقّ التفاصيل لكان من الأفضل القيام بتحليل شـخصيته أولاً كي أبلغ الشـفاء، وقد أتخلّى عن الفكرة بأكملها. ولكني لن أتهاون، فلو احتاج والدي لعلاج مشابه لكان بسبب مرض مختلف تماماً. على أي حال، وحرصاً على الوقت، سأقول فيه ما يساهم في استحضار ذكرياتي الشخصية.

(السابع عشر من نيسان عام 1890، الساعة الرابعة والنصف. توفيّ والدي. السيجارة الأخيرة). وجدت هذه الملاحظة على مجلّد للفلسفة الوضعية للعالم أوستوالد، الذي قضيت سـاعات في قراءته متفائلاً ولم أفهمه أبداً. لقد سـجّلتْ هذه الملاحظةُ الحدثَ الأهم في حياتي، على الرغم من صيغتها، وقد لا يصدّق أحد ذلك.

كانـت والدتـي قـد توفيّـت قبـل أن أبلـغ الخامس عشـر من العمر. وكتبـت فيهـا المرثيـات التـي لا ترقـى إلـى الدموع التـي ذرفت لأجلها. وكنت أحسّ فعلاً أنني بدأت، في تلك اللحظة، بحياة تأخذ طابع الجدّ والعمل. وكان الألـم نفسه يلّمح بحياة مضنية، لكني واسيت نفسي بإيمان دينيّ قويّ خفف من محنتي: «فوالدتي ما تزال حية وإن في مكان بعيد، وقد تشعر بالرضا من نجاحاتي التي واظبتُ على تحضيرها». كم شعرت حينها بالراحة! أذكر حالتي جيداً وقتئذ. فبوفاتها كان ينبغي أن يتحسّـن كل شيء وقد امتلأ قلبي بعواطفها الصادقة.

twitter @baghdad_library

لكن وفاة والدي كانت فاجعة مؤلمة بالفعل. لم أعد أشعر بالنعيم الذي كنت فيه، بل أحسست أنّ حياتي - أنا أيضاً - توقفت ولم أتمم الثلاثين عاماً. وللمرّة الأولى أدركت أنّ الجزء الأهم من حياتي بات ورائي، دون أمل بالعودة إليه. لكن آلامي هذه لم تدفعها الأنانية كما قد يبدو. إطلاقاً! فما كنت أبكي إلاّ لفقدانه الموجع. حتى ذلك الحين كنت أنتقل من سيجارة إلى أخرى، ومن كليّة إلى أخرى بثقتي العمياء بمقدراتي. ولكنني أظن أنّ تلك الثقة، التي جعلت أيامي رائعة، كانت ستبقى إلى الآن لو لم توافه المنية. فبموته لم أعد أنتظر غداً يكون ملاذاً لآمالي. وكلّما فكرت في هذا الأمر، أستغرب جداً من أني فقدت ثقتي بنفسي وتشاءمت من مستقبلي فقط عندما توفيّ والدي وليس قبل ذلك. إنه شعور حديث إجمالاً، أي أنني لست مضطراً للأحلام كي أستحضر مأساتي العظمى وتفاصيلها، كما يصّر أساطين التحليل النفسي! فأنا أذكر كل شيء، لكنني لا أفهم شيئاً. لم أحيا قريباً من والدي، ولم أبادر بالتقرّب منه، بل كنت أتجنّبه أحياناً دون أن أشعره بالاستياء. فكان زملائي في الجامعة يعرفونه بلقب أطلقته عليه (سيلفا العجوز مرسل المصروف). ما علّقني به هو المرض، أو الموت لأنّ مرضه لم يدم طويلاً، وكان الطبيب واثقاً من عدم نجاته. وعندما كنت في تريستا كنا نادراً ما نلتقي، ولساعات قليلة. لم تكن معايشتي معه طويلة بقدر ما كانت حسرتي على فقدانه. ليتني عشت معه أكثر وبكيت عليه أقلّ! فربّما لم أكن مريضاً إلى هذا الحدّ. كان من الصعب أن نتجالس طويلاً، إذ لم يكن لديّ من الأفكار ما أشاركه فيها. كلانا يمتلك ابتسامة الأسف نفسها. لكن ابتسامته كانت حادة أكثر نظراً لما يجول فيه من قلق أبويّ على مستقبلي. أما ابتسامتي فكانت أكثر تسامحاً لأني كنت واثقاً من عدم وجود تبعات لضعفه وقد تقدمت به السنون. وكان والدي أول

من توجّس من إمكانياتي، وقد استعجل في حكمه هذا على ما أظن. لكني أرى أنّ عدم ثقته بي تتماشى مع مقولة إنّ الولد سرّ أبيه، دون أن يملك برهاناً علمياً على ذلك؛ ممّا ضاعف عدم ثقتي به، وفي هذا حجة علمية مؤكدة.

كانت شهرته كتاجر حاذق تدخل السرور إلى قلبه. لكني أعرف أنّ السيد أوليفي يدير أعماله منذ سنين طويلة. لم نكن نتشابه سوى بعدم الكفاءة بالتجارة. وكنت متأكداً من أني أمثّل القوة وهو يمثّل الضعف. ويكفي ما كتبته حتى الآن في هذه الصفحات كي أبرهن أني بذلت - وأبذل - مجهوداً هائلاً نحو الأفضل. فلا أجد تفسيراً آخر لطموحاتي الكثيرة بالقوة والتوازن غير ذلك، ولم يكن أبي يعرف شيئاً عن كل هذا. بل كان يعيش راضياً برأي الآخرين فيه، وأجزم أنه لم يكمل أي مجهود يحمله نحو الأفضل. فكان يدخن طوال اليوم، وأخذ يدخن ليلاً بعد رحيل والدتي. ويشرب باعتدال مثل أي (جنتلمان) في المساء أثناء وجبة العشاء، متذرعاً بأنّ الخمر يمهّد له درب النعاس ما إن يضع رأسه على المخدّة. كان يرى في الكحول والتدخين أدوية ممتازة.

أمّا في ما يخص النساء، فقد علمت من بعض الأقرباء أنّ أمي كانت غيورة في السابق. بل يبدو أنّ تلك السيدة اللطيفة استعملت العنف أحياناً كي تكبح جماح زوجها. فكان يترك لها دفّة القيادة لشدّة تعلّقه بها واحترامه لها. ولكنها لم تستطع أن تحصل منه على أي اعتراف بخيانته، لذا توفيت وهي واثقة من أنها أخطأت بحقّه. ويقول أقاربي الأعزاء إنها - ورغم هذا - قبضت على زوجها بالجرم المشهود مع خيّاطتها الخاصة. وبرّر لها فعلته بالنزوة العابرة، فصدّقته طالما أنه ثبت على أقواله. ولم يكن هناك عواقب تذكر سوى أنّ أمي لم تعد تتردد إلى تلك الخيّاطة، ولا أبي أيضاً. وأظن أنني لو كنت في محلّه لاعترفت

twitter @baghdad_library

بكل شيء، لكني لم أكن لأهجر الخيّاطة. فأنا أثبّت جذوري حيثما أنوي التوقف.

كان أبي يعرف كيف يحافظ على سكينته كربّ أسرة حقيقي، حيث تظهر هذه السكينة في بيته وروحه معاً. ولم يكن يقرأ سوى كتب أخلاقية باهتة باقتناع صادق دونما رياء في هذا. أظن أنّه كان يشعر بحقيقة تلك المواعظ جيداً وأنّ ضميره كان مطمئناً بفضل انتماءه الصريح للفضيلة.

أكاد أشبه البطاركة، الآن وقد هرمت: فأنا أيضاً أشعر أنّ رذيلة معلنة تنزل بصاحبها عقاباً أشدّ وطأة من فعل سافل. فقد ترتكب الجريمة بدافع الحب أو الحقد على حدّ سواء، أما الترويج للجريمة فلا يدفعك إليها سوى السفالة عينها.

كان هناك القليل من الأمور التي تجمع بيننا حتى إنه اعترف لي بأنني كنت واحداً من أكثر الأشخاص الذين يسبّبون له الاضطراب في هذا العالم. كانت رغبتي في العافية تدفعني إلى دراسة جسم الإنسان. أما هو فقد مسح من ذهنه أيّ هاجس يتعلّق بتلك الآلة الرهيبة. فلم يكن القلب ينبض في رأيه، ولم يكن ثمة داع لمعرفة الصمامات والشرايين والدورة الدموية ليفهم كيف يعيش. لم تكن هناك أية حركة؛ لأنّ التجربة تقول إنك، مهما تحركت، ستقف عاجلاً أم آجلاً. حتى الأرض كان يراها ثابتة ومسطّحة بارتكاز فوق بعض الأعمدة. لم يقل ذلك طبعاً، لكنه كان يشعر بالحرج إذا سمع من أحدهم شيئاً لا يتناسب مع أفكاره. قاطعني بتقزز في أحد الأيام عندما كنت أشرح له عن سكّان القطب الجنوبي، ففكرة أنّ رؤوس أولئك الأشخاص مقلوبة نحو الأسفل كانت تربك معدته.

كان يكره فيّ شيئين، أولهما الشرود وثانيهما النزوع إلى السخرية من الأمور الجدية. في ما يتعلق بالأول، كان يختلف عني باقتنائه مفكّرة

يسـجّل فيها ما يود أن يتذكر ويقرأها طوال اليوم. فكان يظن أنه انتصر علـى علّتـه هكـذا وأنهـا لـم تعـد تعنيه. أعطاني تلـك المفكرة ذات يوم، لكني لم أسجّل عليها سوى تواريخ بضعة سجائر أخيرة.

أمـا فـي مـا يتعلـق بسـخريتي مـن الأمور الجدية، فكنـت أعتقد أنه كان مخطئاً في اعتبار الكثير من الأمور في هذا العالم على أنها جدية. فمثـلاً: بعـد أن انتقلـت مـن دراسـة القانـون إلى دراسـة الكيمياء، عدت إلـى الدراسـة الأولـى بعـد أن أخـذت موافقتـه علـى ذلـك، فقال لي عن طيب خاطر: (من المؤكد أنك مجنون على أي حال). لم أشعر بالمهانة نهائياً، بل كنت ممتناً له على تسامحه. وأردت أن أكافأه بجعله يضحك. فذهبت إلى أحد الأطباء لأقوم ببعض التحاليل وأحصل منه على شهادة طبية تثبت عكس بديهيات والدي. ولم يكن الأمر بغاية السهولة، فكان عليّ أن أخضع لاختبارات طويلة وتفصيلية. وحالما حصلت على تلك الشهادة حملتها بفخر إلى أبي، لكنه لم يضحك. بل صرخ بنبرة متألمة والدموع في عينيه: (آه... أنت حقاً مجنون!). كان هذا جزائي على تلك المسرحية الهزلية المضنية والبريئة. لم يغفرها لي ولم يضحك عليها أبداً: (هل يعقل أن تذهب إلى الطبيب من أجل المزاح؟ هل يعقل أن تحصل على شهادة تغصّ بالأختام لأجل المزاح؟ إنها تصرفات جنونية حقاً!).

بالمحصلـة، كنـت أمثّل الطـرف القوي بالمقارنة معه. وأظن أحياناً أنّ غياب الطرف الضعيف، الذي كان يرفع من معنوياتي، أشعرني بانهيار معنوي.

أذكر كيف تأكّدت من ضعفه عندما أقنعه أوليفي الماكر أن يكتب وصيته. إذ كان ذلك الخبيث مستعجلاً على مثل هكذا وصية، كي يضع شـؤوني الماليـة تحـت وصايتـه. ويبـدو أنّ ذلـك العجوز قد عمل طويلاً ليجرّ أبي إلى مثل هذه الفعلة الشائنة. اقتنع أبي في نهاية المطاف، لكن

twitter @baghdad_library

وجهه السمح راح يكفهرّ. فكان يفكر بالموت دون انقطاع، كأنّ الوصية عبارة عن اتفاقية تُبرم مع العالم الآخر.

سألني في مساء ما: (هل تعتقد أنّ كل شيء سيتوقف ما إن نموت؟)

إنني لا أنقطع عن التفكير بألغاز الموت، لكني لم أكن قادراً حينها على منحه تلك المعلومات التي استفسر عنها. فافتعلت أملاً سعيداً بمصيرنا لكي أرضيه: (أعتقد أنّ اللذة وحدها ستبقى، إذ لا ضرورة للألم حينئذ. قد يذكّرنا الموت باللذة الجنسية، كما سيكون مصاحباً لمعنى السعادة والراحة الأبدية بما أنّ البعث سيكون مرهقاً للغاية. لا بدّ أنّ الموت أعظم مكافأة تمنح للحياة!).

ارتكبت خطأ فادحاً. كنا ما نزال على الطاولة بعد العشاء، فقام دون إجابة. أفرغ كأسه وقال: (ليس هذا وقت الفلسفة، وخاصة معك!) وخرج. فلحقته متأسفاً وفكرت أن أبقى بقربه علّني أخلّصه من الأفكار الحزينة، فأبعدني قائلاً إنني أذكّره بالموت ولذّاته.

لم يقدر على تناسي الوصية حتى أعلمني بها، فكان يتذكرها كلّما رآني، حتى انفجر في مساء آخر: (عليّ أن أخبرك بأني كتبت وصيتي). لم أتفاجأ من كلامه، وقلت كي أخرجه من كابوسه: (أما أنا فلن يكون عندي قلق مماثل لأني أتمنى أن يموت كل ورثتي من قبلي). فاستاء فوراً لسخريتي من أمر بالغ الأهمية، وأشفى غليله بالقصاص مني. فقال ببساطة إنه وضع شؤوني المالية كلها تحت وصاية أوليفي. ولم أبد اعتراضاً قد يثنيه عن فكرته التي كانت تعذبه، لأني تظاهرت بالوداعة. بل أعربت عن رضوخي لأوامره مهما كانت إرادته الأخيرة بشأني. وأضفت: (قد أحسن التصرف بشكل يدفعك إلى تغيير إرادتك الأخيرة). فأعجب بأقوالي إذ رأى أنني أتمنى له عمراً مديداً. وطلب مني رغم هذا أن أقسم له على ذلك. وإن لم ير مني تغيراً يسرّه، فلن أحلم بتقليص صلاحيات

الوكيل ما حييت. فأقسمت له، لأنّ كلمة الشرف التي اتخذتها لم تكن لتقنعه. وأصبحت لطيفاً بعد ذلك، حتى أني أتذكر هذا المشهد كلما ندمت على عدم وقوفي إلى جانبه بما فيه الكفاية قبل مماته. ولكي أكون صريحاً، أؤكد قبولي بالانصياع لأوامره لأني كنت معجباً بالأحرى بفكرة أن أكون مضطراً على عدم العمل في تلك المرحلة.

قبل عام من وفاته تقريباً، استطعت أن أتدخل بطريقة فعّالة لصالح عافيته عندما أباح لي بأنه ليس على ما يرام. فأجبرته على الذهاب إلى أحد الأطباء ورافقته أيضاً. ووصف له الطبيب بعض الأدوية، وطلب منه العودة إليه بعد أسبوع. لكنّ والدي رفض تناول الأدوية معلناً أنه يكره الأطباء بقدر ما يكره حفّاري القبور. وبقي لساعة واحدة دون تدخين، ولوجبة عشاء كاملة دون كأس نبيذ. وشعر بصحة جيدة عندما قدّر عدم حاجته للعلاج. ولم أفكر بعدها في الأمر لأني رأيته يزداد سعادة.

ثم رأيته حزيناً في إحدى المرات، وليس هذا غريباً على عجوز وحيد مثله.

وفي إحدى ليالي آذار وصلت إلى المنزل متأخراً قليلاً عن العادة. لا بأس.. كنت حبيساً عند أحد أصدقائي الحكماء الذي كان يخبرني بأفكاره عن أصول المسيحية. وكانت المرّة الأولى التي يطلب صديق مني أن أفكر في تلك الأصول، وتأقلمت مع تلك الجلسة الطويلة لأرضيه. وكانت زخات من المطر تتساقط والبرد قارس. وكان كل شيء يبدو مملاً وكريهاً، ففهمت الإغريق واليهود وتعايشت مع ذلك العذاب لساعتين كاملتين. إنها نقطة ضعفي المعتادة! أراهن أني لست قادراً على مقاومة أحد حتى اليوم إذا استبسل في إقناعي بدراسة الفلك مثلاً لبعض الوقت.

دخلت إلى الحديقة التي تحيط ببيتنا سالكاً ذلك الدرب القصير. وكانت الخادمة ماريا تنتظرني على النافذة، وعندما سمعتني أقترب

twitter @baghdad_library

صرخت في الظلام: (سيد زينو! أهذا أنت؟)

كانت ماريا من نوع خادمات لم يعد موجوداً. كانت تمكث بيننا منذ خمسة عشر عاماً تقريباً، وتضع جزءاً من راتبها في مصرف التوفير لتضمن أيامها الأخيرة بنقود لم تنتفع منها بشيء، لأنها توفيت عندنا بعد زواجي بمدة قصيرة، أثناء عملها.

قالت لي إنّ والدي قد عاد إلى البيت منذ ساعات، لكنه آثر أن ينتظرني على العشاء. وعندما ألحّت عليه بالطعام ريثما أعود، أنّبها وطلب منها الخروج بطريقة غير لائقة. ثم إنه سأل عني مرات عدة وقد بدا عليه القلق. أبلغتني ماريا بشكوكها أنّ والدي لم يكن على ما يرام، مستدلّة على ذلك بصعوبة نطقه وانقطاع أنفاسه. عليّ أن أقول إنها كانت تقضي معه الوقت كله، لذا كانت لديها قناعة راسخة بأنه مريض. فلم يكن هناك الكثير في ذلك البيت المعتاد ما يثير انتباه تلك المرأة المسكينة. وكانت تتوقع أن يموت الجميع قبلها، خصوصاً بعد تجربتها مع والدتي.

تقدّمتُ إلى الصالة بقليل من الخوف وكثير من الفضول. نهض أبي من الديوان الذي كان يجلس عليه واستقبلني بحرارة لم تثر مشاعري لأني رأيت فيها تعبيراً عن الملامة. ولكن تلك البهجة كفت لطمأنتي، إذ تشير إلى صحته الجيدة. ولم ألاحظ فيه التلعثم والنفس المتقطع الذي حدثتني عنه ماريا. واعتذر مني على تعنّته بدل أن يلومني، وقال عن طيب خاطر: (ماذا أفعل؟ فنحن الاثنان وحيدان في هذه الحياة، ورغبت أن أراك قبل أن أنام!).

ليتني تصرفت بعفوية وأخذت بين ذراعيّ أبي العزيز الذي أصبح لطيفاً وحنوناً بعد مرضه! لكني شرعت أتحرّى عن الخطب: سيلفا العجوز يبدو لطيفاً، أهو مريض؟ ونظرت إليه بارتياب ولم أجد أفضل من العتاب: (ولماذا انتظرت حتى هذه الساعة لتأكل؟ كان بوسعك أن

تأكل أولاً، ثم تنتظرني). فضحك بعنفوان شديد: (إنّ الأكل برفقة أحدهم أفضل بكثير!).

كانت تلك السعادة دعوة لشهية طيبة، فهدأت وجلست على المائدة. خطا واهناً بخفه المنزلي، واقترب من المائدة، وجلس في مكانه المعتاد. ثم ظلّ ينظر إليّ كيف آكل، بينما تناول ملعقتين فقط وأبعد الصحن عنه باشمئزاز، لكن ابتسامته لم تزُل عن وجهه العجوز.

كأن الأمر جرى البارحة! أذكر تماماً أني كلما نظرت إليه أثنى نظراته عني. يقال في هذا إنه علامة خداع، لكنني أعرف الآن أنها علامة المرض. فالكائن يسعى لإغلاق أي ثقب تتسرب منه معالم المرض أو العجز.

كان تواقاً لمعرفة كيف قضيت ذلك الوقت الطويل بينما كان ينتظرني فيه. وعندما شعرت بفضوله الشديد، توقفت لوهلة عن الطعام، وقلت له بفتور إني كنت أناقش أصول المسيحية مع أحد الأصدقاء. فرمقني بذهول وارتياب وقال: (حتى أنت تفكر الآن في الدين؟!). كان من البديهي أني سأشعره بالسرور لو تقبّلت فكرته كما هي، لكني كنت أشعر بعدوانيتي العميقة إلى أن فارق أبي الحياة، فأجبته بإحدى تلك الجمل المعتادة التي تتكرر دوماً في مقاصف الجامعات: (إنّ الدين بالنسبة لي ليس إلا ظاهرة علينا دراستها).

(الدين ظاهرة؟!) قال باضطراب باحثاً عن إجابة جاهزة وفتح فمه ليقولها، ثم تردد ونظر إلى الصحن الثاني الذي كانت ماريا تضعه أمامه للتو، ولم يلمسه. وضع عقب السيجار في فمه كي يغلقه بشكل أفضل. وأشعله ثم تركه ينطفئ. كان مراده أن يشعل لحظة للتفكير العميق. ثم نظر إليّ بحزم: (لعلّك لا تود السخرية من الدين. أليس كذلك؟) فأجبته كطالب مهمل للغاية كما كنت دائماً، وفمي مليء بالطعام: (أية سخرية؟! أنا أدرس الدين!).

twitter @baghdad_library

فسكت ونظر طويلاً إلى عقب السيجار الذي أسنده على الصحن. أفهم الآن فقط لماذا قال ذلك. أدرك الآن فقط ما الذي خطر في ذهنه المضطرب، وأستغرب كيف لم أعي شيئاً حينها. أعتقد أني كنت أفتقد إلى ذلك الحنان الذي يساعد في فهم الكثير من الأشياء. ثم توضحت عندي الأمور! فهو كان يتجنب أن يواجه شكوكي، إذ كانت منازلة صعبة بالنسبة له في تلك اللحظة. لكنه ظنّ بإمكانه المناورة على أحد الجوانب كما يفعل أي رجل ضعيف. أذكر أنّ أنفاسه كانت تنقطع ونطقه يتثاقل أثناء الحديث. إنه لجهد عظيم أن يحضر المرء نفسه لمعركة. ولكني توقعت أنه لن يخلد إلى النوم قبل أن يؤنبني، فجهّزت نفسي لمناقشات حادة، لم تجرَ أبداً. قال، وعيناه تنظران إلى عقب السيجار المطفىء:

- أشعر أنّ خبرتي ومعرفتي في الحياة عظيمتان. إذ لا يعيش المرء أعواماً طويلة دون جدوى. أعرف الكثير من الأشياء، ولكنني - لسوء الحظ - أجهل كيف ألقّنك إياها كلها كما أرغب. آه كم أود ذلك! إني أرى الأمور بعمق، وأميّز ما هو حقيقي وما هو صائب وما ليس كذلك أيضاً.

لم أر ما يستدعي النقاش، فغمغمت وأنا أكمل الطعام: (أجل يا أبي!). لم أكن أود استفزازه.

- يؤسفني أنك جئت متأخراً جداً، فلم أكن متعباً هكذا، وكان بوسعي أن أقول لك الكثير من الأشياء.

ظننت أنه ما زال يوبّخني لأني جئت متأخراً، فاقترحت أن نؤجّل الجدال في الأمر ليوم الغد.

- نحن لا نتجادل، - أجابني شارداً - إنه أمر مختلف كلياً. إنه أمر لا أستطيع مناقشته، سوف تعرف هذا جيداً ما إن أقوله لك. لكن الصعوبة تكمن في قوله.

هنا راودني شكّ ما... فقلت: (هل أنت على ما يرام؟)
– لا أستطيع البت في ذلك، لكنني متعب جداً وسأذهب إلى النوم.

ضرب الجرس ونادى ماريا في آن واحد. وعندما جاءت، سألها إن كانت غرفته جاهزة. ثم سار وهو يجر خفيه على الأرض. اقترب مني وانحنى كي أقبّل خدّه كما في كل ليلة. وعندما رأيته يمشي بغير ثقة، راودني الشك ثانية، وكررنا ما قلناه للتو، وأكد أنه متعب وليس مريضاً، ثم أضاف: (سأفكر الآن فيما سأقوله لك غداً. سترى كيف سيقنعك كلامي). فأجبته متأثراً: (سأصغي إليك بكل سرور يا أبي).

وعندما رآني مستعداً هكذا لسماع تجربته، تراجع ومسح جبهته بيده وجلس على الكرسي الذي أسند نفسه إليه عندما انحنى ليمنح خده إلى قبلتي. كان لا بد أن ينتهز لحظة مناسبة كهذه! زفر بخفّة وقال: (غريب أنني لا أستطيع قول شيء الآن). ونظر حوله كما لو كان يبحث في خارجه عما لم يتمكن من إيجاده في داخله. أضاف: (ومع ذلك فأنا أعرف أشياء كثيرة، بل إني أعرف كل شيء، وهذا يعود لخبرتي العظيمة في الحياة بلا شك). لم يحزن على عدم قدرته على التعبير، فكان يبتسم لشعوره بعظمته وقوته.

لا أعرف لماذا لم أستدع الطبيب حينئذ. بل عليّ أن أعترف بحرقة وندم أنني اعتبرت كلماته تبجّحاً كنت قد تأكدت من وجوده فيه. لكنّ ضعفه الواضح لم يكن ليفوتني، ولهذا السبب لم أدخل معه في جدال عقيم. بل كنت مسروراً لرؤيته سعيداً بأوهامه عن جبروته عندما مرّ بأشد لحظاته ضعفاً. ثم إني خدعت بذلك الحنان الذي أبداه وهو يظهر رغبته في منحي الحكمة التي ظنّ بأنه يملكها، في الوقت الذي كنت مقتنعاً بأني لن أحصل منه على شيء. وكي أخدعه وأعيد إليه الطمأنينة، قلت إنه لا ينبغي عليه أن يجهد نفسه في البحث عن الكلمات التي تنقصه.

twitter @baghdad_library

فالكثير من العلماء يتركون الأمور معقدة في أدمغتهم كي تتبسّط لوحدها. فأجابني: (ما أبحث عنه ليس معقداً على الإطلاق. عليّ أن أعثر على كلمة واحدة فقط، وسأجدها. ولكن ليس الآن، لأني سأنام عميقاً دون أدنى تفكير بذلك).

ورغم هذا لم ينهض عن الكرسي، بل قال حائراً يتفحص وجهي لوهلة: (أخشى أنني لن أستطيع أن أقول لك ما أفكر فيه لأنك اعتدت على السخرية من أي شيء). وابتسم كأنه يتوسّل إليّ ألاّ أغضب من كلماته. قام عن الكرسي وأعطاني خده ثانية. تجنّبت أن أناقشه لأقنعه أنّ في العالم أشياء كثيرة من واجبنا السخرية منها. وأردت أن أطمئنه بعناق شديد، وكانت الحركة أقوى مما ينبغي، فأبعدني متعباً أكثر مما كان. لكنه فهم مودتي جيداً، فودّعني بيديه متودداً. (فلنذهب إلى النوم!) - قال مبتهجاً، وخرج تتبعه ماريا.

والغريب في الأمر أنني لم أفكر في صحة والدي عندما بقيت وحيداً، إنما تأسفت على أنّ رجلاً عاقلاً مثله، يطمح لغايات نبيلة، لم يحظ على ثقافة أفضل. اليوم وأنا أكتب، وقد اقتربت من عمره، أعرف تماماً أنّ الإنسان قد ينتابه شعور قوي بذكائه الثاقب دون أن يأتي بنتائج أخرى تتخطّى هذا الشعور. فنحن نتقبّل أطباعنا ونعجب بها كما أُعطيت لنا ثابتة كما هي، وبالأسلوب ذاته يتجلّى الذكاء نفسه الذي أرادته الطبيعة أن يكون فينا. ومن المؤكد أنّ شعور والدي بذكائه، في اللحظة الأخيرة والبرّاقة من حياته، انبثق عن وحي ديني مباغت. والدليل أنه تحدث عن ذلك بعد إشارتي لمناقشة أصول المسيحية. لكني أدرك الآن أنّ هذا الشعور كان أولى أعراض الجلطة الدماغية.

عادت ماريا لتفرغ الطاولة، وقالت لي إنّ والدي نام سريعاً كما بدا لها. فذهبت إلى النوم أيضاً وكنت بغاية الهدوء، بينما تزمجر الرياح في

الخارج. كنت أسمع صوتها من سريري الدافئ كأنها ترنيمة قبل النوم وهي تتلاشى رويداً رويداً لتتركني أغرق في النعاس.

لا أعرف كم نمت من الوقت. أيقظتني ماريا، ويبدو أنها دخلت إلى غرفتي وخرجت منها أكثر من مرة. إذ شعرت بالإزعاج خلال نومي، ثم تراءت لي تلك العجوز تدخل إليّ، وفي النهاية استوعبت أنها تريد إيقاظي، لكنني استيقظت ولم أجدها. كانت الريح تسحبني إلى النوم. ولكي أكون صادقاً أعترف أنني هرعت إلى غرفة والدي بتذمّر لأنها انتزعتني من نومي العميق. وكنت أذكر أنّ ماريا تعامل والدي دوماً على أنه مريض، فويل لها إن كان بخير في تلك اللحظة!

كانت غرفة نومه متوسطة الحجم وتغصّ بالأثاث. فبعد وفاة والدتي غيّر أبي الغرفة كي يسلو غيابها، وأحضر معه كل حاجياته إلى الغرفة الجديدة. لم يكن القنديل الموضوع على الطاولة يكفي لإنارة الغرفة بأكملها. رأيت ماريا تسنده وهو مستلق على ظهره وجذعه بارز على رأس السرير، وقد احمرّ وجهه المتصبّب عرقاً بسبب الضوء القريب، وصدر ماريا الحنون يحضن رأسه. وكان يزأر من شدة الألم، ويسيل اللعاب من فمه الفاغر حتى أسفل الذقن. وكان يوجّه بصره إلى الحائط المقابل، ولم يتحرك عندما دخلتُ.

أخبرتني ماريا كيف سمعت أنينه وكيف وصلت في الوقت المناسب قبل أن يقع أرضاً. وأكدت أنه كان مضطرباً جداً ويبدو أفضل نسبياً حينها، لكنها لم تكن لتخاطر وتتركه وحيداً. ربما أرادت أن تعتذر مني لأنها أيقظتني، بينما أدركت أنها تصرفت على نحو جيد في إيقاظي. وكانت تحدثني باكية، غير أني لم أشاركها البكاء. بل طلبت منها أن تسكت كي لا يزيد نواحها من روع تلك الساعة، لأني لم أدرك كل شيء على الفور. وأجهدت المسكينة نفسها علّها تخفف من عبراتها.

twitter @baghdad_library

اقتربت من أذنه وصرخت فيها: (لماذا تأنّ يا أبتي؟! هل تشعر بألم ما؟!). أظن أنّه سمعني، لأنّ عويله خفت وأبعد عينيه عن الحائط محاولاً النظر إليّ. لكنه لم يستطع أن يستدير إلى جهتي. كرّرت عليه أسئلتي أكثر من مرة دون جدوى. فاختفت رجولتي الرصينة فجأة. كان أبي أقرب إلى الموت مني، فصراخي لم يعد يصل إليه. انتابني الرعب، وتذكرت قبل كل شيء ذاك الحديث الذي تجاذبنا أطرافه في المساء. هل قرّر بعد ساعات قليلة أن يعرف من منّا كان على صواب؟! والغريب أني تألمت كثيراً وندمت باكراً. أخفضت رأسي على مخدته، وبكيت بإحباط مصدراً عبرات منعتُ ماريا للتو عن إصدارها. وأصبح دورها في مواساتي، لكنها واستني بشكل غريب. فكانت تحثني على الهدوء متحدّثة عن والدي الذي يتنهّد بعينين متسعتين كما لو فارق الحياة. قالت وهي تداعب شعره: (كم مؤسف أن يموت هكذا، وهو بكامل شعره الكثيف!). وكانت محقّة، فكان رأسه متوجاً بشعر أبيض كثيف ومجعّد، بينما كنت أقترب من سن الثلاثين بشعر خفيف جداً.

لم يخطر في ذهني وجود الأطباء في هذا العالم، وأنّهم قد يستطيعون إنقاذ حياة البشر. لقد رأيت الموت حقاً على وجهه الذي أضناه الألم، وفقدت الأمل تماماً. كانت ماريا من ذكّرني بالطبيب، وذهبت لتوقظ أحد المزارعين لتطلب منه الذهاب إلى المدينة. وبقيت وحيداً أواسي والدي لعشرة دقائق لا تنتهي أبداً. فأذكر أنني حاولت أن أضع في يدي كل الرأفة التي غمرت قلبي لألامس جسده المنهك. فكيف كان بإمكاني أن أعبّر له عن حبي الشديد، وهو لم يكن يسمعني؟!

عندما جاء المزارع، جلست على الطاولة لأكتب رسالة إلى الطبيب، وكنت أستصعب كتابة كلمات اعتيادية تشرح للطبيب حالة والدي كي يتسنى أن يحضر معه بعض الأدوية. بل كنت لا أكفّ عن رؤية الموت

الوشيك، وأتساءل: (ماذا سأفعل الآن في هذه الحياة؟!).

ثم انتظرت لساعات طويلة. وأذكر أنّ أمراً مهمّاً جرى خلال تلك المدة. فبعد الساعة الأولى لم يعد هناك حاجة للتهوين عن والدي لأنه غاب عن الوعي وهو مستلق على السرير. فتوقّف عن الأنين ولم يعد يشعر بأي شيء. كانت أنفاسه تلهث، فرحت أقلّدها من دون قصد. ولم أستطع أن أتنفس طويلاً على ذلك المنوال، فكنت أنظّم وقفاتي علّ المريض يقلّدني بالراحة أيضاً. لكنه كان يلهث مسرعاً. حاولنا أن نسقيه ملعقة من الشاي، ولكن عبثاً. إذ كان فقدان وعيه يتراجع عندما يدافع عن نفسه ضد تدخلاتنا، فيطبق أسنانه بتصميم لا يوصف. كان العناد يصاحبه حتى في الهذيان! وقبل الفجر بكثير، فقدتْ أنفاسُه إيقاعها. إذ كانت تحتشد على دفعات، ثم يصدر بعدها أنفاساً بطيئة كأنها لرجل سليم. ثم تتبعها أنفاس مستعجلة تتوقف وقفة طويلة بدت لنا كلحظة الموت. لكنه كان يستأنف تلك الدفعات على الشاكلة نفسها دوماً، كأنها مقطوعة باهتة جداً تعزف لحن الكآبة الأبدية. وأصبحت تلك الأنفاس الصاخبة التي لا تشبه بعضها جزءاً من جوّ الغرفة، حيث بدأت في تلك الساعة واستمرّت لوقت طويل.

قضيت ساعات أخرى مستلقياً على الصوفا، بينما تجلس ماريا قرب السرير. ذرفت دموعاً غزيرة على تلك الصوفا. إنّ البكاء يحرق أخطاءنا، ويسمح لنا باتهام أقدارنا دون أن تتجرّأ على الرد. فكنت أبكي لأنني سأفقد والدي الذي عشت دوماً لأجله. لا يهم إن كنا نادراً ما نلتقي. ألم تكن جهودي لأصبح شخصاً أفضل منصبّة لإرضائه؟ فالنجاح الذي كنت أتطلّع إليه كان فخراً بوالدي - الذي شكّ دوماً بذلك - بل كان لجعله يشعر بالسعادة. أمّا حينئذ فلم يعد بوسعه انتظاري، بل كان يجهّز نفسه للرحيل متأكداً من عجزي الذي لا يشفى.. لذا كانت دموعي مُرّة جداً.

twitter @baghdad_library

الآن، وأنا أكتب تلك الذكريات الأليمة، أذكر أنّ الصورة التي استحوذت على فكري في بداية محاولتي استحضار الماضي، أعني تلك القاطرة التي تجرّ مجموعة من العربات وهي تصعد إحدى التلال، كنت أتخيّلها حينما أصغيت إلى أنفاس والدي على تلك الصوفا. هكذا تمضي القاطرة التي تحمل أثقالاً هائلة: تصدر البخار بتتابع منتظم ثم يتسارع حتى تصل إلى نقطة تقف فيها. وتعدّ تلك اللحظة خطيرة أيضاً، فمن ينتبه لسكون القاطرة يخشى أن يراها على وشك أن تتهاوى بين الوديان. حقاً! لقد حملني هذا الجهد الأول في التذكر إلى تلك الليلة، إلى تلك الساعة المهمة في حياتي.

وصل الطبيب كوبروسيش إلى المنزل قبل أن يبزغ الفجر، ومعه ممرض يحمل حقيبة من الأدوية. كان عليهما المجيء مشياً على الأقدام بسبب تلك العاصفة الهوجاء، إذ لم يجدا أية عربة تقلّهما.

استقبلته باكياً وتعامل معي برقّة دفعتني إلى التفاؤل. وأعترف أنّ هذا الطبيب يثير فيّ حقداً متأججاً، خاصة بعد ذاك اللقاء. إنه ما يزال حياً الآن ويحظى بتقدير المدينة كلها. وكلّما صادفته ضعيفاً متلكئاً يبحث في الشوارع عن القليل من الحركة والهواء، يولد ذلك الامتعاض بحقّه ثانية في داخلي.

كان الطبيب حينها تجاوز الأربعين عاماً بقليل. وكان قد نذر نفسه للطب الشرعي، وأوكلت إليه أهم الفحوصات من القيادة العليا نظراً لكونه إيطالياً طيباً. كان نحيفاً وعصبياً، ولم يكن لوجهه سمات تذكر، لكنه بارز بسبب الصلع الذي يمنحه جبهة عالية. وثمة نقطة ضعف أخرى تعطيه أهمية: إذ كان يخلع نظارتيه دائماً عندما يفكر، وكانت عيناه الناعستان تنظران إلى جانب أو إلى فوق مخاطبه، وكان لهما مظهراً فريداً وليستا ملونتين، كعيني تمثال مخيفتين أو مضحكتين بالأحرى، وتبعثان

على الأسف. وإذا أراد التفوه بكلمة واحدة وضع نظارتيه على أنفه ثانية، لتصبح عينيه كعيني برجوازي محترم يحلّل الأمور التي يتحدث عنها بعناية.

جلس في المدخل واستراح لدقائق، ثم طلب مني أن أروي له بدقة ما حدث منذ الدقيقة الأولى حتى لحظة قدومه. خلع نظارتيه ووجّه عينيه الغريبتين إلى الحائط من خلفي. وحاولت أن أكون دقيقاً، الأمر الذي لم يكن سهلاً، نظراً لصعوبة الموقف الذي كنت فيه. وكنت أعرف أنه لا يتساهل مع الأشخاص الذين لا يفقهون شيئاً في الطب ويتفوهون فوق هذا بمصطلحات طبية، كي يظهروا إلمامهم بهذا العلم. فعندما قلت إنه بدا لي ما يشبه (التنفس الدماغي)، لبس نظارتيه وقال: (تمهّل في إطلاق المصطلحات. سنرى لاحقاً ماذا يمكن أن يكون). وحدثته أيضاً عن تصرفات والدي الغريبة، والقلق الذي اعتراه عندما رآني، واستعجاله في الذهاب إلى النوم. لم أخبره بنقاشات والدي غير المألوفة، ربما خشيت أن أضطر لقول إحدى إجاباتي التي أعطيتها لأبي. بل قلت إنه كان يستصعب التعبير بدقّة عن شيء ما يدور في خلده ويفكر فيه طويلاً دون أن يجد له صيغة مناسبة. فهتف الطبيب بحماس، ونظارتيه على أنفه: (أنا أعرف تماماً ما كان يدور في خلده!). وكنت أعرفه أيضاً. كانت الجلطة، لكني لم أقل شيئاً خوفاً من إغضاب الطبيب.

توجهنا إلى غرفة والدي. قلّب الطبيب جسده المنهك بمساعدة الممرض مرات عديدة بزمن مرّ عليّ طويلاً جداً. أصغى إليه وكشف عنه وحاول أن يستعين بالمريض نفسه، ولكن دون جدوى. صرخ بغتة: (كفى!). واقترب مني حاملاً نظارتيه بيده ومحدّقاً بالأرض، وقال لي بأسف: (كن متماسكاً! إنه يمر بظرف خطير!). ثم ذهبنا إلى غرفتي حيث غسل الطبيب وجهه. وعندما نشّف، ظهر رأسه الصغير كتعويذة

twitter @baghdad_library

صنعتها أيد غير محترفة. تذكّر أنّه رآنا منذ عدة أشهر، وذهل لأننا لم نعد إليه مجدداً. بل ظنّ أننا تركناه بحثاً عن طبيب آخر، وهو الذي أكّد أنّ والدي بحاجة ماسّة للعلاج. وكان يبدو مخيفاً عندما وبّخني، بدون نظارتيه. وقد رفع صوته طالباً مني التوضيح، وعيناه تبحثان عن التوضيح في شتّى زوايا الغرفة.

كان محقّاً بالتأكيد، وكنت أستحقّ ذلك التأنيب. ومن الجدير بالذكر أنني لم أكره الطبيب كوبروسيش لأنه لامني على ذلك. فاعتذرت منه وأخبرته عن عدائية والدي تجاه الأطباء والأدوية. وكنت أتحدث باكياً، فحاول بحسن نية أن يطمئنني، وقال إنه لم يكن لعلمه الواسع أن يساعد على منع حدوث المصيبة حتى لو أتينا إليه من قبل، بل ربما استطاع تأخير وقوعها فقط. لكنه تابع في التحرّي عن أعراض المرض، وبدأ يفتح مواضيع تسهّل عليه تأنيبي. فأراد أن يعرف إن كان والدي قد شكا من تدهور صحته في الأشهر الأخيرة، أو فقدان الشهية والأرق ليلاً. فلم أجب على كل الأسئلة بدقّة، حتى على سؤاله إن كان أبي يأكل كثيراً أو قليلاً على تلك المائدة التي كنت أشاركه إياها يومياً. فكانت ذنوبي البديهية تؤلمني، ولكنّ الطبيب لم يصرّ مطلقاً في الأسئلة. علم مني أنّ ماريا كانت تراه ينازع دوماً وأنني كنت أسخر منها دائماً على ذلك.

كان ينظّف أذنيه وينظر إلى الأعلى عندما قال: (من المحتمل أن يستعيد وعيه جزئياً على الأقل بعد ساعتين تقريباً). هتفت: (هل من أمل بالشفاء إذن؟!). فأجابني بحدة: (كلا! لكن ديدان العلق[1] لا تخطئ أبداً في هذه الحالة. سيستعيد قليلاً من وعيه كي يصاب بالجنون على

(1) كان الأطباء في الماضي يستخدمون ما يسمّى بديدان العلق العلاجية لامتصاص الدم الفاسد من المرضى، ويعدّ استخدامها مؤذياً لما يسبّبه من ألم شديد لدى المريض. المترجم.

الأغلب!).

وضع المنشفة في مكانها، ورفع كتفيه. كانت وضعيته تلك تعني ازدراءه من العملية، وهذا ما شجّعني للحديث عنها. إذ كانت ترهبني فكرة أن يستيقظ أبي من سباته كي يشهد وفاته. ولولا رفعه لكتفيه هكذا لم أكن لأجرأ على القول: (أيها الطبيب! ألا تبدو لك كيفية عودته إلى رشده شريرة؟!) واستسلمت للبكاء، حيث كانت رغبتي في التباكي تسري في أعصابي المرتعشة، عسى أن يرى دموعي فيغفر لي حكمي على عمليته. فقال لي بوداعة: (تمالك أعصابك! إنّ وعي المريض حينها لن يجعله قادراً على إدراك حالته، فهو ليس طبيباً. يكفي أن لا تخبره أنه يحتضر، وهو لن يعرف شيئاً عن ذلك. خلافاً لهذا قد نقع بمشكلة أشدّ سوءاً، فقد يصيبه الجنون فعلاً. لكنني أحضرت معي - تحسّباً - السترة المقيّدة[1]، وسيبقى الممرض عندكم). فأخذني الهلع، وتوسلت إليه ألّا يستخدم ديدان العلق. فقال بهدوء إنّ الممرض قد أجرى له العملية بالتأكيد، لأنه أمره بذلك قبل أن يخرج من الغرفة. فغضبت كثيراً. هل من أمر أكثر همجية من إبقاء أبي مريضاً دون أدنى أمل بإنقاذه، ليجد نفسه محبطاً أو يخاطر بما قد ينجم عن السترة المقيّدة، وهو بهذه الحالة المزرية؟! فقلت جازماً، وبعنف يرافق دموعاً تثير الشفقة، إنه من الظلم أن لا تترك أحدهم يموت بسلام وأنت متأكّد من أنه يحتضر!

إني أكره ذلك الرجل لأنه غضب مني حينها، ولم أقدر أن أغفر له هذا، لأنه اضطرب حتى اكتشف مكان وجهي بدقّة ليركّز النظر فيه بعينيه القبيحتين رغم أنه نسي ارتداء نظارتيه. قال إني أريد أن أقطع خيط

(1) Strait jacket وهو قميص ضيّق جداً بلا أكمام يستخدم في مجال الطب العصبي. إذ يرغم المريض على ارتدائه ليقيّد حركاته اللا إرادية في حالات الهيجان الخارجة عن السيطرة. المترجم.

twitter @baghdad_library

الأمل الرفيع الذي كان ما يزال موجوداً. فكنا على وشك أن نتشاجر. وصرخت باكياً ومعترضاً على أنه قال منذ دقائق إنه لا يوجد أدنى أمل بالشفاء. وقلت إنّ بيتي ليس مكاناً لتجارب تجرى في أماكن محددة. فأجابني بحزم وهدوء يجعلان من كلامه مخيفاً: (شرحت لك كيف سيكون وعي المريض في تلك اللحظة. ولكن من يعلم كيف ستجري الأمور بعد نصف ساعة، أو حتى غداً؟ إني تركت الاحتمالات كلها مفتوحة في حال بقي والدك على قيد الحياة). وضع نظارتيه، وأضاف بعض التوضيحات المملّة - كأنه موظّف متحذلق - عن الأهمية التي قد تنشأ من تدخّل الأطباء في المصير الاقتصادي لعائلة ما. ولو استمر أكثر لتدخّل في تحديد الميراث على ما أظن. كنت أبكي بالأحرى شفقة مني عليّ لأني أرغمت على سماع هكذا أحاديث في لحظة حرجة كهذه. وأصبحت منهك القوى فتوقفت عن الجدال طالما أنّ عملية ديدان العلق قد أجريت وانتهت.

للطبيب سطوة على المريض في سريره الأخير. لذا احترست جيداً من كوبروسيش لدرجة أني امتنعت عن البوح بأي اقتراح، وهذا ما ندمت عليه سنين طويلة. لكن هذا الندم اندثر مع أحاسيس أخرى كثيرة أتحدث عنها ببرودة أعصاب، كأنني أروي ما حدث لشخص لا أعرفه البتة. لم يبق في قلبي هذه الأيام سوى الحقد على ذاك الطبيب الذي يكابر في البقاء على قيد الحياة.

عدنا بعدها إلى غرفة والدي مرّة أخرى، ووجدناه مستغرقاً في النوم على جنبه الأيمن وقد وضع الممرض على صدغه خرقة تغطي آثار العلق. أراد الطبيب أن يجرّب وعي المريض فوراً فصرخ في أذنيه، ولم يستجب أبي مطلقاً.

(هكذا أفضل!) قلت بشجاعة ولكن دون توقف عن البكاء. فأجابني

الطبيب: (ما ننتظره من تأثير لا بدّ أن يظهر. ألا ترى كيف اعتدل نفَسه؟)

حقاً، لم تعد أنفاسه تشكّل تلك الدفعات التي كانت ترعبني، رغم أنّها ما زالت لاهثة ومتعبة. قال الممرض للطبيب شيئاً وافق عليه. كانا يتحدثان بشأن تجربة السترة المقيّدة على المريض. فأخرجا ذلك السلاح من الحقيبة، ورفعا والدي حتى صار جالساً فوق السرير. ففتح عينيه حينئذ. وكان لونهما حائلاً قبل أن يبصرا النور، وما زلت أشهق خوفاً من أن يرى والدي ما حلّ به. ولكنه أغمض عينيه ثانية ليبدو مثل دمية ما إن أعادا رأسه على المخدة. فهمهم الطبيب منتصراً: (شيء مذهل حقاً!). كان شيئاً مذهلاً بالفعل! لم يكن بالنسبة لي سوى فزع مرعب. قبّلت جبهة أبي بتأثر وخاطبته في نفسي: (نم قرير العين حتى تصل إلى نومك الأبدي!). وهكذا تمنيّت أن يموت والدي، لكن الطبيب لم يفطن لذلك إذ قال عن طيب خاطر: (حتى أنت تتمنى أن يستعيد وعيه الآن. أليس كذلك؟).

بزغ الفجر بتعاسة حذرة عندما غادر الطبيب. وكانت الرياح التي ما زالت تصفر على هبّات قد هدأت قليلاً، رغم تجمّد الثلوج. رافقته إلى الحديقة، وكنت أبالغ في احترامه كي لا ينتبه إلى الكراهية التي أضمرها له. لم أنظر إليه إلاّ بإعجاب، ومع هذا استسلمت لتكشيرة اشمئزاز ظهرت عليّ بعد أرق الليلة الماضية بينما رأيته يبتعد في الدرب التي تقود إلى المخرج. كان الطبيب كنقطة سوداء وسط الثلج، حيث يترنح ويتوقف عند كل هبة ريح كي لا يقع. ولم تكفني تلك التكشيرة، وشعرت بحاجتي إلى تصرفات أكثر عدوانية بعد ذاك العناء الشديد. فمشيت في الشارع لدقائق تحت البرد برأس مكشوف، وغرست قدمي في الثلج المرتفع بغيظ. ولا أعرف ما إن كانت هذه النقمة الصبيانية موجّهة ضد الطبيب أم ضدي. كانت ضدي في المقام الأول، فأنا الذي أراد لوالدي

twitter @baghdad_library

الموت ولم أتجرّأ حتى على قول ذلك. وكان صمتي يحوّل الرغبة التي نشأت عن محبتي لوالدي إلى جريمة حقيقية تثقل الهموم على كاهلي.

كان نائماً. نطق كلمتين لم أفهمهما، ولكن بنبرة هادئة للغاية، وغريبة جداً لأنها أوقفت أنفاسه الصاخبة والمترددة. أكان يقترب من الحياة أم من الموت؟ كانت ماريا جالسة مع الممرض قرب السرير. لقد ألهمني الأخير بعض الثقة، وأحزنني لوجدانيته المفرطة. واعترض على اقتراح ماريا بجعل والدي يشرب من الحساء الذي تراه خير دواء، متذرعاً بأنّ الطبيب لم يقل شيئاً بخصوص الحساء. بل أراد الممرض أن نتريث حتى يعود الطبيب كي يقرر أمراً مهماً. تحدث إلينا الممرض بحماس لا تستحقه جلستنا، فلم تصرّ ماريا الطيبة على اقتراحها. ولكنني أبديت تكشيرة اشمئزاز أخرى.

أرغماني على الذهاب إلى النوم لأستعدّ على مرافقة الممرض ليلاً. إذ كان يكفي المريض أن يتناوب على إعانته اثنان، أحدهما يستلقي على الصوفا. فذهبت إلى سريري، وغفوت بسرعة فاقداً الإحساس بشكل كامل ولذيذ دون أن يسرقني أي وميض حلم من نومي.

لكنني في ليلة البارحة، بعد أن قضيت اليوم في تجميع ذكرياتي، رأيت مناماً قوياً حملني إلى تلك الأيام بوثبة عالية عبر الزمن. رأيتُني مع الطبيب في غرفتي التي تجادلنا فيها بشأن العلق والسترة المقيدة. وكان شكلها يختلف عن شكلها اليوم وقد أصبحت عش الزوجية. وكنت أعلّم الطبيب طريقة في علاج والدي، وكان الطبيب كما كان شاباً عصبياً وليس عجوزاً هرماً كما هو الآن. كان يصرخ متحدثاً عن عدم جدوى القيام بأشياء كثيرة، ونظارتاه في يده وعيناه مرتبكتان. قال بالضبط: (إنّ العلق سيعيد له وعيه إلى الحياة والآلام، ليس حريّاً بنا أن نجري له ذلك!).

لكنـي ضربـت بقبضتـي علـى كتاب طبـي وصرخت: (العلق! أريد ديدان العلق! هات السترة المقيدة أيضاً!).

يبدو أنّ حلمي صار كابوساً، لأنّ زوجتي أيقظتني لتقطعه عليّ. يا لتلـك الظـلال البعيـدة! أعتقـد أننا بحاجة لمجهر بصري يقلب الأحداث في رأسنا لنراها ثانية!

كان نومـي الهـادئ آخـر مـا أتذكـر من ذلك اليوم الحزين. ثم تبعته بضعة أيام طويلة يشـبه بعضها بعضاً. وحينما كان الطقس يتحسـن، كان أبي يستردّ قواه أيضاً. فيتحرك بحرية في غرفته مباشراً بحثه عن الهواء بين الأريكة والسرير. كان ينظر من النافذة المغلقة إلى الحديقة المغطاة بالثلج اللامع تحت الشـمس. وكلما دخلت إلى غرفته كنت مسـتعداً للجدال، فيغيب ذلك الوعي الذي لطالما انتظره الطبيب. إذ كان يظهر على والدي تحسّن في الإحساس والإدراك، لكن الوعي كان بعيد المنال.

عليّ أن أعترف بكامل الأسف أنّ شعوراً بالحقد على سرير الموت، حيث يمكث والدي، سـكن أعماقي، ليتفاقم ألمي بشـكل غريب حتى وصـل إلـى تغييـر معالمـه. وكان هـذا الحقـد يخصّ الطبيـب أولاً ليزداد كلما أخفيته عنه. وكان يخصّني ثانياً لأنني لم أفتح الموضوع مجدداً مع الطبيب لأقول له بوضوح إني لا أعير اهتماماً لعلمه، وأتمنى أن يحول المـوت بيـن الألـم وبيـن والـدي. لكن هذا الحقد امتدّ ليشـمل المريض نفسـه. فمن جرّب أن يبقى لأسـابيع بقرب مريض مضطرب، كمشـاهد سـلبي لعدم خبرته في التمريض، سـيتفهمني حتماً. كنت سـأحتاج إلى نقاهـة طويلـة الأمـد لأطهّر نفسـي وأسـتعيد توازنـي وأتلذذ بالحزن على والدي وعلى نفسي أيضاً. وعلى عكس ذلك، كنت أحارب تارة عندما أعطيه الدواء وتارة حينما أمنعه عن الخروج من الغرفة. فضاعفت تلك الحرب حجم الحقد في داخلي.

twitter @baghdad_library

في إحدى السهرات، ناداني كارلو – الممرض – لأشاهد تطوراً جديداً ظهر على والدي. فهرعت خائفاً من أن يدرك ما أصابه ويريد أن يوبخني على ذلك.

كان أبي واقفاً في وسط الغرفة، بملابسه الداخلية، وواضعاً على رأسه قبعة النوم الحمراء. وكان ينطق بكلمات مفهومة بين الحين والآخر، رغم ألمه الشديد. وعندما دخلت، قال لكارلو: (افتح!).

كان يريد أن يفتح النافذة، فأجابه كارلو أنه لا يستطيع بسبب البرد القارس. فنسي أبي سؤاله لوهلة، ثم جلس على الأريكة بالقرب من النافذة، واستلقى باحثاً عن الراحة. وعندما رآني ابتسم وقال لي: (هل نمت؟). ولا أظن أنه تلقّى إجابتي. ولم يكن الوعي بالمستوى الذي كنت أخشاه. فعندما يحتضر المرء تترتب عليه أمور كثيرة تشغله عن التفكير بالموت. كان جسمه قد وظّف كل نقطة فيه للتنفس. وبدل أن يسمعني صرخ مجدداً إلى كارلو: (افتح!). لم يكن ليهدأ، بل كان يترك الأريكة ليظلّ واقفاً. ثم ينام على السرير، بعناء شديد وبمساعدة الممرض، لوهلة على جنبه الأيسر ثم على جنبه الأيمن حيث يقاوم لدقائق. ثم ينادي الممرض كي يعاونه على الوقوف، فينتهي على الأريكة حيث يبقى مستلقياً وقتاً أطول.

في ذلك اليوم، وبينما كان يلهو بين السرير والأريكة، وقف أمام المرآة وحدّق بنفسه فيها مهمهماً: (يا إلهي! أبدو مكسيكياً!). أظنه كان على وشك أن يكسر تلك الرتابة المملة، لدرجة أنه حاول التدخين. فملأ فمه بسحبة واحدة نفخها بكدر على الفور.

ناداني كارلو لأشاهد لحظة وعي كامل عند المريض. كان يسأل بتعاسة: (هل أنا مريض للغاية؟!). ولم يعد إلى وعيه الكامل هذا ثانية، بل انتابه الهذيان مباشرة. ونهض من السرير وتخيّل أنه استيقظ بعد ليلة

قضاها في إحدى فنادق فيينا. ولا بدّ أنه حلم بتلك المدينة كي ينعش فمه الناشف بعد أن تذكّر مياهها اللذيذة والباردة، فتحدث عن الماء العذب الذي كان بانتظاره عند نافورة قريبة.

كان مريضاً مشاكساً، ولكنه لطيف بالمجمل. وكنت أسبّب له القلق لأني أخشى أن يغضب حالما يعي وضعه، لذا لم يخفف لطفه من عنائي الشديد. لكنه كان يطيع كل أمر يوجّه إليه، آملاً أن تخلّصه الطاعة من الإعياء الذي أصابه. وذهب الممرض ليجلب له كأساً من الحليب، فوافق بكل سرور. وأراد أن يتملص منه بعد أن ارتشف القليل، بنفس الاضطراب الذي جعله ينتظر الحليب. وبما أنه لم يشعر بالرضا حالاً، ترك الكأس ليسقط على الأرض.

لم يظهر الطبيب امتعاضه من حالة المريض أبداً. بل كان يرى تحسناً في كل يوم، دون أيّ تغيير في حتمية المصيبة. جاء بالعربة في إحدى الأيام وكان مستعجلاً. أوصاني أن أجبر المريض على البقاء نائماً ما استطاع من الوقت، لأن الوضعية الأفقية هي الأفضل للدورة الدموية. ثم أوصى والدي الذي فهم الأوامر وقطع وعداً بتنفيذها بأسلوب ذكيّ، إذ بقي واقفاً في وسط الغرفة، ثم عاد إلى شروده أو إلى – ما كنت أسميه – تأمّله في مصيبته.

أثناء الليلة اللاحقة شعرت للمرة الأخيرة بالخوف من عودته إلى رشده. إذ كان جالساً على الأريكة قرب النافذة، منهمكاً بالنظر عالياً من خلف الزجاج إلى السماء الصافية ذات النجوم. أرهقته أنفاسه، ولكنه لم يبد أيّ ألم منها. وكان رأسه يبدو، بسبب أنفاسه تلك، كأنه يقوم بإيماءات الموافقة على شيء ما. ففكرت متخوفاً: (ها هو ينذر نفسه للمصاعب التي لطالما تجنّبها!). وحاولت أن أحدّد النقطة الدقيقة من السماء التي صوّب النظر إليها. فكان ينظر بجهد كمن يتجسس عبر ثقب

twitter @baghdad_library

موجود في الأعلى، وكأنه ينظر إلى نجوم الثريا. إني أرجّح أنّه في حياته كلها لم ير أبعد ممّا كان يرى حينئذ.

استدار إليّ فجأة دون أن يقوم عن الأريكة. قال لي بجدية وتحذير: (انظر! انظر!). وعاد حالاً لينظر إلى السماء ثم التفت إليّ ثانية وقال: (أرأيت؟! أرأيت؟!).

حاول أن ينظر مجدداً إلى النجوم، لكنه لم يستطع. فارتمى خائراً على مسند الأريكة. وعندما سألته ما الذي أراد أن أراه لم يفهمني، ولم يتذكر ما رأى، ولم يتذكر أنه أراد مني أن أرى شيئاً. ففاتته الكلمة التي حاول جاهداً أن يبحث عنها كي يقولها لي، وضاعت منه إلى الأبد.

كانت الليلة طويلة، لكنني أعترف أنها لم تكن مضنية بالنسبة لي وللممرض، لأننا تركنا المريض يفعل ما يشاء. فكان يمشي في الغرفة بملابسه الغريبة، دون أن يعرف أنه ينتظر الموت. وحاول مرة أن يخرج من الممر حيث كان البرد شديداً، فمنعته عن ذلك وأطاعني فوراً. ومنعه الممرض مرة أخرى من النهوض عن السرير، ملبياً تعليمات الطبيب. لكن والدي ثار علينا حينها واحتجّ، وخرج عن طوره وبدأ يبكي ويجدّف حتى سمحت له بأن يفعل ما يشاء. فهدأ حالاً وعاد إلى حياته الرتيبة وإلى بحثه الدؤوب عن الراحة.

ترك أبي الطبيب يفحصه عندما عاد، وحاول أن يتنفس بعمق كما طلب منه. وقال لي: (ماذا يقول الطبيب؟ متى سأخرج من هنا؟). وأوصاني الطبيب ثانية أن أبقيه في فراشه طويلاً. كان أبي يصغي إلى الأصوات التي اعتاد عليها فقط، كصوتي وصوت ماريا وصوت الممرض. فلم أكن أؤمن بجدوى تلك التوصيات، ورغم هذا وافقت متكلماً بنبرة تهديد! ووعده أبي أيضاً أن يلزم الفراش، وكان في اللحظة نفسها يقوم ذاهباً نحو الأريكة. فنظر إليه الطبيب وهمهم مستسلماً: (من

الواضح أنّ تغيير الوضعية يشعره بالراحة قليلاً).

وبعد قليل ذهبت إلى النوم، ولم يغمض لي جفن. إذ كنت أبحث في مستقبلي علّني أجد من وما الذي سيدفعني لأصبح رجلاً أفضل. فبكيت كثيراً على شقائي أكثر مما بكيت على ذلك المخبول الذي يدور في غرفته دون هوادة.

وعندما استيقظت، ذهبت ماريا لتنام، وبقيت مع الممرض بجانب والدي. وكنت متعباً ومنهاراً، وكان أبي في أقصى حالات اضطرابه.

حدث آنئذ ذلك المشهد المريع الذي لن أنساه ما حييت، والذي ألقى بظلّه على حياتي وسلب مني كل شجاعة وهناء. ولكي أتناسى ذلك المشهد أجبرت مشاعري أن تكون حيادية مع مرور الوقت.

قال لي الممرض: (كم كان مفيداً لو استطعنا أن نحتجزه على السرير. فالطبيب يعطي لهذا الأمر أهمية بالغة!).

كنت مستلقياً على الصوفا حتى تلك اللحظة. ثم نهضت متوجهاً إلى السرير حيث كان والدي يتخبط أكثر مما ينبغي. وكنت عازماً على أن أبقيه ولو لنصف ساعة على السرير لينال تلك الراحة التي أوصى بها الطبيب. ألم يكن ذلك من واجبي؟ فانقلب أبي على حافة السرير كي يتخلص من ضغطي وينهض من الفراش. فمنعته عن ذلك، وضغطت بكل عزم في ذراعيّ على كتفيه، ورحت أصرخ بصوت مرتفع مخيف كي أسيطر عليه. وخضع خائفاً وصرخ: (سأموت!)، ثم وقف. أخافتني صرخته، فخففت من ضغط يديّ. واستطاع أن يجلس على حافة السرير ووجهه لوجهي. أعتقد أنه كان غاضباً عندما شعر أني أعيق حركته كلياً، وبدا له أني أمنع عنه الهواء الذي كان بأمسّ الحاجة إليه، كما كنت أحجب عنه النور الذي كان ورائي. استطاع بقوة كامنة أن يقف على قدميه، ورفع يده عالياً وانهال بها على وجهي، كأنه عرف أنه لن يقدر

twitter @baghdad_library

إلا على استخدام ثقلها. وسقط على السرير، ثم على الأرض، فمات!

لم أكن قد عرفت ذلك بعد، لكن قلبي خفق لأني تألمت فعلاً من تلك الصفعة التي فاجأني بها عندما كان يحتضر. وقمت برفعه ووضعه على السرير بمساعدة الممرض وأنا أبكي كطفل مصاب. صرخت في أذنه: (هذا ليس ذنبي! بل ذنب ذلك الطبيب الملعون، فهو من أراد أن يبقيك حبيس الفراش!). كذبت في ذلك. ثم وعدته كطفل صغير بأني لن أكرّر ما فعلت ثانية، وسأتركه يفعل ما يريد. لكنّ الممرض قال لي: (لقد مات!). وأبعدني بكل ما أوتي من قوة عن تلك الغرفة. فتوفيّ والدي قبل أن يعرف أني كنت بريئاً.

وفي عزلتي، حاولت أن أتجاوز الأزمة بالتفكير: فاستبعدت أن يكون والدي، الذي فقد رشده، قد تقصّد أن يضربني أو أن يستخدم يده بدقة فائقة ليصفع بها وجهي. وكيف يمكن أن أتأكد من صحة فكرتي؟ فكرّت أن أسأل كوبروسيش بهذا الخصوص. فهو كان طبيباً، وقد يستطيع أن يفسّر كيف بوسع المحتضر أن يتخذ قراراً، وعلى أي أساس تكون ردة فعله. فمن المحتمل أن أكون ضحية حركة لا إرادية نشأت عند محاولته أن يسهّل عملية التنفس! لكني لم أحدّث الطبيب بذلك، إذ كان من المستحيل أن أخبره كيف ودّعني أبي قبيل رحيله، وهو الذي اتّهمني من قبل بأني لم أكن ودوداً مع والدي بما فيه الكفاية.

بل كانت الصفعة الأقوى عندما سمعت كارلو يخبر ماريا في المطبخ عند المساء: (رفع الوالد يده عالياً جداً وصفع ابنه على وجهه، وكان هذا آخر ما فعله المريض!). فتأكدت حينها أنّ الطبيب سيعلم بتلك الحادثة.

عندما عدت لاحقاً إلى غرفة الموت، وجدتهم قد ألبسوا الجثة، وصفف الممرض شعر والدي الأبيض الرائع. وقد جمّد الموت جسده

المهيب. كانت يداه الضخمتان القويتان شاحبتين، لكنهما طبيعيتان، وتبدوان على أهبّة الاستعداد للعراك. ولم أرغب في رؤيته ثانية، بل لم أتمكن من ذلك.

وأثناء الجنازة استطعت أن أتذكر والدي الضعيف والطيب كما عرفته طوال مراهقتي، وأقنعت نفسي بأنه لم يصفعني عمداً عندما كان يلفظ آخر أنفاسه. فأصبحت على أحسن حال، إذ رافقتني ذكراه بلطف دائم. وكان بمثابة حلم سعيد أن توصلت وإيّاه إلى اتفاق: فغدوت أنا الأضعف، وأمسى هو الأقوى.

وعدت إلى تديّن الطفولة، وبقيت عليه مدة طويلة. وتخيلّت أن أبي يسمعني، فقلت له إنها لم تكن غلطتي بل غلطة الطبيب. فالكذبة لم تعد لها أهمية لأنّ والدي أصبح يعرف كل شيء، مثلي تماماً. واستمرت لقاءاتنا الهنيئة طويلاً، وكانت كعشق محظور، لأني لم أتردد يوماً عن ازدراء الدين أمام الآخرين. وأعترف أني كنت، كل صباح، أوصي أحدهم، بخشوع، أن يعتني بوالدي. فالدين الحقيقي هو الذي لا يرغمك على الإيمان به جهراً ليمنحك الطمأنينة التي لن تتمكن من العيش بدونها أحياناً.

twitter @baghdad_library

5. زواجي

يرتبط مفهوم الحياة الإنسانية، في ذهن أيّ شاب ينتمي لعائلة برجوازية، بمفهوم الصعود. وفي مقتبل العمر، يقصد بالصعود ما أنجزه نابليون الأول في حياته العظيمة. وقد يكون بوسع المرء أن يشبه نابليون حتى لو بقي أسفل سافلين، ودون أن يحلم بأن يصبح إمبراطوراً ليبلغ أمجاده. فالحياة الباهرة يرويها الصوت البدائي الذي يشبه صوت أمواج البحر ما إن يتشكل حتى يتغير في كل لحظة إلى أن يتبدد! وأنا أيضاً كنت آمل أن أصبح مثل نابليون وأتهالك مثل الأمواج.

لم تكن حياتي تعزف إلا علامة موسيقية واحدة عالية ومزعجة جداً، لا يطرأ عليها أي تنويع، ويحسدني عليها البعض. وكان أصدقائي معجبين بي، ولم أغيّر من نظرتي إلى شخصي، حتى عندما أصبحت راشداً.

وقد يكون الضجر من عزف وسماع تلك العلامة الوحيدة هو السبب في تفكيري بالزواج. فمن لم يجرّب الزواج بعد يعطيه قيمة أكثر مما يستحق. فقد تجدد الزوجة نفسها في الإنجاب، سواء نحو الأفضل أم الأسوأ. ولكن أمنا الطبيعة التي تفرض علينا ذلك، والتي لا تعرف كيف تقودنا إلى طريق الصواب، تقنعنا بأننا سنتجدد نحن أيضاً عن طريق المرأة، وذلك لأننا لا نفكر بالذرية حينها نهائياً. وليس هذا التجديد سوى وهم طريف لا نمتلك أي دليل علمي لإثباته. وبالفعل نكمل حياتنا واحداً بجانب الآخر هكذا من دون أي تغيير، إلا إذا انتابنا ازدراء جديد نحو من يختلف عنا، أو إذا تملّكنا الحسد تجاه من يتفوق

twitter @baghdad_library

علينا.

والجميل في الأمر أنّ مغامرة الزواج قد بدأت بصداقتي مع حميّ، والإعجاب الذي نشأ في قلبي تجاهه قبل أن أعرف أنّه أب لبنات في سن الزواج. لذا من البديهي أنني لم أقرر ما دفعني نحو تلك الغاية التي كنت أجهلها. إذ انفصلت عن إحدى الفتيات التي اعتقدت لوهلة أنها تفي بغرضي، وبقيت متعلقاً بحميّ المستقبلي. كم أرغب بالإيمان بالقدر!

إنّه جوفاني مالفنتي إذن من أشبع رغبتي في التجديد، لأنه كان مختلفاً عني جداً وعن كل الأشخاص الذين رغبت بصداقتهم في تلك الآونة. فأنا كنت مثقفاً بما فيه الكفاية نظراً لتنقّلي بين كليّتين، وللخمول الذي اعتراني لمدة والذي أتلمّس آثاره التربوية. أما هو فكان تاجراً مهماً وجاهلاً ونشيطاً. وما كنت لأحسده على شيء إلاّ على تلك القوة والسكينة اللتين استمدّهما من جهله، وكانا سبب افتتاني به.

كان عمره حوالي الأربعين عاماً حينها، وينعم بصحة جيدة وطول قامة وجسد ضخم يزن قنطاراً وأكثر. وكانت أفكاره القليلة تجول في رأسه الكبير بوضوح شديد، يقلّبها ويتعمق فيها حتى تكاد تصبح جزءاً من جسده وشخصيته. ويطوّرها بعناية فائقة إلى أعمال جديدة في كل يوم. كنت أفتقد جداً لتلك الأفكار، فتعلقت به علّني أنهل من فيضه.

وكنت أتردد إلى البورصة تلبية لنصيحة أوليفي، الذي أكّد لي أنه مكان مناسب لاكتساب الخبرة التجارية، ولكي أمدّه ببعض الأخبار المفيدة.

جلست على تلك الطاولة التي بدت كعرش لحميّ المستقبليّ، والتي لم أفارقها أبداً، حيث خلتُني أجلس على مقعد في مدرسة تجارية عريقة لطالما بحثت عنها.

وسرعان ما انتبه لإعجابي به، فأجاب فوراً بصداقة بدت لي أبوية.

هل كان يعرف منذئذ كيف ستجري الأمور؟ فعندما غدا لي مثالاً يحتذى في التجارة، صرّحت برغبتي في التحرر من أوليفي لأدير أعمالي بنفسي. لكن مالفنتي نصحني بالعدول عن ذلك، بل ظهرت عليه سمات الفزع من تصريحي. فكان بوسعي أن أتفرغ للتجارة دون أن أقطع علاقتي الوثيقة بوكيلي الذي يعرفه جيداً. وكان يجود عليّ في المعلومات، بل كتب مرة بخطّ يده على مفكّرتي توصيات ثلاث اعتقد أنها تكفي لتنمية أية شركة: 1. لا تقتضي الضرورة أن يعرف المرء كيف يعمل، ولكن من لا يعرف كيف يعمل يؤذي الآخرين. 2. قد تتحسر على شيء واحد، وهو أنك لم تعرف إدارة مصالحك جيداً. 3. إنّ النظرية جدّ مفيدة في إدارة الأعمال، لكنها تستخدم حالما تصفى الأعمال فقط.

كنت أعرف هذه النظريات والكثير غيرها دون التفكير بها، لكنها لم تفدني بشيء.

عندما أعجب بأحدهم أحاول تقليده مباشرة. فأصبحت نسخة عن مالفنتي، لأني أردت أن أكون داهية. بل حلمت ليلة أنني أكثر منه دهاء، وقد رأيت أنني اكتشفت خطأً ما في مؤسسته التجارية، فأردت أن أدلّه عليه لأحصل على ثناءه.

قاطعته ذات يوم عندما كان يناقش أحدهم بالتجارة، على تلك الطاولة، ويشتمه. وأخبرته أنه يخطئ عندما يبوح بدهائه أمام الجميع. فالداهية الحقيقي في التجارة، برأيي، هو الذي يعمل بطريقة تظهره مغفلاً. فسخر مني على ذلك، لأنّ الشهرة تنفع الداهية كثيراً برأيه. فيتراكض الجميع إليه ليحصلوا على بعض النصائح ويأتون إليه بالأخبار الطازجة، بينما يعطيهم نصائح مفيدة ومثبتة بالتجربة منذ العصر الوسيط. وبوسعه انتهاز الفرصة لبيع بعض السلع أثناء حصوله على الأخبار في مرّات كثيرة. ثم إنّ الجميع يتوجّهون إلى أكثرهم دهاء كي يبيعوا ويشتروا

twitter @baghdad_library

بطريقة مربحة - وحينها كان يصرخ لظنّه أنه وجد أخيراً ما يساعده على إقناعي. فلا يرجو الناس من المغفل شيئاً، اللهم إلا إذا ورّطوه بالتضحية بكل أرباحه. لكنّ بضاعته ستكون أغلى دائماً من بضاعة الداهية، طالما أنّ الأول كان قد خُدع بلحظة اغتنام المكاسب.

كنت أهمّ شخصية على تلك الطاولة بالنسبة له. وكان يبوح لي بأسراره المهنية، ولم أفكر يوماً في إفشائها. وكانت ثقته تلك في محلها، حتى أنّه استطاع أن يخدعني مرتين عندما كنت قد أصبحت صهراً له. ففي المرة الأولى كلّفني ذكاؤه بعض الأموال بلا شك، إلا أنّ وكيلي كان المخدوع، لذا لم أكترث كثيراً. إذ أرسلني أوليفي إليه لسحب بعض المعلومات، وقد حصل على معلومات فاسدة ولم يسامحني أبداً، بل صار يسألني كلّما فتحت فمي لأعطيه معلومة: (وممن حصلت على هذه؟ من حميك، صحيح؟). ولكي أدافع عن نفسي كان عليّ أن أدافع عن جوفاني، فشعرت أنّني الخادع ولست المخدوع. وكان إحساساً بغاية الروعة!

وفي مرّة أخرى كنت أنا الأبله، ولكني - حتى في هذه المرة - لم أستطع أن أكرهه. بل كان يثير فيّ الحسد تارة والبشاشة تارة أخرى. وكنت أرى في كوارثي تلك تطبيقاً صائباً لمبادئه التي لم يشرحها لي جيداً. ووجد في ذلك مدعاة للهزل معي، دون أن يعترف مطلقاً بأنه خدعني، مؤكداً بوجوب السخرية من الجانب الكوميدي لحظيّ السيئ. واعترف مرة واحدة بمزاحه الفظّ، وكان هذا في زفاف ابنته آدا، بعد أن شرب الشمبانيا التي أربكت جسده الضخم الذي اعتاد على شرب الماء النقيّ. فروى ما حدث حينئذ، وهو يصرخ ليتغلب على الغبطة التي تعيقه عن الكلام:

- ...وصدر ذلك القانون! وكنت محبطاً ومنهمكاً في حساب كم

سيكلّفني من خسائر. وفي تلك اللحظة يدخل صهري، ويصرّح
لـي بأنـه يريـد التفـرغ للتجارة. فقلت: (هاهي الفرصة مواتية!).
فتسرّع في التوقيع على الوثيقة خشية أن يصل وكيله في الوقت
المناسب ليمنعه عن ذلك، وتمت العملية بنجاح..

ثم أغرقني بالمديح الطيب: (يعرف الأدباء جميعهم عن ظهر قلب. يعرف ماذا قال هذا وماذا قال ذاك، لكنه لا يعرف قراءة جريدة!).

وكان كلامه صحيحاً! فلو رأيت ذلك القانون، الذي ظهر في زاوية لا تلفت الانتباه كثيراً في الخمس جرائد التي أقرؤها يومياً، لما وقعت فـي الفـخ. وكان علـيّ أن أفهـم القانـون فـوراً وأسـتنتج تبعاته، ولم يكن ذلـك سـهلاً. إذ ينخفـض بسـببه معـدّل الضريبـة علـى البضائع التي كان يتحدث بشأنها، وهذا ما كان سيقلّص من قيمتها.

ثـم نقـض اعترافـه فـي اليـوم التالي، حيث كانـت الأعمال في فمه تسـترجع مظهـره قبـل العشـاء. (إنّ الخمـر يفتح نوافـذ الخيال!) قال لي بهدوء، ووضح أنّ القانون قد نُشر بعد يومين من توقيعي على الوثيقة. ولكنه افترض أنني لو قرأته لكنت سأخطئ في فهمه. وقد خدعني في هذا أيضاً، ليس بسبب الود الذي يكنّه لي، بل لأنه يظنّ أنّ الناس تقرأ الجرائـد لتتابـع مصالحهـا؛ أمـا أنـا عندما أقرؤها أشـعر أنني تحولت إلى الرأي العام، وإذا قرأت تخفيض الضرائب لتذكرت كوبدن[1] والليبرالية. وإنها لأفكار عظيمة لا تبقي لأعمالي مكاناً في ذاكرتي.

ولكنني في إحدى المرات استطعت - أنا الفاشـل - أن أحصل على إعجابه بي وبأشدّ صفاتي سوءاً. فكان لدينا منذ مدة بعض الأسهم

(1) رتشارد كوبدن (1804-1856) سياسي واقتصادي بريطاني دعا إلى مبدأ التجارة الحرة. المترجم.

twitter @baghdad_library

في إحدى مصانع السكّر التي انتظرنا منها المعجزات. ولكنّ الأسهم كانت تنخفض ببطء كل يوم، إلى أن تخلّص جوفاني - الذي لم يكن يعرف السباحة في عكس التيار - من أسهمه، ونصحني ببيع أسهمي أيضاً. فوافقته كلياً، وفكّرت أن أبيع الأسهم لوكيلي، ثم دوّنت الفكرة في المذكّرة التي عدت إلى استعمالها في ذاك الزمان. ومن المعلوم أنّ المذكّرة لا تقرأ خلال النهار، لذا فوجئت بعد عدة سهرات من وجود ما يفيدني في تلك الملاحظة في وقت متأخر من الليل قبل أن أنام.

صرخت مرّة من الضيق، وقلت لزوجتي إنني عضضت على لساني، كي لا أسهب في طرح الكثير من التوضيحات لها. ومرّة أخرى تظاهرت بعضّ يدي، إذ تملّكني شرود مفرط. (احذر على قدميك إذن!)، قالت زوجتي ضاحكة. وبعد ذلك لم أشكُ من أضرار أخرى، بحكم العادة. فكنت أمعن النظر، بغباء، خلال النهار، في تلك المذكّرة اللعينة والرقيقة علّها تعصر نفسها وتُفهمني شيئاً. ولم أعد أفكّر بها حتى أتى المساء.

وفي اليوم التالي وجدت نفسي أركض إلى البورصة، تدفعني قوة فجائية. فوجدت وكيلي هناك لأجل الصدفة، وقال لي إنّ سعر تلك الأسهم قد تضاعف تقريباً خلال الأسبوع الماضي. فصرخت من نشوة النصر: (سأبيعها الآن إذن!). وهرعت إلى حميّ الذي علم بارتفاع سعر الأسهم، وكان نادماً جداً لأنه باع أسهمه، وقليلاً لأنه نصحني ببيع أسهمي. وقال ضاحكاً: (اهدأ يا زينو! فهذه المرّة الأولى التي تخسر فيها بعد أن اتّبعت إحدى نصائحي. ثم إنّ هذا الخطأ لم يكن ناجماً عن نصيحة، إنما عن اقتراح قدّمته لك. وشتان بين النصيحة والاقتراح!).

فضحكت بتلذذ وقلت: (لكنني لم أتّبع تلك النصيحة!). ولم أجد في الحظ ما يكفيني، بل حاولت الظهور كأني أستحق ذلك الربح. فأخبرته أنّ الأسهم لن تُطرح للبيع إلا لليوم التالي. وأضفيت هالة من

الأهمية، فجعلته يصدّق بأني حصلت على بعض المعلومات التي نسيت أن أخبره بها، والتي أفادتني كثيراً بعدم الاكتراث لنصيحته.

فكلّمني، متجّهماً ومستاء، دون أن ينظر في وجهي: (لا ينبغي أن يمتهن التجارة من لديه دماغ كدماغك! وعندما ترتكب سفالة كهذه لا ينبغي أن تعترف بها! ما زال أمامك الكثير من الأشياء عليك أن تتعلمها!).

أسفت كثيراً لإغضابه، فكان ظريفاً أكثر عندما يوبّخني. لذا رويت له بصراحة كيف جرت الأمور، وقلت: (أرأيت؟ ينبغي أن يمتهن التجارة فقط من لديه دماغ كدماغي!). وسرعان ما هدأ حتى ضحك معي: (ما ستحصل عليه من هذه المبيعات ليس ربحاً، إنما هو تعويض بالأحرى عن رأسك الذي كلّفك الكثير، ومن الصواب أن تسترجع شيئاً مما خسرته في ثمنه!).

لا أفهم لماذا توقفت على رواية الخلافات التي نشبت بيننا والتي كانت قليلة جداً. فكنت أعزّه كثيراً، لدرجة أنني أحببت رفقته رغم اعتياده على الصراخ عندما يفكر بوضوح شديد. لقد تعودت طبلة أذنيّ على صياحه. ولو كانت صرخاته أقل لبدت نظرياته غير الأخلاقية أكثر عدوانية، ولو كان مهذباً أكثر لبدت قوته أقل أهمية. ولئن كنت مختلفاً عنه جداً، لكني أعتقد أنّه بادلني الود بالود فعلاً. ولو لم يكن قد رحل مبكراً لتأكدت من ذلك أكثر. لقد واظب حقاً على إعطائي الدروس بعد زواجي، وكان يهذّبها غالباً بالصياح والشتائم التي كنت أتقبلها مقتنعاً باستحقاقها.

تزوجت ابنته. كانت هذه إرادة أمنا الطبيعة الغامضة، وسترى لاحقاً كيف نفذّتْ أوامرها بعنف. أتحرى حالياً في وجوه أولادي فأرى فيهم ذقني الناعمة التي تدلّ على الرقّة، وعينيّ الحالمتين اللتين ورثوها عني.

twitter @baghdad_library

وأتحقق بين الفينة والأخرى في ما إذا ورثوا سمات القوة الهمجية عن جدّهم الذي اخترته لهم.

ثـم إننـي بكيـت علـى قبره بغـض النظر عن وداعه الأخير الذي لم يكن ودوداً فيه للغاية. قال لي وهو على فراش الموت إنّه معجب بحظي الوقح الذي يسـمح لي بالتحرك بحرية، بينما يحتضر هو على الفراش. فسـألته مسـتغرباً: (وماذا فعلت لك كي تتمنى لي المرض؟). فأجابني: (لـو كنـت سأشـفى بمجـرد إعطائـك مرضي هـذا، لما توانيت لحظة عن ذلك، ولكنت سأتمنى أن تتزايد آلامك فيه! فأنا لا أملك تلك الوساوس القهرية التي تملكها أنت!).

لم يكن هناك إطلاقاً ما يشـعرني بالإسـاءة، إذ كان يودّ إعادة تلك الصفقـة التـي مكنتّـه مـن أن يورّطنـي ببضاعة فاقـدة لقيمتها. ورأيت في ذلـك حـسّ الدعابـة أيضـاً لأنـي لـم أكن متأسـفاً من رؤيتـه يرى ضعفي كوساوس قهرية ينعتني بها.

وتألمـت أمـام قبـره لأنـي كنـت أشـهد على جزء منـي يُدفن تحت الأرض، مثلما عانيت أمام تلك القبور السابقة. فأيّ شعور بالفقدان هذا الذي يستلب مني أباً ثانياً، اعتيادياً، وجاهلاً، مقاتلاً شرساً يوضح عجزي وثقافتـي وخجلـي! هـذه هـي الحقيقـة: أجل، أنا رجـل خجول! لم أكن لأكتشـف ذلك لولا تحليلي لمالفنتي هنا. ومن يعلم كم كنت سـأعرف نفسي أفضل لو بقي حياً يُرزق إلى جانبي؟!

اكتشـفت بسـرعة أنّ حميّ كان يُلزم نفسـه بإحدى الخصوصيات، رغـم أنّـه يسـتمتع بالحديـث عـن نفسـه بإيجابياتها وسـلبياتها على تلك الطاولـة فـي البورصـة. لـم يكـن يتحدث عن عائلته أبداً، أو كان يتحدث بلباقة وبصوت منخفض عن العادة إذا أجبر على ذلك. فكان يكنّ فائق الاحترام لعائلته، أو ربما لم يكن يرى في جميع أولئك الذين يشاركونه

الجلسة من يستحق أن يعرف شيئاً عنها. وهناك عرفت أنّ أسماء جميع بناته الأربع تبدأ بحرف الألف. وكان يرى في ذلك أمراً عملياً، لأن الصفات التي يتّسم بها الحرف ستنتقل من الواحدة إلى الأخرى دون أن تخضع للتغييرات. وحفظت أسماءهن على الفور: آدا، أوغوستا، ألبيرتا، وآنّا. وقال على تلك الطاولة إنّ جميعهن جميلات. وأبهرني ذلك الحرف الأول أكثر مما ينبغي، لأنني أدعى زينو[1]، فكان لديّ الانطباع بأني سأتزوج امرأة تأتي من بلاد بعيدة. وحلمت بهنّ جميعاً مقيّدات بحرف الألف، كأنهن معروضات للبيع بالجملة.

وكان من قبيل الصدفة أنني أنهيت، وقبل أن أدخل إلى بيت مالفنتي، علاقة قديمة نوعاً ما مع فتاة كانت تستحق معاملة أفضل. ولكنها صدفة تستدعي التفكير فيها، لأن القرار الذي اتخذته في ذلك الانفصال لم يكن وراءه سبب وجيه. فالمسكينة ابتكرت نظاماً رائعاً لتعلّقني بها أكثر، وهو الغيرة. فانتابني من الشك ما كان كافياً لأقطع علاقتي بها نهائياً. فهي لا تعرف أنّ فكرة الزواج كانت تستحوذ اهتمامي حينها، وأنني لم أكن أرى فيها ما يشجعني على ذلك لسبب بسيط، إذ حسبت أنّ التجديد الذي أنشده ليس متوفراً فيها كفاية. أما ذلك الشك الذي جعلتني أتظاهر بامتلاكه كان برهاناً على مكانة الزواج السامية التي لا تسمح باختلاق شكوك من هذا النوع. وعندما أشعرني الشكّ بسرعة أنّ حيرتي بدأت تنقشع تذكرت أنها كانت تبذّر في إنفاق الأموال أيضاً. والآن، وبعد أربع وعشرين عاماً من الزواج الصالح، لا أعتقد أنّ رأيي كان في محلّه.

كان حظّها طيباً في هجراني لها، لأنها تزوجت بعد أشهر قليلة برجل ثري دخل في مجال التغيير قبلي. وما إن تزوجت حتى رأيتها

(1) في اللغة الإيطالية (ZENO)، أي إنّ اسمه يبدأ بآخر حروف الأبجدية، على عكس الحرف (A) أول حروف الأبجدية. المترجم.

twitter @baghdad_library

في منزلي، لأنّ زوجها كان صديقاً لجوفاني. وتقابلنا كثيراً بعد ذلك، ولم نلمّح للماضي أبداً عندما كنا شباناً، بل سيطر الحذر الفائق على أجوائنا لسنين طويلة.

باغتتني مؤخراً بسؤال، وقد اعترى حياء العذراوات وجهها المحاط بشعرها الأشيب: (لماذا تخلّيت عني يا زينو؟). فكنت صريحاً معها، لأنني لم أمتلك الوقت الكافي لاصطناع كذبة: (لم أعد أعرف السبب. فأنا أجهل الكثير من الأمور الأخرى في حياتي!). أوحي إليّ أن أطأطأ رأسي ففعلت. وقالت: (كم يؤسفني ذلك! كلما كبرت في السن بدوت لي أنك رجل ممتع جداً!). فرفعتُ رأسي ببطء، لأنّ الظرف لم يكن مناسباً لشكرها.

في أحد الأيام علمت أنّ عائلة مالفنتي عادت إلى المدينة من رحلة ترفيهية طويلة بعد إقامة صيفية في الريف. لم أقم بأية خطوة تجعلني أدخل ذلك المنزل، لأن جوفاني قد بادر ودعاني إليه.

أطلعني حينها على رسالة من صديقه الحميم وكان يسأله فيها عن أخباري. فكان ذاك زميلي في الجامعة، وكنت أعزّه كثيراً حتى أنني توقعت له مستقبلاً زاهراً ليصبح كيميائياً عظيماً. أما في ذلك الوقت، لم يعد يخصني بشيء لأنه تحول إلى تاجر أسمدة عظيم، الأمر الذي لم أكن أراه فيه أبداً. دعاني إذن جوفاني إلى منزله لأني كنت صديقاً لصديقه فقط، وبالطبع لم أعترض على الدعوة!

أذكر زيارتي الأولى تلك كأنني قمت بها البارحة. كانت في ظهيرة يوم خريفي ضبابي وبارد، وأذكر حتى ذلك الانتعاش الذي انتابني بعد أن خلعت المعطف في تلك الدار الدافئة. شعرت أنني بلغت منتهى طموحي. وما زلت معجباً إلى اليوم بحماقتي التي اعتبرتها حينئذ حنكة وبصيرة. فكنت أركض وراء العافية، وراء الصواب. وكان من الخير أن

يشتمل حرف الألف الأول على أربع فتيات، ثلاثة منهن سيشطبن على الحال، وفي ما يخص الرابعة لم تكن لتنجو من امتحان عسير أيضاً. كأنني كنت قاضياً صارماً! لكني في الوقت ذاته لم أكن أعرف ما الصفات التي أرغبها في إحداهن وما التي أكرهها فيها.

كانت الصالة الأنيقة والواسعة تتكون من نمطين مختلفين من الأثاث، يقسمان الصالة نصفين كما كان دارجاً حينها؛ أولهما فرنسي ملكي، وثانيهما - يحمل طابع مدينة البندقية - غنيٌّ بالذهب الذي يغطّي الجلود أيضاً. وجدت هناك أوغوستا وحدها، تقرأ كتاباً بجانب الشرفة. أعطتني يدها، وكانت تعرف اسمي، وقالت إنّ أباها أخبرها بزيارتي، فكانوا بانتظاري. ثم هرولت لتنادي أمها.

هاهي أولى الفتيات اللواتي تبدأ أسماؤهن بحرف الألف تشطب من بالي فوراً. كيف استطاعوا أن يصنفوها بين الجميلات؟ أوّل ما تلحظه فيها هو الحول الشديد الذي يذكّرك بها حالما تختفي لبعض الوقت. وكان شعرها خفيفاً أشقر باهتاً. ولم يكن مظهرها العام بشعاً للغاية، لكنها كانت سمينة قليلاً في سنها وقتئذ. ففكرت في تلك اللحظات عندما كنت وحدي: (يا إلهي إذا كانت الأخريات يشبهن هذه!....)

انخفض عدد الفتيات إلى اثنتين بعد قليل. إذ دخلت إحداهن برفقة أمها، ولم تكن تبلغ التاسعة من العمر بعد. كم كانت رائعة تلك الطفلة بضفائر شعرها المتألق والطويل الذي يغطّي كتفيها! كانت تبدو - بوجهها الجميل والممتلئ - كملاك صغير يفكّر، عندما تكون صامتة، كما لو رسمها رافايل سانزيو بنفسه.

وهاهي حماتي!... سأضبط نفسي بالحديث عنها حتى لو بوسعي التكلم بحرية تامة. فأنا أكنّ لها الكثير من المودة لأنها بمثابة والدتي، ولكني هنا أروي حادثة قديمة لم تظهر فيها كصديقة؛ فلن أقول فيها

twitter @baghdad_library

– حتى في هذه الصفحات التي لن تراها أبداً – كلمات أدنى من أن تكون محترمة. كان تدخّلها وجيزاً بالمجمل لدرجة أني كدت أنساه: ضربة في اللحظة المناسبة... لكنها ليست بتلك القوة التي اضطرتني أن أفقد توازني المؤقت. ربما كنت سأفقد التوازن دون تدخّلها، ثم لا أحد يعلم إن كانت قد أرادت فعلاً أن يحدث ما حدث! السيدة مالفنتي مهذبة لدرجة أنها لم تكن لتبالغ في الشرب وتفضح أعمالي كما فعل زوجها. لم يحدث مطلقاً أن تصرفت على هذا النحو. ولذا فأنا أروي قصة زواجي بإحدى بناتها التي لم أكن أريد، ولست متيقناً إن كان الأمر مدبّراً منها أم بسبب حماقتي.

وبرغم هذا أقرّ أنّ حماتي في حقبة زيارتي الأولى كانت امرأة جميلة وأنيقة، ترتدي ألبسة فاخرة لا تدلّ على حب الظهور. كان كل شيء فيها لطيفاً ومنسجماً؛ وتشكّل مع جوفاني ثنائياً نموذجياً للتكامل بين الزوج والزوجة لطالما حلمت فيه. كانا سعيدين حقاً معاً، فهو دائم الصراخ وهي تدلي بابتسامة تعبّر عن الرضا والأسف في آن واحد. لقد أحبّت زوجها العملاق جداً، ولا بدّ أنه استحوذ عليها وصانها بعد صراع تجاري رابح. فكانت متعلقة به ليس بدافع المصلحة، إنما بدافع الإعجاب الذي أشاطرها إياه فأفهمه جيداً. إذ كان يضع جلّ حيويته التي تنعش الحياة بشكل عجيب في مجال ضيّق، يبدو كقفص لا يوجد فيه إلا تجارته وعدوّين اثنين – شريكيه – ، هناك حيث تولد العلاقات دوماً ويُكشف الستار عن الكثير من الالتباسات. وكان يخبرها عن أعماله كلها، بينما كانت مهذبة لدرجة أنها لم تمدّه بالنصائح خشية أن تحرفه عن جادة الصواب. لقد كان يشعر بحاجته إلى مساعدة صامتة كهذه، فيركض نحو المنزل أحياناً ليقوم بالمونولوج المعتاد وهو مقتنع تماماً أنّه يأخذ نصيحة من زوجته.

إلا أنـي لـم أسـتغرب عندمـا علمـت بأنـه كان يخونها، وأنها كانت تعـرف ذلـك دون أن تكـنّ لـه البغضـاء في قلبهـا. كنت متزوجاً منذ عام عندمـا أخبرنـي جوفانـي غاضبـاً أنه أضاع رسـالة تخصّـه كثيراً، وأراد أن يفتّـش عنهـا بيـن بعـض البطاقات التي أعطانـي إياها آملاً بالعثور عليها. وبعد أيام قليلة، أخبرني مبتهجاً بأنه وجدها في محفظته. (أكانت رسالة من امرأة؟) سألته، وأجابني بنعم بحركة من رأسه متباهياً بحظه السعيد.

وفـي يـوم مـا كانـت زوجتـي وحماتي تتهمانـي بأني أضعت بعض البطاقات، فقلت مدافعاً عن نفسي إني لست محظوظاً مثل جوفاني الذي ما إن أضاع رسالة حتى عادت إلى محفظته من تلقاء نفسها. فضحكت حماتي بتلذذ، ولم أشكّ أبداً أنها من أعاد الرسالة إلى المحفظة. ومن البديهـي أنّ حادثـة كتلـك لـم تكـن تؤثّر مطلقاً في علاقتهما. فكلّ امرئ لـه طريقـة فـي الغـرام لا يعـرف غيرهـا، ولم تكن طريقتهمـا الأكثر غباء بالنسبة إليّ.

استقبلتني السيدة بلطف شديد، واعتذرت لاصطحابها آنّا الصغيرة التـي حـان موعدهـا الوجيـز مـع أمهـا ولـم تكن تطيق البقـاء مع غيرها. كانـت الطفلـة ترمقنـي مـن رأسـي حتـى قدمـي بنظـرات جديـة. وعندما عـادت أوغوسـتا لتجلـس علـى الصوفـا المواجهة لي وللسـيدة مالفنتي، ذهبـت الطفلـة لتسـتلقي فـي حضـن أختها، وظلت تتابعنـي طيلة الوقت باهتمام أفرحني إلى أن عرفت لاحقاً أيّ أفكار تدور في رأسها الصغير.

ولم تكن المحادثة مسليّة بادئ الأمر، فالسيدة كانت مملّة بما فيه الكفاية في اللقاء الأول، حالها حال جميع الأشخاص المهذبين. فكانت تسـألني كثيـراً عـن صديقـي الـذي جـاء بـي إلى هذا المنـزل - كما كان ظاهراً - والذي لم أتذكر اسمه الكامل حتى.

وأخيـراً دخلـت آدا وألبيرتـا، فتنفسـت الصعـداء. كانتـا جميلتيـن

twitter @baghdad_library

كلتيهمـا، يحمـلان النـور إلـى تلـك الصالـة التـي افتقدته مـن قبل. كانتا سمراوتين وطويلتين ممشوقتي القوام، لكن الواحدة تختلف عن الأخرى اختلافاً لا يضعني أمام خيارات صعبة. فكان عمر ألبيرتا آنذاك لا يتجاوز السبعة عشر عاماً، وبشرتها السمراء ناعمة تميل للون الوردي كبشرة أمها، ليزيـد مـن طفولـة هيئتهـا. أما آدا، فكانت أكثرهن نضجاً بنظراتها الجدية ووجهها ناصع البياض وشـعرها الكثيف والمجعّد والمسـرّح بأناقة على نحو رصين.

من الصعب اكتشاف الأسباب الحقيقية لذاك الإحساس الذي أصبح عنيفاً جداً. ولكني متيقن من أنني لم أصب بما يسمّى بالفرنسية (***coup de foudre***) مع آدا. بل استبدلت الحب من النظرة الأولى باقتناعي التام بأنّ تلك المرأة كانت من أحتاج إليه، وهي التي سـتقودني إلى الصحة الجسدية والمعنوية بفضل قدسية الزواج بامرأة واحدة. وعندما أفكر في ذلك ثانية أستغرب كيف غابت صعقة الحب الأولى، وحلّ ذلك الاقتناع التـام محلّهـا. فمـن الملاحـظ أننـا نحن الرجال لا نبحث في الزوجة عن الصفات التي نحبّها ونحتقرها في العشيقة. ويبدو أنني لم أكتشف دماثة آدا وجمالها فوراً، بل إنها سحرتني بمحاسن أخرى كالجدية والحيوية. وبالمحصلـة كنـت أعشـق فيهـا مـا عشـقت في والدها مـن مزايا، ولكن بنسخة ألطف. وبما أنني رأيت، وما زلت أرى، أنني لم أكن على خطأ بأنّ آدا تتمتع بتلك الميزات على صغر سـنها، فأسـتطيع أن أعتبر نفسـي مراقباً عظيماً... أعمى!

كنت أرغب بشيء واحد عندما التقيت آدا للمرّة الأولى، وهو أن أقع في غرامها لأني بحاجة إلى المضيّ نحو الزواج بها. وكنت متأهباً بعنفـوان أمنحـه عـادة لعملياتـي الصحيـة. وليس باسـتطاعتي القول متى نجحت في ذلك، ربما في وقت الزيارة الأولى الوجيز نسبياً.

لا بد أنّ جوفاني كان قد تحدث عني كثيراً لبناته. فكن يعرفن مثلاً أنني انتقلت من كليّة القانون إلى كليّة الكيمياء، وأنني عدت إلى الكليّة الأولى لسوء الحظ! حاولت أن أفسّر ما جرى: فمن المؤكد أننا إذا تقوقعنا في دراسة ما سنكون جاهلين حتماً بالجزء الأكبر من المعرفة. فقلت إني كنت سأظلّ متنقلاً بين كليّة وأخرى لو لم تداهمني الحياة بجديّتها. وطبعاً لم أقل إنّ تلك الجديّة التي شعرت بضغطها منذ وقت قصير كان سببها تصميمي على الزواج.

ثم قلت، لألطّف الأجواء: (والغريب أنني تركت إحدى الكليّتين في موعد الامتحانات بالضبط! وكان هذا من قبيل الصدفة!) وافتعلت ابتسامة من يريد أن يقنع الآخرين بأنّ كلامه كذب في كذب. فالحقيقة كانت أنني غيّرت دراستي في فصول متعددة.

وهكذا انطلقت لاصطياد آدا، وأجهدت نفسي في جعلها تضحك عليّ – وفي غيابي أيضاً – ناسياً أنني اخترتها لجديّتها. لا شكّ أنني رجل غريب الأطوار، وأنني ظهرت أمامها كرجل غير متوازن. ولم يكن الذنب كلّه ذنبي، والدليل أنّ كلاً من أوغوستا وألبيرتا، اللواتي لم أخترهما، حكمتا عليّ بشكل مختلف. إلا أنّ آدا التي كانت جدية حينئذ باستخدام عينيها الجميلتين في البحث عن الرجل الذي ستقبل به عريساً، لم تكن قادرة على حبّ من يجعلها تضحك. فكانت تضحك وتضحك، وكانت ضحكتها تعطي مظهراً ساخراً لمن كان يضحكها. فدونيّتها حقيقية وكان لا بدّ أن تضرّها يوماً ما، لكنها أضرتني أولاً. ولو أنني استطعت السكوت في الوقت المناسب لأخذت الأمور مجرىً مغايراً. ليتني أعطيتها الوقت كي تتكلم، فلكنت سأكتشفها أكثر لأحترس منها بشكل أفضل.

كانت الفتيات الأربعة يجلسن على الصوفا الصغيرة، وقد بدا عليهن الإعياء، بصرف النظر عن آنّا التي ما زالت بحضن أوغوستا. كم كن

twitter @baghdad_library

جميلات معاً! تأكدت من ذلك بسرور عميق عندما وجدت نفسي متوجهاً صوب الإعجاب والحب بشكل مذهل. كنّ جميلات حقاً! حتى لون أوغوستا الشاحب كان مفيداً لإبراز لون الأخريات المتألق.

كنت قد تحدثت عن الجامعة. وكانت ألبيرتا على وشك إتمام المرحلة الثانوية، فتحدثت عن دراستها، واشتكت من صعوبة اللغة اللاتينية. قلت إني لا أستغرب ذلك فاللاتينية لغة لا تصلح للنساء، وأعتقد أنّ النساء في العصر الروماني القديم كنّ سبّاقات في التخاطب باللغة الإيطالية! وأكدت أنّ دراسة اللاتينية كانت المادة المفضلة لديّ. وقلت جملة في اللاتينية بعد ذلك، لكني أخطأت فيها، مما استدعى ألبيرتا لتصحيحها. يا لهذا الحادث! لم أهتم بذلك، بل أخبرتها أنها عندما تراكم عشرات الفصول الجامعية وراءها عليها أن تحذر أيضاً من التفوه بعبارات لاتينية.

وكانت آدا قد عادت مؤخراً من إنكلترا بعد أن قضت عدة أشهر مع والدها هناك. فقالت إنّ إنكلترا تغصّ بالنسوة اللاتي يعرفن اللاتينية. وكانت تتحدث دوماً بصوتها الجاد الحياديّ، أكثر مما تقتضيه شخصيتها اللطيفة الناعمة. وروت لنا كيف تختلف النسوة البريطانيات عن النساء في إيطاليا. فكنّ يجتمعن لأغراض خيرية أو دينية أو حتى اقتصادية. وكان أخواتها يدفعنها على الحديث عن تلك الأمور التي تجذبهن لسماعها دائماً، والتي تبدو بغاية الروعة والغرابة لفتيات من مدينتنا في ذلك العصر. فتحدثت آدا، لترضي أخواتها، عن تلك السيدات المديرات، والصحفيات وأمينات السر، والناطقات السياسيات، اللواتي يصعدن إلى المنبر للخطاب أمام المئات، دون خجل أو ارتباك إن قاطعهن أحدهم ليدحض أفكارهن. تحدثت آدا ببساطة وحياء، دون أن تفكر في إثارة الإعجاب أو الضحك.

كنت أعشق عفويتها في الكلام، بينما كنت أفسد الأحداث وأزيّف الأشخاص كلما فتحت فمي، لأني لم أكن أرى أية فائدة في الحديث لو اتبعت أسلوباً مختلفاً. كنت ثرثاراً كبيراً، ولم أصبح خطيباً. فالكلمة بالنسبة إليّ لا بدّ أن تكون حدثاً بحدّ ذاتها، لذا لا ينبغي أن تكون تحت إمرة أي حدث آخر.

كنت أضمر الحقد لبلاد الأفّاقين، وأظهرته دون الخشية من تأثيره على آدا التي لم تظهر حقدها أو حتى حبّها لإنكلترا. فكنت قد قضيت أنا أيضاً بعض الأشهر هناك، دون أن أتعرف على أيّ بريطاني من الطبقة الرفيعة لأنني أضعت في الرحلة عناوين بعض التّجار من أصدقاء والدي. فأرغمت إذن في لندن على التعامل مع بعض العائلات الفرنسية والإيطالية حتى وصل بي الظن أنّ أصول جميع الأشخاص الطيبين في تلك المدينة تعود إلى القارة الأوروبية. وكانت معرفتي باللغة الإنكليزية محدودة جداً، فساعدني بعض الأصدقاء على فهم بعض الأشياء من حياة أهل الجزيرة، ولا سيما ازدراءهم كل من هو ليس بريطانياً. وشرحت للفتيات عن ذلك الشعور السيئ الذي انتابني في الإقامة وسط الأعداء. ولكني كنت ملزماً بتحمل قسوة الحياة هناك لستة أشهر، لأن والدي وأوليفي أرادا معاقبتي بدراسة التجارة الإنكليزية. الأمر الذي لم أنفّذه لأنه يجرى بأماكن خفية على الأغلب. وقد ذهبت إلى أحد بائعي الكتب لأشتري معجماً. وكان عنده قط بدين وجميل يسترخي على المصطبة، يستفزّك وبره الناعم على مداعبته. وما إن وضعت يدي عليه لألامسه، حتى هاجمني بغدر وخدش يدي بعنف. فلم أعد أطيق انكلترا بعد ذلك اليوم، ووجدت نفسي في باريس في اليوم التالي.

ضحكت أوغوستا وألبيرتا والسيدة مالفنتي من قلوبهن. إلا أنّ آدا استغربت تلك الأحدوثة، وظنت أنها أخطأت فهمها. ترى هل كان البائع

twitter @baghdad_library

من أساء لي وخدشني هكذا؟ كان عليّ أن أعيد الحكاية، وهذا ما يسبّب لي الضجر، لأن الإعادة تفسد سرّ النكتة. وأرادت ألبيرتا الحكيمة أن تساعدني: (حتى القدماء كانوا يستدلّون بحركات الحيوانات كي يتخذوا قراراتهم!). ولم أقبل تلك المساعدة، لأن القط الإنكليزي لم يستجب لنداء الآلهة، بل كان تصرّفه أقوى من القدر ذاته!

ولم تكتف آدا بذلك، بل فتحت عينيها بشدة وطلبت توضيحات أخرى: (هل قام القط بتمثيل الشعب البريطاني كله بالنسبة لك؟!).

آه كم كان حظي سيئاً! بدت لي الحكاية - الحقيقية فعلاً - وكأنها مهمة للغاية ومصطنعة لأهداف تربوية. لم تكن عسيرة على الفهم، فيكفي أن تتذكر أنّ في إيطاليا، حيث تعرف وتودّ الكثير من الناس، لا أحد يعطي أهمية لما ارتكبه ذلك القط. ولكني لم أقل ذلك، بل العكس: (طبعاً! فليس بوسع أيّ قط إيطالي أن يقدم على ارتكاب حماقة كهذه!).

وضحكت آدا طويلاً جداً، وبدا لي ما قمت به نجاحاً باهراً عندما جلبت التعاسة لنفسي ولأقصوصتي بمزيد من الإسهاب: (استغرب البائع نفسه من تصرفات قطّه الذي كان يتصرف بطريقة حسنة مع الجميع. لقد حدث هذا معي بالذات لأنني إيطالي، فكان لا بد أن أنجو بجلدي. *(it was really disgusting*

حدث حينها أمر كان عليه أن ينبّهني وينقذني. إذ صرخت الطفلة آنّا، بعد أن بقيت تراقبني بصمت، لتعبّر جيداً عن إحساس آدا: (أنت مجنون حقاً! مجنون بالكامل!). فتدخلت السيدة مالفنتي مهددة: (هلاّ بقيت ساكتة؟! ألا تخجلين من التدخل بنقاشات الكبار؟!). وكان للتهديد تأثير سلبي: (إنه مجنون! يتحدث مع القطط! علينا أن نحضر الحبال ونقيّده حالاً!).

احمرّت أوغوستا خجلاً، ونهضت حاملة الطفلة بعيداً، موبخة إياها

ومعتذرة مني في الوقت نفسه. لكنّ تلك الأفعى الصغيرة استطاعت من عند الباب أن تركّز في عينيّ، وتصرخ مكشّرة: (سترى كيف يقيّدونك!).

تعرضتُ لهجمة عنيفة على حين غرّة، حتى أني لم أتمكّن من الدفاع عن نفسي حالاً. ولكني أحسست بالرضا حين شعرت بأسف آدا التي رأت كيف تمّ التعبير عن وجهة نظرها الخاصة. لقد استطاعت وقاحة الطفلة أن تقرّب بيننا أكثر. فرويت لهن، وأنا أضحك من كل قلبي، كيف حزت على شهادة طبية عليها كل الأختام الرسمية، تثبت بكافة الأشكال أني بكامل قواي العقلية. وهكذا علمن بالدعابة التي جرّبتها مع والدي العجوز. واقترحت أن أجلب تلك الشهادة للطفلة.

عندما نوّهت بانصرافي لم يسمحن لي بذلك. فأردن أن أنسى أولاً الخدوش التي أصابني بها ذاك القطّ الآخر. وبقيت معهن لنشرب كأساً من الشاي.

ومن المؤكد أنني شعرت، بشكل غامض، بضرورة أن أكون مختلفاً قليلاً لأنال من استحسان آدا، وأنه من السهل أن أصبح كما تريدني أن أكون. وكنا ما نزال نتحدث عن رحيل والدي، وبدا لي أنّ آدا الجدية ستتفاعل معي حالما أظهر حزني الشديد، الذي كان يؤلمني فعلاً. ولكني ما إن أجهدت نفسي لكي أقترب منها حتى فقدت عفويتي، وابتعدت عنها. إذ قلت إنّ الألم لفراق كهذا شديد لدرجة أني لو كان عندي أولاد لجعلتهم يحبونني أقل، لأوفّر عليهم المعاناة القاسية بسبب موتي لاحقاً.

وارتبكت قليلاً عندما سألنني عن الطريقة التي سأتّبعها لأصل إلى غايتي تلك: أهي معاملتهم بشكل سيئ أم ضربهم بشكل مبرّح؟ قالت ألبيرتا ضاحكة: (قد يكون قتلهم هو الطريقة المضمونة!).

كنت أرى رغبة عدم إزعاجي تتحرك داخل آدا، مما جعلها مترددة. ولكن الجهود التي بذلتها لم تمكّنها من اجتياز حيرتها. وقالت إنها

twitter @baghdad_library

ترى فكرتي بأن أنظّم حياة أولادي على ذلك النحو في غاية الوداعة، لكنه ليس صائباً أن نقضي حياتنا للتجهيز للموت. فعاندتها وأكدت أنّ الموت هو المنظّم الحقيقي للحياة. فكنت أفكر بالموت دوماً، ولم يكن يوجعني سوى ألم واحد، وهو وجوب الموت وحتميته. فتبدو لي كل المسائل الأخرى ناقصة الأهمية، ولم أكن أواجهها إلا بابتسامة سعيدة أو بضحكة أسعد بكثير. واسترسلت بقول أشياء أقلّ صدقاً، كقولي إنّ معرفتي بها مهمّة في حياتي. وفي الحقيقة أعتقد أنني تحدثت إليها هكذا لأريها كم كنت رجلاً سعيداً. فلطالما اخترنني النساء بفضل سعادتي.

فاعترفت لي، وهي بكامل حيرتها، أنها لم تكن تهوى تلك الحالة النفسية. فإذا أفرغت الحياة من قيمتها ستصبح آيلة للانهيار أكثر مما ترغب أمنا الطبيعة بذلك. كانت تلمّح لي بصدق أنني لا أصلح لها، ومع هذا نجحت في جعلها تحتار وتفكّر، وكان ذلك إنجازاً بحد ذاته بالنسبة لي. ذكرت ألبيرتا اسم فيلسوف قديم يتفق معي في الرؤى، بينما قالت أوغوستا إنّ الضحك ثمين جداً، فكان أبوها غنيّ بذلك. فأردفت السيدة مالفنتي ضاحكة: (لأنه يحب الأعمال الرابحة!).

أنهيت تلك الزيارة الخالدة أخيراً. لا يوجد ما هو أصعب من زواج تام في هذا العالم. لقد كان وضعي يوضّح ذلك، حيث سبق قراري بالزواج اختياري للخطيبة. فما الذي كان يمنعني من لقاء الكثير من الفتيات قبل أن أختار واحدة منهن؟ كلا! كان يبدو حقاً أني تكاسلت عن رؤية الكثير من النسوة، ولم أكن أودّ التعب. كان بوسعي أن أمتحن قليلاً تلك الفتاة التي اخترتها، وأتأكد من استعدادها لتلتقي بي في منتصف الطريق، كما يحدث عادة في قصص الحب ذات النهاية السعيدة. ولكنني اخترت فتاة لصوتها الوقور وشعرها المرسل والمسرّح بعناية. وقلت لنفسي إنّ فتاة جدية مثلها لم تكن لترفض رجلاً ذكياً وغنياً من عائلة

عريقـة، وليـس قبيحـاً، مثلي. وأحسسـت منـذ اللقاء الأول بعدم التوافق، ولكن ما بعد النشـاز إلا الانسـجام! ولا بدّ أن أعترف بأني فكرت أنها ستبقى على حالها، لأنها كانت تعجبني هكذا، وسأكون أنا من يتغير إن أرادت ذلك. وكنت متواضعاً جداً بالمحصلة؛ فأن تغيّر من طباعك لهو أسهل بكثير من أن تربّي الآخرين ثانية.

وبعـد مـدّة قصيـرة أصبحـت عائلـة مالفنتـي تشـكّل مركـز حياتي. فجوفاني يصبح لطيفاً معي بعد كل سهرة أقضيها في منزله. وكان ذلك اللطـف يدفعنـي إلـى تجـاوز الحدود. ففي بـادئ الأمر كنت أقوم بزيارة واحـدة فـي الأسـبوع، ثـم تكـررت الزيارات حتى وجدت نفسـي أذهب إلى بيته كل يوم لأقضي ساعات طويلة من الظهيرة. ولم تكن تنقصني الذرائـع كـي أسـتوطن فـي ذاك المنـزل، ولا أظننـي مخطئاً إن أكدت أنّ بعض الذرائع قد عرضت عليّ. فكنت أحمل الكمنجة معي أحياناً لأعزف مـع أوغوسـتا، المـرأة الوحيـدة التـي تعزف علـى البيانو في ذاك المنزل. ومـن سـوء الحـظ أنّ آدا لا تعـزف علـى أيـة آلـة، ومن سـوء الحظ أيضاً أنني أعزف بشكل سيئ على الكمنجة، ومن أكثر أنواع الحظ سوءاً أنّ أوغوسـتا لـم تكـن عازفـة ماهـرة. فكنت ألغـي المقطع الأصعب من كل معزوفة، بحجة كاذبة وهي أني لم ألمس الكمنجة منذ وقت طويل. ومن المعـروف أنّ عـازف البيانـو متفـوق دوماً علـى عازف الكمنجة الهاوي. فكان تكنيك أوغوستا معتدلاً، ولكنني كنت أعزف أسوأ منها، ولم أكن سـعيداً بذلك، فقلت لنفسـي: (كم كنت سـأعزف أفضل لو اسـتطعت أن أعـزف مثلهـا!). وفـي الوقـت الذي كنت أحكم فيه عليها، كان الآخرون يحكمون عليّ سـلبياً كما علمت لاحقاً. وفي حين أنّ أوغوسـتا كانت تواقة للعزف معي، كنت ألاحظ الضجر الذي يداهم آدا من معزوفاتنا، لـذا تظاهـرت أكثـر مـن مرة بأني نسـيت الكمنجـة في البيت، فلم تطلب

twitter @baghdad_library

مني أوغوستا العزف بعدئذ.

ولسوء الحظ أني لم أقض مع آدا تلك الساعات في المنزل فحسب، بل سرعان ما أصبحت ترافق خيالي اليوم كله. فكانت المرأة التي اخترتها بنفسي، وكنت أشعر أنها غدت ملكاً لي، فزيّنتها بكل أحلامي لتصبح مكافأة الحياة أجمل وأجمل. وأخذتُ أرى فيها كل المزايا التي كنت بحاجة ماسّة إليها، فكان ينبغي عليها أن تكون أكثر من شريكتي، بل أماً ثانية تلدني مجدداً في حياة تامة أشعر فيها برجولتي وانتصاراتي.

وكنت أجمّل من مظهرها في أحلامي قبل أن أودعها للآخرين. وفي الواقع لاحقت الكثير من النساء في حياتي، وبلغت الكثير منهن. وفي الحلم كنت أبلغهن جميعاً. ومن الطبيعي أني لا أبدّل من مظهرهن شيئاً لغاية تجميلهن، ولكني أفعل كما يفعل أحد أصدقائي، وهو رسام مرهف. فكان، عندما يتعرف على امرأة جميلة، يفكر كثيراً بأشياء أخرى جميلة كقطعة خزف ناعمة مثلاً. ولكنه حلم خطير لأنه قد يمنح سطوة أخرى للمرأة التي يحلم بها، وقد تحتفظ بشيء ما، من الفواكه أو الأزهار أو قطعة الخزف التي ألبسها إياها في المنام، عندما يراها في الواقع.

أستصعب الحديث عن قصتي مع آدا. إذ مررت بعدها بحقبة طويلة من حياتي أحاول فيها جاهداً نسيان تلك الحادثة الغبية التي أشعرتني بخجل يجعلني أصرخ وأعترض: (لست أنا الذي كان جاهلاً للغاية!). ومن كان إذن؟.. لكن الاعتراض يمنح القليل من الراحة النفسية، لذا كنت أصرّ عليه. كان أولى أن أتصرف على هذا النحو عندما كنت في العشرين من عمري. ولكني لا أرى نيّتي الزواج سبباً منصفاً كي تكتب عليّ سمة الحماقة. أنا الذي خضت المغامرات مبادراً إلى حدّ الوقاحة، أعود لأصبح فتى خجول يحاول لمس يد حبيبته على غفلة منها، ويعشق ذاك الجزء من جسمه لأنه تشرّف بملامستها.

كانت هـذه المغامـرة الأصـدق فـي حياتي كلها، أتذكرها الآن وقد هرمت على أنها الأشنع، لأنها في غير مكانها وزمانها، كفتىً في العاشرة من العمر يتحرش بمربيّته. يا للقذارة!

كيـف أشـرح حيرتـي فـي الحديث بوضـوح مع تلك الفتاة: قرّري! أتحبينني أم لا؟.. كنـت أذهـب إلـى تلـك الـدار لأنهـا توصلنـي إلى ما أصبو إليه، وأعدّ درجات السلّم، الذي يقود إلى الطابق الأرضي، قائلاً لنفسـي: (إذا كان عـدد الدرجـات فرديـاً فهـذا يعنـي أنها تحبني!). وكان عـدد الدرجـات الثلاثـة والأربعـون فردياً دائمـاً. وكنت أصل إليها وكلّي ثقة عمياء، ثم أنتهي بالحديث عن شيء آخر. ولم تكن آدا قد وجدت الفرصة المناسبة لتفصح عن عدم اكتراثها بي. ولو كنت مكانها لاستقبلت ذاك المراهق الثلاثيني بركلة على قفاه!

لم أكن أشبه فتىً عاشقاً في العشرين يبقى صامتاً بانتظار أن ترمي عشيقته بنفسها في أحضانه. ولم أكن آمل أمراً كهذا، لأني كنت سأتحدث بالموضوع، ولكن فيما بعد. وإن لم أتقدم إلى الأمام فلأني كنت فاقداً لثقتـي بنفسـي. فكنـت أرجـو أن أصبـح رجلاً نبيـلاً وقوياً وجديراً بفتاتي الإلهية، وقد يحدث هذا بين يوم وآخر، فلم لا أتريث قليلاً؟

وكم أخجل من نفسي لأني لم أفطن مباشرة لخطأ كنت على وشك ارتكابه. فكان علي أن أتعامل مع فتاة بسيطة جداً حينما بدت لي كسيدة متبرجة خبيرة لكثرة ولعي بها. وبالغت في سخطي الهائل عندما أرتني أنها تتجاهلني. ولكني مزجت الحقيقة بالأحلام في داخلي حتى لم أعد أتخيل أنها ستقبلني أبداً.

إنّ الجهل في مكنون النساء يدلّ على نقص في الرجولة حقاً. لم أكن قد أخطأت في السـابق أبداً، وينبغي أن أصدّق أني خدعت في ما يخـص آدا بعـد أن أفسـدت علاقتـي بهـا مـن حيث المبدأ. فكنت أقترب

twitter @baghdad_library

منها ليس لأنال غرامها، إنما لأتزوجها. وهذه طريقة غريبة في الحب، لأنها مريحة وتبعث على الطمأنينة، لكنها لا توصل من يسلكها إلى غايته حتى لو كان قريباً منها. وتنقص مرحلة أساسية لهذا الحب: وهي أن تستعبد الأنثى.. فيحضر الذكر نفسه ليلعب دوره بخمول شديد قد يستولي على كل حواسه، بما فيها السمع والبصر.

كنت أحمل الأزهار للفتيات الثلاثة كلهن يومياً، وأطلعهن على غرابة أطواري بخفّة لا تعقل. فكنت أروي لهن يومياً من سيرتي الذاتية.

يحدث للجميع أن يتذكروا ماضيهم بحماس عندما يحصل حاضرهم على أهمية أكبر. أما أنا فكنت أروّج أنّ المحتضر يرى حياته كلها من جديد خلال سكرة الموت. فكان الماضي يقبض عليّ حينها بعنف الوداع الأخير لأني كنت أشعر ببعدي عنه كل البعد. ودائماً ما كنت أتحدث للفتيات عن ماضيّ متشجعاً بإصغاء أليبرتا وأوغوستا الشديد، لأغطي على عدم مبالاة آدا. فكانت أوغوستا، لحسن أخلاقها، تتأثر بسرعة. أما أليبرتا فتصغي باهتمام إلى توصيفي للصعلكة الطلابية، وهي تحمرّ خجلاً، لرغبتها في تجريب مغامرات مشابهة في المستقبل.

وأخبرتني أوغوستا فيما بعد أنّ لا واحدة من الفتيات كانت تؤمن بمصداقية تلك القصص. فبالنسبة لها قصصي نفيسة لأنها من صنعي، ولم يكن للقدر أيّ يد في رسمها. أما أليبرتا فكانت معجبة بها لأنها حصلت على إرشادات ثمينة بفضلها. وحدها آدا - الجدية - كانت ناقمة على أكاذيبي. كنت كالرامي الذي استبسل في التصويب، فأصاب الهدف المحاذي لهدفه.

ولكن قصصي كانت حقيقية في الجزء الأكبر منها. ولم يعد بوسعي تحديد ذلك الجزء، لأني رويتها على الكثير من النساء قبل بنات مالفنتي. فكانت تتطور، دون تعمّد مني، لتصبح معبّرة بشكل أفضل. وأصبحت

القصص حقيقية من اللحظة التي لم أتمكن بعدها بإتّباع أسلوب آخر في روايتها. ولا يهمّني اليوم أن أتأكد من صحتها، لأني لا أريد أن أخدع أوغوستا التي تفضّل أن تعتبرها من صنع أفكاري. أما بالنسبة لآدا، فأعتقد أنها غيّرت رأيها وأصبحت تعتبرها حقيقية الآن.

ظهر فشلي الذريع مع آدا في الوقت الذي حكمت فيه بضرورة التحدث إليها بوضوح. وكانت بديهية الفشل بمثابة مفاجأة، بل كنت أشك في وجوده. لم تكن آدا قد نطقت بكلمة واحدة تدل على نفورها مني، فأغمضت عيني بالمقابل كي لا أرى تصرفاتها الصغيرة التي لا تدلّ على الاستلطاف أبداً. ثم إني لم أكن قد نطقت بالكلمة الحاسمة، وكان بوسعي التخيل أنها لا تعرف مدى استعدادي للزواج بها، وأنها قد تظنني - أنا الطالب الغريب عديم المهارة - أريد شيئاً آخر.

وكان سوء الفهم يتزايد بسبب غايتي المفرطة في التصميم على الزواج. وكنت أرغب فيها حقاً مع أني لا أنفكّ ألمّع خديها بحرص، وأصغّر من يديها وساقيها، وأجعل قامتها تبدو أكثر خفّة ورشاقة. فكنت أريدها زوجة وحبيبة، كما أنّ الأسلوب الذي يجعلها سيدة للمرة الأولى سيكون حازماً.

حدث أن استقبلتني الصبيتان لثلاث مرات على التوالي، وكان غياب آدا مبرراً بزيارة ضرورية في المرة الأولى، وبأنها متعبة في المرة الثانية. وفي المرة الثالثة لم يقدّم إليّ أيّ تبرير حتى انتبهت إلى ذلك بنفسي، فلم أطلبه. لم تقل أوغوستا شيئاً عندما التفتُّ إليها صدفة، لأنها كانت تنظر إلى ألبيرتا مستنجدة. فأجابت الأخيرة: (آدا ذهبت إلى إحدى عمّاتها).

شعرت بالاختناق. كان واضحاً أنها تتجنب لقائي. وقد تحمّلت غيابها في اليوم الماضي، لأني أطلت مدة زيارتي آملاً أن تظهر. بينما

twitter @baghdad_library

بقيت عاجزاً للحظات على فتح فمي في ذلك اليوم، ثم تذرعت بصداع مفاجئ في رأسي ونهضت لأرحل. ومن الطريف أن يراودني شعور حادّ يصدر عن السخط والغيظ في أول اصطدام بعناد آدا! ففكرت أن أستغيث بجوفاني كي يخضع ابنته للأوامر. فالرجل الذي يريد الزواج قادر على فعل شيء كهذا، أي أن يفعل ما كان يفعله أجدادنا من قبل.

وكان لغيابها الثالث أن يحمل دلالات قوية، لأنّ القدر شاء أن أكتشف وجودها في المنزل، مغلقة على نفسها الباب في غرفتها.

أقرّ أولاً أنني فشلت في الحصول على استحسان شخص آخر في ذاك المنزل، أي الطفلة آنّا. لم تعد تعتدي عليّ أمام الآخرين، لأنهم وبّخوها بقسوة. بل انضمّت في بعض الأحيان إلى أخواتها لتسمع قصصي. ويومئذ، لحقت بي حتى عتبة الدار. وطلبت مني بلباقة أن أنحني إليها، ووقفت على رؤوس أصابع قدميها الصغيرتين، ثم قرّبت فمها الصغير من أذني وهمست بصوت منخفض جداً لم يسمعه أحد سواي: (أنت مجنون.. حقاً مجنون!).

والجميل أنّ تلك الكتومة كانت تخاطبني بطريقة مهذبة ورسمية أمام الآخرين. وعندما تأتي السيدة مالفنتي، تختبئ فوراً بين ذراعيها لتنال لمساتها الناعمة. فتقول: (انظر كيف أصبحت طفلتي الصغيرة لطيفة!).

لم أبد اعتراضاً مع أنّ الصغيرة اللطيفة لا تنفكّ تتهمني بالجنون. وأردّ عليها بابتسامة جبانة تدلّ على الشكر، إن دلّت على شيء. كنت أرجو أن لا تمتلك الطفلة شجاعة تدفعها للإفصاح عن عدوانيتها أمام الكبار، بل كان يؤسفني معرفة آدا بأحكام أختها الصغيرة. استطاعت تلك الطفلة أن تربكني. فإذا صدف والتقت عينيّ بعينيها، عندما أتكلم والآخرين، توجّب عليّ النظر في مكان آخر، وكان من الصعب فعل ذلك بعفوية نقية. فكنت أحمرّ خجلاً، لظني أنّ أحكام تلك الطفلة البريئة

قد تؤذيني. أتيت لها بالهدايا، لكني لم أتمكن من ترويضها. فكانت متأكدة من ضعفي أمام قوتها، ويبدو ذلك جلياً من نظراتها المتفحصة والمتطاولة. أعتقد أننا جميعاً نمتلك في ضمائرنا - كما في أجسادنا - نقاط ضعف خفيّة لا نرغب في الوقوف عندها، بل ولا نقدر على تحديدها لكننا نعلم بوجودها. فكنت أبعد عينيّ عن طفلة تسعى إلى التنقيب عن تلك النقاط.

وفي تلك اللحظة، التي أخرج فيها منهاراً لتأتي الطفلة وتجعلني أنحني لأسمع مجاملاتها، التفتّ إليها بوجه مضطرب يبدو لمجنون حقيقي، وهجمت نحوها مهدداً بيدين على شكل مخالب. ففزعت الصغيرة وركضت تصرخ من البكاء.

وهكذا استطعت أن أرى آدا التي هرعت إلى مصدر الصراخ. فأخبرتها الطفلة، وهي تشهق، أنني هاجمتها بضراوة لأنها وصفتني بالمجنون: (لأنه مجنون فعلاً، وأردت أن أقول له ذلك. فما العيب في هذا؟!).

لم أعر انتباهاً للطفلة حينما ذهلت من رؤية آدا في المنزل. لقد كذبت أختاها عليّ إذن، بل ألبيرتا وحدها من كذبت عندما نأت أوغوستا بنفسها عن الموضوع، وكلّفت أختها بذلك. تأكدت من حدسي آنئذ، وقلت لآدا: (تسرّني رؤيتك. حسبتك عند عمتك منذ ثلاثة أيام). ولكنها لم تجبني إذ كانت تهدّأ من روع الطفلة الباكية.

كان التريث في توضيح الأسباب التي أستحقّ معرفتها يرفع الدم حتى رأسي بانفعال. ولم يكن لدي ما أقوله، فخطوت مقترباً من الباب لأخرج. ولولم تتكلم آدا لما عدت إلى هذا المنزل ثانية. وفي لحظة الغضب بدا لي يسيراً أن أتخلى عن الحلم الذي استمر طويلاً.

وأثناء ذلك، التفتت آدا نحوي لتقول، بخجل شديد، إنها عادت

twitter @baghdad_library

منذ بضع دقائق لأنها لم تجد عمتها في المنزل؛ فاكتفيت بذلك لأستعيد هدوئي. كم بدت عطوفة وهي تحضن، مثل أمّ، تلك الطفلة التي لم تنقطع عن الصراخ! كان جسدها مرناً لدرجة أنه بدا أصغر مما كان كلما دنت أكثر من الصغيرة. وتمهّلت في مغازلتها معتبراً إياها ملكاً لي من جديد.

شعرت بالهدوء بعد ذلك، وأردت أن أمسح الإحساس الذي أعربت عنه منذ قليل، فأصبحت لطيفاً مع آدا ومع آنّا أيضاً. وقلت ضاحكاً من قلبي: (إنها تصفني غالباً بالمجنون، فأردت أن أريها تصرفات المجنون الحقيقية. اعذريني! ولا تخافي مني يا صغيرتي، فأنا مجنون طيب).

وتصرفت آدا أيضاً بطريقة لائقة. فأنّبت الطفلة التي لم تتوقف عن البكاء، واعتذرت عنها. ليت آنّا ركضت بعيداً، لكنت قلت لآدا جملة قد توجد في قواعد لغات أجنبية، يكون الهدف منها تيسير حياة من لا يعرف لغة البلد الذي يعيش فيه! (هل لي أن أطلب يدك من أبيك؟). كانت المرة الأولى التي أردت فيها الزواج فعلاً، لذا وجدت نفسي في بلد مجهول. كنت أعامل النساء اللواتي ارتبطتّ بهن بطريقة مختلفة حتى ذلك الحين. فكنت أهاجمهن واضعاً كلتا يديّ، قبل أي شيء آخر، على أعناقهن.

ولكنني لم أتمكن من نطق أية كلمة. فكان لا بدّ أن تمتدّ الكلمات على حقبة معينة من الزمن. بل كان عليها أن تترافق مع تعبيرات وجه متضرع استصعبت صياغته حالاً بعد معركتي مع آنّا، وآدا أيضاً. وكانت السيدة مالفنتي تتقدم من عمق الممر لترى ما حلّ بابنتها التي تصرخ.

مددت يدي إلى آدا باحترام، فبادلت بالمثل على الفور، وقلت لها: (إلى اللقاء غداً. أبلغي اعتذاري للسيدة!).

وترددت في ترك يدها التي كانت تستريح باطمئنان في يدي. ولو خرجت حينها لشعرت أنني سأخسر فرصة فريدة معها حينما لم يشغل

بالها سوى أن تكون مهذبة تعويضاً عن وقاحة أختها. فتبعت إلهام تلك اللحظة، وانحنيت لأقبّل يدها بشفتيّ. فتحت الباب حينئذ، وخرجت بعجلة بعد أن رأيت آدا، التي منذ أن أعطتني يدها اليمنى وهي تلامس باليد اليسرى أختها التي تشبثت بتنورتها، مذهولة تنظر إلى يدها التي قبّلتها كأنها تبحث عمّا كُتب فيها. ولا أظن أنّ والدتها رأتني أقبّل يدها. فتوقفت على السلّم لوهلة إذ فوجئت، أنا أيضاً، بفعلتي التي لم يسبقها مطلقاً أي إصرار وترصد.

أما زالت الفرصة سانحة للعودة إلى الباب الذي أغلقته ورائي، لأقرع الجرس، وأطلب من آدا سماع تلك الكلمات التي كانت تبحث عنها في يدها دون جدوى؟ لم يبد لي ممكناً! سأبدو قليل الحياء إن أظهرت نفاد الصبر. وكنت سأصرّح لها بمبرراتي، منتهزاً الفرصة، لولا أني تداركت عودتي إليها. وهكذا توقفت أخيراً عن رواية القصص على الفتيات الثلاثة عندما قبّلت يد إحداهن.

ولكن باقي ما تبقّى من النهار كان مقيتاً. فكنت مضطرباً وقلقاً، لأنني ظننت أنّ الاضطراب عائد إلى نفاد صبري في ترقب اكتمال تلك المغامرة. كنت أتخيل أنه سيكون بوسعي البحث عن نساء أخريات بكل هدوء في حال رفضتني آدا. لقد تعلقت بها بسبب قراري الحرّ الذي قد أستبدله بآخر يمحي آثاره! لم أدرك حينها أنّ في هذا العالم ما يكفي من النساء، وأني بحاجة إلى آدا وحسب.

وبدت لي الليلة طويلة أيضاً، وقضيت معظمها ساهراً. فكنت قد أقلعت عن حياتي الليلية بعد رحيل والدي، أما حينها فكان غريباً أن أعود إليها بعد أن قررت الزواج. ولم يأتني النعاس إلا في الفجر، وأنا أرغب في النوم الذي يقضي على الملل بسرعة.

في النهار، تملكتني ثقة عمياء بتبريرات آدا بشأن غيابها المتكرر عن

twitter @baghdad_library

الصالة التي كنت أمكث فيها. لقد كانت الثقة تنبع من اقتناعي الراسخ بأنّ المرأة الجادة التي اخترتها لا تعرف الكذب. أما في الليل كنت أتراجع عن ثقتي تلك. وأشكّ في ما إذا كنت أنا من أعلمها بأنّ ألبيرتا - عندما رفضت أوغوستا أن تتكلم - ابتدعت الزيارة إلى العمة لتبرّر لها غيابها. ولم أعد أذكر جيداً ما قلته عندما كان رأسي يشتعل غيظاً، ولكني متأكد من إشارتي إلى تلك الحجة. يا للأسف! لو لم أفعل ذلك، لاخترعتْ حجة مختلفة كي تبرر غيابها. وكنت سأجد التوضيح الذي أسعى إليه في حال اكتشفت أنها تكذب. وكنت سأنتبه لمكانتي عندها في النهاية. فكرت، لأهوّن على نفسي، أنني لن أتزوج أبداً إذا رفضتني آدا. إذ كان رفضها سيغيّر حياتي، ولأهدّأ من روعي أخذت أحلم كم سأكون محظوظاً حينما ترفضني. وتذكرت ذلك الفيلسوف الإغريقي الذي توقّع الندم لمن يتزوج ولمن يبقى أعزب على حد سواء. ولم أكن بالمحصلة قد فقدت قدرتي على السخرية من الوضع، بل فقدت قدرتي على النوم.

انتابني النعاس عندما بزغ الفجر. وحين استيقظت، كان الوقت متأخراً، ولم تكن تفصلني عن زيارتي الموعودة لآل مالفنتي إلا ساعات قليلة، لذا لم يكن هناك ما يدعو لاستخدام الخيال وقنص الأمارات التي قد توضح لي نفسية آدا. من الصعب عموماً أن ترغم عقلك على عدم الانشغال بمسألة يهمّك أمرها كثيراً. قد يصبح الإنسان أكثر الحيوانات سعادة لو أفلح في هذا الأمر. لقد بالغت في مواساة نفسي يومئذ عندما لم أفكر بأي سؤال آخر سوى: هل أحسنت صنعاً عندما قبّلت يدها، أم كان ينبغي أن أقبّل ثغرها أيضاً؟!

وفي ذلك الصباح بالضبط تملكتني فكرة أضرّتني على نحو كبير كما أعتقد، ناهيك عن حالة المراهقة الفريدة التي عشتها بفضل تلك المبادرة الرجولية المتواضعة. كاد الشك يقتلني: فلنفترض أنّ آدا

تزوجتني إذعاناً لأوامر والديها وحسب دون أن تحبني، بل وهي تكرهني كرهاً شديداً! كان الجميع يودني في منزلها، وما كنت أشك إلا بها وحدها. بدأت تلك القصة الشعبية المعتادة للفتاة التي يرغمها ذووها على زواج مكروه تلوح في الأفق، ولكني لم أكن لأسمح بها. ها هو السبب الجديد الذي يجبرني على التحدث مع معها بالذات. إذ لم يكن يكفي أن أوجّه لها تلك العبارة الجاهزة التي حضرّتها. بل عليّ أن أنظر في عينيها وأسألها: (هل تحبينني؟). فإن أجابتني بنعم حضنتها بين ذراعي كي أشعر بارتعاش صدقها. وهكذا بدوت جاهزاً على أكمل وجه. بل كان يجب أن ألاحظ أني وصلت إلى ذلك النوع من الامتحان ناسياً أن أراجع ما ينبغي عليّ التحدث فيه.

استقبلتني السيدة مالفنتي لوحدها، وأجلستني في إحدى زوايا الصالة الواسعة، وانطلقت تتحدث بحيوية كي تمنعني أن أسألها عن الفتيات. وهذا ما جعلني أشرد قليلاً، إذ كنت أعيد في داخلي ذلك الدرس كي لا أنساه عند اللحظة المناسبة. وعاد إليّ الانتباه فجأة كأني سمعت قرع الطبول، فكانت السيدة تجهّز مقدّمة مهمة. كانت تطمئنني عن الألفة التي يكنّها لي كل فرد في العائلة، بما فيهم الطفلة آنّا، لأنهم يعرفونني منذ وقت طويل، واعتادوا على رؤيتي يومياً منذ أربعة أشهر.

- بل خمسة! - صحّحت لها لأني كنت أعدّ الأيام خلال الليلة الماضية، وتذكرت أنّ زيارتي الأولى كانت في الخريف، وكنّا في فصل الربيع حينها.
- أجل! خمسة أشهر! - قالت السيدة وهي تفكّر، كأنها أرادت التحقق من حسابي. ثم قالت بنبرة مؤنّبة: - يبدو لي أنك تتلاعب بأوغوستا.
- أوغوستا؟! - سألت ظناً أنني لم أفهم ما قالته جيداً.

twitter @baghdad_library

– نعم! – أكدت – أنت تتلاعب بها وتغريها.

فأفصحت عن مشاعري بسذاجة: – ولكني لا أرى أوغوستا أبداً!..

افتعلت السيدة حركة تنمّ عن استغراب مؤلم إن لم أخطئ. وحاولتُ خلال ذلك أن أركّز في تفكيري لأصل بسرعة إلى فهم ما بدا لي التباساً أدركت أهميته فوراً رغم هذا. رأيت أني كنت أقصد آدا أثناء تلك الخمسة أشهر، زيارة بعد زيارة. ولا أنكر أنني عزفت مع أوغوستا، وتحدثت إليها أكثر من آدا. ولكنّ هدفي من ذلك لم يكن إلا لكي تروي الأولى قصصي على مسامع أختها، وتثير فيها ما تشعر به من استحسان. أكان عليّ أن أتكلم بوضوح مع السيدة، وأعبّر لها عن مدى إعجابي بآدا؟ لكني قررت قبل قليل أن أتكلم مع آدا وحدها وأختبر مشاعرها بهذا الخصوص.

كانت الأمور ستجري على نحو مختلف لو أنني صارحت السيدة مالفنتي، أي أني لم أكن سأتزوج أوغوستا عندما لم يتسنّ لي الزواج بآدا. آثرت السكوت حينها بعد استسلامي لقرار اتخذته قبل أن أقابل السيدة وأسمع منها ما سمعت من أحاديث مروّعة.

كنت أكثّف تفكيري رغم التشويش الذي اعتراني. فكان عليّ أن أفكر وأتكهن في آن واحد وبأسرع وقت ممكن. لكنّ الأشياء تصبح أقل وضوحاً حينما تمعن العينان في النظر إليها. وتوقعت أنهم كانوا يريدون إلقائي خارج المنزل بأية وسيلة، ثم تراجعت عن هذا. فأنا كنت بريئاً، لأني لم ألّمح بشيء لأوغوستا، تلك البنت التي أرادوا حمايتها. وربما أشاروا إليّ عن أوغوستا كي لا أفكّر بآدا. ولماذا كانوا يدافعون عنها بهذا الشكل، وهي لم تكن طفلة صغيرة؟ أنا متأكد من أني لم أجرّها من شعرها إلا في أحلامي. ولم أفعل شيئاً في الحقيقة سوى أني قبّلت يدها بشفتيّ. لم أكن أريد أن يحرّم عليّ دخول ذلك المنزل، لأني أردت أن

أصارح آدا قبل أن أخرج. لذا سألت بصوت مرتجف: (أخبريني سيدتي ماذا عليّ أن أفعل كي لا أزعج أحداً!).

كنت أفضّل أن أتحدث بهذا الشأن مع جوفاني الذي يفكر بصوت مرتفع، لأني رأيت السيدة ترتبك. ثم قالت بحزم، رغم المجهود الواضح في صوتها لتبدو لبقة: (ينبغي أن تقلّل من عدد زياراتك إلينا، أي أن لا تأتي كل يوم، بل حبّذا مرتين أو ثلاث في الأسبوع؟).

ولو أمرتني بالخروج وعدم العودة أبداً بطريقة فظة، لتوسّلت إليها أن تتقبلني ليومين أو ثلاث في المنزل لأوضح مشاعري لآدا، تنفيذاً لقراري. ولكن كلماتها، التي كانت أكثر لطفاً مما خشيت، أمدّتني بالشجاعة اللازمة لأعبّر عما أشعر به: (لن أضع قدماً في هذا المنزل، إن كنت ترغبين بهذا!).

وحصل فعلاً ما كنت أرجوه، إذ أنها اعترضت وحدّثتني ثانية عن قيمتي لدى كل أفراد العائلة، وتوسلت إليّ أن لا أغضب منها. فأظهرت شهامتي، ووعدتها بتنفيذ كل ما طلبته مني، أي أن أمتنع عن المجيء إلى المنزل لخمسة أيام، ثم أعود بشكل منسّق مرتين أو ثلاث مرات في كل أسبوع، والأهم من ذلك أن لا أغضب منها أبداً.

وبعد أن أدليت بتلك الوعود، أردت التلميح لجديّتي في تنفيذها. فنهضت لأغادر المنزل، لكنها اعترضت ضاحكة: (لن تستطيع أن تتلاعب بي. بإمكانك البقاء).

ومع أني رجوتها أن تأذن لي بالذهاب إلى شأن مهم تذكرته حينها، لكني في الحقيقة كنت أتمنى البقاء وحدي كي أتأمل ما حلّ بي. وتوسلت إليّ السيدة أن أبقى كي تتأكد من أني لست غاضباً منها. فبقيت إذن خاضعاً للتعذيب، فكانت لا تتوقف عن الحديث بتلك الترّهات الفارغة عن الموضة النسائية التي لم تشأ إتّباعها، والمسرح

twitter @baghdad_library

وحتى الطقس الجاف الذي يحلّ في بداية الربيع.

بعد ذلك بقليل أحسست بالسرور لبقائي، لأني شعرت بحاجة إلى توضيحات إضافية. فقاطعتها دون أي حذر، فلم أعد أطيق ثرثرتها:

- أيعلم الجميع بأنك دعوتني لعدم التردد إلى المنزل؟

فبدت السيدة كأنها نست تماماً ما اتفقنا عليه، وقالت:

- عدم التردد إلى المنزل؟! لكنك ستبتعد لأيام فقط، فليكن واضحاً! لن أخبر أحداً بذلك، حتى زوجي نفسه. بل سأكون ممتنة لك إذا اتّبعت الطريقة ذاتها.

فقطعت وعداً بذلك أيضاً. وتعهدت بأني سأزعم تبريرات عديدة فيما لو سألني أحدهم عن سبب غيابي. ووثقت بكلامها حتى تلك اللحظة، وتصورت أنّ آدا ستستغرب ثم تتألم من غيابي المفاجئ. كم كانت صورة رائعة!

وبقيت مدة أطول، وأنا بانتظار إلهام وحي آخر فيما بعد، بينما كانت السيدة تتحدث عن أسعار الأغذية الباهظة في تلك الأيام. وبدل أن ينزل عليّ الوحي، وصلت العمة روزينا، أخت جوفاني الكبرى لكنها أقلّ ذكاء منه بكثير. كان لديها سمات معنوية كافية تشير على أنها أخته، وبالأخص تلك الدراية المضحكة بحقوقها الشخصية وبواجبات الآخرين، لأنها محرومة من أية قوّة تمكّنها من فرض نفسها، ناهيك عن رفع صوتها بشكل معيب. كانت تظن أنّ لها حقوقاً كثيرة في بيت أخيها، لدرجة أنها اعتبرت زوجة أخيها لوقت طويل على أنها دخيلة، كما علمت لاحقاً. وكانت عانس تعيش مع خادمتها الوحيدة التي تحدثت عنها مراراً كما لو كانت عدواً لها. وقبيل وفاتها أوصت زوجتي بمراقبة منزلها إلى أن تغادره تلك الخادمة. وكانت أسرة جوفاني كلها تعامل العمة بلطف خشية من عدوانيتها.

كانت العمة روزينا تفضّل آدا بين البنات، فوددت أن أكسب مودتها أيضاً، وبحثت عن عبارة طيبة كي أجامل بها العمة. وتذكرت بغموض أنّ الفتيات لاحظن شحوب وجهها عندما رأيتها في المرة السابقة، أو تراءت لي فلم يكن من ضرورة أن أنظر إليها. بل تذكرت أنّ إحداهن قالت بعد مغادرتها: (ربما فسد دمها بعد مهاترة حادة مع الخادمة!). وجدت إذن ما كنت أبحث عنه، فنظرت إلى وجهها الكبير والمجعّد وقلت:

– أراك تتعافين جيداً يا سيدتي!

وليتني لم أقل ما قلت، لأنها نظرت إليّ باستغراب وقالت باعتراض:

– إنني كنت دائماً كما أبدو الآن. منذ متى كان عليّ أن أتعافى؟

كانت العمة تريد أن تعرف بالأحرى متى رأيتها آخر مرة. ولم أذكر بالضبط تاريخ ذلك اليوم، بل توجّب عليّ أن أتذكّر أننا قضينا ظهيرة كاملة معاً جالسين في نفس الصالة مع الفتيات، ولكن ليس في القسم الذي كنا فيه، إنما في القسم الآخر. لم تكن نيّتي سوى إظهار اهتمامي بها، ولكن الإسهاب في الشرح الذي كانت تطلبه جعل الاهتمام يطول أكثر مما ينبغي. وكان تزويري للحقائق يزيد عليّ الضيق الذي وجدت نفسي فيه. فأرادت السيدة مالفنتي أن تتدخل مبتسمة: (ولكنك لا تقصد أبداً أنّ وزن العمة ازداد؟!).

تباً! فهمت حينها امتعاض العمة التي كانت سمينة جداً مثل أخيها، وتنوي أن تنقص من وزنها دوماً.

– لا لا مطلقاً! أردت فقط أن أتحدث عن لون وجهها المزدهر!

حاولت أن أحافظ على المودة التي أظهرتها، وتوجب عليّ السكوت كي لا أزلّ بعبارة وقحة.

لم تبد العمة ارتياحها حتى في تلك اللحظة، لأنها لم تكن تشكو

twitter @baghdad_library

من شيء في ذلك الوقت، ولم تكن تفهم لماذا عليها أن تبدو مريضة. فاعترفت السيدة بما قالت العمة: (بل إنّ من إحدى مزاياها أنّ لون وجهها لا يتغير) والتفتت نحوي: (ألا يبدو لك؟).

طبعاً بدا لي واضحاً جداً! فنهضت حالاً، ومددت يدي باحترام شديد إلى العمة علّني أطيّب من خاطرها. لكنها صافحتني وهي تنظر إلى الجهة الأخرى.

وما إن خطوت عتبة المنزل حتى تغيّر مزاجي. يا للحرية! أزحت عن عاتقي تحليل مقاصد السيدة مالفنتي ومحاولة إرضاء العمة روزينا. وأعتقد حقاً أنه لولا مجيء العمة الغليظة، لوصلت السيدة المحنّكة إلى غايتها بإقصائي عن منزلها وأنا مغمور بالسعادة لتصرّفها على نحو لائق. ورحت أقفز فرحاً على الدرج. كم كانت طيبة تلك السيدة العزيزة! كنت سأسعدها باختفائي بصرف النظر عن توقعاتها! كانت تعذّبني هي والعمة، وحتى آدا نفسها! وبأيّ ذنب؟ لأني كنت أريد الزواج؟ لكني لم أعد أفكر في ذلك إطلاقاً! ما أجملك أيتها الحرية! ما أجملك!

مشيت في الشوارع بعض الوقت يصطحبني إحساس رائع. ثم شعرت بحاجتي إلى مزيد من الحرية. فكان عليّ أن أجد طريقة تدلّ بشكل قاطع أني لن أضع قدماً في ذلك المنزل أبداً. لمعت في رأسي فكرة أن أكتب رسالة أعلن انسحابي فيها، لأنّ الهجران يبدو حقيراً إن لم أعثر له على غاية. فكان من السهل أن أنسى جوفاني وعائلته إلى الأبد.

فكرت بفعل رصين ولبق وهزلي نوعاً ما، يفي بترسيخ إرادتي. فركضت إلى بائع الورد، واشتريت باقة من الأزهار لأرسلها إلى السيدة مالفنتي، مرفقة ببطاقة لم أكتب عليها شيئاً سوى التاريخ. ولم يكن هناك ما يستوجب كتابة شيء آخر، فكان تاريخاً لن أنساه، ولن تنساه آدا ولا أمها أيضاً: الخامس من أيار، ذكرى وفاة نابليون.

عملت على إرسال الباقة بعجلة، فكان مهماً أن تصل في اليوم نفسه. وماذا بعد؟ قمت بكل شيء حتى لم يعد هناك ما أقوم به! أقصيت آدا وعائلتها كلها عن حياتي، وينبغي أن أعيش دون فعل أي شيء، بانتظار أن يأتي أحدهم ليبحث عني ويمنحني الفرصة في فعل أو قول شيء جديد. توجهت إلى مكتبي لأغلق على نفسي وأتأمل.

لو استسلمت لنفاد صبري المؤلم لركضت على الفور إلى ذاك البيت مجازفاً بالوصول قبل باقة الأزهار. ولم تكن تنقصني الحجج، فقد أكون قد نسيت مظلتي مثلاً! ولكني لم أرغب بفعل شيء كهذا، لأنّ إرسال الأزهار تصرف رائع عليّ الحفاظ عليه. بل يجدر بي البقاء منتظراً ردّهم على هذه النقلة.

وكنت أنتظر شعوراً بالرضا من التفكير العميق الذي قمت به في مكتبي، لكنه لم يوصلني إلا لتوضيح أسباب اليأس الذي طاردني إلى أن تفاقم حتى البكاء. كنت أعشق آدا! لم أكن متيقناً حينها من استعمال الفعل المناسب، وتابعت تقليب الأمر. رغبت أن تكون فتاتي، بل وزوجتي أيضاً. كانت هي التي حلمت بها تدخلني إلى حياة عملية وفكرية، هي ذات الوجه المرمري والجسد البكر، والتي تمتلك من الجدية ما يجعلها تستغرب فذلكتي فأتخلى عنها إلى الأبد. كنت أرغب بها كلها، وكنت أرغب بكل شيء من خلالها. فانتهى بي التفكير إلى أنّ الفعل مناسب: كنت أعشق آدا!

بدا لي أنني فكرت بأمر مهم قد يرشدني. أبعدت عني الشكوك، ولم أعد أهتم بمعرفة إن كانت تحبني. فينبغي أن أحاول انتزاعها، بصرف النظر عن التحدث إليها، إذا كان والدها يستطيع تهيئة ذلك. وينبغي أن أوضح كل شيء بسرعة لأبلغ السعادة حالاً، أو أنسى كل شيء وأشفى. ولماذا كان الانتظار يؤلمني كثيراً؟ لو كنت أعلم أنني سأخسر آدا نهائياً

twitter @baghdad_library

لما اضطررت أن أقاوم الزمن الذي كان يمضي ببطء دون أن أشعر بحاجة إلى دفعه، ولم أكن أستطيع أن أعلم بذلك لولا جوفاني. فالأمور الحاسمة تكون هادئة دوماً لأنها منفصلة عن الزمن.

هرعت راكضاً لأبحث عن جوفاني مرتين. فالمرة الأولى كانت صوب مكتبه الواقع في حيّ ما زلنا ندعوه بـ«المنازل الحديثة" كما كان يطلق عليه أجدادنا. وكانت المنازل العالية والقديمة تضيق بالحيّ القريب من شاطئ البحر حيث يقلّ وجود الناس ساعة الغروب، مما ساعدني على المشي مسرعاً. ولم أفكر إلا بتحضير جمل وجيزة قدر المستطاع لأوجّهها إليه. وكان كافياً أن أخبره بقراري في الزواج من ابنته، دون الحاجة إلى إقناعه أو تضليله. فبوسع رجل الأعمال ذاك أن يجيبني حال انتهائي من الكلام. بل كان ما يشغلني سؤال واحد حقاً: أيفترض التخاطب في مناسبة كهذه باللغة الفصيحة أم باللهجة المحلية؟

ولكن جوفاني كان قد غادر مكتبه ذاهباً إلى البورصة. فتوجهت إلى هناك راكضاً من جديد، ولكن دون عجلة إذ عليّ انتظار أن تخلو طاولته لأتحدث إليه. وعندما بلغت شارع كافانا الضيّق صرت أمشي ببطء بسبب ازدحام الناس فيه. وخرجت بنتيجة، أشبه برؤية، بحثت عنها طويلاً، هناك حيث كنت أتجاوز ذلك الحشد من البشر. كان آل مالفنتي يريدون مني الزواج بأوغوستا وليس بآدا، لسبب بسيط وهو أنّ الأولى مغرمة بي، أما الثانية فلا، وإلاّ فما كانوا ليتدخلوا للتفرقة بيننا. وقالوا لي إني كنت أعذّب أوغوستا، لكنها كانت هي من تعذّب نفسها بحبها لي. فهمت كل شيء بوضوح شديد في تلك اللحظة كأنّ واحداً من تلك العائلة أخبرني به. وتوقعت أيضاً أن تكون آدا موافقة على عدم ترددي إلى منزلها، لأنها لم تكن تحبني. أو قل إنها لم تكن لتحبني ما دامت أختها مغرمة بي. استنتجت أفضل فكرة في شارع مزدحم إذن،

وليس داخل مكتبي الخالي.

عندما أذكر الآن تلك الأيام الخمس الخالدة التي قادتني إلى الزواج، أستغرب من عدم الشعور بالبهجة عندما عرفت أنّ أوغوستا الطيبة كانت تحبني، أنا الذي كنت متيّماً بحب آدا، وبتّ مقصياً عن بيت مالفنتي. لماذا لم أشعر بالرضا من تلك الرؤية الواضحة بأنّ السيدة أبعدتني عبثاً عن منزلها، أي أن أبقى قريباً من آدا ولكن في قلب أوغوستا؟ بل بدا مهيناً ألا أعذّب أوغوستا فأتزوجها كما أرادت السيدة. لقد كنت أحتقر الفتاة القبيحة التي تحبني، ولم أقبل أن تحتقرني أختها الجميلة التي كنت أحبّها.

أسرعت من خطواتي ولكن باتجاه منزلي. فلم أعد أحتاج للحديث مع جوفاني، لأني عرفت ما الذي ينبغي عليّ فعله بوضوح محبط، لكنه قد يمنحني السلام إذا ما انفصلت عن الزمن الذي يجري ببطء شديد. وكان من التهور أن أتحدث بهذا الشأن مع رجل أخرق كجوفاني. فإن كانت زوجته تحدثت بطريقة جعلتني أفهم قصدها بعد حين في شارع كافانا، فإنّ زوجها قادر على اتخاذ أسلوب مغاير تماماً. ربما كان سيقول لي: (لماذا تريد الزواج بآدا؟ أليس من الأفضل لك الزواج بأوغوستا؟). فتذكرت إحدى مسلّماته التي قد تنفعه في ظرف كهذا: (عليك أن تشرح أعمالك لخصمك دائماً، ففي هذه الطريقة فقط تكون متأكداً من أنك تفهمها أكثر منه!). من الممكن إذن أن ينتج خصاماً مفتوحاً جرّاء ذلك. في تلك اللحظة فقط كان بوسع الزمن أن يمضي كما يشأ، فلم يعد بوسعي امتلاك أي سبب للتدخل فيه، فكنت سأصل إلى حائط مسدود.

تذكرت واحدة أخرى من مسلّمات جوفاني، وتشبثت بها لأنها أمدّتني بالأمل. وبقيت متشبثاً بها لخمسة أيام حوّلت شغفي إلى مرض. فكان جوفاني غالباً ما يقول إنه لا ينبغي الاستعجال في إنهاء أحد

twitter @baghdad_library

المشاريع إذا كنت لا تترجى أي طائل من إنهائه. فكل مشروع سينتهي لوحده عاجلاً أم آجلاً، والدليل على ذلك أنّ تاريخ العالم طويل جداً والقليل من المشاريع بقيت معلّقة. وبوسع أي مشروع أن يتطور بشكل نافع إذاً لا تتدخل لإنهائه.

ولم أتذكر مسلّمات أخرى لجوفاني تقول عكس ذلك، فتشبثت بتلك. كان عليّ أصلاً أن أتشبث بشيء ما. واتخذت قراراً حازماً بعدم القيام بأية حركة قبل أن أعلم بحدوث المستجدات التي قد تساهم بتطوير مشروعي. فتسبب لي هذا القرار بالضرر، وربما اعتدتّ بسببه أن لا تدوم قراراتي وقتاً طويلاً فيما بعد.

بعد أن قررت ما قررت، وصلتني رسالة من السيدة مالفنتي، عرفت خطّها من الظرف. وقبل أن أفتحها، فكّرت أنّ قراري كان كاف لجعل السيدة تندم على تصرفها الشائن وتركض خلفي لتعتذر مني. وعندما وجدت أنّ الرسالة لا تحتوي إلا على كلمة شكر وحيدة ردّاً على إرسال الأزهار، اعتراني اليأس وألقيت بنفسي على السرير وعضضت المخدة كي أمتنع عن نكث قراري. كم تنمّ كلمة الشكر عن جديّة مضحكة! كانت أكبر من التاريخ الذي كتبته على بطاقتي، والذي يدلّ على قرار بحدّ ذاته وربما على عتاب أيضاً. -(***Remember***) قال تشارلز الأول[1] قبل أن يقطعوا رأسه في يوم لا بدّ أنه فكّر بتاريخه جيداً! حتى أنا نبّهت خصمي بأن يتذكر ويخاف.

كانت خمسة أيام رهيبة بلياليها، وكنت أراقب فيها شروق الشمس

(1) تشارلز الأول ستوارت (1600-1649) تُوّج ملكاً لبريطانيا عام 1626، وتنازع مع البرلمان لأنه أراد فرض سلطة شمولية، مما أدى إلى نشوب حرب أهلية، بالتزامن مع ثورة كروموميل التي انتهت بقلب نظام الحكم الملكي إلى جمهورية لم تدم طويلاً. أعدم حينئذ بتهمة الخيانة العظمى. المترجم.

وغروبها كدليلين على البداية والنهاية، ويقرّباني من ساعة الحرية التي ألتقي فيها بحبيبتي من جديد.

كنت أحضر نفسي لمعركة، وقد بتّ أعرف كيف تودّ حبيبتي أن أكون. ومن السهل أن أذكر القرارات التي عاهدت نفسي بها، أولاً لأنها كانت تشبه بعض القرارات التي اتخذتها في الحقبة الأخيرة، وثانياً لأنني كتبتها على ورقة أحتفظ بها حتى اليوم. لقد نويت أن أصبح جدياً أكثر، مما يعني حينها ألا أتلفظ بتلك النكات التي تجعل مني أضحوكة هزلية، وتزيد من غرام أوغوستا وازدراء آدا. ومن ثم عزمت على أن أكون في مكتبي في الساعة الثامنة من كل صباح، ليس لأطالب بحقوقي من وكيلي، بل كي أتولى إدارة شؤوني الخاصة. وعليّ أن أقوم بهذا في مرحلة أكثر هدوءاً من تلك، كما كان عليّ أن أتوقف عن التدخين لاحقاً، أي حالما أسترجع حريتي لأني لم أكن بحاجة إلى إفساد تلك الاستراحة الشنيعة.

لقد كانت آدا تستحق زوجاً متكاملاً، لذا عاهدت نفسي أن أتفرغ لقراءات جدية، وقضاء نصف ساعة كل يوم في الرياضة البدنية، وركوب الخيل مرتين في الأسبوع. لم تكن الأربع وعشرين ساعة كافية حقاً!

كانت الغيرة المرّة ترافقني دوماً أثناء أيام الإقصاء. لقد اتخذت قراراً بطولياً بأن أطهّر ذاتي من كل أخطائها كي أتجهّز لأنال حبيبتي. ولكن هل كان ذكور المدينة منشغلين بأمورهم عندما كنت أخضع لأقصى حالات القهر، أم كانوا ينتظرون الفرصة المناسبة لكي يخطفوا حبيبتي مني؟ فمن المؤكد أن يكون بينهم واحد لا يحتاج لكل تلك التمارين كي يتفوق عليّ. وكنت أعتقد أنّ آدا لن تتوان لحظة عن الزواج بأحدهم إذا وجدت فيه ما يوافقها، دون أن تنتظر اختبار حبها له. فعندما كنت أصادف

twitter @baghdad_library

شاباً أنيقاً وسليماً ووسيماً، كنت أكرهه لأنه قد يناسبها. لا أستطيع تذكر شيء من تلك الأيام أكثر من الغيرة الخانقة التي هبطت على حياتي كما يهبط الضباب على الأرض. ولم تكن ضراوة الشك في الحصول على قلب آدا مدعاة للضحك، لأنه بات معروفاً كيف ستنتهي الأمور. فكلما فكرت ثانية في تلك الأيام أعجبت بنبوءتي كثيراً.

كم مررت تحت نوافذ بيتها ليلاً! وكان واضحاً أنهم ما زالوا يقضون وقتاً ممتعاً، دون أن يتغير أي شيء في غيابي. كانوا يطفئون الأنوار حوالي منتصف الليل، فأهرول بعيداً خشية أن يراني أحد الضيوف عندما يخرج من المنزل حينها.

وكان نفاد الصبر يرهقني في كل لحظة. لم لا يسأل أحدهم عني؟ لماذا لم يقم جوفاني بأي ردة فعل؟ ألم يستغرب غيابي عن بيته أو عن البورصة؟ هل كان موافقاً على إبعادي عن منزله أيضاً؟ كنت أقطع تسكعي في الليل والنهار، لأذهب إلى منزلي وأسأل إن جاء أحدهم وسأل عني. ولم أكن أعرف النوم من شدة الارتياب فأنهض لأحقق مع ماريا المسكينة. وقضيت ساعات طويلة في المنزل، لأساعدهم في إيجادي. ولكن أحداً لم يسأل عني أبداً، ولولا مبادرتي لبقيت أعزب حتى اليوم بالتأكيد.

ذهبت في إحدى السهرات إلى النادي، وكنت قد انقطعت عنه منذ عدة أعوام، لأني أقسمت لوالدي على ذلك. وبدا لي أنّ ذاك العهد لم يعد له أية قيمة، بما أنّ والدي لم يكن ليرى وضعي المؤلم وحاجتي الملحّة للترفيه عن النفس. فلعبت القمار. وفي بادئ الأمر فزت بفضل الحظّ الذي أحزنني لأنه بدا لي كتعويض عمّا أفسده سوء حظّي في العشق. وما لبثت أن خسرت، فتأثرت بشدّة لأنني ظهرت مغلوباً أمام القمار مثلما غلبني الحب. وشعرت بالاشمئزاز من اللعب حالاً، فلم

أكن أستحق الفوز بالقمار ولا بقلب من أحبّ.. أصبحت شديد الرهافة بسبب هذا العشق!

أذكر أيضاً أنّ أحلام الحب الحلوة تلاشت أمام الواقع المرير. فقد تحولت أحلامي إلى شيء آخر، إذ كنت أحلم بالانتصار بدلاً من الحب. رأيت حلماً جعل ليلتي هنيئة، كانت فيه آدا ترتدي ثوب الزفاف وتمشي معي إلى هيكل الكنيسة. وعندما أصبحنا لوحدنا لم نمارس الحب، حتى في المنام. كنت زوجها وكان لي الحق بأن أسألها: «كيف سمحت أن تعاملني عائلتك هكذا؟». ولكني لم أنشغل بحقوقي الأخرى.

وجدت في إحدى الخزائن مسوّدة لرسائل كتبتها لآدا وجوفاني وزوجته تعود إلى تلك الحقبة. كتبت للسيدة مالفنتي رسالة بسيطة أطلب فيها إجازة قبل أن أقوم برحلة طويلة الأمد. ولكني لا أذكر أنني فكرت في شيء كهذا، فلم أكن أجرؤ على ترك المدينة قبل أن أتأكد من مجيء أحدهم ليسأل عني. كم سيكون حظي سيئاً لو جاؤوا ولم يجدوني! ولم أرسل من تلك الرسائل شيئاً، بل أظن أني كتبتها لأضع أفكاري على الورق وحسب.

أعدُّ نفسي مريضاً منذ سنين بعيدة، ولكني مصاب بمرض يؤذي الآخرين أكثر مما يؤذيني. ولم أعرف المرض «الموجع» إلاّ في ذلك الحين، وهو عبارة عن كميّة من الأحاسيس البدنية السيئة التي جعلت مني رجلاً تعيساً.

وقد بدأت هكذا. في ليلة ساكنة نهضت لأمشي، بعد عجزي عن النوم، حوالي الواحدة ليلاً، حتى وصلت إلى مقهى في ضواحي المدينة. ولم أكن قد دخلته قبلئذٍ فتوقعت أن لا أجد أحداً من معارفي. وهذا ما طاب لي لأنني أردت استكمال نقاش فتحته مع السيدة مالفنتي، بدأته على سريري ولم أرغب أن يتدخل أحد فيه. وكانت السيدة قد انهالت

twitter @baghdad_library

عليّ بتوبيخ جديد، إذ اتهمتني أنني كنت أجرّب حظي مع بناتها. وفي الحقيقة لم أجرّب حظي إلاَّ مع إحدى بناتها. وكنت أتصبب عرقاً بارداً عندما أفكر أنّ آل مالفنتي جميعهم باتوا يتهمونني بأشياء مشابهة. فالغائب مدان دائماً، وقد ينتهزون فترة غيابي ليتشاركوا في إيذائي. وكنت أدافع عن نفسي بشكل أفضل تحت قناديل المقهى المتوقدة. ومن المؤكد أني حاولت أحياناً أن أدوس بقدمي على قدم آدا، وتهيّأ لي في إحدى المرات أنني فعلت ذلك حقاً وكانت راضية. وظهر فيما بعد أنني دست على قدم الطاولة التي لا تقدر على الكلام.

في المقهى كنت أتظاهر بمتابعة بعض الشبّان يلعبون البلياردو. فاقترب مني رجل يتكئ على العكاز وجلس بقربي. طلب كأس ليمون، ولأنّ النادل بقي واقفاً ينتظر طلبي، طلبت أيضاً كأس ليمون عن شرود، فأنا لا أطيق طعم هذه الفاكهة. وقع حينها العكاز على الأرض فانحنيت عفوياً لأجلبه.

- آه زينو! - صرخ الرجل الأعرج وقد عرفني عندما أراد أن يشكرني.
- توليو! - هتفت من المفاجأة، ومددت يدي إليه.

كان توليو رفيقي في المدرسة، ولم نلتق منذ عدة أعوام. وعرفت أنه دخل أحد المصارف ليشغل وظيفة مميزة، بعد أن أنهى دراسته الثانوية.

وكنت شارداً جداً لدرجة أني سألته بفظاظة عن سبب قصر ساقه الأيمن حتى احتاج للعكاز. ولكن مزاجه كان معتدلاً، فروى لي أنه أصيب بالروماتيزم منذ ستة أشهر، واضطر لبتر ساقه. فاقترحت عليه سبلاً كثيرة للعلاج، فكانت الوسيلة الأفضل لأتصنع الحزن على مصيبته دون أن أبذل جهداً جبّاراً. لكنه كان قد قام بها جميعها، فقلت له:

– لمَ لا تخلد إلى النوم في هذه الساعة؟ لا يبدو صحياً أن تنذر نفسك لحياة الليل.

فضحك عن طيب خاطر، لأنه رأى أنّ حياة الليل لم تكن لتنفعني أيضاً. وكان يرى أنه من لم يصب بالروماتيزم قد يصاب به لاحقاً طالما أنه على قيد الحياة. ثم إنّ النوم عند الفجر كان أمراً مقبولاً حتى في الدستور النمساوي، ولا يؤثّر البرد والحر أبداً على مريض الروماتيزم بالمجمل، خلافاً للمعتقد السائد. لقد درس مرضه جيداً، بل لم يكن يفعل شيئاً آخر في هذه الحياة سوى دراسة أسباب المرض وكيفية معالجته. وقد طلب إجازة طويلة من المصرف ليتعمق بدراسة المرض وليس ليتعالج منه.

ثم قال إنه كان يخضع لعلاج غريب، بأكل كمية هائلة من الليمون يومياً. وفي ذلك اليوم بالذات أكل حوالي الثلاثين ليمونة، آملاً أن يساعده هذا التمرين على تناول المزيد. وأخبرني أنّ الليمون مفيد للشفاء من علل أخرى، فمنذ أن بدأ يتناولها شعر بعدم الإزعاج من مبالغته في التدخين، الذي كان مكرهاً عليه هو أيضاً.

أخذتني القشعريرة عندما تخيلت الطعم الحامض، ولكني استدركت ذلك حالاً عندما تخيلت صورة سعيدة عن الحياة. فلم أكن أحب الليمون، ولكني كنت سأتناول منه الكثير إذا أطلق سراحي لأفعل ما أريد أو ما يتوجب عليّ فعله. فالحرية المطلقة أن تفعل ما يحلو لك، شرط أن تفعل بعض الأشياء غير المحببة أيضاً. أما العبودية المطلقة فهي الخضوع للحرمان: أي ما حدث لتنتالوس وليس لهرقل[1].

(1) يخضع تنتالوس، في الميثولوجيا الإغريقية، إلى عذاب مرير بعد موته الذي عاقبته عليه الآلهة؛ إذ كان يجد الماء والطعام دون أن يقدر على مسّهما وهو جائع وعطشان. أما البطل هرقل يظهر أحقيّته في أن يصبح إلهاً، بعد أن تجاوز عدّة مغامرات في غاية الخطورة. المترجم.

twitter @baghdad_library

تظاهر توليو بالقلق عليّ أيضاً. وكنت قد قررت أن لا أقصّ عليه شيئاً من قصة حبي الحزينة، ولكني بحاجة للترفيه عموماً. فشطحت في الحديث عن ظروفي السيئة، حتى لو كنت متأكداً من عدم فرادتها، لدرجة أنّ عيناي اغرورقتا بالدموع، بينما يمضي توليو بالشعور أنّه أفضل حالاً مني وأني كنت مريضاً أكثر منه.

وسألني إذا ما كنت أعمل، وكان الجميع في المدينة يثرثرون عن تصعلكي، فخشيت أن يحسدني عندما كنت بأشد الحاجة للشفقة. فكذبت عليه، وقلت إنني أعمل في مكتبي يومياً بمعدّل ست ساعات. ثم ازدادت المشقّة بعد أن أربكتني ورثة أبي وأمي، فأجبرت على العمل لست ساعات أخرى.

- اثنتا عشر ساعة! - علّق بابتسامة راضية أوصلتني إلى ما كنت أروم إليه، أي الشفقة - أنت في حال لا يحسد عليه!

كانت خاتمة موفّقة جعلتني أتأثر جداً حتى قاومت بضراوة كي لا أذرف الدموع. شعرت نفسي في غاية التعاسة فبدوت عرضة للأذى بفضل تلك الحالة المثيرة للرأفة.

شرع توليو يتحدث عن مرضه الذي يسبب له الشرود بشكل رئيس. فكان قد درس تشريح الساقين والقدمين، وأخبرني ضاحكاً أنّ الإنسان، عندما يمشي بخطوة سريعة لا تتجاوز النصف ثانية، يحرّك خلالها ما لا يقلّ عن أربع وخمسين عضلة. فحملني الخيال بعيداً لأفكر في تلك الآلة التي تحرك قدميّ. وأعتقد أنني بحثت عنها ووجدتها، دون أن ألتقي بأربع وخمسين عضلة طبعاً، ولكن على شكل عقدة ضخمة فقدت آليتها ما إن ركّزت النظر فيها.

خرجت من تلك المقهى وأنا أعرج، وبقيت هكذا لبضعة أيام،

فقد أصبح المشي بالنسبة لي عملاً مضنياً ومؤلماً نوعاً ما. وكان يبدو أنّ تلك العقدة المتشابكة تعاني نقصاً في الزيت، وأنّها كلما تحرّكت أكثر تعطلت وتضررت أكثر.

وبعد أيام قليلة استيقظت على مرض أخطر سأتحدث عنه لأنّه ألغى مفعول المرض السابق. أكاد أسقط أرضاً، عندما ترتبك تلك الأربع وخمسون حركة، إذا رآني أحدهم وأنا أمشي، حتى هذا اليوم الذي أكتب فيه.

كانت آدا هي السبب فيه أيضاً. فالكثير من الحيوانات تصبح فريسة الصيادين أو حيوانات أخرى عندما تكون عاشقة. أنا كنت فريسة للمرض حينئذٍ، وعلى يقين بأني لو علمت بشأن تلك الآلة الرهيبة في وقت آخر لما تضررت بسببها أبداً.

وجدت علامة أخرى على تلك الصفحات التي خبّأتها، وتذكّرني بمغامرة غريبة من تلك الحقبة. فإضافة إلى وجود ملاحظة لسيجارة أخيرة ترافق تعبيراً عن الثقة بقدرتي على الشفاء من الأربع وخمسين حركة، ثمة محاولة لكتابة قصيدة... في ذبابة! ولولا معرفتي بأنّ هذه القصيدة لي، لظننت أنّ فتاة راقية تحترم الحشرات كتبت فيها تلك الأبيات. ينبغي أن أصدّق ذلك بما أنني كنت الكاتب. وما مررت بظرف كهذا إلاّ لأن جميع البشر قد يمرّون بظروف أخرى مشابهة.

عندما عدت إلى المنزل في ساعة متأخرة، فضّلت أن أجلس في مكتبي على أن أنام. أشعلت قنديل الغاز، فإذ بذبابة اقتربت منه لتسبّب الإزعاج. استطعت أن أوجّه لها ضربة خفيفة كي لا تتسخ يدي، ونسيت أمرها. ثم رأيتها على وسط الطاولة تستعيد قواها ببطء. كانت حازمة ومنتصبة، وتبدو أطول من ذي قبل لأنها أصيبت بإحدى ساقيها ولم تعد

twitter @baghdad_library

تتمكن من ثنيه. وكانت تواظب على مسح جناحيها بساقيها الأماميتين. وحاولت أن تتحرك لكنها انقلبت على ظهرها، ثم نهضت وتابعت عملها بمواظبة وعناد.

كتبت حينها تلك الأبيات، وأنا مذهول باكتشاف أنّ ذلك الجسد الصغير الذي اجتاحه ألم كبير كان يعمل بجهد جهيد عبر خطأين: أولاً، كان يبدو أنّ تلك الحشرة لا تعرف من أين يأتيها الوجع لأنها تمسح جناحيها اللذين لم يتضررا؛ وثانياً، كان جهدها المبذول يُظهر أنّ في عقلها الصغير إيمان عميق بأنّ الشفاء من حق الجميع، وسيعود إليها الشفاء بلا شك حالما تشعر بفقدان الإيمان به. لقد كان هذان الخطآن مبرّرين في حياة حشرة لا تعيش إلاّ فصلاً واحداً، ولا يتوفر لها الوقت لتستفيد من خبرتها.

ولكن يوم الأحد جاء، وانتهت الأيام الخمسة التي وعدت فيها السيدة بالاختفاء. إلا أني كنت أكنّ احتراماً كبيراً ليوم العطلة، أنا الذي أعمل قليلاً جداً، لأن العطلة تقسّم الحياة إلى حقب تجعلها تطاق. وكنت فرحاً بيوم العطلة ذاك لأنه ينهي معه أسبوعاً عصيباً. لم أغيّر شيئاً من خطّتي، ولكنها لم تكن ذات قيمة يومها، لأني كنت سأرى آدا ثانية. ولم أكن لأجازف في خطّتي بأية كلمة. إنما كان عليّ أن أرى آدا. فقد يكون ثمة إمكانية بأن يتغير المشروع لصالحي. وكم ستكون مأساة جميلة أن أستمر في العذاب دون هدف!

ومن أجل هذا ركضت إلى وسط المدينة عند منتصف النهار بكل العجلة التي تستطيع ساقاي المسكينتان أن توفراها لي. ووصلت إلى الشارع الذي كنت أعرف أنّ السيدة ستمرّ منه مع بناتها إبّان عودتهن من الصلاة. وكان يومُ عطلةٍ مشمساً، ففكرت وأنا أمشي في المفاجأة المنتظرة، «غرام آدا بي!»

ولـم يكـن الأمـر كذلـك، إنما توهمته لوهلة. أنصفني الحظ بطريقة لا تعقل. إذ صادفت آدا وجهاً لوجه، وكانت تمشي لوحدها. فارتبكت في مشـيتي وضاق صدري. ماذا أفعل؟ نويت أن أحييّها باتّزان وأتنحى جانباً لأجعلها تمرّ. لكنّ ذهني تشوّش بسبب القرارات التي اتخذتها من قبـل، وكان إحداهـا يقتضـي بالتحـدث إليها بوضوح ومعرفة مصيري من خـلال كلامهـا. فلـم أتنـحَ جانباً، واقتربت منها عندما سـلّمت عليّ كأننا افترقنا منذ خمس دقائق. قالت لي:

– صباح الخير سيد كوزيني! إنني مستعجلة.

– هل تسمحين لي بمرافقتك للحظة؟

فوافقت مبتسـمة. أكان عليّ أن أحدّثها إذن؟ أضافت أنها كانت ذاهبـة إلـى المنـزل، لـذا فهمـت أننـي لا أملك سـوى خمس دقائق من الوقت الذي أضعت جزءاً منه في حسابه إن كان يكفي لأقول الأشياء المهمة. ففضلّت أن لا أخبرها بشيء. وكنت مضطرباً من المشي مع فتاة في مدينتنا آنئذ، إذ تعدّ مخاطرة بحقّها. ولكنها سمحت لي بذلك، ألم يكن هذا يرضيني؟ نظرت إليها محاولاً أن أشعر ثانية بحبي الغارق بين الشكّ والغضب. ترى هل كنت سأسترجع أحلامي على الأقل؟ كانت تبدو لي صغيرة وكبيرة في الوقت نفسه منسجمة في جميع ملامحها. وكانت الأحلام تراودني مزدحمة حتى عندما كنت بقربها واقعياً. فكان هـذا أسـلوبي فـي الرغبـة، وكنت مليئاً بالغبطـة الحادة. واختفى أي أثر للشـك أو الغضب من رأسـي. ولكننا سـمعنا صوتاً مرتبكاً يأتينا من الخلف.

– آنستي.. لو سمحتِ!

فاسـتدرت مسـتاءً لأعرف من تجرّأ على مقاطعة حديثي الذي لم أكن قد بدأت به.

twitter @baghdad_library

كان شاباً أسمر حليق الذقن، ينظر إليها بعينين مرتبكتين. ونظرت بدوري إليها بأمل جامح أن تطلب مساعدتي. فكان كافياً أن تدلي بإشارة كي أنقضّ على ذاك الشخص وأسأله بأي حق تصرّف بهذه الوقاحة، متمنياً أن يصرّ على وقاحته. ولو سمح لي القدر أن أقدم على سلوك همجيّ وعضليّ لشفيت من أمراضي كلها.

ولكن آدا لم تدلُ بتلك الإشارة، بل مدّت يدها إليه بعينين مشرقتين، وابتسمت بعفوية غيّرت من ملامح وجهها قليلاً:

– سيد غويدو!

كم آلمني سماع اسمه، لأنها نادتني منذ هنيهة باسم عائلتي. وأمعنت النظر بالسيد غويدو هذا. كان يتصنع الأناقة، ويلبس في يده اليمنى قفازاً ويحمل فيها عصا طويلة ذات مقبض عاجي؛ ولم أكن لأحمل شيئاً كهذا حتى لو دفعوا لي مبلغاً طائلاً على كل متر أمشيه. كنت سألوم نفسي إن رأيت فيه ما يهدد علاقتي بآدا. فهناك مالا يحصى من نماذج قبيحة ترتدي ثيابها بأناقة وتحمل عصى أطول من تلك.

دفعتني ابتسامتها إلى خضم العلاقات الإجتماعية الأكثر شيوعاً. قدّمتني آدا للسيد غويدو، فابتسمت أنا أيضاً! لكن ابتسامتها كانت تشبه ركود المياه الصافية إذا داعبها الهواء. أما ابتسامتي فكانت تشبه الركود نفسه، ولكن عندما يثقب بحجر يُرمى في تلك المياه.

كان يدعى غويدو سبيير. فأصبحت ابتسامتي عفوية أكثر لأنني انتهزت المناسبة لأقول له ما قد لا يرضيه:

– هل أنت ألماني؟!

فاعترف بلطف بأنّ الجميع يظنّ ذلك عندما يسمعون الكنية، لكن وثائق العائلة تؤكد جنسيتها الإيطالية منذ عدة قرون. وكان يتحدث

اللهجة التوسكانية بطلاقة وعفوية، بينما كنت وآدا نرضخ للهجتنا القبيحة[1].

أمعنت النظر فيه لأسمع جيداً ما يقول. كان شاباً وسيماً، وشفتاه مطبقتان بشكل طبيعي، تفسح النظر إلى أسنانه الناصعة البياض والمصطفّة بانتظام. وكانت عيناه برّاقتين ومعبّرتين. وعندما خلع قبعته رأيت كيف يغطّي شعره الغامق والمجعّد كل المجال الذي أرادت أمنا الطبيعة أن تغطيه، بينما كانت جبهتي تجتاح جزءاً كبيراً من رأسي. كنت سأحقد عليه حتى لو لم تكن آدا موجودة، لكن الحقد كان يعذبني فحاولت أن أخفف منه قدر ما استطعت. وفكرت: (إنه صغير جداً على سنّ آدا). ثم فكرت أنّ أباها أجبرها على معاملته بثقة ولطف. ربما كان رجلاً مهمّاً في مشاريع جوفاني، وبدا لي أنه سيجبر عائلته كلها للتعامل مع رجل من هذا النوع. سألته: (هل ستقيم في تريستا طويلاً؟).

فأجابني أنه هنا منذ شهر، ويعزم على افتتاح مؤسسة تجارية. فتنفست الصعداء كأنني أصبت فيما تكهنت به.

كنت أعرج في مشيتي، ولكن بخفة نوعاً ما عندما رأيت أنهما لم ينتبها لذلك. وكنت أنظر إلى آدا محاولاً أن أتناسى كل شيء بما فيه ذاك

(1) تعدّ اللهجة التوسكانية هي الأقرب إلى الإيطالية الفصيحة، وذلك لأنّ آباء اللغة الإيطالية في بداية العصر الوسيط - مثل دانتي وبتراركا وبوكاتشو - كانوا من منطقة توسكانا. وبينما كان الأدباء حينها يكتبون باللاتينية الفصيحة، كتب هؤلاء أبلغ الشعر والنثر بلهجتهم المحلية، ليكشفوا الستار عن اللغة اللاتينية العامية، التي ستتطور لتصبح بدورها أماً للغة الإيطالية وباقي اللغات النيولاتينية كالفرنسية والإسبانية وغيرها. وعليه تمّ اختيار لهجة فلورنسا - عاصمة توسكانا - كلغة رسمية يتجمع عندها الشعب الإيطالي إبان الوحدة عام 1861، لمكانتها التاريخية والأدبية الرفيعة، ولأصالة تجربتها الكتابية والنحوية. المترجم.

twitter @baghdad_library

الفرد الذي يصطحبنا. كنت رجل الحاضر ولا أفكر في المستقبل الذي لا يحجب الحاضرَ بظلال واضحة. وكانت آدا تمشي بيننا وقد ارتسم على وجهها الرتيب تعبير غامض عن السعادة يصل إلى حدّ الابتسامة. بدت لي هذه السعادة حديثة. ترى لمن كانت تلك الابتسامة؟ ألم تكن لرؤيتي بعد غياب طويل؟

اختلست السمع لحديثهما. كانا يتكلمان عن أمور روحانية، وعلمت أنّ غويدو قد أدخل الطاولة المتكلمة إلى بيت مالفنتي. وكنت أحترق من رغبتي في التأكد ما إذا كانت تلك الابتسامة التي تطوف على شفاهها لي. فتدخلت في الموضوع، مرتجلاً قصة عن الأرواح. فلا يوجد شاعر أفضل مني يرتجل القصائد على قواف تُحدّد له. وعندما لم أكن أعرف كيف سينتهي الأمر، مهّدت بأني أعترف بوجود الأرواح جرّاء قصة حدثت معي في اليوم السابق في نفس الشارع... بل كلا!.. في الشارع الموازي لذلك الذي كنا فيه. ثم قلت إنّ آدا أيضاً تعرف الأستاذ بيرتيني الذي توفي منذ زمن قليل في فلورنسا حيث أقام بعد تقاعده. تلقّينا نبأ وفاته من خبر وجيز نشر في إحدى الصحف المحلية. ولكني نسيت هذا الأمر، فكلما فكرت فيه تخيلته يمشي بين البيوت الريفية حيث يقضي إجازته المستحقّة. ولكن في اليوم السابق، عند نقطة حددتها في الشارع الموازي لنا، اقترب مني رجل يعرفني واعتقدت أنني أعرفه. وكانت مشيته الفريدة تشبه مشية فتاة تتبختر رويداً رويداً...

- بالطبع! قد يكون الأستاذ بيرتيني! - قالت آدا ضاحكة بفضلي، مما شجّعني على الاسترسال:
- اعتقدت أنني أعرفه، لكنني لم أتذكر من يكون. تحدثنا في السياسة. لا شكّ أنّه كان السيد بيرتيني لأنه تفوّه كثيراً من تلك الترهات، بصوته الذي يشبه صوت الماعز..

- حتى صوته! - مازالت آدا تضحك وهي ترمقني بترقّب كي تسمع القفلة.
- أجل! لابد أنه كان السيد بيرتيني. - قلت متظاهراً بالفزع كممثل عظيم عاش في أعماقي ومات - شدَّ على يدي مستأذناً بالانصراف، ومضى يقفز في طريقه. تبعته قليلاً علّني أدرك ما جرى، فاكتشفت أنني تحدثت مع الأستاذ بيرتيني عندما غاب في طريقه. مع أنّه ميّت منذ عام! يا إلهي!...

توقفنا بعد قليل عند مدخل منزلها. شدّت على يد غويدو، وقالت له إنها بانتظاره في المساء. ثم سلّمت عليّ وقالت: «إن كنت لا تخشى الملل، تعال إلينا لترى كيف ترقص الطاولة». فلم أُجِبْها، ولم أشكرها. عليّ أن أحلل دعوتها قبل أن أوافق عليها. بدت كأنها مجبرة على معاملتي باحترام. ها قد انتهى يوم العطلة بذلك اللقاء ربما. وأردت أن أبدو محترماً بترك الاحتمالات كلها مفتوحة، بما فيها احتمال قبول الدعوة. فسألتها عن جوفاني إذ كان لدي ما أحدّثه فيه. فأجابتني أنه قد ذهب إلى مكتبه لشأن طارئ.

وقفنا أنا وغويدو لحظات ننظر إلى تلك الفتاة الأنيقة التي تختفي في ظلام ساحة المنزل. لا أعرف ما الذي فكّر فيه حينئذٍ، أما أنا فكنت تعيساً. لماذا لم تدعُني أولاً ثم غويدو؟!

عدنا معاً على الطريق نفسها حتى وصلنا حيث التقينا تقريباً. وما زال غويدو الرصين، والمتّسم بلباقة كنت أحسد الآخرين عليها أكثر من أي شيء آخر، يتحدث عن القصة التي ارتجلتها، آخذاً إياها على محمل الجد. لم يكن فيها من حقيقة سوى أنّ شخصاً غبياً كان يعيش في مدينتنا بعد موت بيرتيني، ويمشي كأنّه يرقص على رؤوس قدميه، وصوته غريب حقاً. وكنت قد عرفته في تلك الأيام، وذكّرني بالأستاذ

twitter @baghdad_library

لوهلة. ولكني لم أتأسف من رؤية غويدو يضني نفسه في تحليل إحدى أكاذيبي، بل تيقنت من كونه غير جدير بالكراهية، لأنه كان مجرّد تاجر مهم في نظر آل مالفنتي. أثارت أناقته المصطنعة وعصاه من اشمئزازي، بل شعرت بضرورة أن أتحرر منه. كنت أسمعه ينهي حديثه:

– ومن الممكن أن يكون ذلك الشخص الذي تحدثت إليه أصغر سناً من الأستاذ بيرتيني، وأنه يمشي كجندي وله صوت رجولي، لكن وجه الشبه محدود بقول الترهات. وهذا يكفي لتركّز تفكيرك بالأستاذ. إلاَّ أننا إذا اتفقنا على هذا فعلينا أن نتقبل أيضاً أن حضرتك شخص كثير الشرود.

ولم أتمكن من مساعدته في تحليله المرهق، فقلت:

– أنا كثير الشرود؟! ماذا تقول؟! إنني رجل أعمال، كيف لي أن أكون كذلك وأنا كثير الشرود؟

ثم فكرت أنّ الكلام معه مضيعة للوقت، إذ أردت مقابلة جوفاني. وبما أني رأيت الفتاة فعليّ أن أرى والدها أيضاً حتى لو كان عديم الأهمية. وكان عليَّ أن أسرع لمقابلته في المكتب، بينما لا يزال غويدو يتخيل حجم المعجزات التي قد تحدث في أجواء الشرود عند الشاردين أو من يشاهدهم. فأردت أن أذهب وأن أبدو لطيفاً مثله وأكثر. فنشأ عن رغبتي استعجال في مقاطعته وتركه بطريقة سمجة للغاية:

– بالنسبة لي، المعجزات توجد ولا توجد. ولا ينبغي أن نعقّد الموضوع بقصص كثيرة، فإما أن نؤمن بالمعجزات أو لا نؤمن بها. وفي كلتا الحالتين تبقى الحياة بسيطة جداً.

لم أرغب في إظهار كراهيتي له، والدليل هو ما قلت له والذي يبدو كتنازل لمعتقداته نظراً لكوني من أتباع الفلسفة الوضعية ولا أؤمن بالمعجزات. لكني قدّمت تنازلي بمزاج سيئ حقاً.

ابتعدت وأنا أعرج أكثر من السابق، ورجوت أن لا يضطرّ للالتفات نحوي. كان من الضروري أن أتحدث إلى جوفاني، ليعلمني كيف يجدر بي التصرف في ذاك المساء على الأقل. فأنا كنت مدعواً من قبل آدا، وكنت سأفهم من سلوك جوفاني إن كان عليّ الترحيب بالدعوة، أو ألاّ أتذكر بالأحرى أنها مخالفة لإرادة السيدة مالفنتي الصارمة. فالوضوح يلزم في التعامل مع هؤلاء الناس. وإن لم يكن ليكفيني يوم الأحد لأحصل عليه، فكنت سأفرغ له يوم الاثنين بكل سرور. كنت ما أزال أناقض قراراتي دون أن أفطن لذلك، بل بدوت كأنّي أطبّق أحد القرارات التي اتخذتها بعد خمسة أيام من التأمل. فهكذا كنت أصف نشاطاتي في تلك الأيام.

استقبلني جوفاني بتحية صاخبة طمأنتني، ودعاني إلى الجلوس على إحدى الأرائك التي تواجه طاولته.

– خمس دقائق وأكون عندك! – ثم أردف – هل أنت تعرج؟

احمرّ وجهي خجلاً، ولمّا كنت في أوج الارتجال قلت إنني تزحلقت وأنا أخرج من المقهى، ووصفت له مكان ذلك المقهى حيث حصل الحادث. وخشيت أن يربط بين سقوطي وضياع عقلي بعد شرب الكحول، فأضفت ضاحكاً أنّ الجميل في الأمر أني كنت برفقة رجل أعرج يعاني من الروماتيزم.

كان هناك بعض الموظفين يقفون بجانب الطاولة. لابد أنّ جوفاني اكتشف خللاً ما في توزيع البضائع، إذ تدخّل بفظاظة في أشغال مستودعه الذي كان نادراً ما يراقبه. فهو يريد ذهناً صافياً ليقوم بأعمال لا يحلو للكثيرين القيام بها لو كانوا في محلّه. وكان يصرخ أكثر من المعتاد كأنه ينقش أوامره في آذان موظفيه. ربّما كان ينظّم العلاقة بين المكتب والمستودع بشكل أفضل.

twitter @baghdad_library

- ستوقّع أنت على هذه البطاقة، وسيوقّع الموظف الذي يستلمها على صورة منها ثم يعطيها لك. - قال صارخاً وهو يمرّر بين يديه بطاقة انتزعها من أحد الكتب مركّزاً النظر في وجوه الموظفين تارة من خلال نظارتيه وتارة أخرى من فوقهما. ثم اختتم كلامه بصيحة أخرى: (هل فهمتم؟!).

كان يريد إعادة أوامره ثانية على مسامعهم، في الوقت الذي شعرت فيه بضياع الوقت، وراودني حدس غريب بأني لو استعجلت قليلاً لقابلت آدا على النحو الأفضل. لكنني أدركت بعدها باستغراب شديد أنّ أحداً لم يكن ينتظرني، وأنني لم أكن أنتظر أحداً، وأنّ لا شيء يخصني في كل هذا. تقدمت إلى جوفاني ماداً يدي:

- سآتي إلى منزلك في المساء.

فتقدم نحوي أيضاً بينما تنحى الآخرون جانباً.

- لماذا لم نرك منذ وقت طويل؟ - سألني بعفوية.

فذهلت من سؤاله لدرجة الارتباك، كان هذا السؤال الذي انتظرته من آدا ولم تسألني إياه. ولولا وجود الآخرين لتحدثت بصراحة إلى جوفاني بخصوص هذا السؤال الذي أثبت لي براءته من تلك المؤامرة الشريرة. إنه البريء الوحيد الذي يستحقّ ثقتي، وربما لم أفكر بوضوح تام لأني لم أصبر حتى يبتعد الموظفون. ثم أردت التحقق من أنّ ابنته لم تتمكن من توجيه هذا السؤال بسبب وصول غويدو المفاجئ. لكن جوفاني منعني من الكلام عندما أظهر استعجالاً في العودة إلى العمل.

- نلتقي هذا المساء إذن، سأعرّفك على عازف كمنجة لم تسمع مثيلاً لعزفه في حياتك. إنه يقدّم نفسه كهاوٍ لأنه يملك من الأموال ما لا يجعله يمتهن الموسيقى، ولأنه يفكر في التفرغ للتجارة. - رفع كتفيه كدليل على الاستخفاف - لو كنت في

محله لما بعت شيئاً آخر سوى العلامات الموسيقية، مع حبي وتقديري للتجارة. لا أعرف إن كنت سمعت اسمه من قبل، يدعى غويدو سبيير.

- حقاً! أهو عازف ماهر؟ - قلت وأنا أتصنع المجاملة هازاً برأسي وفاتحاً فمي ومحركاً بالمحصلة كل ما استطعت تحريكه بإرادتي. ذاك الشاب الوسيم يعزف على الكمنجة أيضاً؟! تمنيت أنّ جوفاني يبالغ في الإثناء بهدف السخرية، وأنّ غويدو ليس إلاَّ مدّعياً. لكنه مازال يحرّك رأسه بكثير من الإعجاب. شددت على يده وقلت: (إلى اللقاء!).

توجهت صوب الباب وأنا أعرج، وتوقفت لوهلة. أكان من الأفضل أن أرفض تلك الدعوة وأعلم جوفاني بذلك؟ استدرت لأعود إليه، لكني تخيلته مسبقاً يرمقني بانتباه شديد. لم أطق هذا التصور فانصرفت.

عازف كمنجة؟! إن كان عازفاً بارعاً حقاً فأنا رجل مهزوم ببساطة. ليتني لم أعزف تلك الآلة، أو ليتني لم أعزف عليها في بيت مالفنتي على الأقل! كنت أحمل الكمنجة إليهم كذريعة لأطيل مدة زياراتي، وليس لأفتن مسامعهم. كم كنت بهيمة! كان عليَّ استخدام ذرائع أخرى أقلّ خطورة!

ليس بوسع أحد القول إنني استسلمت لأوهام ابتكرها خيالي. فأنا أعرف ما لديّ من حس موسيقي رفيع، ولا أبحث في الموسيقى المعقدة من باب المراءاة. ولكن هذا الحس الرفيع أنذرني منذ أعوام بأني لن أبلغ ذاك المستوى من العزف الذي يسحر سامعيه أبداً. وإن كنت لا أزال أعزف، فأنا أفعل متذرعاً بالسبب نفسه الذي يدفعني إلى العلاج. كنت سأعزف جيداً لو لم أكن مريضاً، وأشعر أني أتابع العلاج حتى عندما أدرس الانسجام بين تلك الأوتار الأربعة. فثمة شلل خفيف في بدني

twitter @baghdad_library

يظهر بأكمله على الكمنجة، مما يجعله قابلاً للعلاج. حتى الكائن السافل عندما يعرف ما هو الفرق بين المقامات يصبح ماهراً في التنقل بينها بإحكام إيقاعي، يشبه تنقل العين من لون لآخر. ومع هذا لم أتمكن من التخلص من هذه الصورة التي أوحيت إلي، فتندسّ في الصورة اللاحقة وتفسدها.. لكي تعزف بشكل متقن عليك أن تعدّ الزمن في رأسك متلازماً مع ضربة من قدمك. فوداعاً للخفة إذن، ووداعاً لصفاء الذهن والموسيقى! فالموسيقى التي تنبت من جسد متوازن تكون هي الزمن عينه الذي تخلقه وتفنيه، وعندما أصل عملياً إلى أقوالي سأشفى دون شك. فكرت حينها للمرة الأولى بأن أخلي الميدان، وأغادر تريستا لأذهب إلى أي مكان أبحث فيه عن التسلية. فلم يعد هناك ما أعلّق عليه آمالي، كنت متأكداً من أنّ آدا ضاعت من بين يديّ! أيعقل أنها لم تكن لتتزوج من أي رجل إلاّ بعد أن تفحصه وتدرسه كما لو أرادت أن تقدّم وساماً أكاديمياً؟ كان يبدو هذا مضحكاً لأنّ الكمنجة لم تكن لتؤخذ بالحسبان في اختيار البشر لشريك حياتهم، ولكن هذا لم ينقذني عموماً. فكانت للكمنجة أهمية حتمية مثل الصوت عند العصافير الصدّاحة، وكنت أشعر بذلك.

اختبأت في مكتبي ويوم عطلة الآخرين لم ينتهِ بعد! أخرجت الكمنجة من الصندوق، وأنا محتار بين العزف عليها أو تحطيمها إلى أجزاء. ثم لمستها كأني أودّعها للمرة الأخيرة، وانتهى بي الأمر لعزف موسيقى الخالد رودولف كروتسر. في ذلك المكان نفسه كنت أطوف أميالاً عديدة لأفكر في غايتي، وطفت حينها في تشتتي قاطعاً أميال أخرى بشكل لا إرادي.

كل أولئك الذين تفرغوا للعزف على تلك الأوتار اللعينة يؤمنون بالمعتقد القائل إنّ كل ثانية تبذل فيها جهداً تحمل إليك تطوراً مماثلاً طالما أنك تحيا وحيداً. من سيقبل بالخضوع لتلك الأعمال الشاقة

المؤبدة، كما لو ابتلي أحدهم بقتل أحد آخر، إن لم يكن الأمر كذلك؟ وبعد مضي القليل من الوقت بدا لي أنّ معركتي مع غويدو لم تحسم لصالحه بعد. لا أحد يعلم إن كان بوسعي التدخل بين آدا وغويدو بكمنجة منتصرة.

لم يكن ذلك ادعاءً، بل كان تفاؤلي المعتاد الذي لم أتمكن من التحرر منه يوماً. فمخاوفي تفزعني في بادئ الأمر، وسرعان ما أتركها ورائي بثقة عمياء أني استطعت تجنبها. لم يتوجب عليَّ إلاَّ أن أكون متسامحاً مع رأيي في مقدراتي الموسيقية. ومن المعروف أنّ الرأي الصائب في الفنون عموماً ينتج من مقارنة الأعمال بعضها ببعض، وهذا ما كان ناقصاً في تلك الحالة. ثم إنّ صوت الكمنجة يدخل من الأذن التي تفتح طريقاً مختصراً إلى القلب. وعندما تعبت من العزف توقفت وقلت لنفسي: (رائع يا زينو، لقد حصلت على رغيفك!).

ذهبت إلى بيت مالفنتي دون أيّ تردد، لأنني قبلت الدعوة، ولم أعد قادراً على التخلف عنها. وبدت لي علامة طيبة أن تستقبلني الخادمة بابتسامة لطيفة وتسألني إن كنت مريضاً أثناء فترة غيابي. فوضعت في جيبها البقشيش، لأنها نابت عن كل تلك العائلة في سؤالها هذا.

أدخلتني إلى الصالة الغارقة في ظلام دامس. فبعد أن وصلت من البهو المنير لم أرَ شيئاً للحظات ولم أجرؤ على الحركة. ثم انتبهت لبعض الأشخاص الجالسين حول طاولة صغيرة في عمق الصالة، بعيداً عني جداً. رحّب بي صوت آدا المبتسم، الذي بدا شهوانياً في الظلام كلمسة عاطفية:

– تفضّلْ من هذا الجانب وإياك أن تزعج الأرواح.

من المؤكد أنني لن أزعجهم لو استمرّت بهذه النبرة! ومن الجانب الآخر من الطاولة ظهر صوت ألبيرتا أو أوغوستا ربما:

twitter @baghdad_library

- إذا أردت مشاركتنا في استحضار الأرواح تعالَ إلى هنا حيث يوجد كرسي خال.

وكنت قد قررت أن لا أبقى جانباً، فتقدمت بعزم صوب النقطة التي ظهرت منها تحية آدا. اصطدمت ركبتي بحافة الطاولة، فتألمت كثيراً ولم أبق واقفاً. فهويت على إحدى الكراسي التي لا أعلم من عرضها عليّ، فإذا بي بين فتاتين ظننت أنّ آدا تقع على يميني وأوغوستا على يساري. فاستدرت إلى جهة الأولى كي أمنع أي تواصل مع الأخرى. ثم راودني الشك بأنني أخطأت فسألت اليمنى كي أتعرف على صوتها:

- هل كان لك أي صلة بالأرواح من قبل؟

كان غويدو يجلس بمواجهي، فقاطعني وصرخ باستعلاء:

- هدوء..! - ثم قال بصوت أخف: - اخشعوا وفكروا بالميت الذي تودون استحضاره!

لم يكن لديّ امتعاض من التجارب التي تتجسس على العالم الآخر مهما كان نوعها، بل شعرت بالندم لأني لم أحضر هذه الطاولة إلى بيت مالفنتي، بعد أن رأيت ما حققته من نجاح. لكني لم أرغب بالانصياع إلى أوامر غويدو، لذا لم أخشع أبداً. ثم شعرت بتأنيب الضمير لأني أوصلت الأمور إلى هذا الحد دون أن أدلو بكلمة واضحة لآدا، وكانت بجانبي حينها في تلك الظلمة المحببة، وأردت أن أبوح لها بكل شيء. ارتبكت لقربها مني كثيراً بعد أن خشيت أن أفقدها للأبد. كنت أشعر برقّة ثوبها الحريري الذي يلامس ملابسي، وفكرت أن تلامس قدمي قدمها بما أننا قريبان هكذا، وكانت تلبس حذاء رائعاً. وكان هذا كثيراً بعد عذاب طويل الأمد.

قال غويدو ثانية:

- أرجوكم أن تخشعوا. توسّلوا الآن إلى الروح التي استحضرتموها

أن تظهر وتحرّك الطاولة.

كان يعجبني أن أراه منشغلاً بجدية في موضوع الطاولة. وحانت اللحظة التي تستسلم بها آدا لكل ثقلي! فلن تتحملني إن لم تكن تحبني. حانت لحظة الصراحة. نزعت يدي اليمنى عن الطاولة ووضعتها شيئاً فشيئاً على خصرها:

– آدا، أنا أحبك!.. – قلت بصوت منخفض ومقرّباً وجهي على وجهها كي تسمعني.

ولم تجبني الفتاة حالاً، ثم هبّ نحوي صوت ناعم ولكن من جهة أوغوستا:

– لماذا لم تأتِ منذ وقت طويل؟

كدت أسقط من هول المفاجأة والتعاسة معاً. ولو توجّب عليَّ أن أشطب تلك الفتاة المزعجة من حياتي نهائياً، فعليّ أن أفعل باحترام يليق بفارس مثلي، يعامل السيدة التي تعشقه بلطف حتى لو كانت أقبح امرأة على وجه الأرض. كم كانت تحبني! كنت أشعر بحبها من خلال آلامي. لم يكن شيئاً آخر سوى الحب الذي اقترح عليها أن لا تقول إنها لم تكن آدا. اقترح عليها أن توجه سؤالاً لطالما انتظرتُه من أختها عبثاً، بل من المؤكد أنها كانت تجهّز نفسها لتسألني إياه حالما تراني من جديد. تبعت حدسي ولم أجب على سؤالها، ثم قلت لها بعد تردد قصير:

– رغم هذا سأكون ممتناً لحفظك سرّي يا أوغوستا، فأنا أعتبرك فتاة طيبة.

واستعدت توازني على الكرسي الصغير حالاً. لم أستطع أن أكون واضحاً مع آدا، ولكني استكملت الوضوح مع أوغوستا، فلم يعد هناك ملابسات أخرى.

أنّبنا غويدو من جديد:

twitter @baghdad_library

- إن لم تصمتوا فليس هناك ما يستدعي أن نهدر وقتنا في البقاء تحت الظلام!

لم يكن غويدو يعرف شيئاً، وكنت بحاجة إلى بعض الظلمة كي تعزلني وتسمح لي بالخشوع. فاكتشفت خطأي، واستعدت توازني على الكرسي فقط.

أردت التحدث إلى آدا، ولكن تحت النور الساطع. فاعتراني الشك أن تكون ألبيرتا جالسة على جهتي اليسرى وليس آدا. كيف أتأكد من ذلك؟ كاد الشك يرميني إلى الجهة اليسرى، فتمسكت بالطاولة لأستعيد توازني. فصرخ الجميع معاً: (إنها تتحرك. إنها تتحرك!!). كنت سأبلغ الوضوح عبر فعل لا إرادي. من أين كان يأتي صوت آدا؟ لكن غويدو غطّى بصوته أصوات الآخرين، وفرض الصمت الذي كنت سأرغب بفرضه عليه بالأحرى. ثم تحدّث الأحمق إلى الروح التي ظنّ أنها موجودة بنبرة متضرعة ومستعطفة: (أرجوك أن تقول اسمك واصفاً أحرفه من أبجديتنا!). كان مستعداً لكل شيء، فخشي أن تتكلم الروح بالأبجدية الإغريقية! تابعت المهزلة باحثاً عن آدا متجسساً في الظلام. وبعد تردد وجيز جعلت الطاولة ترتفع سبع مرات حتى ظنّوا أنهم وصلوا إلى الحرف (G). فبدت لي الفكرة طريفة، ولكن حرف (u) يحتاج إلى رفعات لا تحصى. فآثرت أن أنطق باسم غويدو همساً، ولا أشك أني في فعلتي هذه كنت منقاداً إلى رغبتي في نفيه بعيداً بين الأرواح. تحدثت آدا أخيراً بعد أن سمعت اسمه:

- أيكون أحد أجدادك؟! - افترضت. كانت تجلس بقربه تماماً، فوددت لو أحرّك الطاولة بشكل يقسمها نصفين لأفرّق بينهما.
- ربما! - أجاب غويدو. كان يظن أنّ لديه أجداد، ولكنه لم يُخِفْنِي. بل فرحت أنّ صوته يتبدل بسبب تأثّر حقيقي. أشبه

لاعب السيف الذي يدرك أنّ خصمه ليس مخيفاً أكثر مما كان يعتقد. فلم يقم غويدو بتلك التجارب بدم بارد، بل كان أحمق حقاً! كل الضعفاء كانوا يثيرون شفقتي بسهولة، أما هو فلا.

التفت ليكلّم الروح: (إن كنت تدعى سبيير قم بحركة واحدة، وإلاّ حرك الطاولة مرتين). أشفقت عليه، بما أنه أراد أن يكون لديه أجداد، وحرّكت الطاولة مرة واحدة.

– إنه جدّي!.. – غمغم غويدو.

ثم أصبحت المحادثة تمضي بشكل أسرع. سُئلت الروح إن كانت تحمل أخباراً جديدة، فأجابت بنعم. أخباراً عن الأعمال أم عن أشياء أخرى؟ عن الأعمال! كانت هذه الإجابة مفضّلة عندي لأني اكتفيت بتحريك الطاولة لمرة واحدة. سأل غويدو إن كانت الأخبار طيبة أم سيئة، وكان على الأخبار السيئة أن تحرّك الطاولة مرتين، فأردت أن أفعل ذلك بكل سرور. لكن أحد الحاضرين، وربما آدا، عرقل حركتي الثانية لأنه أراد أن تكون الأخبار طيبة. ألقيت بنفسي على الطاولة حتى أكرر الحركة، وفعلتها بسهولة، فأصبحت الأخبار سيئة! بالغت في إظهار الحركة الثانية بسبب الجهد الذي بذلته، لدرجة أنها فاجأت جميع الحاضرين.

– غريب! – همس غويدو، ثم صرخ بتصميم:

– كفى! كفى! ثمة شخص هنا يستمتع لاهياً بمشاعرنا!

كان أمراً جعل الجميع يطيعونه في آن واحد، وسرعان ما ملأت الأنوار الصالة في أكثر من زاوية. بدا غويدو شاحباً، بينما كانت آدا مخدوعة بأفعال هذا الرجل. فوددت أن أوقظها لتراه بوضوح.

وإضافة إلى الفتيات الثلاثة، كانت السيدة مالفنتي وسيدة أخرى في الصالة. وتملّكني الارتباك والاستياء معاً ما إن رأيتها لأني حسبتها العمة روزينا، لكن السيدتين حصلتا مني على تحية رصينة لأسباب مختلفة.

twitter @baghdad_library

والجميل في الأمر أني بقيت على الطاولة إلى جانب أوغوستا. كانت مخاطرة ثانية، ولكني لم أستطع الانضمام إلى الأخريات اللواتي أحطن بغويدو، إذ كان يشرح لهن بانفعال كيف أدرك أنّ الطاولة لم تحرّكها الروح، إنما بفعل شخص خبيث من لحم وعظم. لم تكن آدا من أمسك الطاولة إذن، بل كان هو نفسه من حاول ذلك بعد أن رآها تثرثر أكثر مما ينبغي. وكان يقول:

– أمسكت بالطاولة بكل ما أوتيت من قوة لأعرقل الحركة الثانية، لكنّ أحدهم ألقى بنفسه فوقها حتى غلب مقاومتي.

كم كان رائعاً استحضاره لأرواح لا تقوى على تحريك الطاولة بقوة!

نظرت إلى أوغوستا الطيبة لأرى مظهرها بعد أن سمعت تصريحي بحبّ أختها. كانت تتضرّج خجلاً، ولكنها نظرت إليَّ بابتسامة ودودة، وحينها قررت أن تؤكد سماعها لتصريحي:

– لن أقول ما سمعته لأحد! – قالت بصوت منخفض.

وهذا ما أعجبني كثيراً. همست شاكراً وأنا أشدُّ على يدها الجميلة. وكنت مستعداً لأصبح صديقاً عزيزاً لها، الأمر الذي كان مستحيلاً قبل تلك السهرة لأني لا أستطيع أن أكون صديقاً للأشخاص القبيحين. لكني استلطفت جسدها بعد أن لمسته ووجدته أكثر نعومة مما توقعت. حتى وجهها كان معتدلاً، بل يبدو مشوّهاً بسبب تلك العين فقط لأنها اتخذت سبيلاً ليس لها. كنت أبالغ حقاً عندما قلت أنّ ذلك التشوّه يمتدّ ليشمل فخذيها.

أحضروا عصير الليمون لغويدو. اقتربت من الجمع الذي مازال يحيط به، واصطدمت بالسيدة مالفنتي، التي كانت تبتعد قليلاً عنهم. سألتها وأنا أضحك بتلذذ:

– أهو بحاجة لشراب منعش؟

حرّكت شفتيها بازدراء:

- لا يبدو على ما يرام! - قالت بوضوح.

ضلّلني انتصاري حتى حسبته مهمّاً وحتمياً، ولم تكن آدا لتفكّر بطريقة مختلفة عن أمّها. وسرعان ما أخذت نشوة النصر تأثيراً لابدَّ أن يفعل شيئاً على رجل مثلي. فاستسلم الحقد ولم أود رؤية غويدو يتألم أكثر. إنني متأكد أنّ العالم سيكون بخير لو أنّ الكثيرين يشبهونني. جلست بقربه، وقلت له دون النظر إلى الآخرين:

- أرجوك أن تعذرني سيد غويدو لأني تجرّأت على المزاح بأسلوب شرير حقاً. فكنت أنا من حرّك الطاولة ليبدو أنّ الشبح الذي يحمل اسمك قد فعل ذلك. لم أكن لأفعل شيئاً من هذا القبيل لو كنت أعرف أنّ جدّك يحمل اسمك نفسه.

تمهّل غويدو في التعبير بوجهه الشاحب، كما لو كانت المحادثة على قدر عال من الأهمية بالنسبة إليه، ولكنه لم يسلّم لذلك وقال لي:

- هؤلاء السيدات طيبات للغاية! لست بحاجة إلى أيّ سلوان، فالأمر بسيط جداً. أشكرك على صراحتك عموماً، ولكني توقعت أنّ أحدهم تقنّع شخصية جدي.

ثم ضحك راضياً، وقال:

- لست شخصاً عادياً على كل حال! كان ينبغي أن أدرك أنّ الطاولة تحرّكت من قبل الذكر الآخر في الجلسة.

ظهرت أقوى منه فعلاً، ولكن شعرت بأنني الأضعف. فكانت آدا ترمقني بنظرة عدائية وقد احمرّ خدّاها وقالت: - يؤسفني أنك اعتقدت نفسك مخوّلاً لمزحة من هذا النوع. فتشنجت وقلت متلعثماً:

- أردت أن أضحك، حسبت أنكم لا تأخذون مسألة الطاولة على محمل الجد.

twitter @baghdad_library

فاتني الوقت لمهاجمة غويدو، بل كنت سأشعر أنّ النصر ليس حليفي في أية معركة أخوضها ضدّه لو كان لدي أذنان حساستان. فكان لغضب آدا معنىً عميقاً، كيف لم أعِ أنها باتت ملكاً له حينها؟ لكني كنت أفكّر بعناد أنه لا يستحقها، لأنه ليس الرجل الذي كانت تبحث عنه بعينيها الجدّيتين. ألم تكن أمّها قد أدركت ذلك أيضاً؟ دافع عني الجميع ليتدهور وضعي أكثر، فقالت السيدة مالفنتي ضاحكة:

– لم يكن إلاَّ مقلباً ناجحاً بكل المقاييس.

أما العمة روزينا فكانت تهتزّ من شدّة الضحك وتقول معجبة: (رائع!).

حزنت لأن غويدو كان ودياً جداً. فكان همّه الوحيد هو التيقّن من أنّ الأخبار السيئة التي توعدت بها الطاولة لم تكن من صنيع الأرواح، وقال لي:

– أراهن أنك لم تحرّك الطاولة عمداً في المرة الأولى، وأنك قررت بخبث أن تحرّكها في المرة الثانية فقط. فهكذا يحفظ الأمر أهميته، أي عندما قررت أن تفسد ما ألهمت به.

التفتت آدا إليَّ ورمقتني باستلطاف. أرادت أن تظهر إخلاصها الشديد لغويدو بأن تغفر لي فعلتي مادام أنه قبل اعتذاري. فمنعتها عن ذلك:

– لا.. لا! – قلت بحزم – لقد سئمت من انتظار تلك الأرواح التي لم تحضر، فأخذت محلها من باب التسلية، هذا كل ما في الأمر!

استدارت آدا مقوّسة أكتافها كأنها تصفعني على وجهي تماماً. حتى شعرها المتدلّي على رقبتها بدا كأنه يستخفّ بي. وكما جرت العادة، انهمكت في أفكاري الخاصة بدل أن أشاهد وأسمع. فكنت حزيناً من

رؤيتها وهي تتصرف بشكل سيء، وأتألم كما لو اكتشفت أنّ امرأتي تخونني. كان من الممكن أن تكون لي بصرف النظر عن الحنان الذي أبدته لغويدو. ولكني فكرت بأني لن أسامحها أبداً على ميولها لذاك الشاب. ألم يكن هذا أسلوبي البطيء في التفكير بكيفية مواجهة الأحداث التي تقع، دون التريّث في شطب الانطباعات عن الأحداث السابقة في دماغي؟ ما عليّ سوى التحرّك وفق ما اتخذته مسبقاً من قرارات. كان عناداً أعمى حقاً. بل أردت أن أجعل من قراري حاسماً أكثر بتسجيله لمرة ثانية. فذهبت إلى أوغوستا التي تنظر إليَّ بشغف، وترسم على وجهها ابتسامة مشجعة، وقلت لها بجدية واكتئاب:

- قد تكون هذه المرة الأخيرة التي أجيء بها إلى منزلكم، لأني سأعلن حبي لآدا هذا المساء!

- لا. لا تفعل! - قالت مستعطفة - ألا ترى ما الذي يجري هنا؟ يؤسفني أنه يؤلمك.

استمرت في حشر أنفها بيني وبين أختها، فقلت لها نكاية:

- سأتحدث إلى آدا لأنه يتوجب عليَّ ذلك، ولن أكترث لما قد تجيبني به أبداً.

ذهبت أعرج ثانية نحو غويدو، وعندما صرت بقربه نظرت إلى إحدى المرايا وأشعلت سيجارة. وجدت نفسي في المرآة شاحباً وهذا ما دفعني لأصبح بمنتهى الشحوب، فجاهدت كي أشعر بتحسن لأبدو لطيفاً. وأثناء ذلك الجهد المضاعف أمسكت كأس غويدو بيدي الشاردة. وبعد أن فعلت، لم أر ما هو أفضل من شربه كلياً. فانفجر ضاحكاً:

- لقد شربت أيضاً من هذا الكأس منذ قليل، سوف تتعرف على أفكاري كلها هكذا.

لطالما كرهت طعم الليمون. بدا لي حينها ساماً، لأني شعرت

twitter @baghdad_library

باتصال كريه مع غويدو خصوصاً عندما شربت من كأسه. وأمطرتني آدا بوابل من تعبيرات وجهها التي لا تدل إلاً على غضبها ونفاد صبرها مني. نادت الخادمة فوراً لتطلب كأساً آخر من الليمون، وأصرّت في أمرها رغم أنّ غويدو أبدى عدم شعوره بالعطش. فأضمرت لي المزيد من العدائية كلّما بدوت مثيراً للشفقة أكثر.

- اعذريني آدا. - قلت لها بخنوع ناظراً إليها كما لو كنت أنتظر توضيحاً ما - لم أكن أقصد إزعاجك.

ثم اجتاحتني الخشية من أن تذرف عيني دمعاً، وأردت أن ألوذ بنفسي من هذا المشهد المضحك. فصرخت:

- وصل رذاذ من الليمون إلى عيني!

حجبت عيني بالمنديل، لذا لم أعد أفكر بالدموع، إنما اكتفيت بالحذر من إصدار الشهقات. لن أنس ذاك الظلام من خلف المنديل أبداً، فكنت أخفي دموعي في ثناياه، بل جنوني أيضاً. ظننت أني قلت كل شيء، وأنها تفهّمتني وأحبّتني، وبأني لن أغفر لها شيئاً ثانية. أبعدت المنديل عن وجهي، وتركت للجميع أن يروا عينيّ الدامعتين، وبذلت جهداً كي أضحك وأُضحك الآخرين:

- أراهن أنّ السيد جوفاني يجلب إلى منزله حامض أوكسيد الستريك كي يحضر العصائر منه.

وفي تلك اللحظة وصل جوفاني الذي رحّب بي بحرارته المعتادة التي طمأنتني لوهلة لم تدم طويلاً لأنه برّر مجيئه الباكر برغبته في سماع عزف غويدو. قاطع نفسه ليسألني عن سبب دموعي التي تغرورق في عيني، وعندما قصّوا عليه شكوكي في نوعيّة العصير ضحك كثيراً.

كنت خسيساً في مشاطرتي لجوفاني رجاءه لغويدو بالعزف، وتذكرت أنه دعاني لأسمع عزفه. والطريف أنني رجوت أن تستعيد آدا

لطفها، إن رأتني أتوسّل إلى غويدو. ونظرت إليها متأملاً أني اقترنت بها في تلك السهرة أخيراً. ياللغرابة! ألم يكن لدي ما أخبرها به وألومها طويلاً عليه؟ لكني لم أر سوى أكتافها وشعرها الساخط فوق رقبتها، وهي تركض لتخرج الكمنجة من صندوقها.

طلب غويدو أن يُترك وحيداً ربع ساعة، فكان يبدو مضطرباً. ولاحظت اضطرابه على طول السنين التي عرفته بها، فكان يضطرب دوماً قبل أن يفعل حتى الأشياء البسيطة التي تُطلب منه. لم يكن يفعل إلاَّ ما يطيب له، ويسترسل في التمحيص عمّا يرغب في داخل أعماقه قبل أن يقوم بأي شيء.

وفي تلك السهرة الخالدة حصلت على أروع ربع ساعة، إذ أضحكت الجميع بأحاديثي المجنونة حتى آدا. وكان ذلك بفضل هيجاني المستعر، بل بفضل جهودي الرامية إلى سحق تهديد الكمنجة التي تقترب شيئاً فشيئاً.. فكان الجميع يستمتع بفضلي في ذلك الزمن القصير، الذي أراه كمعركة ضارية.

كان جوفاني يروي أنه شاهد منظراً مؤلماً في الترام أثناء عودته إلى المنزل. إذ رأى سيدة تنزل من الترام قبل أن يتوقف، فهوت على الأرض متأذية بجراح عديدة. وكان يبالغ في وصف قلقه من رؤيته للمرأة التي تتهيأ لتقفز، عندما كان واضحاً أنها ستسقط وربما ستموت. إنه لمن المؤلم أن تتنبأ عندما يفوت أوان المساعدة.

وجدت الدواء لدائه. فقلت إني عثرت على علاج لذلك الدوار الذي عانيت منه كثيراً في الماضي. فعندما أرى رياضياً يتمرّن في الأعالي، أو أحد المسنين والعاجزين ينزل من الترام، كنت أتخلص من أنواع القلق كلها آملاً أن تنزل بهم مصيبة ما. بل كنت أصل حتى إلى تنويع الكلمات التي آمل بها أن يقعوا وأن يتهشموا. وهذا ما كان

twitter @baghdad_library

يهدِئني بشكل كبير لأتمكن من مشاهدة اللعنات التي تصيبهم جميعاً دون أن أتأثر. وإن لم تتحقق آمالي فسأكون سعيداً أكثر.

سحرت غويدو بفكرتي التي بدت له اكتشافاً سيكولوجياً، فحلّلها كما يفعل بكل تفاهاته، وتمنّى أن يمارس هذا العلاج بأقرب فرصة. لكنه تحفّظ على شيء واحد، وهو أنّ الشؤم لا يزيد من كوارث الملمات. وشاركته آدا في ضحكاته، ونظرت إليَّ بإعجاب أيضاً. فشعرت بالكثير من الرضا بسذاجة، ولكني اكتشفت أني لن أغفر لها شيئاً، وكان هذا نافعاً أيضاً.

ضحكنا كثيراً معاً كأشخاص طيبين يودّ بعضهم بعضاً. وفي لحظة ما وجدت نفسي في إحدى زوايا الصالة وحيداً مع العمة روزينا. كانت لا تزال تتحدث عن تلك الطاولة، وكانت سمينة بما فيه الكفاية لتجلس على كرسيها دون أن تتحرك. حدّثتني دون أن تنظر إليَّ، فوجدت طريقة أقنع بها الآخرين أنني سئمت دون أن أظهر ذلك للعمة، فضحك الآخرون باحتشام. ولكي أزيد من جوّ المرح قلت لها من دون تردد:

- سيدتي إنك تتعافين جيداً، أراك في غاية العنفوان.

كان من المضحك أن تعترض على ذلك. ولكنها، بدل أن تغضب، شكرتني على لطفي وأخبرتني أنها تعافت بعد أن مرضت مؤخراً. فاستغربت كثيراً من تلك الإجابة حتى أخذ وجهي مظهراً هزلياً، ممّا زاد الجوّ مرحاً. وبعد قليل اكتشفت اللغز، فعرفت أنها لم تكن العمة روزينا، بل كانت الخالة ماريا إحدى شقيقات السيدة مالفنتي. فمحوت بذلك منبعاً للامتعاض في تلك الصالة ولكنه لم يكن المنبع الأكبر.

وفي لحظة معيّنة طلب غويدو الكمنجة ليعزف (الشاكون) منفرداً دون مرافقة البيانو. أحضرت آدا الكمنجة إليه مع ابتسامة شكر. لكنه لم ينظر إليها، بل نظر إلى الآلة متوحّداً مع وحيه. ثم تموضع في وسط

الصالة واضعاً خلفه الجمهور الصغير. وبخفّة تلمّس الأوتار بالقوس كي يشدّها وعزف بعض الآربيجات، توقف لوهلة وقال مبتسماً:

– إنها لشجاعة مني إذا فكّرتم أني لم ألمس الكمنجة منذ المرة الأخيرة التي عزفت بها هنا!

يا له من دجّال! كان يعطي ظهره لآدا أيضاً. فنظرت إليها بقلق لأرى إن كان يؤسفها ذلك. لم يكن يؤسفها! بل أسندت مرفقها إلى الطاولة، ووضعت وجهها بين يديها وتهيّأت للإصغاء.

ثم تجلّى أمامي باخ العظيم بنفسه حقاً. لم أصل إلى سماع هذا المستوى الرائع من العزف، لا قبل تلك الألحان التي تتولد على الكمنجة في الصالة ولا بعدها. كانت موسيقاه تشبه ملاكاً نحته مايكل أنجلو في صخرة مرمر. لم أشعر من قبل بتلك الراحة النفسية التي تدفعني للنظر بذهول إلى الأعلى كما لو رأيت شيئاً جديداً في حياتي. ومع ذلك كنت أرهق نفسي كي لا أتأثر بسحر الأنغام، ولم أنقطع عن التفكير: (احذر! فالكمنجة مثل حورية البحر، يمكنها أن تبكيك حتى لو لم يكن لديك قلب قبطان!). باغتتني تلك الأنغام حتى أخذتني بعيداً. بدت كأنها تحاكي أمراضي وآلامي بكل غفران، وتغمرها باللمسات والبسمات. لكنني كنت أحصل على الهناء من غويدو، فحاولت أن أشرد عن الموسيقى قائلاً لنفسي: (لكي تتعلم العزف هكذا، ما عليك إلاّ أن تتصرف كآلة إيقاعية، وأن تمتلك يداً واثقة وقدرة على التقليد). لم أكن أملك أياً من تلك الأشياء، وهذا ما يدفعني إلى عدم الشعور بالدونية بل بسوء الحظ فقط! وكنت معترضاً، لكنّ باخ يمضي واثق النغمة مثل القدر. كان يصدح في الجواب ويهبط ليبحث عن أعماق القرار بأسلوب يفاجئ الأذن والقلب حتى لو كان السامع يعرف المقطوعة مسبقاً. كل شيء في محله! فلو تأخّر لحظة لضاعت الأنغام ولن يكون بوسعه استرداد رنينها الأول، ولو

twitter @baghdad_library

استعجل لحظة لانتهت القطعة قبل أوانها بنشاز يعكّر صفوها. ولكنّ شيئاً من كل هذا لم يحدث، فلم تهتز يديه أبداً عندما عزف لباخ، وهذا ما أشعرني بالدونية الحقيقية.

أشعر بكل ذلك حتى هذا اليوم. كنت أضمر حينئذٍ حقداً عظيماً لم تستطع تلك الموسيقى المرهفة إخماده. ثم جاءت الحياة اليومية لتمسح كل ذلك دون أن أبدي مقاومة تذكر. فالحياة اليومية تحسن فعل الكثير من تلك الأمور، تباً للعباقرة إن أدركوا ذلك!

انتهى غويدو من العزف بمهارة. لم يصفّق أحد عدا جوفاني، بل لم ينبس الآخرون ببنت شفة لدقائق عدة. فشعرت – مع الأسف – بالحاجة إلى الكلام. كيف تجرّأت على النقاش أمام أناس يعرفون مستواي في العزف؟ بدا وكأنّ كمنجتي كانت تتحدث وتلهث خلف الموسيقى، وتلوم الآخر الذي أصبحت موسيقاه كحياة مليئة بالنور والهواء. لا أحد ينكر ذلك.

– جيد جداً! – قلت كأنني أمنحه امتيازاً لا إعجاباً – ولكني لا أفهم لماذا أردت أن تفصل العلامات في الختمة مع أنّ باخ أرادها موصولة.

كنت أعرف (الشاكون) علامة علامة، وقد مررت بأيام شعرت فيها بحتميّة أن أواجه مغامرة كهذه لأطوّر من عزفي. فقضيت شهوراً عديدة أقطّع من أوصال معزوفات باخ جملة جملة.

شعرت أنّ الصالة غصّت بالسخرية مني مؤنّبة إيّاي على انتقاداتي. ومع ذلك تحدثت مقاوماً بعناد، فأضفت:

– إنّ باخ متواضع جداً في أساليبه، ولم يكن ليقبل عزفاً مزوّراً على هذه الشاكلة.

من المحتمل أن أكون على صواب، لكني متأكد من عدم قدرتي

على تزوير العزف على تلك الشاكلة. فأجابني بهذر، لا يرقى إلى ما تفوّهت به، حين أفصح:

- ربما لم يكن باخ عليماً بإمكانية وجود هذا الأسلوب. سأهديه إياه!

لم يعترض أحد عليه عندما استخفّ بباخ، بينما ازدراني الجميع لأني حاولت الاستخفاف بغويدو وحسب.

طرأ آنئذٍ خطب قليل الأهمية، ولكنه كان حاسماً بالنسبة إلي. إذ صاحت آنّا الصغيرة من غرفة بعيدة عن الصالة، عرفنا فيما بعد أنّها وقعت أرضاً وجرحت شفتيها. وهكذا وجدت نفسي وحيداً مع آدا لدقائق عندما هرع الجميع إلى تلك الغرفة. ترك غويدو الكمنجة النفيسة بين يديها قبل أن يلتحق بالآخرين.

- هل تريدين ترك الكمنجة عندي؟ - سألتها عندما رأيتها مترددة في الذهاب إلى أختها الصغرى. لم أكن قد فطنت حقاً أنّ اللحظة التي تمنيتها طويلاً حانت أخيراً. فارتبكت آدا، وأبدت عدم الثقة بشكل غريب ومفاجئ، فاحتضنت الكمنجة أكثر:

- لا! لا يلزم أن أذهب مع الآخرين، لا أعتقد أنّها تأذّت كثيراً. فهي تصرخ من لا شيء.

جلست وبدت كأنها تدعوني إلى الكلام. كيف كنت سأذهب إلى منزلي دون أن أتحدث بشيء؟ ما الذي كنت سأفعله بعد ذلك في تلك الليلة الطويلة؟ كنت أرى نفسي أتقلب ذات اليمين وذات الشمال في سريري، أو راكضاً في الشوارع أو مترنحاً في إحدى الحانات أبحث عمّا ينسيني ملمّتي. كلا! لم يكن ينبغي أن أترك المسألة دون أن أحصل منها على الوضوح وراحة البال. فحاولت أن أكون بسيطاً بقول المختصر من الكلام، بل كنت مضطراً على فعل ذلك لأنّ أنفاسي أخذت تضيق

twitter @baghdad_library

بصدري. فقلت:

– آدا.. أنا أحبك.. لم لا تسمحين لي بالتحدث مع أبيك بهذا الشأن؟!..

نظرت إليَّ بفزع واستغراب، وخشيت أن تنفجر بالصراخ مثلما كانت الصغيرة تفعل هناك. وكنت أعلم أنّ عينيها الصافيتين ووجهها ذا التقاطيع الدقيقة لا يلمّح بالحب، بل لم أرها بعيدة كل البعد عن الغرام كما رأيتها حينئذٍ. بدأت بالحديث وقالت شيئاً ما قد يكون مقدمة مفيدة. ولكني أردت الصراحة: إما نعم وإما لا! ربما شعرت بالإساءة منذ أن بدت مترددة. ولكي أدفعها إلى أن تقرّر بسرعة، ناقشت معها الحق في أن تأخذ وقتها بالتفكير:

– وكيف لم تنتبهي لذلك؟ لا أعتقد أنك فكّرت بأنّي أحببت أوغوستا!

أردت أن أعطي لكلماتي قدراً جليلاً، ولكني أضعت طريقي في العجلة. وانتهى بي الأمر أني نطقت دوماً اسم أوغوستا المسكين بنبرة وإيماء يدلاّن على الاحتقار. فتخلصت آدا من ارتباكها، ولم تعد ترى إلاّ المهانة التي لحقت بأختها:

– ولماذا تظنّ أنك متفوّق على أوغوستا؟ لا أعتقد أنها ستوافق على الزواج بك!

ثم تذكرت أنّ عليها أن تجيبني:

– أما بالنسبة لي.. فأتعجب كيف تخطر في ذهنك فكرة كهذه.

كانت هذه الجملة اللاذعة انتقاماً لأختها. وظننت، بينما كانت الأفكار تتقاذفني، أنّ كلماتها لا تحمل إلاّ ذلك المعنى. ولو أنها صفعتني بيدها لترددت في معرفة الأسباب. ولذا ما زلت مصرّاً:

– فكّري بالأمر جيداً. أنا لست رجلاً شريراً، إنني غني... وغريب

الأطوار نوعاً ما، ولكنني أستطيع أن أهذّب من شخصيتي بسهولة.

أصبحت آدا أكثر لطفاً ولكنها مازالت تحدثني عن أوغوستا.

- فكّرْ أنت أيضاً بالأمر يا زينو. فأوغوستا فتاة رائعة وأعتقد أنها تصلح لك. إنني لا أستطيع التحدث نيابة عنها، ولكنني أظن أن...

كم كان جميلاً أن أسمعها تناديني باسمي للمرة الأولى. ألم يكن هذا إشارة للحديث بوضوح أكثر؟ ربما كانت قد ضاعت مني، أو أنها لم تكن لتوافق بسرعة على الزواج مني. ولكن بالمقابل كان عليَّ أن أحذّرها من التدهور مع غويدو، وأن أوضّح لها ذلك. فكنت واعياً، إذ قلت لها قبل كل شيء إنني أحترم أوغوستا جداً، ولكني لا أفكر بالزواج منها نهائياً. قلت هذا مرتين، لأجعلها تفهمني بوضوح: (أنا لا أرغب بالزواج منها). وهكذا استطعت أن أهدّئ من روع آدا التي اعتقدت أنني تعمدت إهانة أختها.

- إنها فتاة طيبة وعزيزة ومحبوبة، لكنها لا تناسبني.

ثم استعجلت في الكلام لأني سمعت الأصوات في الممر، وقد تقطع عليَّ الحديث بين اللحظة والأخرى.

- آدا! ذاك الرجل لا يناسبك. إنه أبله! ألم تَرَي كيف انزعج من إجابات الطاولة؟ ألم تري العصا التي يحملها؟ يتقن العزف على الكمنجة، ولكن ثمة بعض القرود تعزف ببراعة على هذه الآلة. وحديثه يظهر كم هو بهيم في......

فقاطعتني بعد أن أصغت إليَّ باحترام شخص يعجز على إدراك معاني الكلمات التي تقال له. فوقفت والكمنجة في يدها والقوس في الأخرى، وهاجمتني بوابل من الكلمات المسيئة، فعلت كل ما بوسعي

twitter @baghdad_library

لكي أنساها على مرّ الأيام ونجحت. أذكر فقط أنها بدأت بالسؤال بصوت مرتفع عن جرأتي على التحدث عنها وعنه بتلك الطريقة! فاتّسعت عيناي من هول المفاجأة لأني أذكر أني تحدثت عنه فقط. نسيت تلك الكلمات كلها، ولكني لم أنسَ كيف احمرّ وجهها الجميل والنبيل غضباً، وكيف غدت تقاطيع وجهها أكثر دقّة عندما استخفت بي. لم أنسَ ذلك المشهد أبداً. وكلما فكرت في الحب وفي أيام شبابي رأيت وجهها الجميل والنبيل في اللحظة التي كانت تشطبني من حياتها نهائياً.

عاد الجميع وهم يحيطون بالسيدة مالفنتي التي حملت طفلتها الباكية بين ذراعيها. ولم ينشغل أحد بنا، فغادرت الصالة دون أن أودّع أحداً، وأخذت قبعتي من الممر. واستغربت أنّ أحداً لم يلحق بي ليمنعني من الانصراف. فامتنعت عنه لأني تذكرت أنه لا ينبغي عليّ الانحراف عن جادّة التربية الصالحة وقواعدها التي تنصّ على توديع الجميع قبل المغادرة. والحقيقة أنني لا أشك في امتناعي عن مغادرة المنزل، لأني كنت مقتنعاً بقضاء ليلة أسوأ بكثير من تلك الليالي الخمس التي سبقتها. كنت قد بلغت الوضوح الذي أنشد، فشعرت بحاجتي إلى شيء آخر وهو السلام، السلام مع الجميع. فإن استطعت أن أقضي على الاحتقان بيني وبين آدا، بل وبين الجميع، كنت سأنام قرير العين فعلاً. ولماذا كان ضرورياً أن يوجد احتقان كهذا في الأصل؟ لم أكن أستطيع أن أغفر لنفسي ما فعلته مع غويدو حتى لو كان لا يستحق المعاملة الجيدة، ولا ذنب له إذا كانت آدا من اختاره. كانت الوحيدة التي انتبهت لوجودي في الممرّ، وعندما رأتني عائداً نظرت إليَّ بقلق. هل كانت تخشى أن أتصرف بحماقة؟ أردت أن أطمأنها فوراً، مررت بجانبها وهمست:

– اعذريني إن أخطأت بحقك؟!..

أخذت يدي وشـدّت عليها مطمئنّة. كان ذلك يبعث على الراحة. أغمضت عينيّ للحظة كي أختلي بروحي وأرى كم من السلام دخل إليها.

أراد لي القدر أن أجد نفسـي جالسـاً بالقرب من ألبيرتا بينما كان الجميع منشغلين بالطفلة. لم أكن منتبهاً لوجودها حتى كلّمتني:

– لم يحدث لها أي مكروه. ولكنها تنتهز وجود أبي الذي ما إن يراها تبكي حتى يحضر لها هدية ثمينة على الفور.

توقفـت عـن التحليـل لأني رأيت نفسـي بصـورة كاملة! فكان عليّ أن أتصرف بطريقة تمنع الآخرين من تحريم التعامل معي لأحصل على السلام. نظرت إلى ألبيرتا، وكم تشبه آدا! أصغر منها بقليل، وتحمل في لاحتها دلالات جليّة عن الطفولة لم تمحَ بعد. كانت ترفع صوتها بيسر، وتنسجم ضحكتها الاستثنائية مع وجهها الناعم وتجعل منه أحمر اللون. غريـب! تذكـرت فـي تلـك اللحظـة إحدى توصيات والـدي: (اختر فتاة شـابة كي يسـهل عليك أن تربّيها كما يحلو لك!). كانت تلك الذكرى حاسـمة، ومازلـت أنظـر إلـى ألبيرتـا. فثابـرت على تعريتهـا في مخيّلتي، وكانت تعجبني حلوة ورقيقة كما افترضت أن تكون. قلت لها:

– أصغ إليّ ألبيرتا!.. لديّ فكرة. ألم تفكري مطلقاً أنّك في سنّ الزواج؟

– أنا لا أفكّر في الزواج! – أجابتني مبتسمة وهي تنظر إليَّ بلطف دون خجل أو وجل – بل أفكّر في متابعة الدراسة. حتى أمّي ترغب بذلك.

– بوسعك أن تكملي دراستك بعد أن تتزوجي أيضاً.

خطرت ببالي فكرة بدت لي خفيفة الظل، فقلتها بسرعة:

– إني أفكر في مباشرة الدراسة بعد الزواج.

ضحكت من كل قلبها، فأدركت أنّي أهدر وقتي، فليس من الممكن

twitter @baghdad_library

أن تحصل على زوجة وعلى السلام معاً وأنت مليء بتلك السخافات. كان ينبغي أن أكون جدّياً. ونجحت في ذلك لأني تنبهت لوضعي، وليس كما فعلت مع آدا. كنت جدّياً حقاً، وعلى زوجتي المستقبلية أن تعرف كل شيء. قلت لها بنبرة متأثرة:

– منذ قليل طلبت من آدا الشيء نفسه الذي أطلبه منك. لقد رفضتني باحتقار. تصوّري بأيّ حال أمرّ الآن.

وكانت هذه الكلمات، التي ترافق مظهري الحزين، آخر إفصاح عن هيامي بآدا. فأصبحت جدّياً أكثر، وأضفت مبتسماً:

– ولكني أعتقد بأني سأكون سعيداً جداً إذا ما وافقت على الزواج بي، وسأنسى من أجلك كل شيء وكل الناس.

أصبحت ألبيرتا جدّية لتقول لي:

– أرجو أن لا تشعر بالمهانة يا زينو لأن هذا يؤسفني. إنني أكنّ فائق التقدير لك. وأعرف جيداً أنك شيطان طيب[1] وأنك تعرف الكثير من الأمور دون أن تدرك ذلك، بينما يعلم أساتذتي بدقة كل ما يعلمون وحسب. أنا لا أرغب في الزواج، قد أعدل عن رغبتي لاحقاً. ولكني الآن لا أصبو إلاّ لغاية واحدة، وهي أن أصبح كاتبة. أترى حجم الثقة التي أعاملك بها؟ لم أقل ذلك لأحد، وأتمنى أن لا تفشي سرّي لكائن من كان. ومن جهتي أعدك بأن لا أخبر أحداً باقتراحك هذا.

– بل بوسعك أن تقصّي ما حدث للجميع! – قاطعتها حانقاً، فقد شعرت أني مهدّد بالإقصاء من تلك الصالة مجدداً، فبحثت عن ملاذ ما. وكانت هناك طريقة واحدة لأنقص من عزة نفس ألبيرتا

(1) تطلق عبارة «شيطان طيب» بالمعنى الإيجابي طبعاً في اللغة الإيطالية، ويقصد بها (الشخص البسيط). المترجم.

بعد أن رفضتني، واتخذت تلك الطريقة حالما اكتشفتها. فقلت لها:

- سأطرح الآن الاقتراح نفسه على أوغوستا، وسأخبر الجميع أنني تزوجتها لأن أختيها رفضتا الاقتران بي.

كنت أضحك بمزاج عالٍ واستثنائي خلّصني فيما بعد من غرابة ما سبقه من أحداث. ولم أكن أضع خفّة ظلّي - التي أفتخر بها - في أقوالي، إنما في أفعالي. فبحثت عن أوغوستا. كانت ذاهبة نحو الممر وتحمل إناء ليس فيه سوى كأس شبه فارغ، يحتوي على شراب مهدئ لآنّا الصغيرة. فلحقت بها مهرولاً، وناديتها باسمها، فاستندت إلى الجدار بانتظاري. كلّمتها على الفور وجهاً لوجه:

- اسمعي أوغوستا.!.. هل تريدين أن نتزوج أنا وأنت؟...

كان الاقتراح فجّاً للغاية، فعليّ أن أتزوجها دون أن أسألها عن أفكارها، ولم أكن مجبراً على تقديم المبررات! إذ لم أكن أفعل إلاّ ما أراده الجميع!

رفعت عينيها المتسعتين من هول المفاجأة حتى أصبحت عينها المصابة بالحول مختلفة عن الأخرى أكثر من المعتاد. وشحب وجهها الأبيض الناعم ثم اضطربت أكثر، فأمسكت بيدها اليمنى الكأس الذي كان يهتزّ فوق الإناء. وقالت بصوت منخفض:

- إنّك تمزح في أمر خطير جداً.

خشيت أن تبدأ بالبكاء، فخطرت لي فكرة طريفة في تهدئتها بقصّ مأساتي على مسامعها:

- أنا لا أمزح - قلت واثقاً وحزيناً - طلبت أولاً يد آدا فرفضتني غاضبة، ثم طلبت يد ألبيرتا، فرفضتني هي الأخرى بكلمات مهذبة. لا أكنّ حقداً على الأولى، ولا على الثانية، لكنني أشعر بالتعاسة.

twitter @baghdad_library

استرخت الفتاة أمام آلامي، وأمعنت النظر فيَّ بتأثر، وكانت تفكر مليّاً بالأمر. بل كانت نظراتها تعبّر عن شفقة لم تعجبني. سألتني:

– أينبغي عليَّ إذن أن أعلم أنك لا تحبني وأتذكر هذا على الدوام؟

ما الذي كانت تعنيه بذلك السؤال الغامض؟ هل كانت تلّمح على موافقتها؟ أي كان عليها أن تتذكر ذلك في حياتها كلها التي ستقضيها معي؟ انتابني شعور من يريد الانتحار، فوضع نفسه في مأزق، وغيّر فكرته محاولاً بجهد أن يفلت منه.. ألم يكن من الأفضل أن ترفضني أوغوستا أيضاً، فيسمح لي القدر أن أعود إلى مكتبي سالماً معافى دون أن أشعر بأي أذى؟ قلت لها:

– أجل! أنا لا أعشق إلاَّ آدا، ولكني أرغب الآن بالزواج منك...

كدت أقول إنني لا أطيق أن أكون غريباً على آدا وسأكتفي راضياً بأن أصبح نسيبها. ولكن هذا يعتبر تمادياً، وكان لأوغوستا الحقّ في التأكد من أنني أسخر منها، ولذا قلت لها:

– لم أعد أحتمل البقاء وحيداً!

على الرغم من ذلك كانت ما تزال تستند إلى الجدار كأنها بحاجة لدعمه. ولكنها بدت أكثر هدوءًا إذ حملت الإناء بيد واحدة حينها. هل كنت سالماً بما يكفي لمغادرة الصالة، أم كان بوسعي المكوث لأنه يجب عليَّ أن أتزوج؟ ولأنّ صبري بدأ ينفد وأنا أنتظر كلماتها التي لم تعد تصل إلى شفتيها، قلت لها:

– إنني شيطان طيب، وأعتقد أنك ستقدرين العيش إلى جانبي حتى لو لم يكن بيننا حبٌ عظيم.

كنت قد جهّزت هذه الجملة في الأيام الطوال السابقة كي أقولها لآدا، ولأقنعها بالزواج مني حتى لو لم تشعر بالحب العظيم تجاهي.

كانت أوغوستا تلهث وما تزال صامتة. وقد يعدُّ صمتها رفضاً،

ولكنه أرقّ رفض قد يتخيله المرء. فكنت على وشك الهروب لأبحث عن قبّعتي وأضعها فوق رأس حر. إلاّ أنها وقفت بثبات، وتركت سند الجدار بحركة مهيبة، واقتربت مني أكثر في ذلك الممر الضيق، وقالت لي:

- زينو، أنت بحاجة لامرأة تعينك وتعيش لأجلك. وأنا أودّ أن أكون تلك المرأة.

مدّت يدها الثخينة التي كدت أن أقبّلها عن غير وعي، ولم يعد بالإمكان أكثر مما كان. بل أعترف أنّ شعوراً بالارتياح اجتاحني وأثلج صدري في تلك اللحظة. فلم يعد عليَّ أن أفكر بأي شيء، لأن المسائل كلها قد حلّت. كان هذا هو الوضوح بعينه حقاً!

وهكذا خطبت أوغوستا، وسرعان ما رحّب الجميع بذلك. كان نجاحي هذا يعادل النجاح الباهر لكمنجة غويدو تقريباً، إذ غمرني تصفيق كل من في الصالة. فقبّلني جوفاني وسرعان ما رفع الكلفة بيننا، وقال لي بتعبير فعّال عن المودة:

- كنت أشعر أنني بمقام والدك منذ زمن بعيد، أيها الولد، منذ أن بدأت أعطيك النصائح الثمينة في تجارتك.

ومدّت حماتي المستقبلية خدها إليَّ فقبّلته. لم أكن لأنجو من تلك القبلة حتى لو تزوجت آدا..

- أرأيت كيف تكهنت بكل شيء منذ البداية! - قالت لي بلباقة لا توصف، ولم أعاقبها عليها لأنني لم أستطع، ولم أشأ، أن أحتجّ عليها. ثم عانقت الوالدة ابنتها، وبدت قيمة المودة في شهقاتها التي أصدرتها من شدة الفرح. لم أكن أقدر على إيذاء السيدة مالفنتي، ولكن شهقاتها كانت تلّون خطبتي بنور لطيف ومهم، في تلك السهرة على الأقلّ.

twitter @baghdad_library

شدّت ألبيرتا على يدي، وقالت بحماس:

- أود أن أكون أختاً عزيزة لك.

أما آدا: - أحسنت يا زينو! - وبصوت منخفض - اعلم أنه لا وجود لرجل، يظنّ أنه يقضي أموره على عجل، تصرّف بحكمة أكثر منك!

باغتني غويدو بمفاجأة كبرى:

- كنت قد أدركت منذ الصباح أنّك تنوي الارتباط بإحدى بنات مالفنتي، ولكني لم أتوصل لتحديدها.

لم يكن غويدو وآدا على تلك العلاقة الحميمة لتخبره بتجربتي معها! هل كنت قد قضيت أمري على عجل حقاً؟ ولكنها قالت لي بعد قليل: - أود أن تحبني مثل أخت لك.. فلننسَ ما تبقّى، ولن أقول شيئاً لغويدو.

كان رائعاً بالمجمل أن تزرع الفرح في قلب عائلة ما. ولكني لم أستمتع بذلك كثيراً لأنني كنت متعباً جداً. بل كنت أشعر بالنعاس أيضاً، وهذا ما يؤكد أني تصرفت بحكمة بالغة. فكنت سأغطّ في نوم عميق حتماً.

وعلى العشاء كنت وأوغوستا صامتين أمام الكثير من التهاني التي أدلى بها الآخرون، حتى شعرتْ بضرورة الاعتذار لعدم قدرتها على المحادثة بشكل عام:

- لا أعرف ماذا أقول. تذكّروا أنني قبل نصف ساعة لم أكن أدري ماذا سيحصل معي!

كانت تقول الحقيقة دوماً، وترمقني بين الدمعة والابتسامة. وأردت أن أداعبها بنظراتي، ولا أعلم إن نجحت.

وفي تلك السهرة نفسها خضعت لضيم من نوع آخر، وكان غويدو من آذاني بالضبط. يبدو أنه، قبل وصولي لأشاركهم تلك الجلسة

الروحانية، كان يروي عليهم كيف أعلنت في الصباح أنني لست شخصاً شارداً، فأعطوه دلائل على أنني كنت أكذب. رسمني بلوحتين كاريكاتيريتين، لينتقم مني، أو ربما ليريهم أنه بارع في الرسم أيضاً. كنت أظهر في الأولى وأنفي في السماء، مستنداً إلى مظلّة مركّزة في الأرض. وفي الثانية تظهر المظلّة مكسورة، ومقبضها يلج في ظهري. وكان الرسمان يفيان بغرض الضحك من السذاجة التافهة التي ارتسمت على ذلك الرجل الذي يمثّلني. وفي الحقيقة لم يكن يشبهني إطلاقاً، لكنه كان يتسم بصلع رهيب. فكان في نظرهم مطابقاً لي في اللوحتين، مما يجعله يبدو شارداً لدرجة أنه لم يغيّر مظهره عندما طعنته المظلّة من الخلف.

ضحك الجميع أكثر ممّا ينبغي. وكانت تؤلمني كثيراً تلك التجربة الناجحة في وضعي بمنظر مضحك. فكانت المرة الأولى التي أنتبه فيها إلى ألم نافذ. إذ تألّمت من ساعدي الأيمن ووركي، باشتعال حادّ وتنمّل في الأعصاب كأنها تشنجت. فأمسكت وركي بيدي اليمنى، وساعدي المتألم بيدي اليسرى مستغرباً. فسألتني أوغوستا:

– ما بك؟!..

فأجبتها بأنني أشعر بألم من الرضوض إثر وقوعي في المقهى، والذي تحدثت عنه في تلك السهرة أيضاً. وقمت فوراً بمحاولة حازمة علّني أتخلص من ذلك الوجع. وبدا لي أنني سأتعافى منه لو عرفت كيف أنتقم من القدح الذي نزل بي. فطلبت ورقة وقلم رصاص، وحاولت أن أرسم شخصاً يشعر بالقهر من انقلاب طاولة صغيرة عليه، ورسمت بعدها عصا تقع من يده بعد تلك الحادثة. لم يتعرف أحد على تلك العصا، فلم ترتقِ الشتيمة إلى ما كنت أصبو إليه. ولكي يُعرف من يكون ذلك الشخص ولماذا كان في تلك الوضعية كتبت في الأسفل: (غويدو

twitter @baghdad_library

سبيير منهمكاً مع الطاولة!). ولم يكن في الرسم، إضافة إلى ذاك الشخص المعـوّق، إلاّ قدميـه تحـت الطاولـة، والتـي قد تشـبه قدمي غويدو لو لم أشوّهها بقصد، حين تدخّل حب الانتقام في لوحتي الطفولية ليخرّبها.

كان الوجـع الملـحّ يجعلنـي أرسـم علـى عجلة. ولم تعترِ جسـدي المسكين مثل هذه الرغبة في التجريح أبداً. ولو أمسكت بيدي خنجراً، بدل قلم رصاص لا أعرف استخدامه، لتعافيت بسهولة. ضحك غويدو بصدق من لوحتي، ولكنه لاحظ بعناية:

– لا أذكر أنّ الطاولة آذتني!..

وفعلاً لم تكن الطاولة قد آذته، وكان هذا هو الجور الذي عانيت منه. فأخذت آدا لوحتي غويدو وقالت إنها تود الاحتفاظ بهما. فنظرت إليهـا لأعبّـر عـن غضبـي منهـا فأبعـدت نظراتها عنـي. كان لي الحق بأن أغضـب منهـا لأنهـا تزيـد مـن توتـري. وجدت أوغوسـتا تدافع عني، إذ أرادت أن أكتـب لهـا تاريـخ خطبتنـا علـى لوحتي لأنها أرادت أن تحتفظ بتلك الحماقات هي أيضاً. فسرت في شراييني موجة دم دافئة مدفوعة من برهان المودّة ذاك، والذي عرفت أهميته بالنسبة لي للمرة الأولى. ولكن وجعي لم يهدأ، إذ فكرت أنه لو كانت آدا من غمرني بتلك المودّة، هل كانت ستندفع في عروقي نفس الموجة الدافئة لدرجة أن تختفي جميع تلك الإساءات المتراكمة؟

ومنذهـا لـم يفارقنـي ذلـك الوجع. ولا أزال أعاني منه بشـكل أقل حتى الآن في سن الشيخوخة، لأنني أتحمّله بتسامح كلما عاد: (آه، أأنت هنا كدليل واضح على أني كنت شـاباً؟!). ولكنه كان شـيئاً مختلفاً كلياً في سـن الشـباب. ولا أقول إنّ الوجع كان عظيماً ليمنعني من التحرك بحريـة أو يؤرقنـي لليـال كاملـة، لكنـه احتلَّ جزءاً كبيراً من حياتي. كنت أود أن أشفى منه! لماذا كان عليَّ أن أحمل على جسدي وصمة الهزيمة

طوال الحياة؟ لم كان عليَّ أن أصبح صرحاً متجولاً لانتصار غويدو؟ كان عليَّ أن أمحو ذلك الوجع من جسدي حتمياً.

وهكذا بدأت العلاج. ولكني سرعان ما نسيت أصل العلّة المزعج، وأصبح من الصعب أن أعثر عليه لأنني كنت أثق جداً بالأطباء الذين عالجوني، وصدّقتهم كثيراً عندما أرجعوا الوجع إلى مشاكل في الدم تارة وإلى خلل في الدورة الدموية تارة أخرى، ثم إلى أمراض معدية منها ما هو مخجل حقاً. وأعترف أنّ أنواع العلاج كلها أشعرتني بارتياح مؤقت جعلني أرى تشخيص المرض مؤكداً في كل مرة. قد ينتج لبس ما بين الفينة والأخرى، لكنه لا يكون خطأ كليّاً، فالدلالات ليست في غاية الكمال.

حدث الخطأ لمرّة واحدة فقط: عندما وضعت نفسي تحت رحمة طبيب بيطريّ. تعمّد أن يفحص لي عرق النسا، وما يحدثه من بثور لوقت طويل. وانتهى بي الأمر إلى توبيخه من شدة الوجع الذي باغتني من وركي إلى رأسي خلال إحدى الجلسات، مبتعداً عن أي ارتباط مع عرق النسا. فغضب الطبيب العظيم مني، وأودعني عند الباب، فانصرفت دون أي شعور بالإساءة. أذكر ذلك جيداً، بل كنت معجباً بأنّ الوجع لم يتغيّر في شيء عندما تغيّر مكانه. فبقي مؤلماً وصعب المنال كما كان يعذّب وركي. كم غريب أن يتألم كل عضو من جسمنا بطريقة لا تختلف عن الأعضاء الباقية أبداً.

كل التشخصيات الأخرى توجد داخل جسمي بدقة، وتتزاحم على نيل الأولية. فأعيش بعض الأيام لأجل الحامض البولي الوراثي، وأياماً أخرى يقتل التهاب في الشرايين تلك الوراثة، فأشفى منها. لديّ خزائن تعجّ بالأدوية، وهي الخزائن الوحيدة التي أقوم بترتيبها بنفسي. إنني أعشق أدويتي، وأعرف أنني إذا تخلّيت عن أحدها سأعود لتناولها

twitter @baghdad_library

عاجلاً أم آجلاً. ولا أعتقد أنني أضعت وقتي في ذلك. فلا أحد يعلم متى وبأي مرض كنت سأموت، ما دام أنّ الوجع لم يُظهر أمراضي كلها دفعة واحدة ليقودني إلى البحث عن علاج لها قبل أن تسيطر عليّ.

لكني أعلم متى تشكّل وجعي للمرّة الأولى دون أن أقدر على تفسير طبيعته الغامضة. عندما رأيت تلك اللوحة الأفضل من لوحتي. كان كقطرة فاضت في الإناء! ولم أشعر بذلك الألم من قبل. أردت أن أشرح الأمر لأحد الأطباء، لكنه لم يفهمني. من يعلم، ربما يوضح التحليل النفسي كل الانقلاب الذي قام به جسدي في تلك الأيام، وبالأخص في تلك الساعات التي تلت خطبتي. لم تكن تلك الساعات قليلة عموماً! فعندما أصبح الوقت متأخراً انسحب الحاضرون من جلستهم، وقالت لي أوغوستا بسعادة: (إلى اللقاء غداً!).

أعجبتني الدعوة لأنها أكدت لي أنني وصلت إلى غايتي، وأنّ شيئاً لم ينته بعد، بل سيستمرّ كل شيء إلى اليوم التالي. نظرت إليَّ بعينيها، فاتقّدت عيناي بالرضا رغبة مني بطمأنتها. نزلت أدراج السلم دون أن أعدّها وسألت نفسي: (الله يعلم إن كنت أحبّها!).

رافقني هذا الشكّ طيلة حياتي حتى تأكدّت أنّ الحبّ الذي لا يقتات على الشكّ في أصوله ليس بالحبّ الحقيقي.

ولكني، حتى بعد أن تركت ذلك المنزل، لم أنعم بالذهاب إلى سريري لكي أحصد ثمار جهودي من تلك السهرة في نوم عميق ومريح. كان الطقس حاراً، فرغب غويدو بتناول البوظة، ودعاني لمرافقته إلى إحدى المقاهي. عانقني بأخوية من ساعدي، فتجاوبت معه بوديّة أيضاً. لقد كان شخصاً مهماً بالنسبة إليَّ، وكنت أعجز عن رفض ما يطلبه مني. فكان إرهاقي الكبير، الذي ينبغي أن يرميني في الفراش، يجعلني أستسلم أكثر من المعتاد.

دخلنا بالضبط إلى ذلك المكان الذي عداني فيه توليو المسكين بمرضه، وجلسنا على طاولة منعزلة. كنت أتألم كثيراً في الشارع من الوجع الذي لم أعرف حينها أي صديق وفيّ سيكون، والذي يبدو قد زال عندما استطعت الجلوس. وكانت رفقة غويدو فظيعة للغاية، فكان يستعلم بفضول شديد عن قصة حبي مع أوغوستا. أكان يشكّ أنني أخدعه؟ فقلت له بكل وقاحة أنني عشقتها مباشرة في زيارتي الأولى لبيت مالفنتي. وكان ألمي يجعل مني رجلاً مهذاراً، ووددت أن أصرخ أكثر منه. تحدثت كثيراً، ولو انتبه غويدو قليلاً لاكتشف أنني لا أحبّ أوغوستا. تكلمت عن الشيء الذي يثير الاهتمام في جسدها وأنّ حَوَلُ عينها يجعلك تظنّ – دون سبب – أنّ ما من شيء فيها وُضع في محلّه الصحيح. ثم أردت أن أشرح لماذا لم أتقدّم من قبل، ربّما كان مذهولاً من رؤيتي عازماً على خطوبة إحدى فتيات ذلك المنزل في اللحظة الأخيرة. فصرخت:

– وهكذا فإنّ بنات مالفنتي تعوّدن على العيش الرغيد، ولم أكن أظن أنني مستعدّ لأتحمّل على عاتقي شيئاً كهذا.

أسفت لأني تحدثت بهذا الشكل عن آدا أيضاً، ولكن لم يكن لي من مناص. فكان من الصعب عزلها عن أوغوستا! وتابعت بصوت منخفض كي أراقب كلماتي بشكل أفضل:

– كان لابد إذن أن أقوم ببعض الحسابات. وجدت أنّ أموالي لم تكن كافية، فدرست حينها إمكانية توسيع تجارتي.

ثم قلت إني احتجت لوقت طويل كي أفكر بتلك الحسابات، فامتنعت لهذا السبب عن زيارة آل مالفنتي لخمسة أيام. وعندما استرسل لساني أخيراً كدت أن أصل إلى القليل من الصراحة. كدت أبكي، فهمهمت وأنا أضغط على وركي:

twitter @baghdad_library

– خمسة أيام مدّة طويلة حقاً!..

فقال غويدو إنه سعيد لاكتشافه أنني رجل حصيف للغاية، فعقّبت بحدّة:

– لم يعد الرجل الحصيف مقبولاً أكثر من الطائش!..

فقال ضاحكاً: – غريب أن يشعر الحصيف بالحاجة إلى الدفاع عن الطائش!..

ودون أن نغيّر الموضوع، أخبرني بسرعة أنّه على وشك أن يطلب يد آدا. هل جرّني إلى المقهى لكي يعترف لي بذلك، أم أنه سئم من الإصغاء إليَّ أتحدث طويلاً عن نفسي فأراد أن ينتقم؟! كنت واثقاً من أنني نجحت في إظهار أقصى تعبيرات المفاجأة والسعادة. ولكنني وجدت طريقة لمهاجمته بقوة على الفور:

– الآن فهمت لماذا أعجبت آدا بمقطوعة باخ المعدّلة!.. لقد عزفتها بشكل رائع، لكنك حرّفتها ودنّستها في بعض الأحيان.

كانت الضربة عنيفة حتى أنّه ارتبك قليلاً. وكان لطيفاً في إجابته لأنه بات وحيداً، دون مساندة ذلك الجمهور القليل والمتحمس.

– يا إلهي! – حاول أن يكسب الوقت – عندما تعزف في بعض الأحيان تطلق لجموحك العنان. لم يكن الحاضرون على معرفة تامّة بباخ، فآثرت أن أقدّمه لهم بشكل محدّث قليلاً..

بدا راضياً بإجابته المصطنعة، ولكني كنت راضياً بها أكثر لأنها بدت كتبرير وإذعان. واكتفيت بهذا لأهوّن على نفسي، خاصة أني لم أكن أود البتة التشاجر مع عريس آدا المستقبلي. فأعربت عن إعجابي بفنّه، وأني نادراً جداً ما ألتقي بهاو على ذلك المستوى من العزف. لكنه لم يرضَ بمجاملتي، وأشار أنّه يطرح نفسه كهاوٍ من باب التواضع لأنه لا يقبل أن يقدَّم كمحترف. كان هذا ما ينشد إليه، فقلت إنه على صواب،

ومن الواضح أنه ما من هاوٍ يعزف بهذا المستوى. فعدنا صديقين طيبين من جديد.

بدأ يغتاب النسوة على حين غرّة، الأمر الذي أذهلني وكشف لي عن أهمّ صفاته، فهو يسمح لنفسه بالاسترسال بالحديث عندما يشعر أنه نال إعجاب مخاطبه، بغضّ النظر عن النوايا. تحدثت عن تبذير الفتيات منذ قليل، فما كان منه إلا أن تابع الحديث عن ذلك لينتهي بفضح كل صفاتهن السيئة. وكان الإرهاق يمنعني عن مقاطعته، فاقتصرت على إيماءات مستمرة بالموافقة كانت تتعبني أيضاً. ولو لم أكن بتلك الحالة لاعترضت على أقواله بكل تأكيد. فكنت أعلم أنّ من حقّي اغتياب آدا وأوغوستا والسيدة مالفنتي، لكنه لا يملك الحق في مهاجمتهن جميعاً ممثّلات بآدا التي كانت تحبّه.

كان رجلاً مثقفاً، مما دفعني للإصغاء إليه بكل إعجاب، رغم التعب الذي حلّ بي. وبعد وقت طويل اكتشفت أنّه نسب لنفسه النظريات العبقرية للفتى المنتحر فينينغر[1]. ولكني حينئذٍ كنت أخضع لفظاظة باخ الثاني، وراودني الشكّ أنه أراد معالجتي أيضاً. فما معنى أن يحاول إقناعي بأنّ المرأة لا تستطيع أن تكون عبقرية ولا طيبة؟ لكن هذا العلاج لم ينجح معي، خاصة أنّ غويدو هو الذي يشرف عليه. وحفظت تلك النظريات، وأتممتها بقراءة فينينغر. لم تكن نظريات علاجية، لكنها خير رفيق لمن يركض خلف النساء.

وعندما أنهى غويدو البوظة، شعر بحاجته للهواء. فأجبرني على

(1) (Otto weininger) فيلسوف نمساوي يهودي انتحر في سن الثالثة والعشرين عام 1903، إلا أنّ أعماله الفلسفية القليلة حظيت بكثير من الاهتمام بعد مماته. ألف فينينغر كتاب (الجنس والشخصية)، وتحدث فيه عن المرأة باعتبارها جنساً سلبياً إذ ليس لها وجود حقيقي ولا ضمير ولا منطق. المترجم.

twitter @baghdad_library

مرافقتـه فـي نزهـة صـوب إحدى الضواحي. أذكر أنّ المدينة كانت توّاقة منذ أيام لزخّات من المطر علّها تصدّ هجمة الحر الاستباقية. ولم أكن أشـعر بذلك الحرّ، إذ غطّت السـماء غيومٌ رقيقة بيضاء، فتمنى البعض هطول أمطار غزيرة. ولكن البدر تقدّم في سـماء مظلمة وصافية. وكان بدراً ممتلئ الخدّين خشي الناس أن يبتلع الغيوم. وكان واضحاً أنه ينظّف السماء بنوره أينما حلّ فيها.

أردت أن أقاطـع ثرثراتـه التـي اضطـررت للخضـوع إلـى عذابهـا. فوصفت له القبلة على وجه القمر في إحدى قصائد زامبوني. كم كانت قبلـة لذيـذة فـي قلـب الليالي مقارنة بالتعسـف الـذي كان غويدو يرتكبه بحقي حينها! وشعرت أنّ ألمي يخفّ كلما تحدثت منتشياً بالهمود الذي تقبلته مضطراً. كان بمثابة مكافأة على ثورتي، فبقيت مصرّاً عليه.

وكان على غويدو أن يترك النساء ينعمن بالسلام للحظة وينظر إلى أعلى. فإذا به يعود إلى الموضوع بمزحة ضحك عليها كثيراً، لوحده في ذلـك الشـارع الخالـي، عندمـا اكتشـف صورة المـرأة المعتادة على وجه القمر، وفقاً لمعطياتي:

– تلك المرأة ترى الكثير من الأشياء! لكنها لسوء الحظ لا تستطيع أن تتذكرها، كونها امرأة!

كان جـزءاً مـن نظريتـه (أو نظريـة فينينغـر) أنّ المرأة لا تسـتطيع أن تكون ذكية لأنها لا تحسن استخدام الذاكرة.

وصلنا إلى شـارع بلفيديري. قال إنّ القليل من الصعود سينعشـنا، فوافقته حتى على ذلك. واستلقى، هناك في الأعلى، على حافة تطلّ على الشارع، بحركة لا تليق إلاّ باليافعين. فوضع نفسه تحت تهديد السقوط من عشرة أمتار تقريباً، معتبراً ذلك تصرفاً شجاعاً. شعرت أولاً بالنفور المعتاد من رؤيته قريباً من الخطر، ولكنني تذكرت طريقتي التي كشفت

عنها في تلك السهرة والتي تخلصني من ذلك النفور عادة. فتمنيت بحماس أن يسقط. وما زال يلقي دروسه ضد النساء حتى عندما كان في تلك الوضعية. قال إنهن بحاجة إلى الألعاب كما الأطفال، ولكن بسعر باهظ. فتذكرت أنّ آدا تحب المجوهرات كثيراً. أكان يتحدث عنها؟! تملكتني حينها فكرة مروعة! لم لا أجعل غويدو يقفز العشرة أمتار تلك؟ ألم يكن من الإنصاف أن أجهز على من خطف آدا مني دون أن يكون مغرماً بها؟ تخيلت أني أركض في تلك اللحظة إليها بعد مصرعه كي تكافئني على فعلتي. وتراءت لي جالسة، في تلك الليلة المقمرة والغريبة، تصغي إليَّ وأنا أقصّ عليها كيف كان يسيء إلى سمعتها.

أعترف أنني تأهّبت لقتله! فكنت واقفاً إلى جانبه، وهو مستلق على الحافة المنخفضة. ودرست، بدم بارد، كيف أمسكه لأكون واثقاً من النتيجة. ثم اكتشفت أنني لست بحاجة حتى لمسكه. إذ كان مستلقياً على ساعديه المتقاطعتين تحت رأسه، وإنّ دفعة موفقة مباغتة تكفي لأفقده التوازن دون أمل باسترجاعه. خطرت ببالي فكرة أخرى مهمة، تشبه البدر الذي ينير السماء: «إنني خطبت أوغوستا مجبراً لأنام عميقاً في تلك الليلة، فكيف سأنام إن أقدمت على قتله؟» أنقذتنا هذه الفكرة معاً. فأردت أن أتخلص حالاً من تلك الوضعية التي كانت تجعلني أشرف على غويدو، وتغريني على ارتكاب ما فكرت فيه للتو. فانحنيت على ركبتيّ وقوضتّ نفسي حتى كدت ألمس الأرض بجبهتي.

– يا للألم! يا للألم! – صرخت.

فقام غويدو هلعاً يسألني عن الأسباب، وأكملت النواح بانخفاض دون أية إجابة. ولكني كنت أعرف السبب... كدت أرتكب جريمة أو لم أعرف كيف أرتكبها. وكان من شأن النواح والألم أن يبررا كل شيء. فبدا لي تارةً أني صرخت لرغبتي في القيام بجريمة، وتارة أخرى لعدم

twitter @baghdad_library

معرفتي القيام بها ولم يكن هذا ذنبي. كان مرضي وأوجاعي هما السبب بلا شك. ولكني أذكر جيداً أنّ الوجع اختفى نهائياً حينذاك، وأنّ النواح كان مهزلة حقيقية حاولت بها عبثاً أن أعطي معنى لاستحضار الألم وبنائه من جديد، كي أشعر به وأعاني منه. كانت محاولة فاشلة، لأنّ الوجع يعود متى يشاء.

وكما جرت العادة بدأ بطرح الفرضيات. فسألني لو كان سبب الوجع تزحلقي على باب المقهى. أعجبتني الفكرة فوافقته على فرضيته. حملني على ساعديه وجعلني أنهض بكل ودّ. ثم أنزلني إلى الشارع بحذر شديد وهو يسندني. وعندما نزلنا، قلت إنني بخير وسأمشي بطريقة أفضل لو أسندني قليلاً. وهكذا كنت سأصل إلى الفراش أخيراً! وشعرت بالرضا يغمرني لأول مرة في ذلك اليوم، فغويدو كان يعمل لأجلي ويحملني، وفرضتّ إرادتي عليه.

وجدنا صيدلية مناوبة، بعد أن اقترح أن آخذ مسكّناً ليساعدني على النوم. أنشأ نظرية تامة عن الألم الواقعي والمغالاة في الشعور به. فالألم يتضاعف بسبب الغيظ الذي ينتجه بنفسه. وبدأت منذئذ بتجميع الأدوية مع تلك الزجاجة التي كان من المنطقي أن يختارها لي غويدو. ولكي تستند نظريته على أرضية صلبة، افترض أني أعاني من ذلك الألم منذ أيام عديدة، فحزنت لأني لم أوافقه الرأي. قلت إني لم أشعر بأي ألم في تلك السهرة عند آل مالفنتي. فمن البديهي أن لا أشعر بأي سوء في لحظة كنت أحقق فيها أعظم أحلامي. ولكي أكون صادقاً أردت أن أكون بالضبط ما عزمت أن أكون، فقلت لنفسي غير ذي مرة: (إنني أحب أوغوستا ولا أحب آدا. وإنني أعشق أوغوستا، وقد وصلت إلى تحقيق حلمي في تلك السهرة).

وهكذا مضينا الليل تحت ضوء القمر. أظن أنه كان متعباً من

ثقلي، لأنه خرس أخيراً. ولكنه اقترح أن يرافقني حتى السرير، فرفضت. وعندما تسنّى لي إغلاق الباب من خلفي تنفست الصعداء متأكداً أنه تنفس الصعداء أيضاً.

صعدت درجات المنزل أربعاً أربع، وكنت في السرير خلال عشر دقائق، وسرعان ما غفوت. ولم أذكر أثناء النعاس آدا ولا أوغوستا، بل غويدو فحسب. كم كان طيباً ورائعاً وصبوراً! طبعاً لم أنسَ أني أردت قتله منذ قليل، لكن هذا لم يعد له قيمة. فالأمور التي لا يعرف أحد بشأنها، أو لا تترك آثاراً خلفها، ليس لها وجود.

وفي اليوم التالي توجهت إلى بيت زوجتي بقليل من الارتياب. لم أكن متأكداً من أنّ العهود التي قطعتها الليلة الفائتة كانت تلزمني أن أناقشها معهم. اكتشفت أنّ الجميع كان واثقاً من ذلك، حتى أوغوستا تصرفت على أنها باتت خطيبتي بوثوق لم أكن أتخيله.

كانت خطوبة مضنية. أشعر أنني ألغيتها أكثر من مرة لأعيد تشكيلها من جديد، باذلاً جهداً كبيراً. والغريب أنّ أحداً لم ينتبه إلى ذلك. لم أكن واثقاً من أني أمضي نحو الزواج، ورغم هذا تصرفت كخطيب عاشق بما فيه الكفاية. فكنت أقبّل وأعانق أخت آدا كلّما تسنّت لي الفرصة. وكانت تخضع لشهوانيتي ظنّاً منها أنّها تؤدي وظيفة الزوجة، وكنت أتصرف بشكل جيد نسبياً لأن السيدة مالفنتي لم تكن تتركنا إلاّ لدقائق وجيزة. كانت خطيبتي أقل قبحاً مما توقعت، واكتشفت أجمل شيء فيها عندما كنت أقبّلها، وهو أحمر شفاهها! هناك حيث أقبّلها لتظهر ألسنة النار احتفاء بي، فأقبّلها بفضول المستكشف أكثر من هيام العاشق. ولكن الرغبة لم تكن غائبة، بل خففت عليَّ وطأة تلك المرحلة الخطيرة. فويل لأوغوستا وأمها لو سمحتا لي بإشعال ذلك اللهيب لمرة واحدة وفق رغبتي. كيف كنت لأستمرّ بالحياة إذن؟ كانت الشهوة تدفعني

twitter @baghdad_library

على الأقل لأصعد الدرج بنفس اللهفة التي رافقتني عندما كنت أحاول مع آدا. وكانت الدرجات الفردية تسمح لي بأن أطلع أوغوستا على حقيقة الخطوبة التي رغبت بها. فكنت أحلم بتصرف متهور يعيد لي الشعور بالحرية. ولم أكن أريد أكثر من ذلك، والغريب أنّها فسرت رغبتي كدليل على حرارة الحب.

تنقسم تلك المرحلة في ذاكرتي إلى فصلين. ففي الأول كانت السيدة مالفنتي تراقبنا من خلال ألبيرتا، أو بإرسال الطفلة آنّا مع إحدى معلّماتها إلى الصالة. أما آدا فلم تشاركنا الجلسة بأي شكل، وأقنعت نفسي أنّ هذا يفرحني، حتى أنّي تخيّلت روعة أن أقبّل أوغوستا بحضور آدا. الله أعلم بأية همجية كنت سأفعل ذلك!... وبدأ الفصل الثاني عندما خطبت آدا لغويدو رسمياً، فكان من السيدة المدبرة أن جمعت الثنائيين في الصالة نفسها كي تراقب الواحدة الأخرى.

علمت أنّ أوغوستا كانت مسرورة مني كثيراً في الفصل الأول. وعندما لم أكن أهاجمها أصبح ثرثاراً استثنائياً. احتجت للثرثرة لأني فكرت بالبدء بتربيتها نظراً لكوني صرتُ زوجها. كنت أربّيها على الصفاء والمودة، والإخلاص قبل كل شيء. لا أذكر بالضبط شكل المواعظ التي لن تنساها أبداً، إذ كانت تسمعني بانتباه وطاعة. وأخبرتها في إحدى طفرات دروسي أن بوسعها خيانتي، حالما تكتشف أني خنتها، انتقاماً مني. فغضبت لكرامتها واحتجّت على كلامي قائلة إنها لن تخونني حتى لو كنت موافقاً على ذلك، وإنها لن تكون حرة إلاّ بالبكاء إذا أقدمتُ على خيانتها.

أعتقد أنّ تلك المواعظ التي كنت أقولها لغاية أخرى، كان لها أثر جيد على زواجي، وسطوة قوية على روح خطيبتي، ولم يوضع إخلاصها على المحكّ يوماً لأنها لم تعرف شيئاً عن خياناتي لها. لكن صفاءها

ومودتها بقيتا ثابتتين طوال هذه السنين التي عشناها معاً، كأني أرغمتها على التعهد لي بذلك.

وعندما عزم غويدو على الخطوبة، بدأ الفصل الثاني بقرار عبّرت عنه هكذا: (هاأنذا معافى تماماً من حبي لآدا!).. وحتى تلك اللحظة كنت أحسب أنّ أحمر شفاه أوغوستا كان كافياً لشفائي، ولكنّ الواضح أنني لم أشفى كفاية! فذكرى ذلك الأحمر كان يأخذني إلى التفكير بأنّ شيئاً مشابهاً قد يحدث بين آدا وغويدو، فانتزع الشهوة مني. كنت مهتاجاً، في الفصل الأول، بشهوتي لاغتصاب أوغوستا. أما في الثاني فكانت تثيرني بشكل أقل، فلم تكن السيدة مخططة بتنظيمها لمراقبتنا على ذاك النحو مع بعض إزعاجاتها القليلة.

أذكر أنني قبّلت أوغوستا من باب الدعابة ذات مرة، فراح غويدو يقبّل بدوره آدا بدل أن يسخر مني. بدا لي قليل الحياء، لأنه لم يقبّلها مثلي برقّة وتحفظ، بل قبّلها من ثغرها طويلاً. ورغم أني اعتدتُّ على اعتبار آدا كأخت لي، لم أكن مستعداً لأراها تعامل بذلك الأسلوب. ولا أعتقد أنّ أخاً حقيقياً كان سيتقبل أن يتلاعب الآخرون بأخته هكذا. لذا لم أعد أقبّل خطيبتي بوجوده أبداً. ولكنه ما انفكّ يحاول أن يجذب إليه خطيبته في حضورنا، حتى أنّبته هي على ذلك، فلم يحاول معها ثانية.

أذكر بكثير من التشويش تلك السهرات الكثيرة التي قضيناها معاً، واستوطن العشاء الذي أعددناه مراراً في ذهني هكذا: نحن الأربعة جالسون على مدار الطاولة الفينيسية الفاخرة ينيرها قنديل غاز ضخم، مغطّى بستار من نسيج أخضر يظلّل ما حوله. وكانت أعمال التطريز أقلّ مما تحلم به الفتاتان، آدا بمنديل حريري تمسكه بيدها، وأوغوستا بقطعة قماش مستديرة. أذكر غويدو يسهب في كلامه، وغالباً ما أكون المستمع الوحيد له. مازلت أذكر شعر آدا الأسود والمجعّد بخفّة، وأيّ

twitter @baghdad_library

تأثير فريد كان يظهر عندما تنعكس عليه الأنوار الصفراء والخضراء. فتناقشنا عن ذلك الضوء وعن اللون الحقيقي لشعرها أيضاً. غويدو، الذي كان يتقن الرسم، شرح لنا كيف علينا أن نحلّل لوناً ما. لم أعد أنسى حتى هذا الدرس؛ وإذا أردت اليوم أن أفهم لوناً معيناً في لوحة ما، أغمض عيني ببطء إلى أن تختفي الكثير من الملامح وتبقى الأضواء وحيدة لتغطس هي أيضاً في اللون الحقيقي الوحيد. غير أني كنت دائماً أرى، في نهاية هذا التحليل، النور الأصفر والأحمر في شبكية عيني بعد الصورة الحقيقية فوراً، ليظهر شعر آدا الأسود كما رأيته في المرة الأولى.

والأمر الذي لا أقوى على نسيانه هو إفشائي لأحد أسرار غويدو أمام أوغوستا بطريقة حمقاء ومخجلة. حدث ذلك في إحدى السهرات عندما ذهب غويدو وآدا إلى الطرف الآخر من الصالة يلهيان على الطاولة الملكية. وكنت ألوي رقبتي لأتحدث معهما، مما أثار غيرة خطيبتي فقالت:

– دعهما وشأنهما! فثمة حب حقيقي بينهما...

فقلت لها، بخمول كليّ في الذهن، وبصوت منخفض، إنها لا ينبغي أن تصدّق ذلك لأنّ غويدو لا يحب النساء. هكذا بررت لها تدخّلي في شؤون العاشقيَن، لكنه كان تصرفاً أخرق في إفشاء أحاديثه عن النساء، وهو الذي فضّلني عن الآخرين في نقاش آرائه تلك. تألّمت لإفشاء سرّه أياماً، في حين لم أتألم ولو لساعة واحدة عندما فكّرت بقتله. فالقتل، وإن كان يعدّ خيانة، أكثر رجولة من أن تغدر صديقاً بإفشاء أسراره التي ائتمنك عليها.

ولم تكن خطيبتي محقة بغيرتها من أختها في ذلك الحين. فأنا لم أكن ألوي رقبتي لأرى آدا، بل لأنّ غويدو كان يساعدني على قضاء ذلك الوقت الطويل بثرثرته. فكنت أودّه كثيراً، وأقضي جزءاً كبيراً من

أيامـي معـه. وكنـت متعلقـاً بـه كعرفان للجميل لأنه اعتبرني أساسـياً في حياتـه، وكان يخبـر الآخريـن بذلـك. حتـى آدا بدأت تنصت إليَّ باهتمام عندما أتحدث.

كنت أنتظر في كل مسـاء بفارغ الصبر ضربة الجرس التي تدعونا إلى العشاء. وأذكر على وجه الخصوص عسر الهضم المستديم، لأنني كنت آكل بشـراهة لأشـعر بالنشـاط دوماً. وكنت أغازل أوغوسـتا على العشـاء قدر ما اسـتطاع فمي الملآن. وكان لوالديها انطباع سـيئ مفاده أنّ شـراهتي أخفضـت مودتـي الكبيـرة. وتفاجـآ كثيراً من فقداني للشـهية إبّان عودتنا من شهر العسل. إذ اختفت الشهية عندما لم أعد بحاجة إلى إظهار شغف لم أعد أشعر به. فليس من المقبول أن تعامل زوجتك بفتور أمام والديها في اللحظة التي تستعدّ فيها للذهاب معها إلى الفراش!... تتذكـر أوغوسـتا مـا كنـت أغمغـم بـه على تلك المائـدة من كلام طيب. فـكان لا بـدَّ أن أختـرع مغـازلات رائعـة بين اللقمة والأخرى، أسـتغربها الآن عندمـا أتذكرهـا لدرجـة أنهـا لا تبـدو مـن صنع أفكاري. حتى عمي جوفاني المحتال خُدع بكلماتي، وبقي حتى مماته يقتبس من مغازلاتي لابنته - أي لأوغوستا - كلما أراد أن يعطي مثالاً عن الهيام البالغ. فكان يبتسـم راضياً ومسـروراً كأب طيب حقاً. ولكنه كان يحتقرني جداً على ذلك، فبالنسبة إليه ليس من يضع حياته بأسرها تحت تصرف امرأة برجل حقيقي، ولاسـيما إن لم يدرك أنّ العالم يزدحم بالنسـاء. لذا أعتقد أنّ الجميع أجحفوا بحقّي. لكن حماتي لم تصدّق حبي حتى عندما اطمأنت له ابنتها نفسها. ولسنين طويلة كانت ترمقني بعين غير واثقة على مصير ابنتها المحببة إلى قلبها. ولهذا السبب بالذات كنت مقتنعاً أنها هي من كانت تقودني في أيام ما قبل الخطوبة. كان من المستحيل أن أخدعها، وهي التي باتت تعرف ما يجول في رأسي أكثر مني!

twitter @baghdad_library

وحان يوم الزواج أخيراً، وراودتني حيرة أخيرة في ذلك اليوم بالتحديد. كان عليَّ أن أكون عند العروس في الثامنة والنصف، وكنت ما أزال في السرير أدخن بضراوة حتى الثامنة إلاَّ ربعاً. وأنظر من نافذتي إلى عودة الشمس بعد شتاء طويل لتسخر مني بسطوعها، وفكرت في أن أترك أوغوستا! وأصبح مدى العبثية في الزواج واضحاً حين لم أعد أكترث من اقترابي من آدا. لم تكن لتحدث أمور خطيرة لو تأخرت عن الموعد المحدد! ثم إن أوغوستا ستكون عروساً رائعة، لكن أحداً لا يعرف كيف ستتصرف في اليوم التالي للزفاف. ترى هل ستشتمني لأنني تركت نفسي أقع في تلك الحيلة؟

جاء غويدو لحسن الحظ. وبدل أن أقاوم، اعتذرت عن التأخير وفكرت بتحديد موعد آخر لحفل الزفاف. وبدل أن يلومني شرع يتحدث عن نفسه وعن المرات الكثيرة التي تغيّب فيها عن مواعيد هامة بسبب الشرود. حتى في موضوع الشرود كان يريد أن يثبت تفوقه عليَّ! فتوقفت عن الإصغاء إليه وخرجت مهرولاً من المنزل إلى العرس. فوصلت متأخراً، ولم يعاتبني أحد حتى العروس نفسها، بل سرّ الجميع ببعض التبريرات التي قدّمها غويدو بدلاً عني. كانت أوغوستا شاحبة للغاية، حتى شفاهها بدت داكنة. ولكني لم أشأ أن أزعجها رغم عدم حبي لها. حاولت أن أصلح الأمر، فنسبت غباوتي إلى التأخير لأسباب ثلاث. وكانت الأسباب طويلة حتى كدنا نتأخر عن الذهاب إلى الكنيسة، مما يعطي وقتاً للعروس كي تستعدّ ثانية. إذ قلت بصراحة ما فكرت به على السرير وأنا أنظر إلى الشمس الشتوية.

وفي هيكل الكنيسة قلت (أجل) بشرود لأني كنت في أوج شفقتي على أوغوستا، ومشغولاً بابتكار تبرير رابع لتأخري بدا لي الأفضل بين الجميع. وبعد أن خرجنا من الكنيسة، رأيتها تستعيد كل ألوانها. فغضبت

بعض الشيء لأنّ كلمة (أجل) لم تكن كافية لتأكيد حبي لها أبداً. كنت أتجهز لأعاملها بخشونة إن شتمتني لأني تركت نفسي أقع في تلك الحيلة. ولكنها استغلّت لحظةً تركنا فيها الآخرون في بيتها، لتقول لي باكية:

– لن أنسى أبداً أنك تزوجتني رغم أنّك لا تحبني..

لم أعترض لأنّ الأمر كان غاية في الوضوح، ولكني عانقتها وأنا مغمور بالشفقة عليها كلياً. ولم نتحدث في هذه المسألة بعد، لأنّ الزواج أسهل بكثير من الخطوبة. فما إن تتزوج حتى تذهب نقاشات الغرام أدراج الرياح، وعندما تظهر الحاجة للحديث عنها تتدخل الغريزة بسرعة لتعيد السكون. وقد تصبح تلك الغريزة إنسانية لدرجة التعقيد والتشويه. ويحدث أن تبذل جهداً في مناجاة نور غير موجود عندما تستسلم أمام ضفيرة أنثوية. وما إن تغلق عينيك حتى تصبح المرأة امرأة ثانية، وعندما تتركها ترجع إلى كينونتها الأولى. وتوجّه إليها كل العرفان بالجميل الذي يصبح أكبر إن نجحت جهودك. ولهذا السبب بالذات، إذا أتيحت لي الفرصة لأولد مرة أخرى، وأمنا الطبيعة قادرة على فعل أي شيء!، سأوافق على الزواج بأوغوستا، لكني لن أوافق على خطبتها.

في المحطّة، أعطتني آدا خدّها للقبلة الأخوية. رأيتها حينئذٍ، وكنت مشدود الأعصاب من كثرة الناس التي جاءت لتودّعنا، وقلت لها في سرّي: (أنت من وضعني في موقف كهذا!). قرّبتُ شفتيّ إلى خدّها الناعم محترساً أن لا أمسّها. وكان ذلك أول شعور بالرضا لأني تلمسّت فوائد زواجي حقاً: لقد انتقمت لنفسي رافضاً انتهاز الفرصة الوحيدة التي أستطيع فيها أن أقبّل آدا! وبعد انطلاق القطار، جلست بقرب أوغوستا، وانتابني الشكّ أني لم أحسن عملاً. إذ خشيت أن أجازف بصداقتي مع غويدو، وخشيت أكثر عندما شككت أنّ آدا لم تنتبه لعدم تقبيلي خدّها.

لكنها قد انتبهت. ولم أعرف بذلك إلاّ بعد أشهر عديدة عندما

twitter @baghdad_library

انطلقت بدورها مع غويدو من المحطّة نفسها. قبّلت الجميع، ثم مدّت لي يدها فقط بكل احترام، فشـددتُّ عليها بفتور. وصل انتقامها متأخراً جداً لأنّ الظروف تغيّرت بالكامل. فبعد عودتي من شهر العسل أخذت علاقتنا طابعاً أخوياً، لذا لم أفهم استبعادي من القبلة لاحقاً.

6. الزوجة والعشيقة

مرّت في حياتي عدّةُ مراحل اعتقدتُّ فيها أنني أمضي على طريق السعادة والعافية. وكان هذا الاعتقاد في أوَجه خلال رحلة شهر العسل وبعض الأسابيع التي تلت عودتنا إلى المنزل. بدأت هذه المرحلة باكتشاف أذهلني جداً؛ إذ كنت أحب أوغوستا كما تحبّني. كنت متوجساً في بادئ الأمر، لأنني حين أستمتع بقضاء يوم ما أتوقع أن يكون اليوم التالي مختلفاً تماماً. ولكن الأيام كانت تتوالى برّاقة، تشبه بعضها ويغمرها لطف أوغوستا تجاهي، وودّي تجاهها، وهذه المفاجأة. فكنت أجد فيها اللطف والحنان على حاليهما في كل صباح، وأجد في نفسي احتراماً... يشبه الحب، إن لم يكن كذلك. ومن كان يتوقع ما سيجري عندما كنت أعرج من آدا إلى ألبيرتا وصولاً إلى أوغوستا؟ اكتشفت أنني لست دابّة عمياء يقودها الآخرون، بل رجلاً نبيهاً. وكانت أوغوستا تقول حين تراني مستغرباً:

- وما الذي يفاجئك؟! ألم تكن على دراية أنّ الزواج هكذا؟ وأنا الجاهلة أعرفه أكثر منك!

لم أعد أذكر إن كان الأمل في تشبيه أوغوستا بالشفاء قد تشكّل قبل تلك المودّة في قلبي أم بعدها. ولم أتوقع شفائي أثناء الخطوبة، لأنني كنت منشغلاً بتحليل نفسيتي أولاً ثم آدا وغويدو. فقنديل الغاز ذاك لم ينر شعر أوغوستا الخفيف في عيني.

وأين أحمر الشفاه! عندما اختفى هذا اللون ببساطة كما يختفي لون

twitter @baghdad_library

الفجر في ضوء الشمس، كانت أوغوستا تمضي واثقة على طريق مرّت فيها كل أخواتها في هذه الأرض، اللواتي قد يجدن كل شيء في النظام والقانون أو يرفضن كل شيء. ومنذ أن اكتشفت أنّ تلك الثقة الفوضوية ترتكز عليّ، أصبحت أعشقها، بل أعبدها. وكان عليّ أن أتصرف أمامها على الأقل بتواضع استخدمته عندما كنا نستحضر الأرواح. وربما يُسمّى هذا إيمان بالحياة.

ولكنها كانت تذهلني بكل كلمة تقولها وكل فعل تقوم به يدلّ على إيمانها العميق بأبديّة الحياة. ولم تكن تقوله هكذا، بل الغريب أنني في إحدى المرات شعرت بحاجة إلى تذكيرها بالفناء، أنا الذي أتقزز من هفواتي قبل أن أكره أخطاءها. وماذا جنيت؟! لقد كانت تعرف أنّ الموت مكتوب على الجميع، لكن هذا لا يلغي أننا بزواجنا سوف نبقى معاً، معاً، معاً.. فكانت تجهل أنه عندما يرتبط اثنان في هذا العالم، لا يدوم ارتباطهما إلا لفترة وجيزة، وجيزة، وجيزة، حيث لا ينتبه أيٌّ منهما كيف وصل إلى رفع الكلفة مع الآخر رغم أنّ كلاهما لا يعرف الآخر من الأزل، وهما مستعدّان بعد هذه المعرفة أن لا يلتقيا إلى الأبد. فهمتُ أخيراً ما هي العافية الإنسانية التامة عندما أدركت أنّ الحاضر بالنسبة لها كان حقيقة ملموسة بوسعها أن تنعزل في داخله، وتكون مطمئنة فيه. فحاولت أن أدخل فيه، وعملت على الإقامة فيه بإصرار كي لا أخدع نفسي وأخدعها. فهذا المجهود لم يكن سوى المرض وكان عليَّ الحذر من إيذاء شخص وثق بي. فعشت لبعض الوقت كرجل سليم، بفضل المجهود الذي بذلته في صون زوجتي أيضاً.

كانت تعرف كل الأشياء التي تبعث على اليأس، ولكن طبيعة هذه الأشياء تتبدل بين يديها. حتى لو كانت الأرض تدور فهذا لا يعني بالضرورة أن نشعر بالدوار دوماً! بل على العكس، فالأرض تدور وكل

الأشياء الأخرى تبقى راسخة في محلّها. وتلك الأشياء الثابتة كانت لها قيمة عظمى: خاتم الزواج، المجوهرات والملابس، الفستان الأخضر والأسود، واحد للتنزه يستلقي في الخزانة عندما نصل إلى المنزل، وآخر للمساء لم تكن لتلبسه في الظهيرة بأيّ شكل، وحتى لو لم أكن معتاداً على ارتداء البدلة الرسمية. وكان لوجبات الغداء وساعات النوم مواعيد محددة تجري في وقتها دوماً.

كانت تذهب إلى الكنيسة يوم الأحد، وأرافقها في بعض المرات لأرى كيف تتقبل صورة الموت والآلام. ولكنها لم تكن ترى شيئاً من ذاك، بل تمدّها الزيارة بالطمأنينة طوال الأسبوع. وكانت تتردد إلى الكنيسة في بعض أيام العطلة التي تعرفها كلها. هذا كان حالها مع الإيمان، في حين أنّي لو كنت متديّناً لبقيت في الكنيسة طوال اليوم لأضمن الطوبى الخالدة.

والكثير من السلطات الأرضية تدخل الثقة إلى قلبها أيضاً. فكانت تحترم السلطة النمساوية وحتى الإيطالية التي تدبّر الأمن في البيوت والشوارع، وقد فعلت ما بوسعي لأشاطرها احترامها هذا. ثم كان هناك الأطباء الذين وهبوا حياتهم للدراسة كي ينقذونا من العلل حين تباغتنا، لا قدّر الله. لقد كنت أعتاد في كل يوم على سلطة الأطباء، أما هي فلا. ولهذا السبب كنت أعرف بأي مرض سيقتلني القدر الظالم، بينما كانت تظن أنها ستنجو حينئذٍ بمساعدة إحدى سلطات السماء أو الأرض بطريقة أو بأخرى.

إنني أحلّل رؤيتها للعافية لكنني لا أنجح في ذلك، لأني ألاحظ كيف تتحوّل إلى مرض بمجرّد تحليلها. وحينما أكتب عنها يراودني الشك فيما إذا كانت بحاجة إلى علاج أو نصائح لتشفى من هذه العافية. ولكن شكّاً كهذا لم يراودني يوماً طوال هذه السنين التي عشتها بجانبها.

twitter @baghdad_library

يا للأهمية التي منحتني إياها في عالمها الصغير! كان عليّ أن أقدّم رأيي في كل مناسبة، في اختيار المأكولات والملابس والصديقات والقراءات. وكنت مجبراً على نشاط فعّال لم يزعجني القيام به. كنت بصدد بناء عائلة بطريركية، لأصبح أنا البطرك الذي كنت أكره، لكنه بدا لي كرمز للعافية حينها. وأن تكون بطركاً هو أمر مختلف تماماً عن كونك مكرهاً على تقديس من يدّعي شرف البطركة. كنت أرغب بالعافية مقابل أن يصاب بالمرض كل من هو ليس بطركاً، وبالأخص، عندما لعبت دور الفارس بكلّ سرور أثناء رحلة الزفاف.

ولم ألعب هذا الدور الذي اقترحته على نفسي بسهولة، حتى أثناء الرحلة. فكانت أوغوستا تودّ أن ترى كل شيء كأنها في رحلة تعليمية. فلم يكفها أبداً أننا ذهبنا إلى متحف بالاتنزوبيتي، بل كان علينا أن نمرّ في كل الصالات التي لا تحصى، وأن نقف أمام كل لوحة فنيّة لبعض الوقت. رفضت أن أغادر الصالة الأولى، فلم أر شيئاً آخر، حاملاً على عاتقي جهدي المعتاد في تبرير تقاعسي. قضيت نصف يوم أمام وجوه مؤسسي بيت ميدتشي، واكتشفت أنهم يشبهون كارنجي وفاندربلت. ياللعجب!.. مع أنهم من أبناء جلدتي!.. لم تشاطرني زوجتي العجب، فكانت تعرف من يكون اليانكيس أكثر من معرفتها بي.

لم تكن قد انتصرت على العافية حينها، فرفضت الذهاب إلى المتاحف. رويت لها أنني، في زيارتي لمتحف اللوفر ذات مرّة، خرجت عن طوري وسط أعمال فنيّة كثيرة حتى كدت أمزّق لوحة العذراء. فقالت لي راضخة:

– حمداً لله أنّ المتاحف تزار في شهر العسل، ولا تزار بعدئذٍ أبداً!..

تفتقد الحياة لرتابة المتاحف حقاً. إذ تقضي المتاحف أيامها بقدرة

البرواظ، لكنها غنية بالأصوات الصاخبة والضوء الحقيقي الباهر الذي لا يسبّب الضجر، إضافة إلى الكثير من الرسوم والألوان. وتدفعنا العافية للقيام بالنشاطات وتحمل الكثير من التأفف. فبعد أن تغلق المتاحف، يحين وقت التسوّق. أصبحت تعرف بيتنا أكثر مني وهي التي لم تعش فيه من قبل، وتعرف أنّ إحدى الغرف تنقصها المرآة، والسجّادة في الثانية، وفي الثالثة ثمّة محلّ لتمثال صغير. اشترت أثاثاً لصالة كاملة، وفي كل مدينة مكثنا فيها ابتعنا منها شيئاً واحداً على الأقل. ولو اشترينا كل ذاك الأثاث من تريستا لكان مناسباً أكثر وأقلّ إزعاجاً، لأننا اضطررنا للتفكير بالشحن والكفالة والعمليات الجمركية.

- ألا تعلم أنّ البضائع كلها تُشحن؟ أيّ تاجر أنت؟! - ضحكتْ..

كانت على صواب نوعاً ما، ولكنني اعترضت:

- البضائع تُشحن كي تُباع وتُشترى! دون هذا الهدف تُترك البضائع بسلام، وننعم بالسلام نحن أيضاً...

ولكن حسّ المبادرة كان واحداً من الأمور التي عشقتها فيها. كم كانت مبادراتها لذيذة وساذجة! كانت ساذجة لأنه علينا تجاهل تاريخ الكون لنصدّق أننا أحسنّا صنعاً بمجرّد شرائنا شيئاً ما، ونحكم على قيمة المشتريات عند بيعها!

ظننت أنني في نقاهة تامة، فأحقادي أصبحت أقلّ عدوانية. وغدت السعادة سلوكي الثابت منذ ذلك الحين. فكانت كالتزام قطعته على نفسي معها في تلك الأيام الخالدة، وكان الأمرَ الوحيد الذي لم أتجاوزه إلا للحظات وجيزة، أي عندما صارت الحياة أقوى مني. فالعلاقة بيننا كانت، وبقيت، سعيدة لأنني كنت أبتسم لها ظنّاً مني أنها لا تعرف ذلك. وكانت تبتسم لي، وتعتبرني صاحب علم وأخطاء قامت هي بتصحيحها. كانت تخدع نفسها على هذا النحو. ومازلت

twitter @baghdad_library

أتظاهر بالسعادة حتى عندما احتلّني المرض كلياً. وكنت سعيداً لأني شعرت أنّ آلامي تستجديني.

في الرحلة الطويلة عبر إيطاليا، لم أتمتع بالمناعة ضدّ الكثير من الآلام، بصرف النظر عن عافيتي الجديدة. كنا قد انطلقنا دون رسائل توصية من أحد، وغالباً ما بدا لي أنّ الكثير من الأناس المجهولين، الذين تحرّكنا بينهم، أعداء. كان خوفاً مضحكاً، لكنني لم أتمكن من التغلب عليه. فمن سيحميني إن ضربني أحدهم أو أساء إليّ أو اتهمني بجريمة ما؟ وكانت هناك أزمة حقيقية لهذا الخوف، ولكن لحسن الحظّ لم يلحظها أحد حتى أوغوستا نفسها. اعتدتّ على أخذ معظم الجرائد التي مُنحت لي في الطريق. فوقفت مرة عند أحد الباعة، وراودني شكّ بأنه قد يتّهمني بسرقة الجرائد لحقد ما في قلبه، لكوني اشتريت من عنده جريدة واحدة وكان تحت إبطي الكثير منها اشتريتها من أماكن متعددة، ولم أفتحها حتى. فركضت بعيداً تلحقني أوغوستا دون أن أقول لها سبب استعجالي.

صاحبتُ سائق عربة ومرشداً سياحياً، وكنت واثقاً على الأقل أنّ صحبتهما لن تجلب لي التهم بسرقات مضحكة. وكان بيني وبين السائق نقطة التقاء بديهية، إذ كان يعشق النبيذ لكن قدميه تنتفخان في كل لحظة، فذهب إلى المشفى. وبعد أن شفي، ألحّ عليه الكثيرون أن يفارق النبيذ. لذا كان يتخذ قراراً حاسماً على حدّ قوله، لأنه ربط ذلك بعقدة وصلها بسلسلة ساعته الحديدية كي ينفذ قراره. ولكن السلسلة كانت معلّقة بكرشه دون العقدة، عندما عرفته. دعوته إلى المجيء إليَّ في تريستا، واصفاً له طعم نبيذنا المختلف عن نبيذ منطقته، ليتأكد من إيجاد مخرج لعلاجه القاسي. لكنه رفض بوجه رُسمت عليه ملامح الحنين.

أما المرشد السياحي فقد صاحبته لأنه بدا لي متفوقاً عن زملائه.

فمن الطبيعيّ أن يعرف التاريخ أفضل مني، حتى أوغوستا بدقّتها تحققت من صحة الكثير من توجيهاته. وكان في الوقت نفسه شاباً يذهب راكضاً عبر دروب الآثار المتشابهة.

غادرنا روما عندما فقدت هذين الصديقين. فعندما كافأت السائق بالمال الكثير، أراني كيف يهاجم النبيذ رأسه وارتمى عند صرح روماني قديم. وفكر المرشد يوماً في إثبات أنّ الرومان القدماء كانوا على معرفة بالطاقة الكهربائية، وكانوا يستخدمونها كثيراً، ثم أطربنا بأبيات شعر لاتينية تؤكد ذلك.

ولكني أصبت بعلّة تافهة أخرى، ولم أعد أشفى منها: وهي الخوف من الشيخوخة، والخوف من الموت على وجه الخصوص. وأعتقد أنّ أصول هذا الخوف يعود لشكل خاص من الغيرة. فكانت الشيخوخة تخيفني لأنها تقرّبني من الموت فقط. ومن المؤكد أنّ أوغوستا لم تكن لتخونني ما دمت حياً، لكني تخيلتُ أني ما إن أموت، وأدفن بعد تأكدها من أناقة قبري، وتلاوتها للصلوات اللازمة فوق رأسي، حتى تجد لي خلفاً تحيطه بنفس العناية والرعاية اللذين كنت أنعم بهما. فعافيتها الرائعة لن تزول بموتي. كنت مؤمناً بهذه العافية لدرجة لم أصدق أنها قد تصاب بالتلف، إلاَّ إذا رأيت صاحبتها تتهشم تحت قطار مسرع.

ذات مساء كنّا في البندقية نتجول بالقارب في إحدى القنوات التي يزينها الهدوء العميق الذي انقطع فجأة من الضوء والصخب في أحد الشوارع الموازية. كانت أوغوستا، كعادتها، تشاهد الأشياء وتسجّلها بانتباه: حديقة خضراء منعشة تقع وسط العفن الذي سبّبه الهواء والماء الذي عاد أدراجه؛ وبرج الكنيسة المنعكس على وجه الماء الكدر؛ وكثير من البشر في زقاق معتم وطويل تظهر أضواء المصابيح في آخره. أما أنا فكنت أشعر بضيق داخلي ضمن الظلام. فحدثتها عن الوقت الذي

twitter @baghdad_library

يمضي بسرعة، وأنها ستقضي شهر عسل آخر مع رجل جديد. كنت واثقاً مما أقول كأني أقصّ على مسامعها قصة حدثت بالفعل. وكان من خارج السياق أن تقوم بالبكاء لتنفي حقيقة تلك القصة. ربما أساءت فهمي وظنت أني ألّمح لها لتقتلني. وصفتُ طريقة محتملة لموتي لأجعلها تفهم: قدماي، وقد نشف الدم فيهما، تصاب بالسرطان الذي يأخذ بالاتساع حتى يصل إلى أحد الأجهزة الأساسية التي تساعد على فتح العينين. إذن سأغمضهما، ووداعاً أيها البطرك! سيتحتم عليها أن تجد بطركاً آخر..

كانت لا تزال تجهش، وبدا لي بكاؤها مهماً، داخل التعاسة العميقة لتلك القناة. هل كان سبب البكاء أنها فقدت الأمل في الرؤية الدقيقة لعنايتها الفاحشة؟ ستبكي الإنسانية جمعاء بتلك الطريقة إذن. وعرفت لاحقاً أنها لا تعرف حتى كيف يمكن أن تكون العافية. لأن الصحة لا تحلّل نفسها، بل لا تنظر إلى نفسها في المرآة أيضاً. فقط نحن المرضى نعرف شيئاً ما عن أنفسنا.

أخبرتني حينها أنها أحبتني قبل أن تعرفني. أحبتني منذ أن سمعت باسمي على لسان والدها هكذا: زينو كوزيني، رجل بسيط، يحملق بعينيه عندما يسمع أحدهم يتكلم عن فكرة تجارية مهما كانت أهميتها، ثم يسرع ليكتبها في دفتر ملاحظات أضاعه فيما بعد. ولو لم أتنبه لتشويشه في لقائنا الأول، لبدوت مشوشاً أنا أيضاً.

تذكرت أنني عندما رأيتها للمرة الأولى كنت مشوشاً من بشاعتها لأنني انتظرت أن أجد الفتيات اللواتي تبدأ أسماؤهن بحرف الألف جميعهن جميلات. علمت أنها كانت تحبني منذ وقت بعيد، وما المفيد في هذا؟ لم أرضها بتغيير موقفي. فعندما كنت سأموت، كانت ستختار رجلاً آخر. وحالما هدأ نحيبها، أسندت نفسها إليَّ أكثر، وسرعان ما ضحكت لتسألني:

- أين لي أن أجد خلفاً لك؟.. ألا ترى كم أنا قبيحة؟

فعلاً. كنت سأنعم بتفسخ هادئ على الأرجح! ولكن الخوف من الشيخوخة لم يفارقني بعدها، بسبب الخشية الدائمة من أنّ زوجتي ستكون لرجل آخر. ولم أتخلص من هذا الخوف حتى عندما خنتها، بل لم ينمُ هذا الخوف عندما فكرت أني سأخسر عشيقتي بنفس الطريقة. كان شيئاً مختلفاً تماماً، ولم يكن له أي صلة بالشيء الأول. فكنت أقترب من أوغوستا كلما ألحّ عليّ الخوف من الموت، كما الأطفال الذين يمدّون أيديهم المجروحة لقبلة والداتهم. وكانت تجد دائماً كلمات جديدة تطمئنني بها. وفي رحلة الزفاف كانت تبشّرني بثلاثين عاماً من الشباب، واليوم تبشّرني بأكثر من ذلك بكثير. أما أنا فكنت أعرف منذ ذلك الحين أنّ أسابيع العسل السعيدة كانت تقرّبني من سكرة الموت الفظيعة حسياً. كان لها أن تقول ما تريد، ولكن قضي الأمر: ففي كل أسبوع كنت أقترب إلى الموت أسبوعاً.

عندما عرفت أنني مصاب بذاك الألم، امتنعت عن إزعاجها بتكرار الكلمات نفسها. فكلما شعرت بحاجة إلى مواساتها كان يكفي أن أغمغم: (يا لك من مسكين يا زينو). فتعرف مباشرة ما الذي يضايقني، وتسرع لتغمرني بحنانها الكبير. وهكذا نجحت باكتساب مودتها عبر آلام مختلفة أيضاً. ففي أحد الأيام، غمغمت بالخطأ وأنا أتألم لخيانتها، (يا لك من مسكين يا زينو!)، فحصلت على نتيجة عظيمة لأنّ سلوانها كان ثميناً حتى في تلك اللحظة.

وإبان عودتنا من شهر العسل، فوجئت بأنني لم أكن أعيش ببيت مريح ودافئ قبلها. فهي التي أدخلت إلى بيتي كثيراً من تلك الراحة التي كانت تملكها في بيتها، واخترعت أشياء أخرى كثيرة. فالحمّام الذي كان دائماً في عمق الممر على بعد نصف كيلومتر من غرفة النوم، اقترب إلى

twitter @baghdad_library

الغرفة أكثر وأصبح فيه صنابير جديدة. وحولّت إحدى الغرف بالقرب من مقصورة الخدم إلى غرفة لاحتساء القهوة، وفرشتها بالسجّاد ونمّقتها بأرائك جلدية ضخمة. فكنا نجلس فيها قرابة الساعة كل يوم بعد الغداء. وكان هناك كل مستلزمات التدخين، رغماً عني. حتى مكتبي الصغير الذي دافعت عنه كثيراً خضع للتغيرات. كنت أخشى أن تجعله التغييرات كريهاً، لكنني شعرت أنه صار قابلاً لقضاء الوقت فيه أكثر من قبل. لقد غيّرت الإنارة بطريقة ساعدتني على القراءة جالساً على الطاولة، ومستلقياً على الأريكة أو غافياً على الديوان. حتى إنها اشترت منصّة، عليها ضوء ينير النوتة الموسيقية ولا يؤذي العينين إن أردتُ العزف على الكمنجة. حتى هناك، ورغماً عن إرادتي، كانت ترافقني جميع الأدوات الضرورية لأدخّن بسلام.

فكنا نعمل كثيراً في تلك الترتيبات، وكان هناك بعض الفوضى التي أنقصت من سكينتنا. بالنسبة لها، وهي التي كانت تعمل أبداً، لم يكن ذاك الإزعاج القصير يحمل أهمية. أما بالنسبة لي فكان الأمر مختلفاً تماماً. اعترضت بقوة عندما رغبت باقتناء غسالة ينبغي أن توضع في كوخ صغير في الحديقة. كانت تؤكّد أنّ الغسالة تضمن صحّة أطفالنا. وأطفالنا لم يولدوا بعد، ولم أكن أرى ضرورة في أن أرهق نفسي بهم حتى قبل أن يصلوا إلينا. لكنها كانت تحمل إلى بيتي القديم غريزة تستنشقها مع الهواء؛ فكانت، في مودتّها، تشبه الطائر الذي يفكّر باكراً في العش.

وأنا أيضاً كنت أفكر بالحب، وكنت أحمل إلى البيت أزهاراً وحليّاً. تغيّرت حياتي كلياً بعد الزواج. فبعد محاولة عاثرة من المقاومة، عزفت عن قضاء الوقت في الملذّات، وانصعت إلى مواعيدها الصارمة. ولكني وجدت مخرجاً رائعاً من هذه السيطرة.

فبعد عودتنا مباشرة من شهر العسل بأيام، تغيبت بعفوية عن

الذهاب إلى المنزل لتناول الغداء. وبعد أن أكلت شيئاً ما في إحدى المقاهي بقيت في الخارج حتى المساء. وعندما عدت وقد حلّ الليل وجدتها لم تتناول غداءها بعد، وكادت تموت من الجوع. لم تعاتبني أبداً ولم تقتنع أنها كانت مخطئة. بل قالت ببراءة لا تشوبها شائبة إنها لو لم تكن قد أُنذرت من قبل، لانتظرتني على الغداء حتى ساعة العشاء. لم يكن ثمة مجال للعبث! وفي مرة ثانية قادني أحد الأصدقاء إلى البقاء خارج المنزل حتى الثانية صباحاً. فوجدتها تنتظرني، وتصطكّ أسنانها من البرد لأنها أطفأت المدفأة. أصيبت بوعكة خفيفة بعد هذا الدرس الذي لن تنساه.

وفي يوم ما أردت أن أقدّم لها هدية ثمينة أخرى: العمل! كانت ترغب بأن أعمل وفكرت أنا أيضاً بأنّ العمل سيأتي بالنفع على صحتي. فمن المعلوم أنّ من لديه القليل من الوقت ليكون مريضاً يكون أقلّ مرضاً. ذهبت إلى العمل، ولم يكن ذنبي حقاً إن لم أتابعه، لأنني باشرت بأفضل النوايا وبرضوخ حقيقي. لم أطالب بالمشاركة في إدارة أعمالي، بل طلبت أن أحصل على سجلّ الحسابات فقط. وشعرت بالرهبة حينما بدأت أكتب بيد مرتجفة في ذلك السجلّ الضخم الذي يحتوي على كتابات منتظمة دقيقة كالشوارع والبيوت.

كان نجل أوليفي شاباً أنيقاً ومتواضعاً، يحمل النظارات، ومطّلعاً على كل العلوم التجارية. عمل على إرشادي، ولم أشكُ منه يوماً. جعلني أتأفف مرة من علمه بالاقتصاد ونظرية العرض والطلب التي كانت تبدو لي بديهية أكثر مما يفترض. ولكن احترامه لرب العمل ملحوظ، وكنت ممتناً له على ذلك لأنه لم يتعلم هذا الأمر من أبيه. فالاحترام لصاحب الملكية كان بفضل علمه بأصول التجارة. لم يلمني أبداً على أخطاء التسجيل التي كنت غالباً ما أقع فيها، إنما كان ينسبها إلى جهلي بها،

twitter @baghdad_library

ثم يقدّم لي تفسيرات سطحية.

المشكلة أنني رغبت بإدارة الأعمال، متأثراً بمشاهدتي لها. كنت أرى السجلّ كأنه جيبي. وعندما أسجّل ثمناً في قائمة معطيات الزبائن، كان يبدو لي أنني أمسك، بدل القلم، بعصا مدير القمار الذي يجمع النقود المبعثرة على طاولة اللعب. كان أوليفي الشاب يطلعني على البريد الوارد، وكنت أقرؤه بانتباه آملاً أن أفهمه أولاً أفضل من الآخرين. وسيطرت إحدى العروض الشائعة على انتباهي الشغوف في تلك الأيام. شعرت بشيء ما يتحرك في صدري قبل قراءة الرسالة، يذكّرني بالهاجس الغامض الذي ينجلي أمامي على طاولة القمار. ومن الصعب وصف ذلك الهاجس. إنه يتكون من اتّساع معيّن في الرئتين كي تتنفس الهواء بشهوانية كما لو كانت دخاناً. بل أكثر من ذلك: كإحساسك عندما يتضاعف ما تغنمه من القمار. لكن الممارسة تلزم كثيراً لفهمه. ينبغي أن تبتعد عن طاولة اللعب بجيوب فارغة وألم على الخسارة، فلن تنسى هذا الإحساس بعدها أبداً. وعندما تترك الطاولة الخضراء، لا تجد مخرجاً من ذلك اليوم، لأنّ الأوراق تنتقم لنفسها. ولكنك قد لا تشعر به أمام الطاولة كما أمام سجلّ الحسابات الرزين. أدركته بوضوح فعلاً حينما صرخ في داخلي: (اشترِ الفواكه المجففة حالاً!).

تحدثت بأمر هذه الصفقة مع أوليفي دون إخباره بالإلهام الذي أوحي إليّ طبعاً. فأجابني أنه لا يقوم بمشروع كهذا إلاّ كعمل خيري. فشطب من مشاريعي إمكانية الإلهام ووضعها بمقام الأعمال الإضافية. وأثناء الليل أجهدت نفسي بالتفكير، فكان الهاجس في داخلي. كنت أتنفس جيداً لدرجة أنني لم أستطع النوم. شعرت أوغوستا بالضيق الذي كنت فيه، فأخبرتها عن السبب. فاستلهمت ما جال في نفسي، وغمغمت وهي تستسلم للنعاس:

– ألست أنت ربّ العمل؟

وقبل أن أخرج في الصباح قالت بقلق واضح:

– لا ينبغي أن تزعج أوليفي. هل تريد أن أخبر والدي بذلك؟

فرفضت لأنني أعلم أنّ والدها لا يكترث بالإلهام أبداً. ووصلت إلى المكتب مصمماً على الدفاع عن فكرتي انتقاماً لأرق الليلة الماضية. واستمرت المعركة حتى منتصف النهار، أي عندما نطق الجوهرة موافقاً. كان متشنّجاً، فهاجمني بملاحظته المعهودة: (ربما تودّ أن تخفض من صلاحياتي التي أوكلني بها المرحوم والدك!). تأثرت بكلماته، وعدت إلى السجلّ، مصمماً أن لا أقحم نفسي في الأعمال ثانية. لكن طعم الزبيب بقي في فمي، وكنت أستعلم عن سعره كل يوم في البورصة، ولم أكن أهتم بأي شيء آخر. فكان يصعد شيئاً فشيئاً كأنه يستجمع قواه ليضرب ضربته. وفي يوم واحد ارتفع عالياً جداً وكانت المفاجأة أنّ محصول العنب ضئيل. الإلهام، كم هو أمر غريب! لم ينبئني بالمحصول الضئيل، بل بارتفاع السعر فقط. وبانتقام أوراق اللعب هكذا، لم أستطع أن أبقى على السجلّ، وأضعت احترامي لأساتذتي خصوصاً أنّ أوليفي حينها لم يكن واثقاً من أنه أحسن صنعاً. فضحكت كثيراً وسخرت منه، وكان هذا شغلي الشاغل.

وصل عرض جديد في سعر مضاعف. فطلب أوليفي النصح مني لكي يرضيني، فقلت له بنبرة مستعلية إنني لن آكل العنب بسعر مرتفع كهذا. فغمغم مستاءً: (إنني أتمسك بالنظام الذي اتّبعته طيلة حياتي). وذهب يبحث عن شارٍ، فوجد واحداً يريد كمية قليلة جداً، ثم عاد إليَّ بحسن النوايا ليسألني حائراً:

– هل أعوّض بهذه الصفقة الصغيرة؟

فأجبته بخبث:

twitter @baghdad_library

- ليتني عوّضت قبل أن تتم الصفقة.

فانتهى به الأمر أن فقد قدرته على الإقناع، ولم يقم بشيء. وكانت أسعار العنب لا تتوقف عن الارتفاع، خسرنا كل ما كنّا سنخسره في تلك الكمية القليلة. فغضب أوليفي مني، وقال إنه أراد أن يرضيني بتلك اللعبة. ونسي المحتال أنني نصحته بفعل شيء، فراح يفعل شيئاً آخر نكاية. كانت المشاحنة بيننا لا تحلّ، فاستغاث بحميّ قائلاً له إنّ الشركة ستتضرر كثيراً إن بقي الوضع هكذا، وإذا كانت عائلتي ترغب بذلك فسيتنحّى هو وابنه جانباً ليفسحا المجال لحماقاتي. فوقف حماي بجانبه حالاً، وقال لي:

- إنّ التجارة بالفواكه المجففة لا تعلو أن تكون تمريناً. أنتما رجلان لا يمكن لكما البقاء معاً، فمن عليه أن يتنحّى إذن؟ من كان ليدير المشاريع أفضل في غياب الآخر؟ أو من يدير الأعمال بالأحرى منذ نصف قرن؟

حتى أوغوستا اصطفت إلى جانب والدها لتقنعني بأن لا أتدخل ثانية في شؤوني الخاصة. وقالت:

- يبدو أنّ طيبتك وسذاجتك تعوّقانك عن ممارسة التجارة. فلتبق معي في البيت.

فانعزلت غاضباً في خيمتي، أي في مكتبي الصغير. دندنت قليلاً على الكمنجة وطالعت بعض الكتب. ثم شعرت برغبة بالقيام بشيء جديّ، وكدت أعود لأتأرجح بين الكيمياء والقانون. وفي النهاية تفرغت لدراسة الدين بعض الوقت، دون أن أعرف السبب. بدا لي استئنافاً للدراسة التي بدأتها بعد وفاة والدي، وربما كان السبب هذه المرة هو التقرّب من أوغوستا ونظرتها للصحة. لا يكفي اصطحابها إلى الكنيسة، فكنت سأذهب معها دون ذلك الدافع أيضاً. بدأت أقرأ رينان وستراوس،

الأول بسرور والثاني تحمّلته كما لو كان عقاباً. إنني أتكلم عن هذا الأمر لأكشف عن رغبتي الجامحة في التقرب من أوغوستا. ولكنها لم تفهم رغبتي عندما رأتني أقرأ الإنجيل بنسخة نقدية. كانت تفضّل الجهل في العلوم، فلم تقدّر دليل المودة الأقصى الذي كنت أبديه. وكانت تقول لي، عندما تقاطع ماكياجها أو أعمالها المنزلية وتدنو من باب مكتبي كالعادة لتحيّيني، فتراني منشغلاً بتلك النصوص:

- أمازلت تقرأ هذه الأشياء؟...

كانت بحاجة إلى دين لا تستغرق شعائره وقتاً طويلاً. فكلها انحناءة واحدة لا أكثر وعودة مباشرة إلى الحياة. أما بالنسبة لي فكان للدين شكل مختلف كلياً. ولو تملّكني الإيمان الحقيقي، لما سعيت وراء شيء آخر في هذا العالم.

بدأت أشعر بالملل أحياناً في مكتبي المرتّب بشكل رائع. بل كنت قلقاً بالأحرى لأنني شعرت بطاقة للعمل في تلك اللحظة، لكنني انتظرت أن تكلّفني الحياة بمهمّة ما. وبانتظار هذا كنت غالباً ما أخرج لقضاء الوقت في البورصة والمقاهي متظاهراً بالعمل، وهو أمر مملّ للغاية.

وكانت زيارة صديق ودود من أيام الجامعة انتقاماً إلهياً بالنسبة لي حتى لو لم تبد كذلك. كان صديقي عائداً بكامل غيظه من قرية صغيرة في ستيريا[1] للعلاج من مرض خطير. وعاد ليقضي شهراً في السرير، فتحوّل التهاب الكلى من مرض خطير إلى عضال لن يشفى منه. لكنه ظنّ أنّه أفضل حالاً، فاستعدّ بسعادة لينتقل مباشرة إلى مكان يكون الجوّ معتدل فيه أكثر من جوّ مدينتنا، آملاً أن يستعيد عافيته كاملة هناك. وتحتّم عليه التريث في محلّ ولادته القاسي.

(1) ستيريا، أو Steiermark بالألمانية (شتايرمارك)، ثاني أكبر ولاية في النمسا، وتقع جنوب شرق البلاد. المترجم.

twitter @baghdad_library

أعدُّ زيارتي لذلك الرجل المريض، والسعيد أيضاً، كنذير شؤم بالنسبة لي. وقد لا أكون محقاً، فهي لا تدلّ إلاَّ على تاريخ معيّن في حياتي كان لابد أن أمرَّ به.

كان صديقي، إنريكو كوبلر، مستغرباً من عدم علمي بوجوده أو بمرضه الذي لابد لجوفاني أن يعلم به. لكن جوفاني، منذ أن مرض هو الآخر، لم يعد لديه وقت لأحد ولم يخبرني بشيء من هذا، رغم أنه كان يأتي إليَّ في كل يوم مشمس ليغفو بضع ساعات في الهواء الطلق. قضيت ظهيرة ممتعة بين هذين المريضين. تحدثنا عن أمراضهما، وهذا ما يؤمّن الراحة النفسية للمرضى، ولا يزعج الأشخاص الذين يتمتعون بصحة جيدة. وكان هناك خلاف وحيد، إذ كان عمّي بحاجة إلى الهواء الطلق المحرّم على إنريكو. وانقضى الخلاف عندما هبّت الرياح التي أجبرت حميّ على الدخول إلى مكتبي الدافئ ليجلس بيننا. حدّثنا إنريكو عن علّته التي لا تسبب الآلام لكنها تسلب الطاقة. وكان حينها بصحة جيدة، فأدرك كم كان مريضاً. وتحدّث عن الأدوية التي وصفت له، فازداد اهتمامي! إذ نصحه الطبيب أيضاً بنظام مفيد يوفر له نوماً عميقاً دون أن يقضي عليه بالمنوّمات. وما كان هذا إلاَّ ما احتجت إليه!..

عندما شعر صديقي الطيّب بحاجتي للأدوية، خدع باهتمامي لوهلة وظنّ أني مصاب بعلّته نفسها، فنصحني بالذهاب إلى الأطباء والقيام بالتحاليل اللازمة. ضحكت أوغوستا من كل قلبها، وقالت إنني لم أكن إلاَّ مريضاً وهمياً. فاعترى ما يشبه الغيظ وجه إنريكو الهزيل، وتحرر من دونية كان يشعر أنها مكتوبة عليه، وهاجمني بحدة عالية:

— مريض وهمي؟!.. حسناً، إنني أفضّل أن أكون مريضاً حقيقياً إذن. فالمريض الوهمي ليس إلاَّ خرافة مضحكة قبل كل شيء، ثم إنّ الأدوية لا تتوفر لهذا النوع من المرضى، بينما تكون

الأدوية مفيدة نوعاً ما للمرضى الحقيقيين أمثالي، كما ترون جيداً!

كانت كلماته تدلّ على أنه سليم حقاً، وكنت أتألم لهذا صراحة. واصطفّ حماي إلى رأي صديقي بحدة عالية أيضاً، لكن كلماته لم تصل إلى حد الإساءة للمريض الوهمي، لأنها تنمّ بوضوح عن حسده للأشخاص المعافين. وقال إنه لو كان سليماً معافىً مثلي لركض إلى مشاريعه الرائعة والمحببة إلى قلبه، بدل أن يتباكى متشائماً من القادم، وبالأخص عندما نجح في تخفيف وزن كرشه. ولم يكن يعرف أنّ فقدان وزنه ليس دليلاً على العافية.

وبسبب هجوم إنريكو كنت آخذ مظهر مريض يعامل بشكل سيئ حقاً. شعرت زوجتي بالحاجة إلى التدخل لصالحي. فداعبت يدي التي وضعتها على الطاولة، وقالت إنّ مرضي لم يكن يزعج أحداً، وإنها لم تكن مقتنعة بأنني مريض فعلاً كما كنت أظن، فلو كان صحيحاً لما شعرت بسعادة الحياة. عاد إنريكو إلى الدونية التي كُتبت عليه. كان صديقي وحيداً في هذه الحياة، وإذا استطاع أن يقاومني في مسألة الصحة، فلم يكن ليعادلني في امتلاك الشخص الودود والقريب كأوغوستا. ثم استسلم واعترف لي لاحقاً بأنه يحسدني على زوجتي عندما احتاج لممرضة.

واستمرّ النقاش في الأيام التالية بنبرة أكثر هدوءً بينما كان جوفاني يستلقي في الحديقة. وبعد أن فكر إنريكو بالموضوع قليلاً، أكّد أنّ المريض الوهمي هو مريض حقيقي أيضاً، لكنه أكثر غموضاً وجذرية. إذ تنهار أعصاب المريض الوهمي لدرجة أنها تحذّره من مرض قد لا يكون موجوداً حينها، بينما تكمن وظيفتها الطبيعية في إنذاره بالألم ودفعه لإيجاد حلّ ما. فقلت: (أجل! مثلها مثل الأسنان حيث لا يظهر الألم

twitter @baghdad_library

إلاَّ عندما ينكشف العصب، فيصبح علاجها في خلعها).

فوافق أخيراً على أنّ المرضى متساوون جميعهم. وفي مرضه بالتحديد كان ينعدم إنذار الأعصاب، بينما كانت أعصابي حساسة لدرجة أنها قد تنذرني بالمرض الذي سيقضي عليّ ولو كان على بعد عشرين عاماً. كنت أمتلك أعصاباً متكاملة، سيئتها الوحيدة أنني نعمت بأيام سعيدة قليلة في هذه الحياة. وعندما زجّني إنريكو بين المرضى شعر بسعادة بالغة.

لا أعلم لماذا أصيب المريض المسكين بلوثة التحدث عن النساء. فحالما انصرفت زوجتي لم نتحدث بأي شيء آخر. زعم أنّ المريض الحقيقي، المصاب بأحد الأمراض التي نعرفها على الأقل، كان يصاب بالعجز الجنسي كوسيلة دفاع عن الجسد. أما المريض الوهمي، الذي لم يكن يتأوه إلاَّ من فوضوية أعصابه التي تعمل باستمرار - وهذا كان تشخيصنا للحالة - فلم يكن ليعاني أبداً من أيّ أعراض العجز. ودعمت نظريته بتجربتي، وواسينا بعضنا بعضاً. وأجهل لماذا لم أخبره بأنني عزفت عن الطيش منذ زمن بعيد. كان بوسعي على الأقل أن أعترف بأنني كنت مرتاحاً إن لم أكن سليماً كي لا أهينه كثيراً، ولكني استصعبت أن أقول إنني سليم بعد أن عرفنا كل عقد أجسادنا. أراد أن يستجوبني أكثر: - هل تشتهي كل امرأة تقع عيناك عليها؟..

- ليس كلهن! - غمغمت كي لا أظهر أمامه مريضاً جداً، فلم أكن أشتهي آدا التي أراها يومياً مثلاً. كانت تلك المرأة المحرّمة عليّ. فكان حفيف تنورتها لا يعنيني بشيء، ولو كان بوسعي أن أحرّكها بيدي لما غيّر ذلك في نفسي شيئاً. حمداً لله أنني لم أتزوجها، فهذا الفتور برهان على عافية خالصة، أو ربما بدا هكذا. قد تكون شهوتي بها عارمة لدرجة أنها تبددت من تلقاء نفسها.

واامتدّ الفتور ليشمل ألبيرتا أيضاً رغم أنها تبدو جميلة في لباسها
المدرسي الأنيق. هل كان زواجي بأوغوستا كافياً ليكبح جماح
شهوتي بعائلة مالفنتي كلها؟ ربما كان تصرفاً أخلاقياً بالفعل!

وربما لم أتحدث عن الفضيلة لأنني خنت زوجتي دوماً في أفكاري. ففكرت برجفة شهوانية بكل النساء اللواتي تجاهلتهن لأجلها، حتى وأنا أتحدث مع إنريكو. كنت أفكر بكل النساء اللواتي يمشين في الشارع، مرتديات ثيابهن بالكامل لدرجة أن تصبح أعضاؤهن الجنسية الثانوية أكثر أهمية، بينما تختفي هذه الأعضاء عند المرأة التي تتزوجها، كأنّ مجرّد الزواج يوقفها عن النمو. كانت رغبتي في المغامرة موجودة دائماً، تلك المغامرة التي تبدأ بالإعجاب بحذاء أو قفّاز أو تنورة، أو أي شيء يغطّي ويبدّل شكل المرأة. ولكن هذه الرغبة لم ترقَ بعد إلى مستوى الذنب، فإنريكو لم يكن يحلّل شخصيتي بشكل جيد. عندما تحلّل شخصية أحدهم، فإنك تعطيه إذناً بفعل كل ما يرغب به. فقام بما هو أسوأ من ذلك، ولم ير أين كان يقودني بكلماته وتصرفاته على حدّ سواء. وتبقى كلماته مهمة جداً في ذاكرتي، وما إن أتذكرها حتى تجرّ معها كل المشاعر والأحداث والأشخاص التي رافقتها.

رافقت صديقي إلى الحديقة، إذ كان عليه أن يعود إلى منزله قبل غروب الشمس. وقفنا ننظر طويلاً إلى البحر كيف تحرّكه نسمة خفيفة، وتعكس لون السماء الصافية بألف لون أحمر. فكان بمقدرتنا أن نرى البحر والميناء من بيتي الذي يقع على تل مرتفع، أما الآن فلا نرى شيئاً بسبب تشييد المباني الحديثة. كانت شبه جزيرة إستريا[1] تريح العين بنضارة خضرتها وهي تتوغل كقوس ضخم في البحر لتبدو كشبه ظلّ

(1) تتبع شبه جزيرة إستريا لكرواتيا في الخارطة السياسية المعاصرة، لكنها قريبة جداً من مدينة تريستا الإيطالية. ولا تمتّ بصلة لستيريا الولاية النمساوية آنفة الذكر. المترجم.

twitter @baghdad_library

ثابت. وكانت السدود ومكسّر الأمواج صغيرة ولا معنى لوجودها بهيئتها الجانبية، والمياه في الأحواض غامقة في ركودها أو مكدّرة. كان السلام ضئيلاً ضمن ذلك المشهد المدهش مقارنة مع اللون الأحمر المتحرك فوق الماء. وأدرنا ظهرنا للبحر بعد قليل من دهشتنا، لنرى الليل يداهم السماء من الجهة الأخرى فوق الفسحة الصغيرة أمام المنزل. وأمام البوابة، كان حماي نائماً، على أريكة واسعة، ورأسه مغطّى بالقبّعة وياقة القميص الوبرية، وقدماه مدثّرتان بلحاف. أمعنّا النظر فيه. كان فاغراً فاه، وفكّه السفلي معلّق كأنه ميت، وأنفاسه تتدفق لاهثة بأعلى صوت. كان رأسه يسقط على صدره في كل لحظة، ويعيده إلى مكانه دون أن يستيقظ. حرّك جفنيه كما لو أراد أن يفتح عينيه ليجد التوازن بسهولة، بينما تغيّر أنفاسُه من إيقاعها في محاولة حثيثة لاعتراض النوم. كنت أشاهد مرض عمّي الخطير بأمّ عيني للمرة الأولى وبوضوح شديد أيضاً، وكنت أتألّم عميقاً لذلك. فقال لي إنريكو بصوت منخفض:

– عليكم أن تعالجوه، إنه مصاب بالتهاب الكلى على الأرجح. هذا ليس نوماً، فأنا أعرف جيداً هذه الحالة. مسكين!

وختم كلامه ناصحاً باستدعاء طبيبه. فسمعنا جوفاني وفتح عينيه، وسرعان ما بدا سليماً معافًى وأخذ يمازح إنريكو:

– كيف تتجرأ على البقاء في الهواء الطلق؟ ألست تعرّض نفسك للخطر؟..

بدا له أنه غطّ بنوم عميق، فلم يعرف أنه كان بحاجة لاستنشاق الهواء الذي كان البحر العريض يبعث منه الكثير! وكان صوته خافتاً وكلماته تنقطع من لهيث أنفاسه، ووجهه يبدو شاحباً. كان عليه التوجه إلى المنزل فنهض عن الأريكة وهو يشعر بالبرد القارس. مازلت أراه يتحرك عبر الفسحة، قبّعته تحت إبطه، يلهث لكنه يودّعنا ضاحكاً.

- أترى كيف يكون المريض الحقيقي؟ - قال إنريكو الذي لم يقدر على التخلص من فكرته المستحوذة على رأسه - إنه يحتضر ولا يعرف أنه مريض.

شعرت حينها أنّ المريض الحقيقي هو ذاك الذي يتألم بنسبة أقلّ... يرقد جوفاني وإنريكو في مقبرة سانت آنّا منذ سنوات بعيدة. وفي أحد الأيام مررت بالقرب من قبريهما، وبدا لي أنّ القضية التي دافع عنها أحدهما لم تنتهِ بعد بسبب وجودهما تحت الأرض.

قبل أن يترك منزله العتيق، كان على إنريكو إيقاف جميع مشاريعه، فكان مثلي بلا عمل. ورغم فقدانه إدارة شؤونه كان متأجج النشاط. فما إن قام عن السرير حتى بدأ ينشغل في شؤون غيره المثيرة للاهتمام. ضحكت من ذلك، لكنني استطعمت لاحقاً بالنكهة اللذيذة في التدخل بشؤون الآخرين. كان قد نذر نفسه للأعمال الخيرية، وبما أنه كان يعيش من فوائد رأسماله وحسب، لم يسمح لنفسه بأبّهة القيام بذلك كله على حسابه الشخصي. لذا كان يجمع التبرعات ويفرض ضرائباً على أصدقائه ومعارفه. وكان يسجل كل شيء كرجل أعمال شاطر على دفتر كأنه يقتات منه، ولو كنت في محله على شفير الموت وحيداً دون عائلة لملأت ذلك الدفتر حتى يتآكل رأس مالي كله. ولكنه كان المعافى الوهمي ولم يمس إلاّ الفوائد التي يستحقها، ولم يقوَ على تقبّل فكرة الحياة الفانية.

باغتني يوماً بطلب المئات من الكرونات ليشتري بيانو صغير لفتاة فقيرة كنت أدعمها مع الآخرين براتب شهري عن طريقه. وكان لابد أن أنتهز الفرصة المناسبة، فلم أستطع تمالك نفسي. لكني فكرت بقليل من الوقاحة أنني لو بقيت في المنزل يومها لكان ذلك مشروعاً مربحاً. فأنا أصاب بالبخل من حين لآخر.

أخذ إنريكو النقود وخرج مسرعاً بكلمة شكر وجيزة، ولكن تأثير

twitter @baghdad_library

كلماتي ظهر بعد أيام قليلة وكان مهماً لسوء الحظ. فقد جاء يخبرني أنّ البيانو أصبح جاهزاً وأنّ الآنسة كارلا جيركو وأمها ترجواني للمجيء إليهما كي تشكراني. كان صديقي يخاف أن يخسر زبوناً فألزمني بالتلذذ بعرفان المسكينتين بالجميل. أردت أن أفلت من الضجر مؤكداً له قناعتي بأنه خير من يقوم بالأعمال الخيرية، لكنه ألحّ حتى استسلمت موافقاً.

– هل الفتاة جميلة؟ – سألته ضاحكاً.

– جميلة جداً، ولكنها لا تناسب أسناننا! – أجابني.

والغريب في الأمر أنه وضع أسناني مع أسنانه، مخاطراً بنقل عدوى التسوس إليّ. فأخبرني عن تلك العائلة المهذبة المسكينة التي فقدت ربّ الأسرة منذ سنوات لتعيش رثّة فقيرة ومتمسكة بأرقى مستويات الشرف.

كان يوما تعيساً، والريح الباردة تعصف بي فحسدت إنريكو الذي كان يلبس الفرو. وكنت أمسك قبعتي بيدي كي لا تحملها الرياح بعيداً، ورغم ذلك كنت في مزاج معتدل، فأنا ذاهب لأحصد الامتنان على غيريّتي. ركضنا نعبر شارع ستاديون، ثم عبرنا الحديقة العامة. لم أكن أتردد أبداً إلى هذه الناحية من المدينة. دخلنا في أحد الأحياء الاقتصادية، التي شيّدها آباؤنا قبل أربعين عاماً في مكان بعيد عن المدينة وسرعان ما اجتاحتها. كان لتلك الأبنية مظهر متواضع، ولكنها أكثر جمالاً من هذه التي تبنى اليوم للأغراض ذاتها. وكان درج البناء مرتفعاً جداً لأنه يشغل حيّزاً بسيطاً. توقفنا عند الطابق الأول حيث وصلت قبل رفيقي الذي يصعد ببطء. وفوجئت أنّ اسم كارلا جيركو كان مرفوعاً على البابين الجانبيين من الأبواب الثلاثة الموجودة في بهو الطابق. وكانت اللافتتان مرفوعتين بمسامير صغيرة، بينما يحمل الباب الثالث لافتة لاسم شخص آخر. وشرح لي إنريكو أنّ المطبخ وغرفة النوم كانا على الطرف الأيمن، بينما يقع مكتب الآنسة كارلا على الطرف الأيسر. فكان بوسعهما

تأجير الجزء الأوسط من البيت ليصبح الإيجار الذي يدفعان أقلّ بقليل، ولكنهما لا يشعران بارتياح إذا استخدما البهو للتنقل من غرفة لأخرى.

طرقنا الباب الأيسر، أي على المكتب حيث كانت الأم وابنتها تنتظران مجيئنا. قدّمني إنريكو إليهما. وكانت الأم خجولة جداً، ترتدي ثوباً أسود بالياً، وشعرها أشيب كبياض الثلج. رحّبت بقدومي بحديث قصير حضّرته من قبل: فكان حضوري يشرّفهما، وكانت تشكرني على هبتي المقدّرة. ثم لم تفتح فمها ببنت شفة.

تصرّف إنريكو كأنه أستاذ في امتحان رسمي وهو يصغي إلى الدرس الذي علّمه لطلاّبه بجهد كبير. فصحح للسيدة قائلاً إنني لم أتكرم بثمن البيانو فحسب، بل كنت أشارك أيضاً في الراتب الشهري الذي يقوم بجمعه لهما. كان عاشقاً للدقّة الصائبة، إنريكو!

نهضت الآنسة كارلا من الكرسي المحاذي للبيانو، ومدّت يدها إليّ قائلة تلك الكلمة البسيطة: (شكراً!). اختصرت جداً على عكس والدتها التي أثقلتني بمدح غيريّتي. كنت منشغلاً بشؤون الآخرين أنا أيضاً كأيّ مريض حقيقي! ما الذي كانت تراه فيَّ تلك الفتاة اللطيفة؟ شخص جليل ولكن ليس رجلاً! كانت جميلة حقاً! أظنها أرادت أن تبدو أصغر من سنّها، فكانت ترتدي تنورة قصيرة على صرعات ذلك الزمان، اللهم إلاَّ إذا لم تلبس في البيت تنورة من موضة زمان أمها. ولكن شعرها مسرّح بتسريحة قليلة التكلف، لسيدة تثير الإعجاب. فالضفائر السوداء كثيفة تغطّي أذنيها وقليلاً من رقبتها. وحاصرني الاحترام، وكنت أخشى من نظرات إنريكو الاستجوابية؛ فلم أنظر جيداً إلى الفتاة، ولكنني الآن أعرفها كلها. كانت الموسيقى تغمر صوتها عندما تتحدث بتصنع بات طبيعياً. فكانت تستمتع بإطالة لفظ الكلمات كما لو أرادت مداعبة الصوت الذي تنجح في إصداره. فتخرج بعض الأحرف الصوتية عريضة جداً حتى

twitter @baghdad_library

تحسبها أجنبية من نبرة كلماتها. علمت بعدئذٍ أنّ بعض الأساتذة يغيّرون من طبيعة أحرف العلّة ليعلّموا لفظها الصحيح. فكان كلامها مغايراً لكلام آدا، وكل نغمة فيه تذكّرني بالحب.

كانت الآنسة كارلا تبتسم دوماً أثناء تلك الزيارة، ربما لأنها تخيلت أنّ البسمة هي التعبير الأبرز عن الامتنان. فتلك الابتسامة مصطنعة نوعاً ما، وهو المظهر الحقيقي للامتنان. وسرعان ما بدأت أحلم بكارلا، وتخيلت آثار معركة ضارية على وجهها بين السعادة والتعاسة. ولكنني لم أجد شيئاً من ذلك فيما بعد، فتأكدت أنّ جمال الأنثى يصطنع أحاسيس ليست حقيقية مطلقاً، كأنك ترسم لوحة لمعركة لا تعطيك أي إحساس بالبطولة.

بدا إنريكو سعيداً بالزيارة كما لو كان هو الذي خلق الفتاة وأمها. كان يصفهما لي على أنهما تعملان بجدّ سعيدتين دوماً بما كُتب عليهما. ويتفوه بكلمات قام بقصّها من كتاب مدرسي على ما يبدو. وكنت أوافقه هازاً برأسي آلياً كأني أردت أن أثبت إكمالي لدروسي، وأعرف كيف تكون المرأة الفقيرة والشريفة والطيبة.

ثم طلب من كارلا أن تغنّي لنا أغنية ما. لم ترغب بذلك فتذرّعت بالمرض، ووعدتنا أن تغني في يوم آخر. فحسبت بسذاجة أنها تخشى من أحكامنا، ولكنني كنت أرغب بإطالة الزيارة فانضممت إلى توسلات إنريكو. وقلت إنني قد لا أراها أبداً فيما بعد، لأنني كنت منشغلاً بأعمالي. إنريكو، الذي كان يعلم حق المعرفة أنني لست منشغلاً بشيء في هذه الحياة، أكد كلامي بجدية تفوق جديتي. وأدركت بسهولة أنه كان يرغب بأن لا أرى كارلا مجدداً.

استمرت في تمنعها، لكن إنريكو ألحّ بكلمة واحدة كأنها أمر انصاعت له في الحال. كم كان من السهل إجبارها! بدأت بالغناء. وكنت

أتابعها جالساً على الديوان الوثير، وكان لدي رغبة مستعرة بأن أتمكن من الإعجاب بها. كم كان رائعاً لو وجدتها عبقرية! لكنني فوجئت بسماع صوتها يفقد أنغامه عندما تغني، وكان الإرهاق ما يؤثر عليها سلباً. لم تكن كارلا تتقن حتى العزف، بل كانت مرافقتها الناقصة تجعل تلك الموسيقى الضحلة ضحلة أكثر. تذكرت أنني أمام تلميذة صغيرة فامتحنت مستوى الصوت إن كان كافياً فوجدته أكثر من اللازم! كان يخدش أذني في ذلك المكان الصغير. ففكرت أن أشجعها بالقول إنّ مدرستها سيئة. وعندما أنهت غناءها، شاركت إنريكو تصفيقه الحار. فكان يقول: (تخيّل أي فتنة سيسحرنا بها هذا الصوت لو رافقته أوركسترا كاملة!). وكان هذا صحيحاً. يلزمنا أوركسترا كاملة وجبارة لتسيطر على هذا الصوت. أما أنا فقلت بصراحة شديدة إنني سأمتنع عن سماع كارلا منذ ذلك الحين حتى بضعة أشهر حتى يتسنى لي الحكم على مدرستها. ثم أضفت بصراحة أقلّ أنّ صوتها يستحقّ مدرسة من مستوى رفيع. ولكي أخفف من الاشمئزاز الذي احتوت عليه كلماتي الأولى، بدأت أتفلسف عن ضرورة إيجاد مدرسة شامخة لصوت شامخ. غطت صفة الشموخ على كل شيء. وفوجئت بضرورة التحدث بوضوح، عندما صرت وحيداً. ترى هل أحببتها حقاً ولم أكن قد رأيتها جيداً بعد!..

مازال إنريكو يتحدث عند الدرج الذي تفوح فيه رائحة غريبة:

- إنّ صوتها قوي جداً. إنه صوت مسرحي!

ولم يكن يعرف أنني عرفت شيئاً آخر في تلك اللحظة؛ فصوتها ينتمي لجمهور صغير جداً يتمتع بانطباع السذاجة حيال فن الغناء، ويحلم أن يحمله داخل الفن. بمعنى آخر: حياة وآلام!..

وقال لي قبل أن نفترق إنه سيخبرني إذا ما قام أستاذ كارلا بتنظيم حفل موسيقي. إنه أستاذ غير ملحوظ في المدينة، لكنه بلا شكّ سيصبح

twitter @baghdad_library

مشهوراً جداً في المستقبل. كان إنريكو واثقاً من ذلك رغم كبر سنّ الأستاذ. بدا أنّ الشهرة سوف تبلغ الأستاذ حالما يتعرف على إنريكو. وكانا مجرّد ضعيفين في النزع الأخير: إنريكو والأستاذ.

ومن الغرابة أنني شعرت بحاجة لإخبار أوغوستا بتلك الزيارة. وقد يعود ذلك لبصيرتي، ولم أكن لأرجو إنريكو أن يحفظ السر. فتحدثت بكل سرور إليها، وكان بمثابة تفريغ مهم. فقبل حديثي مع زوجتي لم أكن ألوم نفسي سوى أني لم أحدّثها بالأمر، مما يجعلني بريئاً بالكامل حين أخبرتها.

سألتني عن بعض أخبار الفتاة وعمّ إذا كانت جميلة. واستصعبت الإجابة، فقلت إنّ الفتاة المسكينة بدت لي مصابة بفقر الدم، ثم خطرت لي فكرة جيدة:

– هلاّ وهبت قليلاً من وقتك لأجلها؟..

كان على أوغوستا القيام بأعمال كثيرة في بيتها الجديد، وكانوا يطلبونها في بيتها القديم أحياناً لمساعدة والدها المريض، فلم تفكر بالأمر. ولذا كانت فكرتي جيدة حقاً.

عرف إنريكو من أوغوستا بأنني أخبرتها عن زيارتنا، فنسي تلك الميزات التي ينسبها للمريض الوهمي. وقال أمام زوجتي إنّ علينا القيام بزيارة ثانية لكارلا. كان يثق بي جداً!

وعندما كنت مسترخيًا أخذتني الرغبة بلقاء كارلا، ولم أتجرأ على الذهاب إليها خشية أن يعرف إنريكو بذلك. ولم تكن الذرائع لتنقصني أبداً، فبوسعي الذهاب إلى بيتها لأمنحها عوناً مادياً أكبر دون علمه. لكنني أردت أن أكون واثقاً من أنها لن تعلمه بهذا. ماذا لو كان لهذا المريض الحقيقي صلة عشق بالفتاة؟ لم أكن أعرف شيئاً عن نفسية المرضى الحقيقيين، فقد يدفعون لعشيقاتهم من جيوب الآخرين! وفي

هـذه الحالـة كان كافيـاً أن أقـوم بزيـارة إلـى كارلا كـي أتبين ذلك. إذ لم يكن بوسعي أن أعرّض عائلتي الصغيرة للخطر، أو بالأحرى لن أعرّضها للخطر مالم أكن مغرماً بكارلا حقاً.

لكنني كنـت متيمـاً بهـا حتى الموت، وشـعرت أني أعرفها قبل أن أمدّ يدي لوداعها بكثير. كنت أذكر بالأخص جدائلها السوداء التي تغطّي عنقهـا ناصـع البيـاض، وقـد يكـون ضرورياً أن أبعدها بأنفي لأتمكن من تقبيل البشرة المختبئة وراءها. ولكي أشعل شهوتي كنت أكتفي بتذكر أنّ فتاة جميلة تعيش في بهو أحد مباني مدينتي، أستطيع الحصول عليها بعد مشـية قصيرة!.. إنّ الصراع ضدّ الخطايا يصبح صعباً في ظروف كهذه إذ ينبغـي أن يتجـدد فـي كل يـوم وسـاعة، إلـى أن تبقى الفتاة تعيش عند ذلـك البهـو. كانـت حروفهـا الصوتية الطويلة تناديني، وربما كان صوتها من أرسـى في نفسـي القناعة بأنني، عندما تتبدد مقاومتي لها، لن يكون لديّ مقاومة أخرى. ولكن من الواضح أنني أخدع نفسي بأنّ إنريكو قد رأى الأمور بدقّة أكبر، وكان هذا الشكّ يضعف من طاقتي على المقاومة، فأوغوسـتا المسـكينة قد تنجو من خيانتي لها بفضل كارلا نفسـها التي تسري المقاومة في عروقها بما أنها امرأة.

لماذا كنت سـأندم بسـبب الشـهوة التي نجوت بفضلها في الوقت المناسـب مـن تهديـد المضايقـات حينهـا؟ لـم تكـن علاقتـي بأوغوسـتا ستضطرب أبداً، بل على العكس. فأنا كنت أغمرها ليس فقط بكلمات المودة التي أخصّها بها، بل كنت أقول لها بعضاً من الغزل الذي تشكّل فـي داخلـي تجـاه الفتـاة. لـم يكـن فـي بيتي جوّ حميمـي قبل ذلك، مما جعل زوجتي مفتونة به. فكنت دقيقاً بما أسمّيه مواعيد العائلة. فضميري حساس جداً، لدرجة أنني كنت أحضر نفسي لأقاوم الندم الذي سيضنيني في المستقبل على أفعالي.

twitter @baghdad_library

وما أكّد مقاومتي المستبسلة أنني لم أصل إلى كارلا بضربة واحدة، وإنما على مراحل. ففي بادئ الأمر، ولأيام عديدة، كنت أصل حتى الحديقة العامة، وبرغبة صادقة بالسرور من رؤية ذلك الخضار الذي يبدو بهياً وسط اسوداد الشوارع والبيوت التي تحيط به. ثم استطعت أن أخرج من الحديقة لأمشي تحت نوافذ بيتها عندما لم يحالفني الحظ في مقابلتها صدفة كما كنت أرجو. كنت أفعل ذلك بمشاعر جياشة لمراهق يدنو من الحب لأول مرة. فلم أكن محروماً من الحبّ منذ وقت طويل، بل من السبل التي تؤدّي إليه.

اصطدمت بحماتي وجهاً لوجه عندما كنت خارجاً للتو من الحديقة. تملّكني شكّ غريب. فما الذي تفعله في تلك الساعة المبكرة من الصباح هناك، بعيداً عن منطقتنا؟ ربما كانت تخون زوجها المريض هي الأخرى! أجحفت بحقّها لأنها كانت تبحث عن الطبيب بعد ليلة مريرة قضتها بالقرب من جوفاني. قال الطبيب لها كلمات طيبة، لكنها كانت مضطربة فتركتني على عجل، حتى إنها نسيت أن تتفاجأ من وجودي في ذلك المكان الذي يتردد إليه العجائز والأطفال والمربيّات.

لكن رؤيتها كانت كافية لأشعر أنني مقيّد بالعائلة مجدداً. فمشيت صوب منزلي بخطىً واثقة أعدّ فيها الزمن مغمغماً: (لن أكرر هذا ثانية! أبداً!). فقد أشعرتني أحزان والدة أوغوستا بكل واجباتي في تلك اللحظة. كان ذلك درساً جيداً وكافياً لكل اليوم.

لم تكن زوجتي في البيت لأنها هرعت إلى والدها وبقيت بقربه طوال الصباح. وقالت لي على المائدة إنهم كانوا يناقشون تأجيل زفاف آدا المقرر في الأسبوع التالي نظراً لوضع جوفاني، الذي كان بحالة جيدة، وكلّ ما في الأمر أنه أكل كثيراً على العشاء، ولم يكن عسر الهضم إلاّ تدهوراً صحياً مزيّفاً. أخبرتها أنني عرفت هذا من أمّها التي

صادفتها في الصباح عند الحديقة العامة. حتى أوغوستا لم تستغرب من تنزهي هناك، ولكنني شعرت بحاجة إلى التبرير. فقلت إنني أفضّل الحديقة العامة منذ مدّة بهدف النزهة، وأجلس على أحد المقاعد لأقرأ جريدتي، ثم أضفت: (آه من أوليفي! أتعبني كثيراً بالخمول الذي سبّبه لي!). وفي هذه المناسبة شعرت أوغوستا بالذنب قليلاً، وبدت متألمة ونادمة، أما أنا فشعرت حينها بأفضل حال. وكنت فعلاً بحالة جيدة لأنني قضيت الظهيرة في مكتبي، وظننت أنني نجوت تماماً من الرغبة المتأججة، لأني كنت أقرأ سفر الرؤيا.

ورغم أني بتُّ واثقاً من امتلاك الصلاحية للذهاب إلى الحديقة العامة كل يوم، كانت مقاومتي تنجح دائماً إذ خرجت في اليوم التالي متخذاً الجهة المعاكسة. فذهبت لأبحث عن منهاج جديد للكمنجة نصحني به أحدهم. وقبيل خروجي علمت أنّ حميّ قضى ليلة هادئة وسيأتي إلينا في الظهيرة مستقلاً العربة. ففرحت له ولغويدو أيضاً فكان بوسعه الزواج أخيراً. لقد نجوت ونجا حماي، وكل شيء على ما يرام.

ولكن الموسيقى هي التي قادتني إلى كارلا! فمن بين المناهج التي عرضها عليّ البائع وقع منهاج لتعليم الغناء سهواً. فقرأت عنوانه بانتباه: (المنهاج الكامل في فن الغناء، من مدرسة إدواردو غارشا، يحتوي أيضاً على دراسة بعنوان «الذاكرة ودورها في الصوت البشري» من تقديم أكاديمية باريس للعلوم). فتركت البائع ينشغل ببعض الزبائن، ورحت أتصفح الكتاب. كنت أقرأ بهيجان مراهق يطالع مجلات البورنو. وهاهي الطريق ممهدة لبلوغ كارلا. إنها كانت بحاجة إلى ذلك المنهاج، وإن لم أخبرها بأمره كأنني ارتكبت جريمة بحقّها. فاشتريته وعدت إلى المنزل.

كان المنهاج يتألف من قسمين، أولهما نظري والثاني عملي. ولم أزل أقرأ المنهاج لأفهمه جيداً ليتسنى لي الإدلاء ببعض النصائح إلى

twitter @baghdad_library

كارلا عندما أذهب إليها بصحبة إنريكو. وهكذا كنت أوفر الوقت لأنعم بنوم هنيء، شريطة أن أبتهج بالتفكير في المغامرة التي كانت بانتظاري. فعجّلت زوجتي نفسها بوقوع الأحداث. إذ قطعت عليَّ قراءتي لتنحني وتقبّل خدي بشفتيها. سألتني عما كنت أفعله، وعندما رأت أنني أقرأ منهاجاً جديداً ظنّت أنه للكمنجة ولم تمعن النظر أكثر. وعندما خرجت، بالغت في ارتباكي وقررت أن لا أترك هذا الكتاب في مكتبي. عليَّ أن أرسله إلى مصيره حالاً، فاضطررت للمضيّ صوب مغامرتي بعد أن وجدت أفضل من أن يسمّى ذريعة لتحقيق غايتي.

لم أعد أرتبك مما قد يحدث، فوصلت إلى ذلك البهو واستدرت مباشرة إلى الباب الأيسر. لكنني وقفت لحظات أمامه أصغي لأنغام الأغنية نفسها وهي ترنّ بقوة على الدرج. يبدو أنّ كارلا لم تتدرب إلاَّ على تلك الأغنية أثناء ذلك الوقت كله. فابتسمت مغموراً باللذة والمودّة، كطفل صغير. فتحت الباب محترساً دون أن أطرقه، ودخلت إلى الغرفة على رؤوس أصابعي. كنت تواقًا لرؤيتها حالاً! وكان صوتها كريهاً للغاية في ذلك المكان الصغير. فكانت تغني بحماس متّقد أكثر من المرّة السابقة، مستلقية على الكرسي لتعطي كل أنفاس رئتيها. لم أرَ سوى رأسها الصغير ملفوفاً بضفائر شعرها الثخينة، فانسحبت مبهوراً بإحساس عميق بالتمادي. كانت قد وصلت إلى العلامة الأخيرة التي لم تعد تنتهي، فاستطعت العودة إلى البهو وإغلاق الباب من خلفي دون لفت انتباهها. كم تعذبت تلك العلامة بالتذبذب بين القرار والجواب قبل أن ترحمها وتختمها. كانت كارلا تمتلك الخامة، وما على غارشا إلاّ التدخل لصقل موهبتها بأسرع وقت.

طرقت الباب عندما شعرت بالهدوء، فجاءت لتفتح بسرعة. لا أنسى مظهرها اللطيف وهي تستند إلى الباب، بينما تحدّق فيَّ بعينيها

السوداء الكبيرتين قبل أن تعرفني في الظلام. ولكنني هدأت بشكل يجعلني متردداً، فكنت أمضي لأخون أوغوستا. وفكرت أني سأستطيع التوقف عند حد الباب بما أني استطعت التوقف عند حد الحديقة العامة في الأيام السابقة، فأعطيها الكتاب المغامر وأعود أدراجي راضياً. كانت لحظة مليئة بالقرارات الصائبة.

حتى إنني تذكرت تلك النصيحة الغريبة التي قُدّمت لي لأتخلص من عادة التدخين ومن الممكن أن تكون نافعة في هذه المناسبة: (لكي تشبع رغباتك قم بإشعال الولاعة، ثم ارم الولاعة والسيجارة معاً). وكان من السهل أن أفعل ذلك لأنها احمرّت خجلاً عندما عرفتني، واعتذرت لارتدائها ثوباً منزلياً بالياً. واحتجت إلى الاعتذار أنا أيضاً:

- جلبت إليك هذا الكتاب، وأظن أنه سيثير اهتمامك. سأتركه عندك وأنصرف على الفور إن أردت.

بدت كلماتي فظّة بنبرتها وليس بمعناها، لأنني في المجمل كنت أتركها تختار بنفسها، بين أن أذهب أو أبقى لأخون أوغوستا. ولكنها تسرعت بقرارها، وأمسكت بيدي مرحّبة بثقة لتسمح لي بالدخول. ارتبكت مشاعري، ليس من ملامسة يدها الناعمة، بل لتلك العفوية المريحة التي تتحكم بمصيري ومصير زوجتي. وأظنّني دخلت مع بعض الممانعة، فكلما تذكرت قصة خيانتي الأولى أحسست أنني أجبرت عليها!

كان وجهها الميّال إلى الحمرة جميلاً جداً. وسررت حين تذكّرتْ فجأة أنها تمنّت رؤيتي ثانية حتى لو لم تكن بانتظاري حينئذٍ. فقالت لي بلطف شديد:

- هل شعرتم إذن بالحاجة إلى رؤيتي مجدداً؟.. لرؤية الفتاة الفقيرة التي تشعر بالامتنان لكم؟

كنت سآخذها بين ذراعيّ لو أردت، لكني لم أفكر بالأمر أصلاً.

twitter @baghdad_library

أو ربما فكرت فيه قليلاً فلم أجب على كلماتها اللمّاحة. ووجدت نفسي أتحدث عن منهاج غارشا، وضرورة اقتناءه، بانفعال حتى تفوهت بعبارات لا معنى لها: (إنّ هذا المنهاج يعلّمك الطريقة التي تجعل صوتك جبّاراً كالحديد وناعماً كالنسيم. مما يعني أنّ النغمة تمثّل خطاً مستقيماً، أو مستوياً، لكنه مصقول فعلاً). وانطفأ الحماس عندما باغتتني بإشعال شك يؤلمها:

– ألا تعجبكم طريقة غنائي إذن؟..

ذهلت من سؤالها، لأنني بدأت حديثي بنقد لاذع دون أن أعي ذلك، فاعترضت بإيمان عميق. اعترضت بشكل جيد أعادني إلى موضوع الحب الذي جرّني بقوة إلى ذلك البيت، وأنا أتحدث عن الغناء فقط. وكانت إجابتي ودية رغم أنها أظهرت جزءاً من الصراحة.

– كيف لك أن تتخيلي شيئاً كهذا؟.. ما كنت هنا لو كان الأمر كذلك. بقيت واقفاً في البهو طويلاً لأطرب من غناءك الجميل وصوتك الشامخ في بساطته. كل ما في الأمر أنني أعتقد أنه يلزمك شيء آخر، يوصلك إلى درجة الاحتراف، وها قد أتيت به إليك.

كم فكرت بأوغوستا حتى عندما أنكرت بحدة أنّ الشهوة لم تجرّني إلى هناك! أصغت كارلا إلى كلماتي المغرية، ولم تكن في حال يساعدها على التحليل. لم تكن مثقفة ولكني فهمت، بمفاجأة كبرى، أنها لم تكن ناقصة عقل. أخبرتني أنها تملك شكوكاً تجاه موهبتها وصوتها. فكانت تشعر أنها لا تحقق تطوراً. كانت تسمح لنفسها بالتسلية بعد ساعات طويلة من التمرين، وتكافئ نفسها في أداء تلك الأغنية راجية أن تكتشف ميزة جديدة في صوتها. لكن شيئاً جديداً لم ينتج؛ وربما كان صوتها جيداً بما فيه الكفاية كما يؤكد كل من يسمعها، بما فيهم

أنـا، لكـن لـم يكـن هنـاك تطور يذكر. حينئذٍ رأيـت في عينيها الجميلتين الواسعتين ضوءاً استفهامياً يظهر كم هي بحاجة لتثق بمغزى كلامي الذي مازال يحمل بعض الارتياب. وكان أستاذها يقول إنّ لا وجود لتطورات بطيئة في الفن، إنما هي وثبة عالية توصل سـريعاً إلى الغاية، وسـتصبح فنانة مشهورة في يوم رائع من الأيام.

- ولكن المشـوار طويل - أضافت وهي تنظر شـاردة كأنها تعيد النظر ثانية بساعات الملل والكلل.

يوصـف أحدهـم بالمنصـف إذا كان صريحـاً، ومـن جهتـي كنـت سـأصبح منصفـاً جـداً لـو نصحتهـا بتـرك دراسـة الغناء لتغدو عشـيقتي. ولكنـي لـم أكـن قـد وصلـت بعيداً عن حدود الحديقة العامة، ثم إني لم أكن واثقاً من حكمي في فن الغناء على وجه الخصوص.

مرت لحظات قلقت فيها إزاء شـخص واحد، وهو إنريكو المملّ الذي كان يحضر كل حفلة في بيتي معي ومع زوجتي. وربما كان الوقت مناسباً لأجد حجّة أتوسل فيها إلى الفتاة أن لا تخبره بزيارتي هذه. لكني لم أفعل لأني لم أنجح في إخفاء السؤال، فكانت وفاة صديقي المسكين السريعة، إثر وعكة أصابته بعد بضعة أيام، مفيدة بالنسبة لي.

قلت لها إنها سـتجد في كتاب غارشـا جواباً لكل ما تبحث عنه. ولوهلة واحدة وحيدة ترقّبتْ منه المعجزات، ثم استدركتْ عندما وجدت نفسها أمام الكثير من الكلمات، وشكّكت في قدرة السحر. لقد كنت أقرأ نظريات غارشـا بالإيطالية، وبالإيطالية كنت أشـرح لها، وعندما لم يكن ذاك كافياً كنت أترجمها إلى لهجتنا المحلية، ولكنها لم تكن تستوعب، وكانت ستعترف بالفائدة الوحيدة للمنهاج على ذلك النحو فقط. واقتنعت بعد قليل بأني اشتريت كتاباً لا نفع فيه. فكنت أقرأ تلك الجمل وأعيدها مراراً دون فهم شيء منها، لذا أخذت أنتقم من عجزي ناقداً تلك الجمل

twitter @baghdad_library

بحرية. فغارشا كان يهدر وقته ووقتي في برهنة أنه حتى لو كان الصوت البشري قادراً على إصدار أنغام مختلفة، فهذا لا يعني أن نعتبره آلة بحتة. وإن كان صحيحاً، فبوسعنا أن نسمّي الكمنجة «كتلة من الأصوات» إذن. ربما أخطأت في بوح انتقاداتي لكارلا، ولكنك تصبح عاجزاً أن تتمالك نفسك عن انتهاز الفرصة السانحة لتظهر تفوّقك أمام المرأة التي ترغب بها. لقد أعجبت بي حقاً، لكنها أبعدت من أمامي ذلك الكتاب الذي كان مثل غاليوتو بالنسبة لنا، دون أن يرافقنا حتى ارتكاب الرذيلة[1]. ولم أستسلم لدرجة تجاهل الكتاب، فاقترحت أن نقرأ منه في زيارة لاحقة. ولم يعد لي حاجة به بعد وفاة إنريكو التي قطعت أيّ ارتباط بين منزلي ومنزلها. ولم يكن ليوقف اندفاعي إلاَّ ضميري.

أصبحنا أصدقاء لدرجة لا يمكن توقّعها بعد نصف ساعة من الحديث. أعتقد أنّ التوافق في الأحكام النقدية يوحّد البشر بشدّة. فاستغلت المسكينة الجوّ الحميم لتطلعني على بعض مآسيها. بعد تدخل إنريكو عاشت الفتاة وأمّها بتواضع لكن دون عوز. كان يحمل إليهما الراتب بمواعيد منضبطة، دون أن يسمح بعدّه للتأكد منه، فهو لا يطيق المتاعب، بل فضل أن تتحملها كارلا وأمها. ولم يكن يعطيهما تلك النقود مجاناً، فكان كربّ الأسرة الحقيقي يرغب بمعرفة كل

(1) يقوم الخادم غاليوتو (Galeotto) بدفع عجلة الحبّ إلى الأمام بين الأمير لانشيلوتو وجينفرا، مما يجعل قصة حبهما أسطورية في العصور الوسطى، ويجعل من غاليوتو نفسه رمزاً للتفاؤل باكتمال الحب بين الطرفين. لكن دانتي، في النشيد الخامس من الجحيم، يلتقي بباولو الذي عشق فرانشيسكا زوجة أخيه أثناء قراءتهما – في الحياة الدنيا – لكتاب ما شبّهه دانتي بغاليوتو مستنداً إلى شعبيته الواسعة، كرابط غرامي يصل بين العاشقين. وهنا نرى زينو يشير إلى قصة دانتي مشبّهاً منهاج الغناء بالكتاب الذي قرأه باولو وفرانشيسكا بجو حميمي، فأودى بهما في الخطيئة فالجحيم والعذاب الأبدي. المترجم.

صغيرة وكبيرة في ذلك المنزل، فويل لهما إن تجرأا على شراء بعض الحاجيات قبل أن تأخذا إذنه! أصيبت والدتها قبل وقت قصير بوعكة صحية، فأجبرت أن تتجاهل الغناء لبضعة أيام لتهتم بالأعمال المنزلية. وعندما علم إنريكو بذلك من الأستاذ، جاء يستعرض قوّته، ثم خرج مصرّحاً أنه لم يعد مضطرّاً أن يلزم سادة المجتمع على إعانتهما. فعاشا لأيام عديدة بالخوف أن يُتركا وحيدتين لمصيرهما. ثم عاد ليجدد العهود والمواثيق، فحدّد لكارلا بدقّة كم من الساعات عليها أن تجلس على البيانو، وكم من الساعات عليها أن تتفرغ لأمور المنزل. وهدّد بالمجيء على حين غرّة في أيّ ساعة من النهار.

- طبعاً! - ختمت الفتاة - لا يتمنى لنا إلاّ كل خير، لكنه يسخط لأمور في غاية التفاهة، وقد يرمي بنا في أية لحظة خارج المنزل إذا غضب. ولكن بعد أن أصبحت الآن تعتني بأمرنا لم يعد هناك أي خطر علينا. أليس كذلك؟

وشدّت على يدي ثانية. وبما أنني لم أجبها بسرعة، خشيت أن أصطفّ إلى جانب إنريكو فأضافت:

- حتى السيد كوبلر يقول إنك رجل طيب جداً!..

كانت هذه الجملة بمثابة مجاملة مباشرة لي، ولكنها استلطاف مبطّن للسيد كوبلر أيضاً الذي ظهر بكلماتها كالشرّ المطلق. ولم أكن رأيته هكذا من قبل، فأعجبتُ به. جعلت مني الشهوة التي حملتني إليها شخصاً طيّباً بينما كان عليّ أن أتشبّه به!.. فالحقيقة أنه كان يحمل إليهما من أموال الآخرين، ولكنه فعل كل ما بوسعه لتصبحا جزءاً من حياته. وما ذاك الغضب الذي أظهره لهما إلاّ أبوياً حقاً. لكني فكرت في أمر محيّر: ترى هل دفعته الشهوة لفعل ذلك؟ فسألت كارلا دون تردد:

- ألم يطلب إنريكو قبلة منك؟

twitter @baghdad_library

– أبداً ! – أجابت بانفعال – عندما يكون مسروراً مني يمنحني رضاه بفجاجة فيشدّ على يدي الناعمة وينصرف. أما في ساعات غضبه، يرفض حتى أن يشدّ على يدي ولا ينتبه أني من شدة الهلع أبكي..

قد تكون القبلة مخرجاً جيداً في لحظة كتلك. ضحكت، فاضطرّت للشرح أفضل:

– لن أرفض قبلة رجل عجوز أعترف بفضله عليّ!..

هذه ميزة المرضى الحقيقيين، يبدون أكبر من أعمارهم.

قمت بمحاولة فاشلة بالتشبّه بصديقي. فابتسمت كي لا أفزع المسكينة كثيراً، وقلت لها: (إنني عندما أعتني بأحدهم أصبح ولياً لأمره أيضاً). أرى أنك عندما تدرس أحد الفنون عليك أن تتقنه بجدية. فقمت بهذا الدور جيداً حتى انمحت الابتسامة عن وجهي. كان إنريكو محقّاً بحزمه مع فتاة لا تدرك قيمة الوقت، فعليها أن تتذكر كم من الأشخاص ضحّوا لمساعدتها. أصبحت جدياً وصارماً حقاً!

حان موعد الغداء، وكنت أود الانصراف خاصةً أني لم أرغب في جعل أوغوستا تنتظر كثيراً. مددت يدي إلى كارلا ورأيت كم كانت شاحبة، فأردت أن أواسيها:

– كوني على ثقة أنني سأفعل ما بوسعي لأدافع عنك، عند إنريكو كوبلر والآخرين جميعهم!

شكرتني على لطفي، وكانت تبدو منهارة رغم ذلك. لقد شعرتْ بغرامي ونجاتها الحتمية حينما رأتني أدخل إليها. أما حينما خرجت ظنّت أني مولع بالطرب كصديقي، وقد أتركها تواجه مصيرها وحدها إن لم ترتق بالغناء جيداً.

بدت لي منهارة للغاية، وتأثرت لرؤيتها هكذا. ونظراً لعدم وجود

وقت أهدره، طمأنتها بطريقة فعّالة كانت بأمسّ الحاجة إليها. أغلقت الباب ثانية، وأبعدت بأنفي جديلتها الثخينة عن رقبتها حتى لمستها بشفتي وأسناني أيضاً. حسبتني أمازحها، فابتسمت حين تركتها. وظلّت منتصبة مذهولة بين ذراعي أثناء المزحة. فتبعتني إلى البهو، وسألتني ضاحكة عندما بدأت نزول الدرج:

- متى تعود؟..

- غداً أو ربما بعد قليل! - أجبت مرتبكاً، ثم قلت واثقاً: - سآتي غداً بالتأكيد!.. - ولأنني رغبت بأن لا أتورط كثيراً أضفت: - سنتابع قراءة المنهاج.

ولم تغيّر شيئاً من تعبيرها خلال ذلك الزمن الوجيز: فكانت تضحك موافقة على وعدي الأول المرتبك، وعلى وعدي الثاني، بل وحتى على وعدي الثالث. فالنساء يعرفن تماماً ما الذي يرغبن به. لم ترتبك آدا أبداً حين رفضتني، ولم ترتبك أوغوستا التي قبلت بي، ولا حتى كارلا التي تركتني أقوم باللازم.

في الشارع وجدت نفسي أقرب إلى أوغوستا من كارلا. استنشقت هواءً منعشاً وشعرت بحريتي الطليقة. فأنا لم أقم إلا بدعابة لن تفقد من صفتها شيئاً لأنها انتهت على عنقها وتحت جديلتها. وفي النهاية تقبّلت كارلا تلك القبلة كعهد للعون والحنان على وجه الخصوص.

ولكنني بدأت أتألم في ذلك اليوم على الطاولة، فكانت مغامرتي تقع كظلّ داكن بين أوغوستا وبيني، ومن المستحيل أنها لم تره. شعرت أني مذنب دنيء ومريض، وكنت أشعر بوجع في جانبي يرتدّ كألم خفيف من الجرح العظيم الذي في ضميري. وبينما كنت أتظاهر بتناول الطعام بشرود، بحثت عما يريحني بقرار حازم: (لن أراها بعد اليوم، - فكرت - وإن كان لابد أن أراها فستكون للمرة الأخيرة). لم أكن أتوقع من

twitter @baghdad_library

نفسي أكثر من جهد بسيط، وهو أن لا أرى كارلا ثانية.

سألتني أوغوستا ضاحكة:

– أكنت عند أوليفي لأراك مشوّشاً هكذا؟!..

فضحكت بارتياح. فقد كانت القدرة على الكلام راحة نفسية بحدّ ذاتها. وليست الكلمات ما يمنح السكينة، لأنني لو تفوهت بشيء لكان عليّ الاعتراف بكل شيء والتعهد بعدم تكراره. رأيت في قول كلمات أخرى راحة نفسية حقيقية، وعثرت على ما هو أفضل. تحدثت بسعادة وطيبة عن الغسالة التي كانت ترغب باقتنائها وكنت رافضاً لها حتى تلك اللحظة. فرحت زوجتي بموافقتي المتأخرة ونهضت لتقبّلني. فكانت قبلتها هنا تمحو قبلتي هناك، لذا شعرت بحال أفضل.

وهكذا اشترينا تلك الغسالة، وعندما أمرّ بجانبها حتى هذا اليوم أتذكر أنّ أوغوستا أرادتها وكارلا وافقت عليها. وتابعنا ظهيرة ساحرة مليئة بالودّ. لكن ضميري كان يعذّبني عندما أختلي بنفسي، فتأتي أوغوستا لتهدّأ من روعي الخفيّ بكلماتها وحنانها. خرجنا معاً، ثم اصطحبتها إلى أمها وقضيت طيلة المساء معها.

وقبل أن أنام فعلت ما أقوم به غالباً، وهو النظر طويلاً إلى زوجتي التي تنام بهدوء وأنفاس خافتة. كانت منظمة حتى في نومها، فاللحاف يغطيها حتى ذقنها، وشعرها معصوب بضفيرة واحدة مربوطة تحت رقبتها. ففكرت: (لن أسبّب لها المتاعب أبداً!). ونمت بهدوء. وفي اليوم التالي كنت سأعترف لها بعلاقتي مع كارلا، وسأجد طريقة لطمأنة البنت المسكينة على مستقبلها دون أن أضطرّ لتقبيلها.

رأيت حلماً غريباً: لم أكن أقبّل عنق كارلا فحسب، بل كنت أنهشه.. ولم يكن عنقها ينزف من الجروح التي تسبّبت بها شهوتي الجامحة، بل كان ناصع البياض ومقوّساً كما كان في الواقع. ولم تتألم

الفتاة - كما يبدو - من خدوشـي وهي مسـتلقية بين ذراعي. من كانت تتألم هي أوغوستا التي دخلت بغتة، فقلت لكي أطمأنها: (لن آكل رقبتها كلها، سأترك لك جزءاً منها).

ولم يصبح الحلم كابوساً إلاّ عندما استيقظت في منتصف الليل وقد استطاع ذهني المتيقظ أن يتذكره. أما قبل ذلك فكان يشعرني بالسعادة التي لم تختفِ بدخول أوغوستا. وما إن استيقظت حتى أدركت حجم شهوتي والخطر الذي يلوح في آفاق أوغوستا وآفاقي أيضاً. ربما ثمّة حياة جديدة تبدأ في رحم امرأة تنام بقربي، وعليَّ أن أكون مسـؤولاً عنها. فما الذي تنتظره كارلا إن أصبحت عشيقتي؟ ربمـا ترغـب بتلك اللـذّة الصباحية. وكيف كنت سأتدبّر أمر عائلتين؟.. أوغوستا طلبت غسالة مفيدة، والأخرى قد تطلب شـيئاً آخر لا يقلّ ثمناً. تذكرت كارلا عندما كانت تودعني في البهو ضاحكة بعد أن قبّلتها. كانت تعرف مسبقاً أني فريستها، فخفت كثيراً ولم أتمكن من إخفاء تنهدي في تلك الليلة المظلمة..

اسـتيقظت زوجتي حالاً لتسـأل ما الخطب.. فأجبتها بجملة وجيزة خطرت في ذهني حين خفت من رؤيتي مستجوباً في لحظة كلحظة اعتراف:

- أفكر في الشيخوخة المبكرة!...

فضحكت وحاولت أن تهدَئني دون أن تترك النعاس يفوتها. وجّهت لـي تلـك الجملـة التـي اعتـادت علـى قولها حين تراني خائفاً من الأيام التي تركض بعيداً:

- لا تفكّر في الأمر الآن ونحن ما نزال شباناً.... إنّ النوم مفيد للغاية!..

أفادتني نصيحتها، فلم أفكر في الأمر ونمت على الفور. إنّ الكلمة في الليل تشبه شعاع النور، تضيء جزءاً من الحقيقة ليبدّد صروح الخيال في المقابل. لماذا كنت أخشى كارلا الطيبة وهي لم تكن عشيقتي بعد؟

twitter @baghdad_library

من الواضح أني فعلت ما بوسعي لأفزع من الوضع الذي كنت فيه. وفي النهاية لم يكن الطفل الذي تخيلته في رحم أوغوستا قد أعطى علامة على الحياة سوى شراء تلك الغسالة.

استيقظت مصحوباً بالقرارات الصائبة. هرعت إلى مكتبي، ووضعت بعض المال في أحد الظروف لأعطيه لكارلا، وألمّح لها بأني سأهجرها وأني مستعدّ لإرسال النقود عبر البريد كلما احتاجت إليه، إن كتبت لي رسالة إلى أحد عناويني التي سأعلمها بها. وما إن تهيأت للخروج حتى دعتني أوغوستا لاصطحابها إلى بيت أهلها، إذ كان قد وصل والد غويدو من بوينوس إيريس ليحضر حفل الزفاف، وعلينا أن نتعرف عليه. كانت مهتمة بي أكثر بكثير من والد غويدو، وأرادت أن تجدد حيوية اليوم الفائت. لكن الأمر لم يعد مماثلاً، وبدا لي غير صائب أن أهدر وقتي بين قراري الحكيم وتنفيذه. فعندما كنا نمشي واحداً بجانب الآخر، واثقين من مودتنا كما يظهر، كانت الأخرى تعتقد أنني أحبها. تباً، شعرت أنّ تلك النزهة عذاب حقيقيّ.

وجدنا جوفاني بصحة جيدة حقاً، سوى أنه لم يكن يستطيع ارتداء نعليه لأنّ قدميه انتفختا قليلاً بشكل لم يعطه أحد أهمية. كان جالساً في الصالة مع والد غويدو الذي قدّمني إليه، فتركتنا أوغوستا وذهبت مهرولة إلى أمها وأختها.

بدا لي السيد فرانشيسكو سبيير أقل ثقافة من ابنه، مكتنزاً وقصير القامة بعمر يقارب الستين. كانت أفكاره قليلة ونشاطه معدوم، ربما لأنه أصيب بمرض أضعف له سمعه. كان يتفوّه بكلمات إسبانية في حديثه الإيطالي. تحدّث العجوزان عن الأعمال، وأصغى جوفاني بانتباه لأنّ تلك الأعمال ستكون مهمة في مصير ابنته آدا، فجلست أنصت إليهما بشرود. سمعت أنّ العجوز سبيير قرر تصفية مشاريعه في الأرجنتين

ليسلّم كل ثروته إلى غويدو الذي عزم على إنشاء شركة تجارية في تريستا. ثم يعود إلى بوينوس آيريس ليعيش مع زوجته وابنته في قطعة أرض صغيرة مما تبقّى له من أملاكه. لم أفهم لمَ كان يروي لجوفاني كلّ هذا في حضوري، ولا أفهمه حتى الآن..

بدا لي أنهما توقفا عن الحديث معاً لينظرا إليَّ كأنهما ينتظران مني نصيحة ما، فقلت لأظهر لطيفاً:

- وهل ستكفيك قطعة الأرض الصغيرة في إعالتك؟

فصرخ جوفاني حالاً:

- ما الذي تقوله أنت؟!..

كان انفجار صوته هكذا يذكّر بزمنه الجميل، ولو لم يصرخ بحدّة لما أعار السيد فرانشسكو انتباهاً لسؤالي. شحب وجهه وقال:

- آمل أن لا يتأخر غويدو في إرسال فوائد رأس المال.

فصرخ جوفاني أكثر ساعياً أن يطمئنه:

- وأي فوائد!.. بل سيعطيك الضعف إذا احتجت!.. أليس بنجلك؟..

ورغم هذا لم يبدُ السيد فرانشسكو مطمئناً، وكان ينتظر مني بالضبط كلمة تطمئنه. فأعطيته إياها مباشرة وثقيلة، لأنّ العجوز كان يسمع أقل من السابق.

استمرّ الحديث بين رجلي الأعمال، وحاولت أن لا أتمادى في تجاوز حدودي. وكان جوفاني ينظر إليَّ بين الفينة والأخرى ويهدّدني بأنفاسه الثقيلة. تحدّث طويلاً ثم سألني في لحظة معينة:

- أليس صحيحاً؟!..

فوافقته بحماس، وكان على الحماس أن يطغى على موافقتي لدرجة أن تبدو كل تصرفاتي تعبيرية بسبب الغثيان الذي اجتاحني. ما الذي

twitter @baghdad_library

كنت أفعله في ذلك المكان تاركاً وقتي الثمين يضيع على حساب تنفيذ قراراتي الحاسمة؟ كانوا يجبرونني على إضاعة أمر مفيد جداً بالنسبة لي ولزوجتي!.. كنت أجهّز حجة لأنصرف، لكن الصالة امتلأت بالنساء يحطن بغويدو الذي اشترى لآدا خاتماً رائعاً إبان وصول والده. لم يلحظ أحد وجودي، حتى الطفلة آنّا لم ترحّب بي. وكانت آدا تضع ذاك الخاتم اللامع في يدها، وتريه لحميّها بعد أن أسندت ساعدها على كتف خطيبها. حتى النسوة كنّ ينظرن بافتتان. لم تكن الخواتم تهمني، فأنا لا أحمل خاتم زواجي لأنه يعيق دورتي الدموية!.. ودون أن أودّع أحداً خرجت من باب الصالة إلى باب المنزل، مستعداً للهروب. لكن زوجتي رأتني، ووصلت إليَّ في الوقت المناسب. استغربت من هيئتها المرتبكة. فكانت شفتاها شاحبتين كما في يوم زفافنا قبيل دخولنا إلى الكنيسة. تذرّعتُ ببعض الأعمال المستعجلة. وبما أنني كنت في مزاج عال، تذكرت أنني اشتريت قبل أيام نظارات خفيفة لبعد النظر، هكذا دونما سبب، ولم أجربّها بعد وضعها في جيب السترة؛ فقلت إنّ لديَّ موعد مع طبيب العيون لأفحص نظري الذي أشعر بضعفه منذ وقت قصير. فأجابتني أنه بوسعي الذهاب مباشرة، لكنها رجتني أن أهنّئ والد غويدو قبل أن أخرج. فتأفّفت لشدة الانزعاج، وأرضيتها رغم ذلك. عدت إلى الصالة حيث رحّب بي الجميع باحترام، أما أنا كنت واثقاً أنهم يريدون أن أكون بعيداً عنهم، ورغم هذا ما زلت بمزاج عال. سألني والد غويدو الذي لم يدرك شيئاً في تلك الجلبة:

– هلاّ تقابلنا قبل أن أنطلق إلى بوينوس آيريس؟..

– آه! – قلت له – سنتقابل كلما أتيت إلى هنا على الأرجح!

فضحك الجميع وغادرت منتشياً بالنصر ومصحوباً بوداع سعيد من أوغوستا. ومشيت بخطى واثقة، بعد أن شاركت بكل الرسميات

قبل خروجي. وكان هناك دافع آخر ليخلّصني من تلك الوساوس التي هاجمتني حينها، فكنت أذهب بعيداً عن بيت عمي لأبتعد عنه أكثر ما يمكن، أي حتى بيت كارلا. ففي بيت حميّ بدا أنّ الجميع يظنون آثمين بأني كنت أتآمر على غويدو، ولم تكن تلك المرّة الأولى. إنني تحدثت عن قطعة الأرض في الأرجنتين ببراءة وشرود كامل، لكن جوفاني فسّر كلامي كفتنة بين غويدو ووالده. ومن السهل أن أوضّح الأمور لنسيبي، إن اقتضى الأمر. ويكفي أن أنتقم من جوفاني وعائلته، الذين يرونني مجرّد دسّاس. ولئن كنت قد قررت أن أخون أوغوستا، إلا أني كنت أفعل ما أرغب به تحت ضوء الشمس. فزيارة كارلا لم تكن تحمل أي ضرر حينها، بل لو صادفت حماتي مرة ثانية في تلك النواحي، ولو سألتني عما أفعله هناك، لما توانيت في الإجابة:

- أيتها الجميلة! أنا ذاهب عند كارلا!.. - فكانت تلك المرة الوحيدة التي أذهب فيها إلى كارلا دون أن أفكر بأوغوستا لأن تصرفات أبيها أهانتني كثيراً!

لم أسمع صدى صوتها في البهو، ففزعت لوهلة. هل خرجت؟ طرقت الباب ودخلت على الفور قبل أن يأذن لي أحد بذلك. كانت كارلا موجودة هناك، لكنها تساعد أمها في الطهو بطريقة اعتيادية لم أرَ مثيلاً لها من قبل. كانتا تنظفّان الغطاء على الأرض وثمّة مسافة كبيرة بينهما. ها قد وصلت إلى كارلا لأجدها برفقة أمها. كان شيئاً مروعاً حقاً!.. فلم يكن بوسعي تنفيذ القرارات الطيبة ولا حتى الشريرة. سيبقى كل شيء معلقًا إلى حين.

نهضت كارلا بحماس شديد. بينما وضعت أمها نظارتيها، اللتين كانتا في إحدى الأكياس، ببطء. ظننت أني سأكون ناقماً لسبب آخر إن لم يكن ممنوعاً توضيح مشاعري بسرعة. أليس هذا الوقت الذي يفرّغه

twitter @baghdad_library

إنريكو لقراءته؟ حييّت السيدة العجوز باحترام، وكان صعباً أن أخضع لصيغة الاحترام تلك. وحييّت كارلا أيضاً دون النظر إليها، وقلت لها:

- أتيت لنرى إن كنا نستطيع قراءة شيء جديد ومفيد من هذا الكتاب. - أومأت إلى المنهاج الموجود على الطاولة، حيث تركناه في المرة السابقة، ولم يمسسه أحد.

وجلست في المكان نفسه الذي جلست عليه في اليوم الفائت، وفتحت الكتاب مباشرة. حاولت كارلا أولاً أن تبتسم لي، فانصاعت لأوامري لأني لم أبادلها البسمة، وجلست تنظر إلى الكتاب. وكانت مرتبكة لا تستوعب شيئاً. نظرت إليها فرأيت ملامح الغيظ والإكراه ترتسم على وجهها، كأنها تستعدّ لمواجهة إنريكو الساخط. لكنها لم تكن واثقة بعد من أنّ تأنيبي يشبه توبيخ إنريكو كثيراً لأنها كانت تذكر - كما قالت لي لاحقاً - أنني في اليوم الفائت قبّلتها فظنّت أنها ستنجو من غضبي، لذا حوّلت غيظها هذا إلى ابتسامة ودودة. وعليّ القول هنا قبل أن يدركني الوقت إنّ ثقتها في ترويضي مسبقاً، عبر تلك القبلة التي سمحت لي بها، آلمتني كثيراً. فالمرأة التي تفكر بهذه الطريقة تعدّ خطيرة جداً. ولكني عشت حالة إنريكو ذاتها حينذاك، فكنت مليئاً باللوم والغلّ.

بدأت أقرأ المقطع الذي قرأته في اليوم الماضي بصوت مرتفع، والذي أفسدته بنفسي من باب الحذلقة عندما ركّزت في بعض الكلمات التي بدت أكثر أهمية من غيرها دون التعليق على الأشياء المهمة حقاً. فقاطعتني بصوت مرتجف:

- يبدو لي أننا قرأنا هذا البارحة!..

فاضطررت أخيراً أن أقول شيئاً من عندي. قد تمنح الكلمة الصحّة أحياناً، فكلماتي كانت أكثر لطفاً من روحي وسلوكي، بل قادتني إلى الحياة الاجتماعية:

– انظري آنستي – ورافقت صيغة النداء بتملّق مبتسماً كعاشق – إنني أرغب في مراجعة هذا الجزء قبل أن نتقدم أكثر فربما قرأناه البارحة على عجل. وقد قال لي أحد الأصدقاء منذ قليل إننا، إذا أردنا أن نفهم كل ما يقوله غارشا، علينا دراسة منهاجه كاملاً.

شعرت بعدها بالحاجة إلى النظر قليلاً إلى السيدة المسكينة التي من المؤكد أنها لم تجد نفسها يوماً في موقف أصعب من هذا طوال حياتها وفي أكثر لحظاتها سعادة. أرسلت إليها ابتسامة أرهقتني أكثر من تلك التي أهديتها إلى ابنتها:

– هذا الأمر ليس مسلياً كثيراً، لكنه قد يعود بالنفع لمن لا يفقه شيئاً في الغناء أيضاً..

تابعت القراءة مكرهاً. وكانت حالة الفتاة تتحسن دون شك، إذ ارتسمت على شفتيها المليئين ما يشبه الابتسامة. أما العجوز فكانت تبدو كحيوان مسكين وقع في الصيد، لأنها تجلس معنا من شدة خجلها الذي يمنعها من إيجاد حجة تتذرع بها لتنصرف. ولم أكن لأكشف عن رغبتي في رميها خارج تلك الغرفة، فهذا تصرّف خطير وأهوج.

أما كارلا فكانت أكثر حزماً. طلبت مني بصرامة التوقف عن القراءة قليلاً، واستدارت إلى أمها وأذنت لها بالانصراف، ما دام تنظيف الغطاء يمكن أن يؤجّل إلى وقت الظهيرة. اقتربت السيدة مني، وكنت مرتبكاً في مدّ يدي إليها، لكني مددتها وشددت عليها بودّ مفرط قائلاً:

– أفهم أنّ هذه القراءة ليست ممتعة!

بدوت حزيناً لأنها ستتركنا وشأننا. خرجت بعد أن وضعت الغطاء على الكرسي، وكان في حضنها حتى تلك اللحظة. وتبعتها كارلا لوهلة حتى البهو لتخبرها بشيء ما، بينما كنت أتحرّق شوقاً لرؤيتها بقربي

twitter @baghdad_library

مجدداً. ثم عادت وأغلقت الباب من ورائها، وارتسمت ملامح غضب الأطفال على وجهها أثناء عودتها إلى مكانها. وقالت:

- إنني أدرس كل يوم في هذه الساعة، توجّب عليّ اليوم أن أقوم بتلك الأعمال الطارئة!..
- ألا ترين أنّ غنائك لا يعنيني بشيء؟!.. - صرخت وأمسكتها بذراع عنيف جعلني أقبّلها من فمها، ثم من المكان نفسه الذي قبّلته أول مرة.

ياللغرابة!.. انهمر الدمع من عينيها وابتعدت عني. وقالت باكية إنها تألمت كثيراً لرؤيتي أدخل بتلك الطريقة. كانت تبكي بدافع الشفقة الذاتية المعتادة التي تصيب من يذكر آلامه فيبكي عليها. وبكت لأجل قصتها وليس لأجل آلامها؛ فنحن نبكي عندما نصرخ في وجه الظلم. وكان من الظلم حقاً أن أجبر تلك الفتاة الحسناء على الدراسة حينما أستطيع تقبيلها!

أخذت الأمور طابعاً أسوأ مما توقعت. كان لابدّ أن أفسّر ما قلت، ولم أحظ بالوقت الكافي لابتداع الأكاذيب، فقلت لها الحقيقة. أخبرتها عن نفاد صبري بانتظار رؤيتها وتقبيلها. وكنت قد قررت أن آتي إليها في ساعة مبكرة، لأقضي الوقت كله حتى الليل معتمداً على ذلك القرار. ولم أستطع بالطبع أن أقول ما الذي نويت فعله بالمجيء إليها، ولكن هذا لم يعد له أهمية تذكر. فكان نفاد الصبر نفسه عندما أردت الذهاب إليها لأقول إني سأتركها إلى الأبد، وعندما كنت أسرع لآخذها بين ذراعي. ثم رويت لها أحداث الصباح وكيف أجبرتني زوجتي على الخروج معها لتقودني إلى حميّ حيث جلست كأني مشلول أصغي إلى نقاشات الأعمال التي لا تخصّني بشيء، وكيف نجحت بصعوبة بالتملص من كل ذاك في النهاية لأقوم بمسيرة طويلة بخطى سريعة كي أصل لأرى

الغرفة محتلة من قبل ذلك الغطاء!

فانفجرت كارلا ضاحكة لأنها أدركت أني لا أشبه إنريكو قطعاً. وكان الضحك على وجهها الجميل يبدو كقوس قزح ما لبثت أقبّله. لم توقف مداعبتي، بل خضعت لها بإذعان. أعبد هذا السلوك لأني أعشق الجنس الضعيف عندما ينسجم مع ضعفه مباشرة. وأخبرتني للمرة الأولى أنها عرفت كم أحبّ زوجتي عن طريق إنريكو:

- لذا لا يمكن أن يكون بيننا إلاّ الصداقة الودية، وليس أكثر من ذلك.

رأيت ظلاً لقرار جديّ يخيّم على وجهها الجميل. ولم أصدقّ قرارها الحكيم لأنّ ثغرها ما لبث يقبّل ثغري.

وتحدثت كارلا مطولاً. كانت تريد أن تبعث فيَّ الشفقة بالطبع. أذكر جيداً كل ما أدلت به وصدّقته بعد أن اختفت من حياتي. فعندما كانت معي، كنت أراها دائماً كامرأة ستستغلّ سيطرتها عليَّ عاجلاً أم آجلاً لتخرّب حياتي وحياة عائلتي. لم أصدّقها عندما أكّدت أنها لا تطلب شيئاً سوى أن تكون واثقة من حياة كريمة لها ولأمها. أما الآن فإنني على يقين أنها لم تنوِ يوماً الحصول على أكثر مما كانت تحتاج إليه. وعندما أفكر فيها أخجل من نفسي لأنني أسأت فهمها وحبها كثيراً. فالمسكينة لم تحصل مني على شيء. وكنت سأعطيها كل ما تريد لأني رجل يفي ديونه، لكني انتظرت أن تطالبني بها.

روت لي كيف كانت حالتها يائسة عندما توفيّ والدها، فأجبرتها والدتها على العمل لأشهر طويلة صباح مساء في التطريز الذي أوكله إليهما أحد التجّار. كانت تؤمن ببراءة أنّ العون سيأتيها من العناية الإلهية، فتقضي بعض الوقت على النافذة تنظر إلى أيّ طريق تسلك. ثمّ جاء إنريكو. كانت تقول إنها راضية بوضعها، بينما تمضي ليال عصيبة مع

twitter @baghdad_library

أمها لأنّ وضع المساعدة كان مزعزعاً. فإن مرَّ يوم لم يكن فيه صوتها جيداً أو لم تتحسن فيه موهبتها، كان إنريكو سيهجرها. ثم كان يؤكد أنه سيظهرها على أحد المسارح منذ ذلك الحين حتى أشهر قليلة ماضية، فماذا لو ارتكبت خطأً فادحاً على الخشبة؟!.. وظلّت تحاول إيقاظ شفقتي، فأخبرتني أنّ وضعها المادي المتدهور قد خرّب عليها حلماً غرامياً، فخطيبها تركها أيضاً. قلت لها، مبتعداً عن الشفقة تماماً:

– ينبغي أن يكون خطيبك قد قبّلك كثيراً!.. فماذا أفعل أنا؟!..

ضحكتْ لأنني كنت أمنعها عن الحديث، فلقد وجدت رجلاً يدلّني على الطريق.

وبما أني لم أتغدى في المنزل منذ وقت طويل، كان عليّ المغادرة مكتفياً بما فعلناه. ولم أشعر أبداً بالندم الذي حرمني النوم في الليلة الماضية، واختفى التوجس الذي راودني بخصوص كارلا نهائياً، ورغم هذا لم أكن مطمئناً. ربما كان قدري أن لا أنعم بالطمأنينة أبداً. ولم أندم، فالفتاة ستسمح لي بتقبيلها باسم الصداقة التي لا تسيء لأوغوستا، كأنني اكتشفت سبب الاستياء الذي اعتاد على تحريض الأوجاع الغامضة في جسدي. فكارلا كانت تراني في ضوء مزيّف! وكارلا كان بوسعها أن تحتقرني لرؤيتي تواقاً لتقبيلها بينما كنت أعشق أوغوستا! وكارلا نفسها كانت تسعى لتنال إعجابي لأنها بأمسّ الحاجة إليَّ!

قررت أن أجعلها تعجب بي فقلت كلمات لابدَّ أنها آلمتني كتذكر جريمة خسيسة، كخيانة مرتكبة باختيار حرّ ليس لها ضرورة وليس من ورائها طائل. كدت أن أصل إلى الباب عندما قلت لها بمظهر شخص لطيف يعترف رغماً عن أنفه:

– أخبرك السيد كوبلر بالحب الذي أكنّه لزوجتي! حقاً.. إنني معجب بزوجتي كثيراً..

ثـم رويـت عليهـا قصـة زواجـي بالتفصيـل، وكيـف أغرمت بأخت أوغوستا التي رفضتني لأنها تحب شخصاً آخر، ثم حاولت الزواج بأختها الثانية التي رفضتني هي الأخرى، حتى وصلت إلى الزواج بأوغوستا.

صدّقت تلك القصة فوراً، وأخبرتني أنّ إنريكو كان يعلم شيئاً منها وأخبرها بتفاصيل ليست كلها حقيقية، فأكّدتُ بعضها وصحّحت بعضها الآخر.

– هل زوجتك جميلة؟!.. – سألتني بتأمّل.

– حسب الأذواق.. – أجبت.

كان هناك عائق مهم ما زال يجول في داخلي. لقد قلت إنني معجب بزوجتي فقط لكني لم أقل أبداً إنني لا أحبها. شعرت أني صادق للغاية حينها، والآن أعلم أني خنت بتلك الكلمات كلتيهما والحب كلّه، حبي لهما وحبهما لي.

والحق يقال إنني لم أكن قد هدأت بعد، فكان ينقصني شيء آخر. تذكرت الظرف وما يحمل من اقتراحات جيدة، وأعطيته لكارلا. فتحته وأرجعته لي قائلة إنها استلمت معاشـها الشـهري من السـيد كوبلر منذ أيام قليلة، ولم تكن بحاجة إلى النقود حينئذٍ. فازددت اضطراباً بسـبب فكرة قديمة كنت قد تخيلتها، وهي أنّ النساء الخطيرات لا يقبلن بالمال القليـل. تكهّنـت كارلا بأفـكاري الشـريرة وطلبـت مني، بسـذاجة رقيقة، أقدّرهـا الآن عندمـا أكتـب عنهـا، بعـض الكرونـات التي ستسـاعدها في شراء بعض الصحون بعد أن وقعت حادثة في المطبخ.

وبعد ذلك وقع أمر ترك أثراً لا يمحى من ذاكرتي. قبّلتها في لحظة انصرافي، وتجاوبت معي بشدّة هذه المرة. فالسمّ الذي أتيت به أعطى نتيجة حسنة. إذ قالت لي ببراءة:

– إنني أعزّك لأنك رجل طيّب لم يفسدك الثراء.

twitter @baghdad_library

ثم أضافت بمكر:

– أعرف الآن أنه لا ينبغي أن أجعلك تنتظر أكثر. ولا يوجد معك أيّ مخاطرة.

وفي البهو سألتني:

– هل بوسعي أن أرسل أستاذ الغناء والسيد كوبلر إلى الجحيم؟..

فأجبتها وأنا أنزل الدرج بسرعة:

– سوف نرى!..

وهكذا بقيت بعض الأمور معلّقة في علاقتنا، أما باقي ما تبقّى فكان موطداً بكل وضوح.

عندما خرجت إلى الهواء الطلق تعكّر صفوي، فتحركت مرتبكاً في الجهة المغايرة لجهة منزلي. كدت أشعر برغبة في العودة حالاً إلى كارلا لأشرح لها أمراً مهماً: وهو حبي لأوغوستا. وكان هذا بوسعي طالما أني لم أعبّر عن عدم حبي لها. نسيت ذكر حبي لزوجتي كخاتمة لتلك القصة الحقيقية التي رويتها. وكانت الفتاة قد استجابت لقبلاتي بحماس شديد، ملمّحة بحبها لي، لأنها استنتجت أني لا أحبّ زوجتي. وتخيلتُ أني إن لم أصرّح بحبي لن أتحمّل نظرات زوجتي الصادقة. وقد كنت سعيداً منذ قليل عندما عرفت كارلا بحبي لزوجتي، وأنها ستقرر أن تكون مغامرتنا على شكل صداقة مميّزة بالقبلات.

جلست في الحديقة العامة على مقعد، وسجّلت بشرود بواسطة العصا على الرمل تاريخ ذلك اليوم. ثم ضحكت بمرارة، لأني كنت أعلم أنّ ذلك التاريخ لم يسجّل نهاية الخيانة، بل بدايتها. من أين سأجد القوة التي تمنعني من عدم العودة إلى تلك المرأة الشهية التي تنتظرني؟!.. ثم إنني استلمت المهام... مهام الشرف! فقد حصلت على القبل بدفع قيمة بعض الصحون. ما يربطني بكارلا كان حساباً مفتوحاً بالفعل.

كان الغداء كئيباً. لم تسألني أوغوستا عن أسباب غيابي، ولم أقل لها شيئاً. كنت خائفاً من البوح بشيء. إذ تملكتني فكرة في سيري القصير من الحديقة إلى المنزل أن أخبر زوجتي بكل شيء، فتكون قصة خيانتي مكتوبة على وجهي الصادق. كانت هذه الطريقة الوحيدة لإنقاذي. فإن أخبرتها بكل شيء كنت سأخضع لعنايتها وسيطرتها. وسيتحول تاريخ ذلك اليوم إلى مباشرة الصدق والعافية بكل إخلاص.

تحدثنا عن أشياء مختلفة. حاولت أن أبدو سعيداً، لكني لم أنجح. فأنفاسها تضيق لأنها كانت تنتظر توضيحات لم تأت أبداً.

ثم ذهبت لتتابع عملها العظيم في وضع الألبسة الشتوية داخل خزانة خاصة. نظرت إليها خلال الظهيرة منهمكة في العمل هناك في عمق الممر الطويل تساعدها الخادمة. لم يكن ألمها العميق يمنعها عن نشاطها السليم.

كنت أمرّ مرتبكاً من غرفة النوم إلى الحمّام. أردت أن أناديها لأقول لها على الأقل إنني أحبها – هي البسيطة الساذجة! – فهذه الكلمة تكفيها. لكني تابعت التأمّل والتدخين. ومررت بمراحل عديدة طبعاً. ففي لحظة ما قطع نفاد صبري تلك الفضيلة بترقب اليوم التالي كي أرى كارلا. ربما كانت هذه الرغبة ملهمة من قرار صائب أيضاً. فالصعوبة القصوى تكمن في القدرة على تحمل المسؤولية والاستسلام للواجب الذي سيساعدني كثيراً على الاعتراف. بقيت كارلا إذن، والتي كنت سأقسم على شفتيها بقبلة أخيرة! ومن كانت كارلا؟!.. لم يكن حتى الابتزاز خطراً عظيماً أواجهه على يديها! ففي اليوم التالي ستصبح عشيقتي، ومن يعلم ما تبعات ذلك! لقد عرفتها عن طريق إنريكو الأبله، مستنداً إلى بعض المعلومات التي أمدّني بها؛ وإنّ رجلاً أذكى مني، كأوليفي مثلاً، لم يكن ليقبل أن يعقد معه مشروعاً تجارياً على الأقل.

twitter @baghdad_library

كان النشاط الرائع لأوغوستا السليمة يتبدد من حولي. وكان العلاج القاسي الذي بادرت إليه بالزواج في رحلتي المضنية نحو العافية يفشل. فأنا مريض أكثر من ذي قبل، ومتزوج بأضراري وأضرار الآخرين.

لاحقاً، عندما أصبحت عشيق كارلا فعلياً، فكرت في ذلك اليوم الكئيب، ولم أفهم لماذا لم أتوقف بقرار حازم قبل أن أضع على عاتقي أموراً إضافية. لقد ندمت كثيراً على الخيانة قبل أن أرتكبها، وقد يظن البعض أنّ من السهل تجنبها. لكن السخرية من المنطق القادم ممكنة دائماً كما من المنطق السابق، لأنه لا ينفع بشيء. وفي تلك الساعات المضنية سجّلت، بالخطّ العريض، في القاموس، عند الحرف (C)، - أي كارلا - تاريخ ذلك اليوم بملاحظة: (الخيانة الأخيرة). لكن الخيانة الأولى الفعلية، التي ستفتح الباب أمام خيانات عديدة، كانت ستحدث في اليوم التالي.

تحمّمت في ساعة متأخرة! إذ لا شيء أفعله أفضل من ذلك. شعرت برائحة كريهة تنبعث من جسدي فرغبت بالاستحمام. وفكرت عندما كنت تحت الماء: (لكي أطهر نفسي عليّ أن أكون قادراً على الذوبان كلياً في هذه المياه). ثم لبست على مضض ولم أتنشف بعناية. غاب النهار وبقيت عند النافذة أنظر إلى أوراق الشجر الجديدة النضرة في حديقتي، فانتابني الارتعاش وظننت بسرور بالغ أن حرارتي سترتفع. فلم أرغب بالموت بل بالمرض... بمرض يمدّني بالذريعة لأفعل ما أريد أو أن يمنعني عن فعل ما أريد. وبعد أن ارتعشت لوقت طويل جاءت أوغوستا تبحث عني. وعندما رأيتها طيبة خالية من أي حقد، ازداد ارتعاشي حتى سمعت صكيك أسناني. أجبرتني مذعورة بالاستلقاء على السرير. وكانت أسناني ماتزال تصطكّ من البرد، ولكني عرفت مسبقاً أنّ حرارتي لم ترتفع، فمنعتها عن مناداة الطبيب. ورجوتها أن

تطفئ الضوء وتجلس بالقرب مني دون أن تتكلم. ولا أذكر كم من الوقت بقينا هكذا، حتى استرجعت حاجتي من الدفء وبعض الثقة في النفس. لكن ذهني ظلّ مشوشاً، فقد قلت إنني أعلم ما كان بي، عندما تحدثت ثانية عن استدعاء الطبيب، وسأخبرها به في وقت لاحق. فعدت إلى قرار الاعتراف، ولم يكن أمامي مخرج سواه كي أتخلص من ذلك الاضطهاد. بقينا صامتين هكذا لمدة أخرى، وانتبهت بعدئذٍ أنها نهضت من الديوان واقتربت مني أكثر. فخفت، ربما تكهنت بكل شيء. أخذت يدي ولامستها ثم وضعت يدها بلطف على رأسي لتقيس حرارتي، وقالت لي في النهاية:

– كان عليك أن تنتظر شيئاً كهذا! لماذا فوجئت هكذا بكثير من الألم؟!..

أذهلتني كلماتها الغريبة التي تصدر مع شهقات مذبوحة. كان واضحاً أنها لا تتحدث عن مغامرتي. فسألتها بحدّة معينة:

– ما الذي تريدين قوله؟!.. ما الذي كان عليّ أن أتوقعه؟

فغمغمت باضطراب:

– وصول والد غويدو ليحضر زفاف آدا...

وأخيراً فهمت. كانت تظن أني أتألم لزواج آدا الوشيك. بدا لي أنها تظلمني حقاً، فلم أكن مذنباً بجريمة كهذه. شعرت بنفسي نقياً وبريئاً كطفل، وتخلصت حالاً من الاضطهاد، وقفزت من السرير:

– أنت مجنونة! هل تظنين أني أتألم لزواج آدا؟!.. لم أعد أفكر بها منذ أن تزوجت بك.. ولم أتذكر حتى وصول ذاك السيد صباحاً!

فقبّلتها وعانقتها بشهوة آسرة، وكان انفعالي يغلب عليه الصدق حتى خجلت من نفسها على شكوكها. فكان وجهها جلياً من أية حيرة،

twitter @baghdad_library

وذهبنا بعدها جائعين إلى الطعام. جلسنا إلى تلك الطاولة كعاشقين في إجازة بعد أن كنا مكتئبين عليها للتوّ.

ذكّرتني أني وعدتها ببوح أسباب وعكتي. تظاهرت بأني مريض، ومصاب بمرض لابدَّ أن يجعلني قادراً على فعل ما يحلو لي دون أن أشعر بأي ذنب. فقلت إنني شعرت بالوهن العميق منذ مشاركتي لمجلس هذين العجوزين المريضين في الصباح، ثم ذهبت لأستلم نظارتي من طبيب العيون الذي وصفها لي. وربما أحبطتني دلالة الشيخوخة تلك، ومشيت في شوارع المدينة لساعات. ثم رويت بعض الخيالات المضنية، التي كانت تحتوي على مسوّدة اعتراف. وحدثتها أيضاً - برابط غامض مع المرض الوهمي - عن دمنا الذي يجول داخلنا، ليبقينا واقفين وقادرين على التفكير والفعل، وعلى الذنب والندم أيضاً. لم تفهم أني كنت بصدد التحدث عن كارلا، ويبدو أني قلت شيئاً من هذا.

وضعت النظارتين بعد العشاء، وتظاهرت مطولاً بقراءة الجريدة. ولكن تلك العدسات كانت تغبش عليَّ الرؤية، وشعرت بازدياد في اضطرابي اللذيذ كما لو كنت ثملاً. قلت لها إنني لا أتمكن من استيعاب ما أقرأه. لم أخلع قناع المريض إذن.

قضيت الليلة ساهراً بانتظار أن أعانق كارلا بشهوة كبيرة. كنت أرغب بها دون غيرها، تلك الفتاة بشعرها الكثيف المرسل وصوتها الموسيقي عندما لا تغني. لقد أحببتها بهيام بسبب كل ما عانيته لأجلها مسبقاً. وكان قراراً حازماً يشاركني السهرة، إذ وددت أن أكون صريحاً مع كارلا قبل أن تصبح ملكي، وكنت سأخبرها بحقيقة علاقتي بأوغوستا. وضحكت كثيراً في وحدتي، فكان رائعاً للغاية أن ترتبط بامرأة وفي فمك اعتراف بحب أخرى. ربما تعود كارلا إلى سلبيتها!.. وما الذي يترتب عليه؟.. حتى هذه اللحظة لم تبدِ تصرفاً قد يخفض من ثمن خضوعها

الذي أوشكتُ على التأكد منه.

وفي الصباح التالي، عندما كنت ألبس، غمغمت بالكلمات التي عليّ أن أقولها. فقبل أن تكون عشيقتي، عليها أن تدرك أنّ أوغوستا استطاعت أن تنال احترامي بل وقلبي أيضاً بصرف النظر عن مظهرها وعافيتها. وكنت سأقول الكثير من الأشياء لأشرح مفهومي عن العافية مما قد يساعدني في تربية كارلا.

وأثناء شرب القهوة، استغرقت في تحضير خطبة دقيقة جداً، لدرجة أنّ أوغوستا لم تحصل مني إلاَّ على دلالة ودّ بقبلة خفيفة قبل أن أخرج. ولكني كنت ملكها كلياً! ومضيت في طريقي إلى كارلا لأشعل شغفي بها ثانية.

وما إن دخلت إلى مكتبها حتى اعتراني ارتياح برؤيتها وحيدة ومستعدّة، وسرعان ما جذبتها إليَّ وعانقتها بولع. أرعبتني الطاقة التي دفعتني بها. فكانت عنيفة حقاً!.. لم تكن ترغب بالحب حينها، فبقيت فاغراً فاهي في وسط الغرفة ومحبطاً بألم شديد. ولكنها استعادت رونقها بسرعة وهمست:

– ألا ترى حضرتك أنَّ الباب ما يزال مفتوحاً، وأنّ أحدهم ينزل الدرج؟!..

قمت بدور الزائر اللبق حتى مرَّ ذلك المزعج، ثم أغلقنا الباب. وتفاجأت عندما رأتني أقفل الباب، فكان كل شيء واضحاً هكذا. ثم غمغمت وهي بين ذراعي بصوت مبحوح خافِت:

– هل تريد فعل ذلك؟! أحقاً تريد؟!..

رفعت الكلفة فوراً وكان هذا حتمياً، ثم أجبتها حالاً:

– ولا أرغب بأي شيء سواه!..

نسيت أني كنت عازماً على توضيح تلك النقطة. ثم تذكرت أني

twitter @baghdad_library

أريد البدأ بالحديث عن علاقتي بأوغوستا بعد أن نسيت قوله في البداية، وكم كان هذا صعباً في تلك اللحظة. فالحديث مع كارلا عن أي شيء آخر من شأنه أن يهبط من انسجامها معي. حتى أكثر الرجال غباء لم يكن ليفعل شيئاً مشابهاً، ويعرف الجميع أنه ما من مقارنة بين ذلك الانسجام قبل أن يقع وبعد وقوعه مباشرة. قد يكون أمراً مهيناً بالنسبة لامرأة تفتح ذراعيها للمرة الأولى أن تسمع: (قبل كل شيء، عليَّ أن أوضح ما قلته لك في الأمس...). وأي أمس؟!.. فمن غير الجدير التنويه عما حدث في اليوم السابق. وسحقاً لأي جنتلمان لا يفهم هذه البديهيات. بل عليه أن يتصرف بطريقة لا تجعل أحد يلاحظ شيئاً مما يفكر به.

وبالطبع كنت أنا الجنتلمان الذي لم يشعر بهذا لأني أردت التصنع فأخطأت كما لو أنّ الصدق لا يناسبني، فسألتها:

– كيف تهبين نفسك لي؟! ترى هل أستحق شيئاً كهذا؟!..

هل أردت أن أبدو ممتنّاً لها أم أردت أن أوبّخها؟!.. لم تكن على الأرجح إلاً محاولة للشروع في تلك التوضيحات. فاستغربتْ قليلاً ونظرت إلى الأعلى لترى وجهي:

– يبدو أنك أنت من جذبني إليه. – وابتسمت بودّ لتؤكد أنها لن تلومني.

تذكرت أنّ النساء يحتججن للقول إنهن لسن المبادرات. ثم شعرت أنها أخطأت هي أيضاً، فالأمور تُؤخذ وتُعطى والبشر يتفاهمون.. همست:

– كنت بانتظارك!.. وكنت الفارس الذي لابدَّ أن يأتي ليحررني. وأن تكون متزوجاً لهو أمر سيئ طبعاً. لكني مسرورة لأنّ سعادتي لا تدمّر سعادة شخص آخر، كونك لا تعشق زوجتك.

شعرت بالألم الحاد في خاصرتي الذي أوقفني عن معانقتها. لم أكن قد بالغت في كلماتي الاعتباطية إذن!.. أكان الكذب ما دفعها لتكون

ملكي؟!.. فلو تكلمت عن حبي لأوغوستا لكان لكارلا الحقّ بأن تلومني، تماماً كما لو وقعت في فخ!.. لم يعد للاستدراك والتوضيح مجال في تلك اللحظة. قد تكون فرصة التبرير والتوضيح سانحة فيما بعد. وهكذا أخذت العلاقة تتشكل بيني وبينها، بانتظار أوان تلك الفرصة.

هناك في حضن كارلا، ازداد شغفي بأوغوستا من جديد. لم تكن لديَّ سوى رغبة واحدة، وهي أن أركض إلى زوجتي المخلصة لأراها منهمكة في عملها كنملة مثابرة حيث تحافظ على أشياءنا في جوّ من المعقّمات والنفتلين. لكني بقيت في واجبي الخطير لأنّ الحدث أربكني في السابق كثيراً، وبدا لي كمصدر قلق آخر من تلك الشخصية الغامضة التي كنت أتعامل معها. أخبرتني أنها وبكل بساطة طردت أستاذ الغناء بعد أن غادرتُ منزلها. ولم أتمكن من إخفاء المخالفة، فكأننا هكذا نُعلم السيد كوبلر بعلاقتنا الخاصة!

– وما الذي سيقوله السيد كوبلر؟! – هتفت.

فضحكت كارلا واختبأت بين أحضاني، بمبادرة منها هذه المرة:

– ألم نقل إننا سنطرده خارجاً هو الآخر؟!..

كانت جميلة، لكنها لم تتمكن من التلاعب بي. وسرعان ما فكّرت بتصرف ينفعني، يشبه تصرفات المربّي، لأنه يعطيني الإمكانية لتفريغ غلّي من هذه المرأة التي لم تسمح لي بالحديث عن زوجتي كما كنت أود. لابدَّ أن يعمل الإنسان في هذه الحياة؛ – قلت لها – فالبقاء للأقوى في هذا العالم الشرير، كما تعلم جيداً. ولنفترض أنني مت؟!.. ما الذي سيحدث لها حينذاك؟!.. – كنت أشرف على مشهد انفصالنا بطريقة لم تستطع أن تغضب منها، بل تأثرت من كلامي حقاً. وبنيّة واضحة لاحتقارها، قلت إنني أكتفي بإظهار رغبة ما أمام زوجتي حتى أراها تتحقق فعلاً.

twitter @baghdad_library

– حسناً ! – قالت باستسلام – سأخبر الأستاذ بأن يعودا..

ثم حاولت أن تعلمني بغيظها منه. فكانت مجبرة يومياً أن تخضع لصحبة عجوز فظ يعيد عليها التمارين نفسها لمرات لا تنتهي ولا تفيد بشيء أبداً. إنها لا تذكر يوماً جميلاً قضته إلاَّ عندما يمرض الأستاذ، فتمنت أن يموت أيضاً، ولكن حظها لم يحالفها.

وأصبحت عدائية في التعبير عن يأسها. قالت ثانية إنّ حظها سيئ بنبرة تزداد نواحاً. فكانت ملعونة دون أمل بالنجاة. وعندما تتذكر أنها أحبتني على الفور، فذلك لأنها رأت في أقوالي وأفعالي ونظراتي وعداً من الحياة بالخلاص من الاضطهاد والقسوة والملل. وذرفت دموعاً كثيرة، فاعترفتُ بأحزانها حالاً وتأثرتُ بها. وكانت شهقاتها عنيفة حتى ارتجف جسدها النحيل من الغثيان. شعرت بأني تحت تهديد السطو على جيبي وحياتي معاً، فسألتها:

– أتظنين أنّ زوجتي لا تفعل شيئاً في هذه الحياة؟ الآن، وبينما نحن نتحدث، تكون رئتاها ملوثتين من المعقّمات والنفتلين..

فأجهشت أكثر:

– طبعاً! المقتنيات والأثاث والملابس... هنيئاً لها!

وفكرتُ غاضباً أنها تريد مني أن أركض لأشتري لها تلك الأشياء كلها لتشعر بأنها تحوز على ما ترغب. ولم أظهر غضبي، وحمداً للسماء أني خضعت لصوت العقل الذي كان يصرخ: (داعب الفتاة كي تستسلم لك!)، فداعبتها. تلمّست شعرها بيدي بخفة، فهدأت شهقاتها وانهمرت دموعها بشدة دون انقطاع كالمطر الذي يلحق العاصفة.

– إنك حبيبي الأول.. وأتمنى أن تحبني أكثر!

لم أتأثر بعبارتها، أنني حبيبها الأول، مع أنها تشير إلى تحضير المكان بسرعة. لقد جاء تصريحها متأخراً، لأن الموضوع قد تغيّر منذ

نصف ساعة. ثم إنها كانت تهديداً جديداً لي، فالمرأة تظنّ أنها تملك حقوقها جميعها تجاه عشيقها الأول. همست بصوت خافت في أذنها:

- أنت أيضاً حبيبتي الأولى... منذ أن تزوجت.

كانت رقّة صوتي تخفي خلفها محاولة لبلوغ التعادل في المباراة. وتركتها بعد قليل لأني لم أكن لأخاطر في التأخر عن الغداء تحت أي ثمن. وقبل أن أغادر سحبت من جيبي ذلك الظرف الذي كنت أخصّه بقراراتي الصائبة، لأن قراراً صائباً جداً كان ما أبدعه. شعرت بضرورة دفع المال مقابل الشعور بالحرية.

رفضت كارلا ذلك المبلغ ثانية بلطف، فغضبتُ بشدة حينها. ولكني عرفت كيف أخفي الغضب إن لم أصرخ بكلمات طيبة. فكنت أصرخ في وجهها كي لا أضربها، ولم يكن بوسعها أن تلاحظ ذلك. قلت إني قد وصلت إلى منتهى رغباتي حالما أحببتها، وإني أود أن أشعر بامتلاكها أكثر فأكثر لأستحوذ عليها كلياً. ولذا كان عليها أن تحذر من إغضابي كيلا أتألم. ولأني كنت مستعجلاً، لخّصت أفكاري بكلمات قليلة بدت عنيفة جداً بسبب صراخي:

- إن إعالتك من واجبي. ألست بحبيبتي؟!..

توقفت كارلا المذعورة عن المقاومة، وأخذت الظرف بينما كانت تنظر إليَّ بقلق لتتأكد من الحقيقة، هل هي في صرخاتي الحاقدة، أم في كلمات الحب التي تسمح لها بامتلاك كل ما كانت ترغب فيه.

هدأت قليلاً عندما قبّلتُ جبينها قبل أن أنصرف. وعندما كنت أنزل الدرج راودني الشك أنها ستطرد إنريكو إذا جاء إليها في الظهيرة، بعد أن تتصرف في ذلك المال، وتشعر بأني أصبحت ولياً لأمرها. أردت الصعود ثانية لأحذرها أن لا تخاطر في أمر كهذا. ولكني كنت مستعجلاً، ولم يكن هناك وقت.

twitter @baghdad_library

أخشى أن يظن الدكتور الذي سيقرأ مخطوطاتي بأن تكون كارلا موضوعاً مهماً في التحليل النفسي أيضاً. إذ سيتخيل أنها كرّست وقتها لي بسرعة بعد أن توقفت عن دروس أستاذها. حتى أنا تخيلت أنها تنتظر مني تنازلات كثيرة مقابل حصولي على حبها. وكان عليّ أن أنتظر شهوراً كثيرة حتى أفهم تلك الفتاة المسكينة جيداً. لقد تركتني أحتل قلبها بسهولة كي تتحرر من وصاية السيد كوبلر المزعجة على الأرجح. وكانت مفاجأة مؤلمة لها أن تنتبه أنها منحت نفسها دون جدوى لأنها ما لبثت تتطلع أكثر إلى ما كان يؤرقها. وهو الغناء. فوجدت نفسها في أحضاني، وكانت تعلم أنّ عليها الاستمرار في الغناء. وهذا ما أغضبها وآلمها دون أن تجد كلمات مناسبة تعبّر بها. وقلنا كلمات في غاية الغرابة لأسباب مختلفة. فعندما أحبتني استعادت كامل عفويتها التي سلبتها منها حساباتها، أما أنا فلم أعرف العفوية معها يوماً.

وبينما كنت راكضاً راودتني فكرة أنها لو علمت بمدى حبي لزوجتي لتصرفت بشكل مغاير. وعندما علمت بذلك تغيرت تصرفاتها فعلاً.

استنشقت الحرية في الهواء الطلق ولم أندم على توبيخها. ربما سأجد مخرجاً من الصعوبات التي كانت تهددني، فما زال هناك وقت حتى اليوم التالي. وفي الطريق إلى منزلي شعرت بالشجاعة لأنقم على النظام الاجتماعي، كما لو كان السبب في هفواتي. فكان ينبغي أن يسمح لي من وقت لآخر، وليس دائماً، بممارسة الحب، دون الخوف من تبعاته، حتى مع النساء اللواتي لا يشعرنني بالحب مطلقاً. لم يكن الندم ما يشغلني أبداً، لأنه لا يولد من شعورك بالذنب على تصرف سيئ ارتكبته، بل من رؤية حالتك المذنبة. فالجزء الأعلى من الجسد ينحني لينظر ويحكم الجزء الأسفل، ويراه مشوهًا فيتقزز منه، وهذا ما

يسمى بالندم. حتى في التراجيديا القديمة لا تعود الضحية إلى الحياة، وكان الندم يمضي رغم ذلك. مما يعني أنّ التشوه كان يعالج، ويصبح بكاء الآخرين غير ذي أهمية. فأين سيجد الندم مكانه عندي وأنا الذي كنت أركض بغبطة وحنين إلى زوجتي الشرعية؟!.. لم أشعر بالصفاء منذ وقت بعيد.

على وجبة الغداء كنت سعيداً وودوداً مع أوغوستا دون بذل أي جهد. لم يكن في ذلك اليوم أية نغمة ناشزة بيننا، لا شيء استثنائياً: كنت كما يجب أن أكون مع امرأة كانت ملكي بكل تأكيد وأمانة. وفي مرات أخرى كنت أغالي في إظهار الحنان عندما تتصارع المرأتان في داخلي. وكانت المغالاة في إبداء الحنان تساعدني أن أخفي على زوجتي وجود ظلّ امرأة أخرى يهيمن بيننا حينها. أستطيع القول، وبكل صراحة، إنّ أوغوستا كانت تفضّلني عندما لا أكون ملكها كلياً.

أنا نفسي كنت مستغرباً من هدوئي، وكنت أعزوه إلى نجاحي في إقناع كارلا بأن تقبل ذلك الظرف ذا القرار الصائب. ولست أظن أني امتلكتها به، لكني بدأت أدفع ثمن المغفرة كما يبدو. ولسوء الحظ أن يشكّل المال القلق الأساسي بالنسبة لي طوال مدة علاقتي مع كارلا. ففي كل مناسبة كنت أخبّئ جانباً، في مكان مخفي في مكتبتي، شيئاً من المال لأكون مستعداً لمواجهة كل متطلبات عشيقتي التي أخشاها كثيراً. وعندما هجرتني لاحقاً، تركت لي ذلك المال، فاستثمرته في مشروع آخر.

كان علينا أن نقضي المساء في بيت عمي لوليمة عشاء لم يدعَ عليها إلاّ أفراد العائلة لحضور المأدبة التقليدية التي تسبق حفل الزفاف بيومين. وأراد غويدو أن يستغل تحسّن وضع جوفاني الصحي لكي يتزوج، إذ لم يكن يعتقد أنه سيستمر طويلاً.

ذهبت مع زوجتي في ساعة مبكرة من الظهيرة إلى بيت أهلها،

twitter @baghdad_library

وفي الطريق ذكّرتها بشكوك يومها الماضي، أي حزني من هذا الزواج. خجلت كثيراً مما فكرت فيه؛ وتحدثتُ طويلاً عن براءتي، إذ كنت عائداً إلى المنزل ولم يكن في بالي أننا مدعوين في المساء نفسه إلى عشاء رفيع المستوى تحضيراً لذلك الزفاف!..

فضّل جوفاني وزوجته أن تكون الوليمة رفيعة المستوى حتى لو لم يكن هناك غرباء بين المدعوين. طُلب من أوغوستا أن تساعد في تحضير الصالة والمائدة. أما ألبيرتا فلم تفكر في ذلك، لأنها ربحت جائزة في منافسة لمسرحية في فصل واحد منذ مدة وجيزة، وكانت تستعد بحيوية لتدخل المسرح الوطني. وهكذا بقيتُ وزوجتي وحدنا على تلك المائدة، تساعدنا الخادمة ولوشانو، الشاب الذي يعمل في مكتب جوفاني والذي أظهر براعة في الترتيب المنزلي كما في الترتيب المكتبي. ساعدتُهم في حمل الأزهار إلى المائدة وفي تنسيقها بشكل مناسب.

– أترين كيف أشارك في سعادتهما أنا أيضاً. لو طلبا مني تحضير السرير الزوجي لفعلت ذلك لهما بنفس هذا السرور!.. – قلت ممازحاً أوغوستا.

وفي وقت لاحق عاد العريسان من إحدى الزيارات. كانا قد جلسا في إحدى زوايا الصالة الأكثر انعزالاً، وأراهن أنهما قد تبادلا القبل خلسة. وما زالت العروس اللطيفة ترتدي فستان التنزه، وكانت جميلة جداً بوجهها المحمرّ قليلاً بسبب الحر.

أعتقد أنّ العريسين أرادا أن يوهمانا بأنهما تناقشا في العلوم ليخفيا أي أثر للقبل التي تبادلاها. وكان هذا غباء غير لائق البتة! هل أرادا إقصاءنا عن جوهما الحميم أم ظنّا أنّ قبلاتهما كانت ستزعج أحد الحاضرين؟ لكن هذا لم يفسد مزاجي المعتدل إطلاقاً. قال لي غويدو إنّ آدا لم تصدّقه عندما أخبرها بأنّ أنواعاً من البعوض تستطيع أن تشلّ،

بلسعة واحدة، أنواعاً أخرى من الحشرات قد تكون أقوى منها؛ وتحفظها حيّة طازجة كغذاء لسلالتها. وكنت أعرف أنّ الطبيعة تحتوي على أشياء مرعبة كهذه، لكني لم أشأ أن أمنح غويدو شعوراً بالرضا في تلك اللحظة:

– أتراني بعوضة لتسألني بهذه الأشياء. – قلت له ضاحكاً.

تركنا العروسين لينشغلا بأمور سعيدة أكثر بكثير. ثم وجدتُ الظهيرة طويلة جداً، وأردت أن أذهب إلى منزلي لأقضي وقت انتظار العشاء في مكتبي.

عند المدخل وجدنا الطبيب باولي يخرج من غرفة جوفاني. كان طبيباً شاباً لكنه عرف كيف يلمّ الكثير من الزبائن. وكان أشقر الشعر وأبيض البشرة، يميل إلى الاحمرار كمراهق. وكانت عيناه مهمة جداً في جسده الضخم وتجعل من شخصيته جدية وجليلة، ونظارتاه تظهرانه أكبر من عمره، ونظراته تلامس الأشياء وتكاد تحضنها. الآن وقد عرفته أكثر من الدكتور س. – المحلل النفسي – الذي تبدو عيناه تحققان بهدف الإدراك، بينما كان الدكتور باولي كذلك لكن بسبب فضوله المتأجج. فالأخير يفحص زبونه بدقة، وزوجة الزبون والكرسي الذي تجلس عليه أيضاً. والله أعلم من منهما يصرع مرضاه بشكل أسرع!.. فغالباً ما تحدثت إلى الطبيب باولي، أثناء وعكة جوفاني، لأقنعه بأن لا يُظهر حجم المصيبة التي كانت تهدد العائلة. وأذكر يوماً أنه نظر إليَّ طويلاً حتى بدأت أتوجس، وقال لي مبتسماً:

– إنك تعشق زوجتك كثيراً!..

كان مراقباً عبقرياً لأني في تلك الآونة كنت أعشق زوجتي التي عانت من تدهور صحة والدها، وكنت أخونها بشكل يومي.

قال لنا إنّ جوفاني كان أفضل من اليوم السابق، ولم يكن من قلق على صحته لأنّ الطقس أخذ يتحسن. وكان واثقاً من أنّ العروسين

twitter @baghdad_library

بوسعهما أن يسافرا في رحلة شهر العسل دون خوف، ولكنه أضاف متحفظاً: (اللهم إلاَّ إذا تعقّدت الحالة فجأة!). وكانت احتمالاته في محلّها لأنّ الحالة تعقدت فجأة بالفعل.

وقبل أن ينصرف تذكّر أننا نعرف شخصاً يدعى السيد كوبلر، استدعاه في اليوم نفسه لمعاينته. ووجده مصاباً بالفشل الكلوي، ثم أخبرنا أنّ ألماً فظيعاً بالأسنان مهّد للحالة، وتحدّث عن احتمال خطير، لكنه مخفف بشكّ مثل العادة: (وقد تطول حياته، شرط أن يتمكن من رؤية شمس الغد!).

تأثرت زوجتي واغرورقت عيناها، وتوسلت إليّ أن أتوجه بسرعة إلى صديقنا الطبيب. أذعنتُ لرغبتها بكل سرور بعد تردد قصير، لأنّ قلبي خفق لكارلا فجأة. كم كنت قاسياً مع تلك الفتاة المسكينة!.. تخيلتها بعد رحيل إنريكو وحيدة في البهو هناك، لا تجازف بشيء أبداً، لأنها انقطعت من أية صلة عن حياتي. فكان من الضروري أن أركض إليها لأمحو الانطباع الذي من الممكن أن تتملّكه بعد معاملتي القاسية لها في الصباح. ولكني تعقّلت وذهبت إلى صديقي أولاً. فلابدَّ أن أقول لأوغوستا إنني رأيته أيضاً.

وكنت أعرف مسبقاً شارع ستاديون، الحي المتواضع والمريح والمحتشم الذي يقطن فيه إنريكو حيث أجّره رجل مسنّ ثلاثاً من غرف بيته الخمس. استقبلني ذلك الرجل الضخم واللاهث، ذو العينين الحمراوتين، وكان يروح ويجيء بقلق في ممر صغير ومعتم. أخبرني أنّ الطبيب المعالج قد ذهب منذ قليل، بعد أن أكد أنّ إنريكو يحتضر. كان العجوز يتحدث بصوت منخفض ولا يزال يلهث كأنه خشي أن يزعج راحة المحتضر.

فأخفضت صوتي أيضاً. إنه شكل من أشكال الاحترام ندّعيه نحن

البشـر، ولسـنا متأكدين في ما إذا كان المحتضر يرغب بسـماع أصوات قوية وواضحة في ساعاته الأخيرة علّها تذكره بالحياة.

قـال العجـوز إنَّ ممرضـة جاءت لتشـرف علـى المريض. وتوقفت بكامـل الاحتـرام أمـام بـاب الغرفـة حيـث يقيس إنريكو سـاعاته الأخيرة بحشـرجات دقيقـة الإيقـاع. وكانـت أنفاسـه الصاخبـة تتكون من لحنين، يبدو أولهما مرتبكاً لأنه ناتج عن الشـهيق، وثانيهما مسـتعجلاً لأنه ناتج عن الزفير. أكان مسـتعجلاً على الموت؟ كنت أصغي إلى السـكتة بين اللحنين، وفكرت أنّ الحياة الأخرى ستبدأ عندما تطول السكتة.

أراد مني العجوز أن أدخل إلى الغرفة، لكني لم أشأ. فالكثير من المحتضرين أهانوني وأنّبوني.

ولـم أنتظر أن تطول تلك السـكتة فذهبت إلى كارلا. طرقت باب مكتبهـا الـذي كان مغلقـاً، ولكـن أحـداً لم يجبنـي، فنفد صبري. أخذت أركل الباب بقدمي، ففُتح حينها باب من خلفي، وكانت والدتها تصرخ:

- من هناك؟!.. - ثم ظهرت العجوز الخائفة. وعندما عرفتني عبر النور الأصفر الذي يشعّ من المطبخ، لاحظت كيف كان وجهها أحمر جداً تحت شـعرها الأشـيب. لم تكن البنت في المنزل، فاهتدت الوالدة أن تأتي بمفاتيح المكتب لتستقبلني فيه، لأنها تظنه المكان الوحيد المناسب لاستقبالي. لكني قلت إنه ما من داع للقلق، فدخلت إلى المطبخ وجلست على كرسي خشبي. وبين الطنجرة والنار كانت كومة من الفحم تشتعل، فأخبرتها أن لا تتجاهل طبخ العشـاء بسـبب وجودي. فطمأنتني بأنها كانت تطبـخ الفاصوليـاء التـي تحتاج لوقت طويل حتى تنضج. أخمد ذلك الطعام، الذي يتحضّر على نفقتي لوحدي منذئذ، الغضب الذي تأجج في داخلي لأني لم أجد عشيقتي جاهزة.

twitter @baghdad_library

بقيت السيدة واقفة مع أني دعوتها للجلوس مراراً وتكراراً. وقلت لها بفجاجة إنني جئت لأخبر كارلا بنبأ سيئ، السيد كوبلر كان يحتضر. فجلست السيدة مضطرة:

– يا إلهي!.. ماذا سيحل بنا الآن؟..

تذكرت أنّ مصيبة إنريكو أسوأ من مصيبتها بكثير، فأضافت شفقةً عليه:

– كم هو طيّب ومسكين، السيد كوبلر!..

غمرت الدموع وجهها، ولم تكن تعرف أنّ إنريكو كان سيُطرد من منزلها حتى لو لم تُوافِهِ المنية يومها. طمأنني هذا أيضاً.. كم كنت محاطاً بأقصى درجات الحصانة!

ولكي أطمئنها قلت إني سأكمل بكل سرور ما كان يقوم به صديقي. فاعترضت لأنها لم تكن تبكي على نفسها، فهي تعلم أنّ هناك الكثير من الكرام من حولها، لكنها كانت حزينة لمصير المحسن الأعظم إنريكو...

أرادت معرفة المرض الذي سيقتله. وعندما أخبرتها كيف حدثت البليّة، تذكرتُ ذلك النقاش الذي خضته معه عن فائدة الألم. فها هي أعصاب أسنانه اهتاجت لتطلب المساعدة، لأنّ الكليتين توقفتا عن العمل على بعد متر منها. لم أكن مهتماً بمصير صديقي رغم سماعي لحشرجاته منذ قليل، وما زلت أتسلى بأفكاره الخاصة. لو كان بوسعه أن يسمعني لقلت له إنني فهمت كيف تشعر أعصاب المريض الوهمي بالألم، بشكل مشروع، من مرض يندلع على بعد ميل وأكثر...

لم يكن هناك ما أتحدث به مع السيدة العجوز، فوافقت على انتظار ابنتها بمكتبها. أخذت المنهاج في يدي وحاولت أن أقرأ منه بعض الصفحات، لكن فن الغناء لا يعجبني كثيراً.

عادت إليَّ العجوز. كانت قلقة لتأخّر الفتاة. أخبرتني أنها ذهبت

لتشتري بعض الصحون لأنهما بحاجة ماسّة إليها. وعندما أخذ صبري ينفد سألت غاضباً:

- هل كسرتما الصحون؟.. لمَ لا تنتبهان أكثر؟..

وهكذا تخلصت منها وهي تتمتم خارجةً:

- اثنان فقط... وقعا مني أنا..

ففرحت جداً لأني كنت أعرف أنّ الصحون تكسرت كلها وليس بسبب الوالدة، بل بسبب ابنتها. ثم علمت أنّ كارلا لم تكن تعامل أمها برقة مطلقاً، وأنّ الأخيرة تخاف أن تتحدث عن شؤون ابنتها مع المحسنين إليهما. ففي أحد الأيام أخبرت الوالدة إنريكو، بكل سذاجة، عن الغيظ الذي يعتري كارلا بعد دروس الغناء. فغضب صديقي ووبّخها. وهذا ما جعل الأخيرة تصبّ غضبها على أمها.

وأخيراً عادت عشيقتي الحسناء، فعانقتها بعنف وسخط حتى تلعثمتْ من شدة الدهشة:

- ...كنت أشك في حبك لي! لقد تملّكتني رغبة في الانتحار طوال اليوم لأني تنازلت عن كل شيء لرجل قابل ذلك بالمعاملة السيئة!..

فشرحت لها أنّ صداعاً حاداً في الرأس ينتابني غالباً. تحدثت عن ذلك الصداع، واستطعت إخماده عندما وجدت نفسي في حالة تجرّني فوراً إلى أوغوستا لو لم أقاومها بشجاعة. وشرعت أقص عليها ما جرى، فبكينا معاً على إنريكو المسكين؛ معاً حقاً!...

ولكنها لم تكن تبالي بنهاية إنريكو الفضيل. وتغيّر لونها عندما تحدثت عنه.

- أعرف نفسي جيداً! - قالت - سأشعر بالخوف لبقائي وحيدة بموته، بعد أن كان يخيفني حياً!..

twitter @baghdad_library

وللمرة الأولى اقترحت عليّ بخجل أن أبقى معها الليل كله. لم أكن أفكر في الأمر مطلقاً، بل لم أكن أستطيع إطالة عمر زيارتي في تلك الغرفة حتى لنصف ساعة. فاعترضت قائلاً إنّ والدتها تسكن في البيت أيضاً وهذا يجعل بقائي مستحيلاً. وكنت حذراً أن لا تلاحظ المسكينة مزاجي الذي كان يوجعني بالدرجة الأولى. فقوّست شفتيها بازدراء حقيقي:

– بوسعنا أن نأتي بالسرير إلى هنا، فأمي لا تجرؤ على التجسس عليّ.

أخبرتها بعشّ الزوجية الذي ينتظرني في المنزل، ثم شعرت بضرورة إفهامها أنّ قضاء ليلة كاملة معها مستحيل. وبمناسبة الوداعة التي أظهرتُها قبل قليل، استطعت أن أسيطر على نبرتي التي بقيت وديعة دوماً. ولكنها بدت لي خيانة جديدة بحق أوغوستا لم أرغب بارتكابها إن بقيت، أو إن سمحتُ لكارلا أن تنتظره مني على الأقل.

في تلك اللحظة عرفت ماهي الروابط القوية التي تعلّقني بها: نيّة الودّ والأكاذيب التي كنت أصنعها عن علاقتي بأوغوستا، والتي كان عليّ أن أخفف منها، بل أن ألغيها شيئاً فشيئاً مع مرور الأيام. ولذا بدأت بالأمر ذاك المساء، بحكمة لابدَّ منها؛ فكان سهلاً أن أتذكر فائدة أكاذيبي رغم ذلك. قلت لها إنني أشعر بواجباتي تجاه زوجتي التي كانت امرأة نفيسة، وتستحقّ المزيد من الحب بالتأكيد، ولأجله لم أود يوماً أن أخبرها بخيانتي لها. فعانقتني كارلا:

– كم أحبك!... إنك طيب ورائع كما توقّعت مبكراً في زيارتك الأولى. لن أحاول أبداً أن أؤذي تلك المسكينة...

أسفت لسماع كلمة «مسكينة» تنسب إلى زوجتي، لكني اعترفت بلطف كارلا المسكينة. فكان شيئاً جيداً أن لا تضمر الحقد لزوجتي.

أردت أن أظهر لها اعترافي، فنظرت من حولي باحثاً عن دليل للمودة ووجدته في النهاية. أهديتها «الغسالة» التي لطالما حلمت بها، أي سمحت لها بأن لا تستدعي أستاذ الغناء ثانية.

فانتابتها موجة من الحب أزعجتني بما فيه الكفاية وتحمّلتها بشجاعة. ثم أخبرتني أنها لم تكن لتترك الغناء. فكانت تغني طوال اليوم، ولكن وفق مزاجها فقط، بل أرادت أن تسمعني فوراً أغنية ما. لم أرغب بذلك، وانصرفت بعيداً بقدر عال من الهمجية. وأظن أنها فكرت بالانتحار في تلك الليلة أيضاً، إلاّ أنني لم أعطها الوقت الكافي لتقول لي ذلك.

عدت إلى إنريكو، إذ كان لا بدَّ أن أحمل آخر أخباره إلى أوغوستا لأجعلها تصدّق أنني قضيت تلك الساعات كلها بقربه. لقد توفي صديقي منذ ساعتين تقريباً، أي حالما تركته. دخلت إلى غرفة الموت، يرافقني ذلك المسنّ الذي مازال يقيس الممر الصغير بخطواته. كانت الجثة قد أُلبست راقدة فوق الفراش، ويحمل الصليب في يده. أبلغني العجوز بصوته الخافت أنّ المراسم ستتم على أكمل وجه، وأنّ قريبة من العدم ستأتي لقضاء الليلة إلى جانب الجثة.

فكان بوسعي أن أذهب مطمئناً لأنّ كل ما يلزم صديقي العزيز سيكون متوفراً. ولكني آثرت البقاء لدقائق عدة لأشبع نظريَ منه، ووددت أن تنزل مني دمعة صادقة تشفق على ذاك البائس الذي ما لبث يصارع المرض حتى حاول أن يبرم اتفاقاً معه. كم هذا مؤلم! - قلت. ذاك المرض الذي يوجد ضدّه الكثير من الأدوية أوداه صريعاً دون رحمة. يا للسخرية!.. لكن دموعي لم تنزل، وكان وجهه الهزيل يبدو مهيباً في لحظة الموت كما لم يكن مطلقاً من قبل. بدا كأنه صخرة مرمر ملوّنة ينحتها الإزميل، ولم يكن أحد يتوقع أنّ التفسخ وشيك الحدوث.

twitter @baghdad_library

فكان يبدو حياً يرزق رغماً عن أنف الموت، ليزدريني ويزدري المريض الوهمي على حدّ سواء، وربما يزدري كارلا أيضاً لأنها لا تريد الغناء. فارتعشت للحظة عندما تخيلت أنّ الميت يحتضر من جديد. وسرعان ما عدت إلى هدوئي الناقد عندما تنبهت أنّ ما بدا لي حشرجة لم يكن إلاّ أنفاس العجوز الذي ازداد لهاثه من شدة التأثر. اصطحبني حتى الباب وتوسل إليَّ أن أتذكره حالما أعلم بحاجة أحدهم لمنزل صغير.

- إنك ترى يا سيدي كيف قمت بواجبي على أتم وجه في ظرف صعب كهذا!

ورفع صوته للمرة الأولى الذي تسرّب إليه غلٌّ موجّه إلى المرحوم بلا شك، لأنه ترك الدار خالية دون أن يدفع ما عليه من ديون. فوعدته بكل ما أراد، وذهبت بعيداً..

وجدت في بيت حميّ الجميع جالسين حول الطاولة. سألوني عن أخبار صديقي ولم أشأ أن أفسد بهجة السهرة، فقلت إنه ما زال على قيد الحياة ومازال لدينا أمل ما.

بدت لي الجلسة حزينة جداً. ربما كان مردّ هذا الانطباع أني وجدت جوفاني مضطراً لتناول حساء الخضراوات وكأس من الحليب، بينما يلتهم الآخرون الأطعمة الشهية. كان لديه كل الوقت ليراقب أفواه الآخرين. وعندما رأى السيد فرانشسكو منهمكاً بتناول المقبلات، تمتم:

- تصوّر أنه يكبرني بعامين فقط!..

وعندما همّ السيد فرانشسكو بشرب الكأس الثالث من النبيذ الأبيض تشكّى هامساً:

- إنه الكأس الثالث! عسى أن يفقع له مرارته!..

ولم تكن الأمنية لتزعجني لو لم آكل وأشرب على تلك المائدة، وربما لم أعلم أنّ تلك العملية الانفجارية كانت تعبّر عن النبيذ الذي كنت

أوشك أن أضعه في فمي. لذا آثرت أن آكل وأشرب خلسة منه. وكنت أستغلّ بعض اللحظات عندما يدخل أنفه الضخم في كأس الحليب، أو عندما يجيب على بعض الأسئلة التي توجّه إليه، كي أبلع لقمة كبيرة أو أتجرع كمية من النبيذ. أنذرت أليبرتا زوجتي بأني أشرب كثيراً، رغبة منها بإضحاك الجميع. فرفعت الأخيرة سبّابتها مازحة تهددني، ولم يزعجني هذا، بل أزعجني عدم الاضطرار للأكل خلسة. فأخذ جوفاني - الذي لم يرني طوال ذلك الوقت - يتربّص بي من فوق نظارتيه، ورمقني بنظرة شريرة تنمّ عن حقد دفين، وقال:

- إنني لم أفرط يوماً في تناول الطعام أو المشروب، ومن يشطّ في فعل ذلك ليس رجلاً حقيقياً بل..... - وأعاد الكلمة الأخيرة أكثر من مرة ولم تكن لائقة أبداً.

ومع تأثير النبيذ، أشعلت تلك الشتيمة المهينة في داخلي رغبة مجنونة بالانتقام لأنها كانت مصاحبة لضحكات الآخرين. فهاجمته في نقطة ضعفه، أي المرض. وقلت بأعلى صوتي إنّ الرجل غير الحقيقي ليس من يشطّ في تناول الطعام والمشروب، إنما من يستلقي على ظهره ويستسلم لتوصيات الطبيب. فلو كنت مكانه لما انصعت لأوامر الطبيب إلى هذه الدرجة. ولم أكن لأسمح أن يُمنع عني الطعام والشراب في حفل زفاف ابنتي، وهي فرحة لا تضاهيها فرحة فنظر إليَّ ساخطاً:

- أودّ لو أراك تعاني ما أعانيه!..
- ألا يكفيك أن تراني أعاني ما أعانيه؟ هل أدخن كي أكفّ عن الطعام؟..

نجحت للمرة الأولى في الاعتزاز بضعفي، فأشعلت سيجارة فوراً كي أثبت كلماتي. ضحك الجميع وقصّوا على السيد فرانشسكو كيف

twitter @baghdad_library

كانت حياتي مليئة بالسجائر الأخيرة. ولكن تلك لم تكن بسيجارة أخيرة وكنت أشعر بقوتي وشراستي. خسرت دعم الآخرين حالما سكبت النبيذ في كأس حميّ. فكانوا يخشون أن يشرب منه وصرخوا ليمنعوه عن ذلك، واستطاعت زوجته أن تحول بينه وبين الكأس:

- أتريد أن تقتلني حقاً؟.. - سألني بلطف وهو يرمقني باستغراب.

- هل ثملت؟!

ولم يشرب من النبيذ الذي عرضته عليه.

شعرت بالإحباط والهزيمة معاً. كنت على وشك أن أرتمي عند قدميه لأعتذر منه. فعدلت عن ذلك، إذ بدا لي أحد تأثيرات النبيذ أيضاً. ففي الاعتذار اعتراف بالذنب، وبما أنّ السهرة مستمرة فبإمكاني انتهاز فرصة مناسبة لأصلح ما أفسدته بتلك المزحة الثقيلة. ثمّة وقت لكل شيء في هذه الحياة، وليس كل السكارى فريسة سهلة لتأثير النبيذ. وعندما أشرب كثيراً أحلّل أفعالي كما عندما أكون صاحياً، وأخرج بالنتيجة نفسها على الأرجح. ومازلت أنظر جلياً لأفهم كيف وصل بي التفكير الشرير لإيذاء حميّ، فاكتشفت أنني متعب حتى الموت. لو علموا كيف قضيت النهار لغفروا لي. لقد جذبتُ امرأة إليّ وهجرتها بهمجية مرتين، وعدت إلى زوجتي لأنبذها مرتين أيضاً. ساعدني حسن الحظ حينها على ربط المواضيع في رأسي، عندما أطلّت الجثة برأسها. وحاولت عبثاً أن أبكي عليها فاختفى التفكير بالمرأتين؛ وإلاّ فكنت سأتحدث عن كارلا في النهاية. ألم أمتلك دوماً رغبة في الاعتراف حتى عندما خسرت من قدري بسبب المشروب؟.. انتهيت بالحديث عن إنريكو. وأردت أن يعرف الجميع بأني فقدت واحداً من أعزّ أصحابي يومئذ، فكانوا سيغفرون هفوتي. صرخت أنّ إنريكو مات، حقاً مات، وأني سكتّ حتى اللحظة كي لا أجعلهم يحزنون. انظر! انظر! هاهي دموعي تغرورق

في عيني أخيراً، مما أجبرني أن أستدير لأخفيها. فضحك الجميع لأنهم لم يصدّقوني، وحينها تدخّل العناد وهو الصفة البديهية للثمل. ووصفت الميت:

- كان يبدو أنّ مايكل آنجلو قد نحته بنفسه، شديد الصلابة كصخرة لا تتفتت أبداً!

هبط صمت مهيب حتى قطعه غويدو هاتفاً:

- ألم تعد تشعر بحاجة إلى إزعاجنا؟

ملاحظة دقيقة! كنت أخون وعداً قطعته منذ برهة. ألم يكن ثمة وقت لإصلاح هذا؟! فانفجرت من الضحك حتى تعبت:

- فعلتها!.. إنه حيّ وبصحة أفضل.

فنظروا إليَّ ليتأكدوا.

- إنه على ما يرام، - أضفت بجدية - تعرّف عليَّ وابتسم أيضاً.

فصدّقني الجميع، لكن النقمة كانت عارمة. أعرب جوفاني عن رغبته بتكسير الصحون فوق رأسي لو لم يكن يخشى من إيذاء نفسه في بذل الجهد. كان ذنباً لا يغتفر أن أفسد الحفل بنبأ كاذب كهذا. فلو كان حقيقياً لما كان هناك خطيئة تذكر. ألم يكن من الأفضل لو أخبرتهم بالحقيقة ثانية؟.. فإنريكو كان ميتاً، وكنت سأبكي عليه بدموع غزيرة وعفوية ما إن وجدت نفسي وحيداً. بحثت عن الكلمات، لكن السيدة مالفنتي الجليلة قاطعتني:

- فلندع المريض المسكين الآن، سنفكر في شأنه غداً!...

فأطعت الأوامر لدرجة أن انفصل تفكيري نهائياً عن صديقي الميت: (انتظرني! سأعود إليك حالاً! إلى اللقاء!)..

حانت ساعة النخب، وكان جوفاني قد أخذ إذناً من طبيبه باحتساء القليل من الشمبانيا. فراقبهم كيف سكبوا له من المشروب بانتباه، ورفض

twitter @baghdad_library

أن يضع الكأس في شفتيه مالم يفض. وبعد أن قال كلمة التهنئة لآدا وغويدو بجدية وتجرد، شرب الكأس ببطء حتى القطرة الأخيرة. وقال لي وهو ينظر إليَّ بحوَل إنّ الرشفة الأخيرة شربها احتفاءً بي تحديداً. ولكي أنسف تلك التهنئة، التي كنت أعرف أنها ليست عن طيب خاطر، عبّرت بيدي تحت غطاء المائدة بحركة شنيعة حاقدة.

لا أذكر مجمل السهرة جيداً. أذكر أنّ أوغوستا، بعد قليل، وبمبادرة منها، على تلك المائدة، أخذت تصفني بميزات لا حصر لها معتبرة إياي زوجاً نموذجياً. فغُفر لي كل شيء، حتى حماي أصبح لطيفاً أيضاً. أو قال إنه يأمل أن يكون زوج آدا طيباً مثلي، وفي الوقت نفسه تاجراً ماهراً، وعلى وجه الخصوص رجلاً... وكان يبحث عن الكلمة فلم يجدها، ولم يطالب بها أحد من الحاضرين. حتى السيد فرانشسكو الذي رآني للمرة الأولى في صباح ذلك اليوم، لم يكن ليعرفني جيداً. ولم أشعر بالإساءة من جانبي. كم تُسكّن الروح من الشعور بأخطائها الفادحة! فكنت أقبل كل الإساءات بصدر واسع شرط أن يصاحبها الودّ الذي لا أستحقّه. وفي ذهني المضطرب من التعب والمنتشي من المشروب، فكرت بصورتي كزوج طيب لا يتخلى عن طيبته ليصبح فاجراً. كان يتوجب أن أكون طيباً، طيباً، طيباً وأما الباقي فلم يكن مهماً. فأرسلت قبلة بيدي إلى أوغوستا، واستقبلتها بابتسامة ممتنة.

وبعدئذٍ كان على المائدة من أراد انتهاز نشوتي ليضحك فأجبرني على شرب نخبه، لأنّ تلك اللحظة بدت حاسمة لأتّخذ قراراتي الصائبة في العلن. ولم أشكّ في نفسي حينذاك لأنني شعرت بما وصفوني به، بل كنت سأصبح رجلاً أفضل لو اتّخذت قراراً أمام جمع من الناس يصادقون عليه بشكل أو بآخر.

فتحدثت عني وعن أوغوستا فقط، حينما شربت النخب. ورويت

قصة زواجي للمرة الثانية في تلك الأيام. فالمرّة الأولى مع كارلا عندما كذبت ولم أذكر غرامي بزوجتي، أما هنا فقد حرّفت القصة بشكل مختلف. فلم أتكلم عن الشخصين المهمين في قصة زواجي، أي آدا وألبيرتا، بل تحدّثت عن حيرتي التي لم أستطع التخلص منها لأنها سلبت مني السعادة. ثم نسبت الحيرة لأوغوستا أيضاً، إخلاصاً مني، لكنها نفت ذلك ضاحكة من قلبها. ووجدت خيط الحديث بصعوبة، فتحدثت كيف وصلنا أخيراً إلى شهر العسل وكيف أحببنا بعضنا في كل متاحف إيطاليا. كنت غارقاً حتى رأسي في بحر من الأكاذيب التي أوصلتني لذكر تفاصيل باطلة لا تنفع في شيء، ثم يقال إنّ الحقيقة تكمن في السكر!..

قاطعتني أوغوستا ثانية لتضع النقاط على الحروف، وروت كيف أنها امتنعت عن دخول المتاحف نظراً للخطر الذي قد أسبّبه للأعمال الفنية. لم تنتبه أنها كانت تظهر زيف روايتي بالكامل! لوكان على المائدة مراقب دقيق لاكتشف بسهولة طبيعة الحب الذي أبديه في ذلك الجو والذي لا يمكن أن يكون له وجود. وتابعت المشوار منقذاً حديثي بالتكلم عن الوصول إلى منزلنا، وكيف بدأنا نتمّمه معاً باقتناء هذا الشيء وذاك حتى اشترينا الغسالة أيضاً. فقاطعتني أوغوستا مجدداً وضاحكة أيضاً:

– هذه ليست حفلة على شرفنا، بل على شرف آدا وغويدو!.. تحدّث عنهما!...

فوافق الحاضرون على اقتراحها، وسررتُ عندما لاحظت أني أوصلت الجلسة إلى جوّ المرح الحقيقي الذي يعدّ عرفاً في مناسبة كتلك. لكنني لم أجد ما أقوله، إذ بدا أني تحدثت لساعات. فشربت كؤوساً أخرى من النبيذ واحداً تلو الآخر:

– هذا على شرف آدا!.. – نهضت لبرهة كي أرى إن كانت قد

twitter @baghdad_library

عبّرت بحركة شنيعة وحاقدة من تحت الطاولة. - وهذا على شرف غويدو! - وأضفت، بعد أن تجرعت الكأس:

- من كل قلبي! - ناسياً أن أضيف هذه العبارة على الكأس الأول.

- وهذا لابنكما الأول! - ثم شربت الكثير من تلك الكؤوس على شرف أولادهما إلى أن تدخّل الجميع ليوقفني عند حدّي. وكنت سأشرب كل نبيذ المائدة على شرف أولئك الصبية الأبرياء.

وبعدها أصبح كل شيء أكثر ظلاماً. أذكر شيئاً واحداً بوضوح، وهو الخوف الأساسي من الظهور ثملاً. فكنت أشدّ أعصابي وأتحدث قليلاً، ولم أكن واثقاً من نفسي، وشعرت بالحاجة إلى تحليل كل كلمة قبل أن أقولها. وبينما كان الحديث العامّ يدور حولي كان لابدَّ أن أتحفّظ على الدخول فيه لأنهم لم يتركوا لي الوقت لأعدّل مزاجي المكدّر. فافتتحت موضوعاً جديداً بنفسي، قائلاً لجوفاني:

- هل تعلم أنّ أسهم إكستريور قد هبطت بمعدل درجتين؟..

تكلمت بأمر لا يعنيني مطلقاً، سمعت الناس تتكلم بشأنه في البورصة. كنت أريد التحدث في الأعمال وحسب، لأنها أمور جديّة لا تخطر في بال السكران عادة. إلاَّ أنَّ حميّ بدا معنيّاً بالأمر، فنعتني بالغراب يحمل أخباراً سيئة. ولم أفهم أيّ أخبار يقصد.

انشغلت إذن بألبيرتا القريبة مني، وتحدثنا عن الحب. كان الحب يهمّها نظرياً، أما أنا فلم يكن يهمّني عملياً أبداً في تلك اللحظة، لذا كان التحدث به رائعاً. سألتني عن بعض الأفكار، فاكتشفتُ واحدة بدت لي ناتجة بوضوح عن خبرتي في ذلك اليوم نفسه. إنّ المرأة شيء يتغيّر سعره دائماً، أكثر بكثير من أيّ سهم في البورصة. أساءت ألبيرتا فهمي

وظنت أني أريد أن أقول شيئاً يعرفه الجميع، أي إنّ امرأة بعمر معيّن لديها قيمة مختلفة تماماً عن امرأة أخرى. فشرحت بشكل أفضل: قد تكون للمرأة قيمة مرتفعة في ساعة مبكرة من الصباح، تفقدها نهائياً في منتصف النهار ثم تستعيدها في الظهيرة أضعاف ما كانت عليه في الصباح، لتنتهي في المساء بقيمة سلبية أيضاً. وشرحت مفهوم القيمة السلبية: إذ تكون المرأة بقيمة ما عندما يحسب الرجل المبلغ الذي بوسعه أن يدفعه ليقصيها بعيدة عنه. ورغم ذلك لم تفهم ناقدة المسرح قيمة اكتشافي، بينما كنت واثقاً منه متذكراً حركة القيمة التي خضعت لها كلاً من كارلا وأوغوستا في اليوم نفسه. فعاد مفعول النبيذ عندما أردت أن أشرح بشكل أفضل. تغيّرتُ كلياً وقلت لها:

– انظري، فلنفترض أنك تحملين قيمة X، واسمحي لي أن أضغط بقدمي على قدمك، ستتضاعف قيمتك مباشرة بX آخر على الأقل.

وأرفقت أقوالي بأفعالي فوراً. فاحمرّت خجلاً وسحبت قدمها، وأرادت أن تتظارف:

– لكن هذا لم يعد نظرياً، بل عملياً. سأستغيث بأوغوستا!...

أعترف بأنني شعرت بقدمها كشيء مختلف تماماً عن النظرية الجافة، لكني صرخت معترضاً بكل ما أوتيت من طهارة:

– إنها نظرية بحتة، والعيب فيك إن لم تفهميها.

إنّ نزوات النبيذ أحداث حقيقية بالفعل!... وحتى وقت طويل لم ننسَ أنا وألبيرتا أني لمست جزءاً من جسدها مبرراً فعلتي بالشهوة. نتج الفعل من الكلمة، والكلمة من الفعل. كانت تقابلني بابتسامة خجولة حتى تزوجت، فأصبحت الابتسامة الخجولة ناقمة. هكذا خُلِقْت النسوة، فكل يوم يحمل لهنّ تفسيراً جديداً للماضي. ويبدو أنّ حياتهن ليست

twitter @baghdad_library

مملة جداً بناء على ذلك. أما بالنسبة لي فبقي تفسير الفعل على حاله دائماً: اختلاس قطعة صغيرة ذات رائحة زكية... كان ذنب ألبيرتا عندما حاولتُ تذكيرها بذلك الفعل في مرحلة معيّنة، بينما كنت سأدفع لاحقاً أيّ ثمن لتنساه نهائياً.

أذكر أنّ أمراً أخطر بكثير وقع قبل أن أخرج من المنزل. إذ بقيت لوهلة وحيداً مع آدا. فقد خلد جوفاني إلى النوم منذ حين، وكان الآخرون يودّعون السيد فرانشسكو الذي سيذهب إلى الفندق بصحبة غويدو. حدّقتُ بها طويلاً، وهي ترتدي فستاناً أبيض يكشف أكتافها وذراعيها. بقيتُ صامتاً حتى شعرتُ بضرورة أن أقول شيئاً ما، ولكني لجمت لساني وأذكر أني حلّلت جملة كان بوسعي قولها: (كم يسعدني أن تتزوجي أخيراً بصديقي العزيز غويدو، الآن وقد انتهى كل شيء بيننا). كنت سأتفوه بأكذوبة لأنّ الجميع يعلم أنّ ما بيننا انتهى منذ عدة أشهر. لكن هذه الكذبة بدت لي تهنئة رائعة من المؤكد أنّ امرأة تلبس هكذا، بحاجة للتهنئة، سوف تُسرّ بها. ولكني لم أقل شيئاً بعد تأمل طويل. امتنعت عن قول تلك الكلمات لأني وجدت خشبة أنقذتني في بحر النبيذ الذي كنت أسبح فيه. ففكرت أني لست محقّاً إن خاطرت بمحبة أوغوستا لصالح آدا التي لم تكن تحبني. ولكن، في الشك الذي أربكني للحظات، وعندما نجوت من سطوة تلك الكلمات، رمقتُها بنظرة جعلتها تنهض وتخرج بعد أن استدارت لتراقبني خائفة ومستعدة لأن تهرول هرباً.

نتذكر نظرات معينة كما نذكر الكلمات، وربما أكثر. لأنّ النظرة أهمّ من الكلمة، إذ لا وجود لأية كلمة في القاموس كله قادرة على تعرية المرأة. أعرف الآن أنّ نظرتي بسّطت الكلمات التي فكرت فيها حتى أفسدتها. فعيناها رأت جيداً كيف تسعى نظرتي للولوج أعمق من

الثياب بل أعمق من البشرة. وكان لابدَّ أنها تعني: (أتودّين المجيء معي إلى الفراش؟!).. إنّ السُكْر خطيرٌ جداً سيّما أنه لا يدفع الحقيقة إلى السطح، بل لا يُعنى بالحقيقة أساساً: إنه يذكّر المرء بقصته الماضية والمنسية وليس بإرادته الحالية. ويسلّط الضوء بجنون على كل الأفكار الشريرة التي كانت مجرد لهو منذ مدة قصيرة وانمحت من الذاكرة. ثم يتجاهل المحرّمات ليقرأ كل ما يمكن إدراكه في القلوب. ومن المعلوم أنه لا وجود لأسلوب يلغي الأشياء جذرياً، تماماً كمعاملة تجارية خاطئة في إحدى الكمبيالات. فتاريخنا كله قابل للقراءة دائماً، والخمر يقرؤه صارخاً، متجاهلاً ما تضيفه الحياة عليه من بعد.

ركبنا العربة، أنا وزوجتي، كي نذهب إلى المنزل. وفي الظلام شعرت بواجبي أن أقبّلها لأنني قمت بذلك في كثير من المناسبات المشابهة، ولأنني خشيت أن تظن أنّ شيئاً ما تغيّر بيني وبينها إن لم أقبّلها. ولم يكن شيئاً قد تغيّر بيننا، كان النبيذ يصرخ بهذا أيضاً!.. إنها تزوجت بزينو كوزيني الثابت الذي كان بجانبها. فما الذي يعنيه أني في ذلك اليوم فكّرت في نساء أخريات اقترحهن عليَّ النبيذ ليجعلني سعيداً، مثل آدا أو ألبيرتا؟..

أذكر أنني حين غفوت، رأيت ثانية وجه إنريكو المنحوت على فراش الموت كأنه يطالب بالعدالة، أي بالدموع التي قطعت وعداً بذرفها عليه. ولكنه لم يحصل عليها آنئذٍ أيضاً لأنَّ النعاس غلبني وسحقني. واعتذرت لطيفه: (انتظرني قليلاً. سأعود إليك حالاً!..). ولم أعد إليه أبداً، ولم أحضر جنازته حتى. فكان علينا ما نفعله في المنزل وخارج المنزل أيضاً، ولم يتسنَّ لي الوقت لأجله. تحدثنا عنه في بعض المرات، لنضحك فحسب، ونحن نتذكر كيف أماته النبيذ وأحياه أكثر من مرة. بل بقي مضرباً للمثل في العائلة، وعندما كانت الجرائد - كما يحدث غالباً

twitter @baghdad_library

- تؤكد أو تكذّب نبأ وفاة أحدهم كنّا نقول: (مثل إنريكو المسكين!...).

في صباح اليوم التالي استيقظت بصداع في الرأس. وآلمني وجع الخاصرة قليلاً، ربما لأنني لم أشعر به تحت تأثير الخمر مطلقاً، حتى نسيت تلك العادة. ولكني في الحقيقة لم أكن حزيناً، إذ شاركتني زوجتي في مزاجي المعتدل قائلة إنني أحسنت صنعاً بحضور حفل العشاء؛ فقبل وصولي بدا لها كالعزاء. وهكذا لم أندم على تصرفاتي. لكني شعرت بأنّ شيئاً واحداً لن يُغفر لي، وهو النظرة الشريرة تجاه آدا!

عندما التقينا في الظهيرة، مدّت آدا يدها إليَّ بقلق زاد من قلقي. ربما كانت نادمة على هروبها بتلك الطريقة اللطيفة!.. لكن نظرتي كانت مشينة أيضاً. أعرف نظرتي، وأفهم كيف لا ينساها من يقع تحت مخالبها. فكان لابدَّ أن أصلح غلطتي بسلوك أخويّ.

يقال إنه عندما نعاني من الإفراط بالمشروب، لا يوجد علاج أفضل من أن نشرب المزيد؛ فذهبت إلى كارلا في الصباح ذاته كي أستعيد حيويتي!.. ذهبت إليها برغبة أن أعيش حياتي مكثفة وهذا ما يقود إلى الكحول. وعندما كنت أسير نحوها رغبت لو أظهرتُ حيوية كثيفة أكثر من اليوم السابق. كانت القرارات غير الحاسمة تصطحبني لكنها كانت صادقة جداً. فكنت أعرف أنني لن أتمكن من هجرها بسهولة، ولكني أمضي في هذا الاتجاه الأخلاقي رويداً رويداً. سأستمر بالحديث معها عن زوجتي حتى تقدّر مدى حبي لها في يوم ما، دون أن أفاجأها. وضعت في جيبي ظرفاً من المال لأكون مستعداً لأي ظرف طارئ.

وصلت إلى كارلا، وبعد ربع ساعة تقريباً وبّختني بكلمة ظلّت ترن في أذني لشدّة صحتها: (كم أنت عاشق فظ!..). لا أعي الآن كم كنت فظاً حينها. وقد بدأت الحديث عن زوجتي، وكانت كلمات المديح الموجّهة إلى أوغوستا ترّن في أذن كارلا كأنها توبيخ بحقّها. ثم كانت

هي من جرحني حين رويت لها، لأمرّر الوقت، كيف كنت منزعجاً على المائدة، خصوصاً عندما قلت نخباً لم يكن مناسباً على الإطلاق. فعلّقت كارلا:

– لو كنت تحبّ زوجتك حقاً لما أخطأت في النخب على مائدة أبيها.

وقبّلتني لتكافئني على الحب القليل الذي أكنّه لزوجتي. وحينها حملتني الرغبة ذاتها في تكثيف حياتي، التي حصلت عليها من كارلا، إلى زوجتي وهي الوحيدة التي أعرف كيف أخبرها بحبي لها. هل عالجني النبيذ أكثر من اللازم أم كنت بحاجة إلى نبيذ من نوع آخر؟!... ولكن علاقتي مع كارلا في ذلك اليوم كان عليها أن تصبح أكثر لطفاً، وأن تتوّج أخيراً بالإعجاب الذي تستحقّه تلك الفتاة المسكينة، كما فهمت لاحقاً. لقد عرضت عليَّ أن تسمعني أغنية ما أكثر من مرة، راغبة بسماع رأيي. ولكني لم أكن أود سماع شيء من الغناء الذي لا أهتمّ لعفويته، وبما أنها عزفت عن الدراسة فلم يعد يستحقّ الغناء العناء.

أهانتها كلماتي وتأثرت بها فعلاً. كانت تجلس بقربي وتنظر بثبات إلى يديها المتشابكتين فوق حضنها كي لا تريني دموعها. فلامتني مجدداً:

– إذا كنت فظاً معي هكذا.. فكم تكون قاسياً مع من تكره؟!

وكعادتي، كشيطان طيب، أصبحتُ رقيقاً بفضل تلك الدموع. وتوسلّت إليها أن تثقب طبلة أذني بصوتها الرائع في ذلك المكان الصغير. أخذت تهزأ بنفسها فهددتها بالانصراف إن لم تحقق لي ما طلبت. أعترف أني وجدت ذريعة لأنعم بحريتي حينذاك على الأقل، ولكن جاريتي المطيعة خافت من التهديد، وانتقلت مطأطئة لتجلس على البيانو. أخذت وقتاً وجيزاً في استدراك نفسها، ومرّرت يديها على وجهها لتطرد أي تشويش من ذهنها. ونجحت بخفة أذهلتني، فلم يعد وجهها

twitter @baghdad_library

يذكّر بالألم بعد أن أخرجته من بين يديها. فوجئت كثيراً، فكارلا كانت تقول أغنيتها، ترويها ولا تصرخ بها، فالصراخ - كما قالت لي بعد ذلك - كان مفروضاً عليها من قبل أستاذها، وهاهي تطردهما معاً في الأغنية التريستية:

إني أحب، وهذا صحيح..
ما السيئ في الأمر..
أريد أن أبقى هكذا..
في سن السادسة عشر مثل طائر النورس...

كان شيئاً يشبه القصّ أو الاعتراف، وعيناها تقدح شرراً وتعترف بأكثر من الكلمات. لم أخشَ على طبلة أذني، فاقتربت منها مسحوراً ومفتوناً بها. جلست بجانبها، وبدأت تقصُّ عليَّ تلك الأغنية تماماً. أغمضت عينيها لتقول لي، عبر تلك النغمات النقية والعذبة، إنّ الفتاة ذات الستة عشر عاماً ترغب بالحب والحرية.

دقّقتُ لأول مرة في وجهها الصغير: كان بيضوياً صافياً تبرز فيه تجويفات عينيها العميقة والمقوّسة، وعظام وجنتيها الرقيقة. ويصبح أكثر نصاعة ونقاء بفضل النور الموجّه إلينا دون ظل معتم. وتلك الخطوط الجميلة في بشرتها الشفافة التي تخبّئ الدم جيداً في العروق الضعيفة الخفية تطالب بالرحمة والعناية. فكنت مستعداً لأمنحها كثيراً من الود والرعاية دون شروط، لأنها لم تطلب إلا مودّة أبوية أمنحها دون خيانة زوجتي التي شعرتُ بحاجتي للعودة إليها. يا للرضا!.. بقيتُ هناك مع كارلا أمنحها ما كان يطالب به وجهها البيضوي دون أن أبتعد عن أوغوستا! فمودتي لكارلا باتت أكثر لطفاً، ومنذئذٍ لم أكن مضطراً لتركها إذا شعرت بالحاجة إلى الصدق والصفاء، بل أستطيع البقاء معها مغيّراً موضوع النقاش فقط.

أكان وجهها المستدير مصدر ذلك الإحساس الجديد، أم موهبتها الغنائية؟.. لا يمكن نكران الموهبة! تلك الأغنية الغريبة تنتهي بمقطع لم تر الفتاة الشابة فيه نفسها إلاَّ عجوزاً بنهاية تعيسة باتت بحاجة للموت أكثر من حاجتها للحرية. وما زالت كارلا تبدد سعادتها ومكرها في ذلك المقطع الفاشل. ورغم هذا كان عنفوان الشباب يظهرها عجوزاً تطالب بحقوقها جيداً من وجهة النظر الجديدة تلك.

وعندما انتهت ورأتني معجباً جداً بها، أحبتني للمرة الأولى أكثر من ذي قبل. وكانت تعرف أنّ تلك الأغنية القصيرة ستعجبني أكثر من الغناء الذي علّمه إياها الأستاذ.

- يا للأسف - أضافت بحزن - إن لم أغنِّ في الملاهي الليلية، فلن أستطيع الحصول على كفاف عيشي.

وأقنعتها بسهولة أنّ الأمور ليست كذلك، فالكثير من الفنانات العظيمات في هذا العالم يروين أغنياتهن دون ألحان. فبدأت تستذكر بعض الأسماء، وكانت سعيدة بمعرفة كم من الممكن أن يصبح هذا النوع من الفن مهماً. ثم أضافت بسذاجة:

- أعرف أنّ هذا الغناء هو أصعب بكثير من غناء الأوبرا الذي لا يتطلب إلاَّ الصراخ حتى انقطاع النفس.

فابتسمت، ولم أناقشها. كان غناؤها صعباً بالطبع، وكانت تعلم ذلك، لأنها لم تكن تعرف إلاَّ هذا النمط من الغناء. فقد كلّفتها تلك الأغنية القصيرة الكثير من الوقت، إذ تدربت عليها مراراً حتى صحّحت نوتة كل كلمة وكل جملة موسيقية. وكانت تتدرب على واحدة أخرى لم تسمعني إياها لأنها تحتاج إلى أسبوع على الأقل لتتمكن منها.

ثم غمرت اللحظات الرائعة تلك الغرفة التي لم تكن تشرف إلاَّ على مشاهد همجية في السابق. وفُتحت أبواب الشهرة أمام كارلا بعدها،

twitter @baghdad_library

وهذا ما سيخلّصني منها. كان شيئاً يشبه ما حلم به إنريكو!.. اقترحت أن أجد أستاذاً لها. فانتابها الرعب أولاً، ثم اقتنعت بسهولة عندما أعلنت أنها بوسعها أن تجرّبه، وستكون حرة في تسريحه إن كان مملاً أو غير مفيد.

وفي ذلك اليوم كنت سعيداً مع أوغوستا أيضاً. وكان مزاجي معتدلاً كأني عائد من نزهة وليس من بيت كارلا، أو كما كان مزاج إنريكو عندما يغادر ذلك البيت دون أن تسبّب الزيارة غضبه. وكنت فرحاً بهذا كما لو بلغت إحدى الواحات. ولو كانت علاقتي الطويلة بكارلا دائمة التوتر لكان ذلك خطراً عليَّ وعلى صحتي. وجرت الأمور على قدم وساق منذ ذلك اليوم، مع بعض الانقطاعات الخفيفة والضرورية لاستعادة ألق الحب بكارلا وبأوغوستا على حدٍّ سواء، مثل أي نتيجة في علم الجمال. فكل زيارة قمت بها إلى كارلا كانت تعني خيانة لأوغوستا بلا شك، لكني كنت أنسى كل شيء بعد حمّام من العافية والقرارات الحاسمة. ولم تكن القرارات الحاسمة حادة ومزعجة مثلما كانت عندما أردت أن أخبر عشيقتي بعدم رؤيتها ثانية. بل كنت لطيفاً وحنوناً، وفكرت بنجاحاتها القادمة دوماً. فهجر امرأة كل يوم للركض خلفها في اليوم التالي كان مضنياً على قلبي الطيب الذي لا يتحمل ذلك. أما هكذا فكانت كارلا تبقى تحت سيطرتي، وكنت أقودها في جهة تارة وفي جهة ثانية تارة أخرى.

ولوقت طويل لم تكن قراراتي الحاسمة صارمة لتجبرني على الركض في أنحاء المدينة بحثاً عن أستاذ يناسبها. بل كنت ألهو بقراري الحاسم ذاك، جالساً دون حراك. وفي يوم رائع أبلغتني أوغوستا بأنها حامل، فتعاظم القرار حينئذٍ وحصلت كارلا على أستاذها.

كنت متردداً جداً لأنها تستطيع التمرين مباشرة بشكل جدي على ذلك النمط الجديد حتى دون أستاذ. ففي كل أسبوع كانت تغنّي لي

أغنية جديدة ومدروسة بعناية في الأداء والكلمات. كان عليها أن تصقل بعض النغمات، بل ستصبح أرقى من تلقاء نفسها. ومما أثبت لي أنها فنانة حقيقية هو الأسلوب التي تُتِّم فيه أغنياتها باستمرار دون أن ترفض تلك الأمور الجيدة التي عرفت كيف تتبنّاها منذ الوهلة الأولى. وغالباً ما طلبتُ منها أن تعيد عليّ عملها الأول، وكنت أجد فيه إضافات جديدة وناجعة دوماً. ولم يحدث أبداً أن استبعدت ألحاناً ناشزة أو مبالغة فيها، وكان هذا أمراً عجيباً نظراً لجهلها. بل كانت، كفنانة حقيقية، تضيف كل يوم حجرة في المبنى الصغير دون أن يغيّر هذا شيئاً في الشكل العام. ولم تكن الأغنية رتيبة، بل كان إحساسها يفرض إرادته. فكانت، قبل أن تغنّي، تمرّر يديها على وجهها. وخلف تلك اليدين، تمدّ نفسها بلحظة خشوع تكفي لتدخلها في القصة التي ألّفتها. ولم تكن القصة صبيانية دوماً، فالمدخل الهزلي لأغنية (روزينا يامن ولدت في كوخ) كان يهدّد الأغنية برمتها. ويبدو أنّ المغنيّة تلّمح بمعرفتها بشعبية هذه القصة. فكانت فكرة كارلا مختلفة، لكنها تصل في النهاية إلى النتيجة نفسها:

– إنني أستلطف روزينا، وإلاّ فلن تستحق الأغنية أن تؤدّى – كانت تقول.

حدث في بعض الأحيان أنّ كارلا، من دون علمها، أشعلت حبي لأوغوستا وندمي مجدداً. ووقع هذا فعلاً كلما سمحت لنفسها أن تهين مكانة زوجتي الثابتة في قلبي. ولم تتوانَ يوماً عن رغبتها في أن أكون لها وحدها لليلة كاملة. قالت إن الجوّ الحميم ينقصنا لأننا لم ننم واحداً بجانب الآخر ليلاً. ولأنني اعتدت أن أكون لطيفاً معها لم أرفض اقتراحها بحزم، إنما فكرت أنّ شيئاً كهذا لم يكن بالإمكان إلاّ إذا استسلمتُ لرؤية زوجتي على إحدى الشرفات في الصباح وقد انتظرتني الليل بأكمله. ألم تكن هذه خيانة جديدة بحقها؟!.. فكانت الشهوة تملؤني عندما أركض

twitter @baghdad_library

للقاء عشيقتي في بعض الأحيان، وأشعر أنني ميّال لإرضائها، وسرعان ما أرى استحالة الفكرة وعدم مناسبتها. وهكذا ولوقت طويل لم نصل إلى إلغاء الأمل بالأمر ولا إلى تحقيقه. وفي الظاهر كنا متفقين أننا سنقضي ليلة بأكملها معاً عاجلاً أم آجلاً. وكانت الإمكانية متاحة حينها لأنني أقنعت الوالدة وابنتها بطرد المستأجرين الذين يقسمون المنزل إلى قسمين، فأصبح لكارلا غرفة نومها الخاصة أخيراً.

وبعد زفاف غويدو حدث أن أصيب حماي بتلك الوعكة القاتلة، فتهورتُ بإبلاغ كارلا أنّ زوجتي ستقضي ليلة عند أهلها لتساعد حماتي. ولم يعد بوسعي أن أتخلف، لأنها طلبت أن أقضي معها تلك الليلة الحزينة بالنسبة لزوجتي. ولم أمتلك الشجاعة لأخالف هذه النزوة فجهّزت نفسي على مضض. وحضرت نفسي على تلك التضحية. ولم أذهب إليها في الصباح، بل أسرعتُ إليها عندما حلّ المساء، بشهوة عارمة، قائلاً لنفسي إنّ من الصبيانية أن أعتقد بخيانتي لزوجتي أكثر من ذي قبل، فقط لأني أخونها في لحظة عصيبة عليها. لذا وصلت وقد فقدت صبري لأنّ أوغوستا المسكينة أسهبت في الشرح أين أجد الأشياء التي سأحتاج إليها عند العشاء، وقبل النوم، وحتى قهوة الصباح.

استقبلتني كارلا في مكتبها، وبعد قليل حضّرت لنا خادمتنا - أيّ أمها - عشاءً لذيذاً ألحقته ببعض الحلويات التي أتيت بها. ثم عادت العجوز لتفرغ الطاولة وقد شعرتُ فعلاً برغبة في النوم، لكن الوقت كان مبكّراً حقاً وكارلا أرادت أن أنصت إلى غنائها. فغنّت كل ما لديها وكان أفضل شيء تفعله في تلك الساعة، لأنّ القلق الذي انتظرته راح يضرم نيران اللذة التي منحتني إياها دوماً بأغنياتها.

- عسى أن يغمرك الجمهور بالأزهار والتصفيق. - قلت لها في لحظة معينة ناسياً أنه من المستحيل وضع جمهور بأسره ضمن

الحالة النفسية التي أمرّ بها.

وفي النهاية نمنا معاً على سرير واحد في غرفة صغيرة وخالية من أي شيء، تبدو ممراً مقتطعاً من الجدار. ولم أكن أشعر بالنعاس وكدت أفقد الأمل في ذلك لأنني فكرت أنه لو كان عندي مثل هذه الغرفة لما استطعت النوم في هواء قليل تحت تصرفي.

نادت الوالدة ابنتها بصوت خجول، فخرجت وأغلقت الباب خلفها. سمعتها تسأل أمها ما الذي تريده بصوت مضطرب. فقالت الأم بخجل كلمات لم أفهم معناها، وإذ بكارلا تصرخ قبل أن تطبق الباب في وجه أمها:

- دعيني وشأني، قلت لك مسبقاً إنني سأنام هنا هذه الليلة!..

فعلمت أنّ كارلا، التي تخاف من الظلام، كانت تنام دوماً في غرفة النوم القديمة مع أمها، حيث يوجد لها سرير آخر، بينما يبقى السرير الذي كنا سننام عليه خالياً. ومن المؤكد أنَّ الخوف كان السبب في طلبها مني أن أخلف وعدي مع أوغوستا. اعترفت بسرور خبيث لم أشارك فيه، إنها تشعر بالأمان معي أكثر من أمها. وجعلني ذلك السرير أفكر في قرب غرفة المكتب المنعزلة، خاصة أني لم أره من قبل. كنت غيوراً! واحتقرتها أيضاً على تصرفها الأحمق مع والدتها. فكانت مختلفة عن زوجتي التي تخلّت عن صحبتي لتعاون والديها. إنني حساس جداً تجاه فقدان الاحترام للوالدين، أنا الذي تحمّلت هلوسات والدي المسكين برضوخ.

لم تتمكن كارلا من ملاحظة غيرتي ولا احتقاري. فعملتُ جاهداً على إخفاء مظاهر الغيرة متذكراً أنني لا أملك الحقّ في أن أكون غيوراً، نظراً لكوني أقضي جزءاً كبيراً من أيامي آملاً أن يخطف أحدهم عشيقتي مني. ولم يكن هناك أي هدف من جعلها تنتبه لاحتقاري لها بعد أن

twitter @baghdad_library

فكرت في هجرها نهائياً، مع أن احتقاري تصاعد للسبب نفسه الذي حرّك غيرتي قبل قليل. وما عليّ سوى الابتعاد بأقصى سرعة عن تلك الغرفة الصغيرة شديدة الحرّ ولا تحتوي على أكثر من متر مكعّب من الهواء.

لم أعد أذكر الحجة التي زعمتها كي أنصرف بسرعة. بدأت أرتدي ثيابي بصعوبة، وتذرّعت بمفتاح نسيت أن أسلّمه لزوجتي التي لن تستطيع دخول المنزل من دونه. أريتها مفتاحاً لم يكن سوى مفتاحي الذي أضعه في جيبي دائماً، لكنه كان الدليل الملموس لحقيقة مزاعمي. ولم تحاول إيقافي، فلبست واصطحبتني للأسفل كي تنير لي الدرج. وفي الظلام بدت كأنها ترمقني بنظرة محقق أزعجتني. هل بدأت تفهمني؟ لم يكن سهلاً عليها، نظراً لقدرتي الرهيبة على الكذب. وما زلت أقبّل خدها بين الفينة والأخرى لأشكرها على السماح لي بالمغادرة، وأكذّب بالقول إنني مليء بالحماس نفسه الذي اقتادني إليها. ولم يكن لدي أدنى شك بنجاحي في تزييف الحقائق. قالت لي قبل قليل إنّ اسمي الكريه الذي ورّطني فيه والداي لم يكن يناسب شخصيتي. فألهمها الحبّ أن تسمّيني داريو، وهناك في الظلام بدأت تناديني به. ثم لاحظت سوء الطقس، فتبرّعت أن تصعد لتأتي لي بمظلّة. لكني لم أعد أستطيع تحمّلها إطلاقاً، فمضيت حاملاً المفتاح في يدي وكدت أصدّق أمره أيضاً.

كانت ومضات لامعة تقطع الظلام الحالك من حين لآخر، والرعد يبدو بعيداً. أما الجو فكان هادئاً وحاراً كما في غرفة كارلا، حتى زخات المطر الخفيفة التي انهمرت كانت فاترة. وكان الخطر واضحاً في السماء، فبدأت أهرول. ومن حسن الحظ أنني وجدت أحد المداخل مفتوحة ومنارة في شارع ستاديون، فلجأت إليه في الوقت المناسب. وسرعان ما احتشدت السحب فوق الشارع ووصلت ريح عاتية تحمل معها الرعد القريب لتقطع خرير المطر، فارتجفت! إنها لمجازفة حقيقية أن يمزّقني

البرق في تلك الساعة على رصيف شارع ستاديون!.. الحمد لله أنني اشتهرت بغرابة أطواري حتى عند زوجتي، إذ كان منطقياً أن أوجد هناك وفي الليل. ثمة عذر لكل شيء دوماً..

أجبرت على البقاء في ذلك المدخل ساعة أو يزيد. وكلما بدا أنّ الطقس تحسّن، حتى يزمجر من جديد بشكل مختلف على الدوام. سقطت حبّات البَرد أيضاً حينها.

وكان البواب آتياً ليرافقني، وأرغمت على إعطائه البقشيش ليؤخر إغلاق تلك البوابة. ثم دخل سيد بزيّ أبيض مبللاً بالماء، وكان عجوزاً نحيفاً وحاد الطبع، غاضباً لتبلله بتلك الطريقة. لم أره أبداً بعد ذلك اليوم، لكني لا أقوى على نسيان ضوء عينيه الغامقتين والطاقة التي كانت تشعّ من شخصيته الهزيلة. يعجبني أن أبقى طويلاً مع أشخاص لا أعرفهم، إذ أشعر بنفسي واثقاً ومعافى معهم، كأنني في نقاهة بالأحرى. فما عليّ سوى الحذر من أن أعرج.

وعندما هدأت العاصفة أخيراً، توجهت مباشرة إلى بيت حميّ وليس إلى بيتي. بدا واجباً عليَّ في تلك اللحظة أن ألبّي النداء فوراً وأفخر بوجودي.

كان حماي قد نام، واستطاعت أوغوستا أن تجيء إليَّ بعد أن ساعدتها إحدى الممرضات. قالت إنني أحسنت صنعاً بمجيئي، وارتمت باكية بين أحضاني لأنها رأت والدها يتألم بشكل فظيع. وجدتني مبللاً، فأجلستني على الديوان، وغطّتني. ثم تسنى لها البقاء بقربي بعض الوقت. وكنت متعباً جداً أصارع النعاس حتى في ذلك الوقت الوجيز الذي جلست فيه بجانبي. شعرتُ ببراءتي لأنني لم أخنها ببقائي بعيداً عن بيتنا لليلة كاملة. وكانت تلك البراءة التي حاولتُ أن أعظّم من أمرها رائعة جداً، فتفوّهت بكلمات تشبه الاعتراف كثيراً، وقلت لها إنني

twitter @baghdad_library

أشعر بالضعف والذنب. نظرت إليَّ لتطلب توضيحاً، فأدخلت رأسي في القوقعة على الفور، ووهبت نفسي للفلسفة. أخبرتها أني أملك الإحساس بالذنب في أية فكرة وفي كل شهقة هواء.

– هكذا يفكّر المتدينون أيضاً – قالت – فلا عجب أننا نعاقب هكذا على ذنوب نجهلها!..

كانت تدلي بكلمات تناسب دموعها الغزيرة. وشعرت أنها لم تستوعب الاختلاف الكامن بين فكرتي وفكرة المتدينين، لكنني لم أشأ مناقشتها. فنمت نوماً قريراً على رتابة صوت الريح المتعالية وعلى السكينة التي أمدنّي بها ذلك الاعتراف.

وعندما حان دور أستاذ الغناء، كان كل شيء جاهزاً بساعات قليلة. كنت قد اخترته منذ وقت، والحق يقال إنني توقفت قليلاً عند اسمه قبل كل شيء، لأنّ دروسه كانت الأرخص في تريستا كلها. ذهبت كارلا للتحدث إليه وحدها، كي لا أضع نفسي في مساءلات بغنى عنها. لم أكن قد رأيته من قبل، لكنني بِتُّ أعرف الكثير عنه الآن، فأصبح من أفضل الرجال الذين عرفتهم في هذا العالم. والغريب أنه كان شخصاً بسيطاً وسليماً بالنسبة لفنان مثله يعيش من فنه. وبالمحصلة كان فيتوريو لالي رجلاً محطّ الحسد لأنه عبقريّ ومعافى أيضاً. وفي ذاك الوقت شعرتُ فوراً أنّ صوت كارلا غدا ألطف وأمرن وواثقاً أكثر. وخشينا أن يفرض عليها تمارين صعبة كما فعل ذاك الذي اختاره إنريكو. ربما انصاع لرغبتها، لكنه ظلّ المفضّل عندها عموماً. وبعد عدّة أشهر فقط شعرتُ بصوتها يزداد عذوبة وخفة؛ فلم تعد تغني الأغنيات المحلية وحسب، بل وثبتْ إلى تلك النابوليتانية ثم إلى أغنيات إيطالية قديمة، فموزارت فشوبرت. أذكر بالأخص أغنية النوم المنسوبة لموزارت، والتي أسمع صداها في أذني يؤنّبني في أيام التعاسة والندم على هجر تلك الحسناء

التي كانت لي ولم أكن أحبها. وأراها ترتدي لباس الأمهات وتُخرج من صدرها ألحاناً رقيقة تمنح النوم لمولودها، وهي التي كانت عشيقة لا تنسى، لن تستطيع أن تكون أماً لأنها كانت ابنة شريرة. لكن الغناء ميزة تعوّض أية ميزة أخرى كالأمومة مثلاً.

وعرفت قصة الأستاذ من كارلا. لقد درس لبعض السنوات في كونسرفاتوار فيينا، ثم عاد إلى تريستا حيث حالفه الحظّ ليعمل لدى موسيقارنا العظيم بعد أن فقد بصره. كان يدوّن له مؤلفاته، فحصل على ثقة لا يمنحها العميان إلاّ كاملة. وتعلّم منه التصميم والثبات والقناعات الناضجة وديمومة الأحلام الفتية. وسرعان ما امتلأت روحه بالموسيقى، حتى تلك التي تطلّعت إليها كارلا. وصفت لي مظهره أيضاً: كان شاباً أشقر مكتنزاً، متسيباً في لباسه، بقميص رخو نادراً ما ينظّفه، وربطة عنق سوداء على الأرجح، كبيرة ومفكوكة، وقبّعة بالية مثنية بشكل فوضوي. وكان قليل الكلام يركّز جيداً بالعمل المفرّغ له، على حدّ زعمها. ولابدَّ أن أصدّقها لأنه أصبح ثرثاراً بعد أشهر قليلة، وأخبرتني سريعاً بتغيّره هذا.

وسرعان ما أخذ نهاري يتعقد. ففي الصباح كنت أحمل إلى كارلا، إضافة إلى الحب، غيرة مُرّة تقلّ مرارة مع مرور اليوم. فكان يبدو لي مستحيلاً أن لا يستغلّ ذاك الشاب تلك الفريسة الضعيفة واللذيذة. وذهلت كارلا لأني فكرت بشيء كهذا، لكني ذهلت أكثر عندما رأيتها مذهولة. ألم تعد تذكر كيف جرت الأمور بيني وبينها؟...

في أحد الأيام وصلت إليها هائجاً من الغيرة، فأعلنت فوراً أنها على استعداد أن تسرّح الأستاذ من شدة هلعها. ولا أظن أنّ الهلع كان بسبب الخوف من فقدان دعمي لها وحسب؛ ففي تلك الفترة حصلتُ منها على حبّ لا أشكّ فيه، جعلني هنيئاً مرة تلو مرة. لكني كنت أرى هذا الحبّ كفعل عدائي بحق أوغوستا، عندما يتقلب مزاجي، لأني أجبر

twitter @baghdad_library

على المشاركة فيه مهما ارتفع ثمنه. فاجأني اقتراحها، ولم أكن لأقبل تضحية منها إن كنت أمرّ بلحظة ندم أو غرام. لابدَّ أنَّ تواصلاً ما كان يجري بين هاتين الحالتين النفسيتين، ولم أنو تقييد حريتي الضئيلة في التنقل من حالة إلى الثانية. لذا لم أتمكن من قبول اقتراحها الذي جعلني متيقظاً لدرجة أني تمكّنت من إخفاء مظاهر الغيرة حالما كنت على وشك الاختناق بها. فالحب جعل نقمتي أكبر وبدت لي كارلا كائناً دونياً سواء اشتهيتها أم لا، سواء خانتني أم لا؛ فلم يعد ذلك يعنيني. وعندما لا أكرهها لا أذكر أنها موجودة، فأنا أنتمي لمملكة العافية والإخلاص حيث تعتلي زوجتي العرش، فأعود إليها جسداً وروحاً ما إن تطلق كارلا سراحي.

أعرف بدقة كم بقيت عشيقتي ملكاً لي بصراحتها القصوى؛ وأنّ غيرتي التي بدأت منذئذٍ لا يمكن اعتبارها إلاَّ مظهراً مبطّناً لمعنى العدالة. وكان لابدَّ أن أنال ما أستحقه رغم ذلك. فوقع الأستاذ في الحب أولاً. وأولى دلائل الحب تكونت مع بعض الكلمات التي وجهّتها كارلا إليَّ بصيغة انتصار، معتقدة أنها تعني أول نجاح فني عظيم يستحق مني مكافأة ما. ربما قال لها إنه بات متيّماً بالدروس وإنه سيكملها مجاناً إن لم تستطع تدبير المال. وددت أن أصفعها على وجهها، لكن اللحظة التي اصطنعتُ بها سعادتي بانتصارها الحقيقي قد حانت. ولم تكترث للتشنج الذي أصاب وجهي، كمن يغرس أسنانه في الليمون، ووافقتُ على المكافأة المتأخرة بسرور. لقد أخبرها بكل شؤونه الخاصة، والتي لم تكن كثيرة، كالموسيقا والبؤس والعائلة. تسبّبت أخته بهموم جمّة واستطاع أن ينقل لكارلا نقمته على تلك المرأة التي لم تكن تعرفها. وقد بدت لي تلك النقمة خطيرة جداً. كانا يغنيّان لساعات معاً من أغانيها التي نعتُّها بالفشل سواء عندما أحببتها أو عندما شعرت أنها تقيّدني. وقد

تكون ناجحة رغم ذلك بصرف النظر عن عدم اهتمامي بها بعدئذ. لقد قاد بعض الأوركسترات في الولايات المتحدة لاحقاً، وربما تُغنّى مثل هذه الأغاني هناك أيضاً.

لكنها أخبرتني في يوم ما أنه عرض عليها الزواج، ورفضت. فقضيت حينها ربعي ساعة كريهين حقيقة: الربع الأول عندما شعرت أني حبيس الغضب حتى وددت انتظار الأستاذ لأرميه خارجاً بركلات حاقدة؛ والثاني عندما لم تسعفني الكلمات في إيجاد إمكانية لاستمرار علاقتي الفاجرة أثناء ذلك الزواج الذي كان أمراً رائعاً وأخلاقياً في الحقيقة، وتبسيطاً تاماً لدوري في مستقبلها الفني الذي تخيّلتْه يبدأ في مصاحبتي. لماذا أُثير ذلك الأستاذ المبارك على هذا النحو وبهذه السرعة؟.. بات كل شيء ينخفض بيننا بعد عام من العلاقة، سيّما مزاجي السيئ حالما أتركها. وبتّ أحتمل الندم؛ ومع أنّ كارلا التي كان مازال لها الحقّ في نعتي بالعاشق الفظ، بدت أنها اعتادت على هذا الوضع. ولابدَّ أنها نجحت فيه بسهولة لأني لم أكن خشناً وهمجياً مثلما كنت في الأيام الأولى من العلاقة. وبما أنها احتملت ذلك الجزء الأعظم من الفجاجة، فالباقي سيكون لطيفاً نسبياً. فكان يسيراً عليّ أن أكتئب في اليوم التالي إن جئت باحثاً عن عشيقتي ولم أجدها، حتى عندما لم تعد تعنيني كثيراً. وسيكون رائعاً طبعاً أن أعود إلى أوغوستا دون الفاصل المعتاد مع كارلا. كنت أشعر أنني قادر على فعل ذلك حينها، لكن عليّ أن أجرّب أولاً. كان قراري هكذا تقريباً: (في الغد سأتوسل إليها أن تقبل اقتراح الأستاذ. لكني اليوم سأمنعها عن ذلك). وبذلت جهداً جباراً في متابعة التصرف كعشيق. الآن، وأنا أتحدث عن تلك الحقبة، وبعد أن سجّلت كل مراحل تلك المغامرة، يبدو أني قمت بمحاولة لأزوّج عشيقتي لغيري كي أحتفظ بها لنفسي. لكن تفكيراً كهذا قد يكون

twitter @baghdad_library

لرجل حكيم ومتزن أكثر مني، حتى لو كان فاسقاً مثلي وأكثر. بل ليس صحيحاً: فعليها أن تتزوج الأستاذ، شرط أن تأخذ هذا القرار في الغد. تلاشت حالتي تلك التي أعاند على تصنيفها بمستوى البراءة. لم يعد بالإمكان أن أعشق كارلا لوقت وجيز، ثم أكرهها لأربع وعشرين ساعة متواصلة، وأستيقظ في كل صباح جاهلاً كل شيء كأني ولدت من جديد، لأعود وأحيى اليوم الذي يشبه كل الأيام السابقة، فتفاجئني الأحداث التي يحملها، والتي كان عليّ أن أحفظها عن ظهر قلب. لم يعد هذا ممكناً! بل كنت مطّلعاً على إمكانية فقدان عشيقتي للأبد، إن لم أتمكن من إخماد رغبتي في التخلص منها. فأخمدتها بسرعة!..

وعندما لم تعد تعنيني، مثّلتُ أمامها في ذلك اليوم مشهداً عاطفياً كان، لشدة بطلانه وهيجانه، يشبه المشهد الذي مثّلته أمام أوغوستا ليلاً في العربة بعد أن نال النبيذ مني. أما هنا فلا يوجد مفعول النبيذ فتأثرت برومنسية كلماتي فعلاً. أعربت عن حبي لها، وأني لا أستطيع العيش بدونها، وأني أطالبها بالتضحية بحياتها نظراً لعدم استطاعتي أن أمنحها شيئاً يضاهي ما يعرضه السيد لالي.

فتحتُ بذلك فصلاً جديداً في علاقتنا التي استمرت ساعات طويلة من الحب العظيم. كانت جالسة تسمع كلماتي باستمتاع. ثم استعدت لاحقاً لتقنعني أنّ الوقت ليس مواتياً للعذاب كثيراً، لأنّ فيتوريو كان مغرماً بها، وهي لا تفكر فيه إطلاقاً!

فشكرتها بالحماس ذاته الذي لم يؤثر فيَّ على الرغم من هذا. شعرتُ بثقل في المعدة، فكنت في خطر أكثر من أي وقت مضى طبعاً. وبدل أن يهبط حماسي الظاهر، أخذ يرتفع لأسمح لنفسي بأن أوجّه بعض كلمات الإعجاب لفيتوريو المسكين. فلم أنو أن أخسره، بل كنت أنوي إنقاذه ولكن في اليوم التالي. وسرعان ما اتفقنا بشأن إبقائه أو تسريحه.

فلم تكن لدي أية نيّة لعرقلة مستقبلها الفني إضافة إلى الزواج، حتى هي اعترفت بأنها تود الاحتفاظ به. إذ تيقّنت من ضرورة وجوده في حياتها الغنائية بعد كل درس. وأكدتُ أني أستطيع العيش مطمئناً وواثقاً لأنها تحبني دون الرجال جميعهم.

وما كان من خيانتي إلاً أن امتدّت واتّسعت بالطبع. فكنت متعلقاً بعشيقتي بحنان جديد يربطنا بصلات جديدة، وكان يجتاح أراض محجوزة لحبي الشرعي فقط حتى اللحظة. ولكني ما إن أعود إلى المنزل حتى أنسى ذلك الحنان كأنه وهميّ، بل كان يصبح أكبر لصالح أوغوستا. فلم أحمل تجاه كارلا إلاّ سوء الظن. والله أعلم ما الذي كان حقيقياً في اقتراح الزواج ذاك! ولم أكن لأعجب إذا أهدتني طفلاً موهوباً بالموسيقى دون الزواج بأستاذها. وباشرتُ ثانية بقراراتي الحديدية التي تصطحبني إليها، لأستسلم عندما أكون معها وأستعيد قواي عندما أتركها.

ولم يكن هناك تبعات أخرى لهذه الأحداث. انقضى فصل الصيف، آخذاً معه حميّ. وكان لدي فعل الكثير في مؤسسة غويدو التجارية الجديدة حيث عملت أكثر من أي مكان آخر، بما فيها الكليّات الجامعية المختلفة. وسأتحدث لاحقاً عن هذا العمل. وانقضى فصل الشتاء أيضاً، وتفتّحت أولى الأوراق الخضراء في حديقتي التي لم ترني محبطاً كما رأتني في العام الفائت. وولدت ابنتي أنتونيا. وكان الأستاذ تحت تصرفنا دائماً؛ ورغم هذا لم نتكلم في أمره مطلقاً، حينئذٍ.

كانت هناك تداعيات خطيرة في علاقتي مع كارلا لأحداث لم تكن مهمة. فكانت تقع من دون إنذار، ويتم اكتشافها بعد التداعيات التي تترك أثراً لها.

في مستهل ذاك الربيع، أجبرتني على مرافقتها إلى الحديقة العامة. كان الأمر يبدو لي مجازفة خطيرة، لكنها رغبت كثيراً في التنزه ممسكة

twitter @baghdad_library

بيدي تحت الشمس، حتى وجدت نفسي أرضيها. لم يكن مسموحاً لنا أن نعيش كزوجين ولو للحظات وجيزة، وحتى تلك المحاولة باءت بالفشل..

جلسنا على أحد المقاعد ننعم بالدفء الجديد المفاجئ الذي أتى من السماء، حيث استعادت الشمس عرشها. وكانت الحديقة في صباح أيام العمل خالية تماماً، فتهيّأ لي أني سأكون بمنأى عن خطورة أن يراني أحدهم وأنا جالس بلا عمل. وعندما كنت أسند إبطي إلى حافة المقعد، اقترب منا توليو، صاحب الأربع والخمسين عضلة، بخطىً بطيئة وثقيلة. وجلس بقربنا تماماً دون أن ينظر إلينا. ثم رفع رأسه، فتقاطعت نظراتنا، فحيّاني:

– يا للأيام كيف تمضي! كيف حالك؟.. ألديك القليل من العمل أخيراً؟..

جاء وجلس بقربي، وتحركتُ على وقع المفاجأة بطريقة تمنعه من رؤية كارلا. لكنه سألني، بعد أن شدَّ على يدي:

– أهي زوجتك؟!..

كان ينتظر أن أعرّفه عليها، فاستسلمت:

– الآنسة كارلا جيركو، صديقة زوجتي.

ثم واصلت الكذب وعرفت من توليو نفسه أنَّه اكتفى بالكذبة الثانية لكشف كل شيء. إذ قلت بضحكة مصطنعة:

– حتى الآنسة جلست بقربي على هذا المقعد صدفة، دون أن تراني.

ينبغي على الكذّاب أن يضع الأكاذيب الضرورية بعين الاعتبار ليصدّقه الآخرون. فعندما التقينا بعدها قال توليو بسوقية وطيب خاطر:

– قمت بشرح الكثير من الأمور، لذا فهمت بأنك تكذب وأنّ تلك الآنسة الجميلة كانت عشيقتك...

وكنت قد خسرت كارلا حينها، فأكدت له بشهوة مريرة أنه أدرك كل شيء بالإشارة، لكني أخبرته بحزن أننا انفصلنا. ولم يصدّقني فشكرته على ذلك، لأنّ كلماته بدت كبشرى سارة..

أخذ مزاج الفتاة يتعكّر بشكل لم أره مسبقاً. الآن أعرف أنها بدأت ثورتها في تلك اللحظة، ولم أفطن إلى ذلك فوراً لأنني كنت موجّهاً ظهري لها لأسمع توليو الذي شرع يحدّثني عن مرضه وأنواع العلاج التي بادر إليها. فعرفت لاحقاً أنّ المرأة لا تقبل أن يتجاهلها حبيبها بين الناس في لحظة معينة، حتى لو سمحت له أن يكون أقلّ لطفاً معها دائماً. فأظهرت ازدراءها تجاه الأعرج المسكين وليس تجاهي، ولم تجبه عندما وجّه إليها السؤال. حتى أنا لم أصغ إليه، ففي تلك اللحظة لم أكن أكترث لطرقه في العلاج. بل نظرت في عينيه الصغيرتين لأفهم ما الذي كان يفكر فيه بشأن هذا اللقاء. وكنت أعلم أنه بات متقاعداً، فكان بوسعه أن يهاجم بدردشاته كل مجتمعنا الصغير في تريستا آنذاك، بما أنه متفرغ طوال اليوم. ثم نهضت كارلا لتتركنا بعد تأمل طويل. همست:

- إلى اللقاء ! - ومضت.

كنت أعلم أنها غضبت مني فحاولت كسب الوقت الكافي لأرضيها، آخذاً بعين الاعتبار وجود توليو. أخذت إذنها في مرافقتها متذرّعاً ببعض الأعمال في جهة منزلها. كانت تحيّتها الجافة تعني الهجران دفعة واحدة، وخشيت ذلك جدّياً للمرة الأولى. كان تهديداً حقيقياً يقطع أنفاسي. لكنها لم تكن تعلم أين تذهب وهي تخطو واثقة، فكانت ترفّه عن غيظٍ آنيّ سيتركها وشأنها بعد قليل.

انتظرتني ومشت بقربي دون أن تتكلم. وعندما وصلنا إلى البيت، اجتاحتها حالة من البكاء لم تقلقنِي لأنها لجأت إلى أحضاني. فشرحت لها من كان توليو وما حجم الأذى الذي سيسبّبه لسانه بحقي. وعندما

twitter @baghdad_library

رأيتها ماتزال تبكي، بين أحضاني، تجرّأت على نبرة حازمة: (هل تريدين لي الأذى؟ ألم نقل مراراً إننا سنفعل ما أمكننا لنوفر الآلام على تلك السيدة المسكينة، زوجتي وأمّ ابنتي؟). تداركت نفسها، لكنها أرادت أن تبقى وحيدة لتهدأ. فذهبت بعيداً.. وسعيداً!

لابدَّ أنها رغبت كثيراً بالظهور كزوجة لي على العلن ابتداء بذلك الحدث. كانت تبدو كأنها تفكر في إجباري على شغل حيّز أكبر من المكان الذي رفضت أن يحتلّه الأستاذ، لأنها لم تنوِ الزواج به. وقد أزعجني طويلاً أن نحجز مقعدين في المسرح لنجلس فيهما، وأن يأتي كل واحد منا من جهة لنجد أنفسنا واحداً بجانب الآخر، كما لوكان الأمر صدفة. وما بلغت معها إلاّ الحديقة العامة لمرات عديدة، تلك الصخرة التي نقشت عليها أخطائي، وليس أبعد من ذلك. وأمست عشيقتي تشبهني كثيراً. فكانت تنزعج مني بسخط مباغت، في كل لحظة، ودون أي سبب. وسرعان ما تهدأ، لكن ذلك كان كافياً ليجعلني طيباً جداً ومطواعاً. وغالباً ما كنت أراها تذرف دموعها، وما تمكّنت من معرفة سبب آلامها. ربما كان الذنب ذنبي لأنني لم أصرّ كفاية لأحافظ عليها. وما عدت أحتاج لمعرفة الأسباب عندما عرفتها جيداً، أيّ بعد أن هجرتني. لقد رمت بنفسها في مغامرتي، تدفعها الحاجة، ولم تكن مؤهلة لذلك في الحقيقة. كانت تصبح بين أحضاني امرأة، - ويعجبني هذا الافتراض - امرأة مخلصة. وبالطبع لم أكن أستحق ذلك، حتى أنني تأذيت بالدرجة الأولى.

راودتها فكرة مجنونة فاجأتني في البدء، وسرعان ما أعجبتني. أرادت أن ترى زوجتي. أقسمت أنها لن تقترب منها، وستتصرف بطريقة لا تجعلها تراها. فوعدتها أنني سأعلمها بخروج زوجتي في ساعة محددة. كان عليها أن تراها ليس بالقرب من منزلي، حيث المكان خال ومن السهل أن تُكشف، إنما في شارع مزدحم من المدينة.

وفي ذلك الوقت تقريباً أصيبت حماتي بمرض في عينيها أجبرها على عصبهما لأيام. وكانت تنفجر من الضجر، فتناوبت بناتها عندها، ليجبرنها على مواصلة العلاج بشكل منتظم؛ زوجتي في الصباح، وآدا حتى الرابعة تماماً من الظهيرة. وأخبرت كارلا بحزم عفوي أنّ زوجتي كانت تخرج من بيت والدها عند الرابعة تماماً. ولا أعلم حتى الآن لماذا اعتبرتُ آدا زوجتي. من المؤكد أنني شعرت بحاجة إلى جذب عشيقتي التلميذة إليّ أكثر، بعد طلب الزواج الذي تقدّم به الأستاذ. وربما ظننت أنها ستقدّر الرجل الذي ضحّى بزوجة جميلة من أجلها. فأوغوستا لم تكن في تلك الفترة إلاّ مربية طيبة ومعافاة. وقد يكون التهور ما أثرَّ عليَّ لاتخاذ قرار كهذا، وكنت محقاً بالخشية من أهواء عشيقتي. ولو تركت لنفسها أن تتصرف بشكل سيئ مع آدا فلم يكن لذلك أهمية، طالما أنها أكدت عدم فضحي عند زوجتي أبداً. وإذا وشت كارلا بآدا عني، فكنت سأعترف بالحقيقة أمام تلك الأخيرة وأنا مسرور جداً.

ولكن سياستي هذه وجدت أمامها عائقاً غير متوقع. فقد ذهبتُ إلى كارلا، مدفوعاً بقلق غريب، في ساعة مبكرة من الصباح أكثر من العادة. وجدتها في مزاج مختلف تماماً عن اليوم السابق، إذ اجتاح وجهها الجميل جدية عظيمة. أردت أن أقبّل ثغرها، لكنها دفعتني ثم تركتني أقبّل خدها، لتجعلني أنصت إلى كلامها بطاعة. جلسنا وجهاً لوجه على الطاولة. وعلى مهل، أخذت ورقة كانت تكتب عليها إبان قدومي، ووضعتها بين أوراق موسيقية فوق الطاولة. لم أعر انتباهاً لتلك الورقة، وعلمت لاحقاً أنها رسالة كتبتها إلى أستاذها.

ولكنني أعلم الآن أنّ ذهنها كان مليئاً بالشكوك. وكانت عيناها تنظران بجدية إلى عيني كأنهما تحققان. ثم حوّلت نظراتها إلى نور النافذة لتنعزل وتنكفئ على نفسها أكثر. والله أعلم! لو تكهنتُ جيداً بما

twitter @baghdad_library

كان يجول في خاطرها حينذاك لاستطعت أن أحتفظ بعشيقتي الحسناء حتى اليوم..

أخبرتني بلقائها مع آدا. انتظرتها مقابل بيت أهلها، وعندما وصلت عرفتها فوراً.

– لم يكن ثمة ما يجعلني أخطئ. لقد وصفتها بتفاصيلها الأكثر أهمية. أنت تعرفها جيداً!...

سكتت لوهلة لتسيطر عليها المشاعر التي أجهشت في حلقها، ثم تابعت:

– لا أعرف ما الذي حصل بينكما، لكني لا أريد أن أخون تلك المرأة الجميلة جداً والحزينة جداً! وسأكتب اليوم إلى الأستاذ أنني مستعدة للزواج به!

– حزينة! – صرخت مستعجباً – أنت تخدعين نفسك. ربما تكون قد تألمت من حذائها الضيق مثلاً.

آدا حزينة؟!.. كيف وكانت تضحك وتبتسم دوماً؟!.. رأيتها في نفس الصباح في بيتي لعدة لحظات. لكن كارلا كانت تعلم أكثر مني:

– حذاء ضيق؟! كانت تشبه ملاكاً يخطو فوق السحاب!...

أخبرتني وهي متأثرة أنها استطاعت أن تبادلها بكلمة رائعة، حيث سقط منديل «زوجتي» فرفعته كارلا وأعطتها إياه، فتأثرت بكلمة الشكر حتى الدموع. وكان هناك شيء آخر بين المرأتين، إذ أجزمت عشيقتي أنّ آدا لاحظت دموعها، فشاركتها بنظرة شفقة حزينة. فكان كل شيء واضحاً إذن: زوجتي تعرف أنني أخونها وكانت تتألم لذلك! وعليه قررت أن لا تراني بعد، وأن تتزوج فيتوريو.

لم أعرف كيف أدافع عن نفسي! كان سهلاً أن أتحدث بسوء عن آدا، وليس عن زوجتي المربية السليمة التي لم تنتبه مطلقاً لما كان يجول

في خاطري، وهي منهمكة ببناء دولتها. سألت كارلا إذا ما لاحظت القسوة في نظرة آدا، وإذا ما انتبهت أنّ صوتها الخافت والخشن خال من أي طلاوة. فكنت سأنسب بكل سرور إلى زوجتي صفات أكثر بشاعة، لأسترجع حب عشيقتي ثانية. ولم أنجح لأنني، ومنذ عام تقريباً، لم أكن أفعل شيئاً سوى رفع زوجتي إلى عرش السماوات بالحديث عنها مع عشيقتي...

ولكنني أنقذت نفسي بطريقة أخرى. فانهمرت دموعي من هول عاصفة العواطف التي اجتاحتني أيضاً. وبدا لي أنني أستطيع أن أشفق على نفسي بطريقة مشروعة. وألقيت بنفسي مكرهاً في محنة تعيسة. فكانت المغالطة بين آدا وأوغوستا لا تطاق. والحقيقة أنّ زوجتي لم تكن جميلة جداً، وأنّ آدا - التي أشفقت عليها كارلا - تصرفت معي بشكل سيء. لذا فإنّ كارلا مجحفة في حكمها. رأت الفتاة دموعي، فأصبحت لطيفة:

- داريو العزيز!... كم أحزن لرؤيتك تبكي!... لابدَّ من وجود سوء تفاهم بينكما ويجب أن يتوضح الآن. لا أريد أن أحكم عليك بقسوة، لكنني لن أخون تلك المرأة ثانية ولا أريد أن أكون سبباً في شقائها، لقد أقسمت على ذلك!...

وبصرف النظر عن قسمها فقد خانتها للمرة الأخيرة. ربما أرادت أن تنفصل عني للأبد بقبلة أخيرة. وانسجمتُ مع تلك القبلة، وإلاَّ فكنت سأخرج مليئاً بالحقد. فاستسلمت كارلا، وكنا نهمس معاً:

- إنها المرة الأخيرة!...

كانت لحظة رائعة! فعندما يُتخذ القرار من شخصين تكون له فائدة تمسح أي شعور بالذنب. كنا بريئين وهنيئين!.. إذ خصّني قدري العطوف بلحظة سعادة تامة. كنت أشعر بالسعادة حتى واصلت المسرحية إلى

twitter @baghdad_library

لحظة الفراق. لم نكن سنلتقي ثانية، ورفضت أن تأخذ الظرف الذي كنت أحمله في جيبي دوماً، ولم ترغب بالاحتفاظ بأي ذكرى مني. كان لابد أن نمسح من حياتنا كل آثار الخطايا الماضية، فقبّلتها بسرور على جبينها كما أرادت من قبل.

وعند الدرج راودني شك أنّ الأمر جرى بكثير من الجدية، ولو عرفت أنها كانت تحت تصرفي في اليوم التالي لما فكرت باكراً في المستقبل. كانت تنظر إليَّ من البهو، فصرخت ضاحكاً:

- إلى اللقاء غداً!..

ففوجأت، وابتعدت بخوفها قائلة:

- أبداً بعد اليوم!...

لكني شعرت بارتفاع معنوياتي لأنني تجرأت على قول الكلمة التي قد تهيّأ لي قبلة أخيرة أخرى وقتما أرغب بها. وقضيت يوماً جميلاً عند زوجتي ثم في مكتب غويدو متخلصاً من الشهوات والالتزامات. أعترف أنّ ندرة الالتزامات كانت تقرّبني من زوجتي وابنتي. فكنت ملكاً لهما أكثر من المعتاد؛ ليس لطيفاً فحسب، بل أباً حقيقياً يفرّغ تفكيره لعائلته، ويدبّر ويسيطر باطمئنان. وقبل النوم، قلت لنفسي عبارة أشبه بقرار:

- آه لو كانت كلَّ أيامنا تشبه هذا اليوم!...

وقبل أن تنام زوجتي، أرادت أن تخبرني بسرّ خطير عرفته من أمها في اليوم ذاته. قبل بضعة أيام باغتت آدا غويدو بينما كان يعانق إحدى الخادمات. وفي البدء أرادت أن تغفر له، لكن الخادمة كانت متعجرفة، مما اضطر الأولى أن تسرّح الأخيرة. وفي اليوم الفائت كانوا قلقين من ردّة فعله، فلو أبدى تذمراً لطلبت آدا الطلاق. لكنه أخذ يضحك ويعترض من أنّ زوجته لم تر جيداً، ولم يعارض أن تسرّح تلك المرأة، البريئة، الذي كان يقول إنه يشعر بسماجتها كثيراً. وبدا أنّ الخلافات قد سوّيت تماماً..

كان يهمني أن أعرف ما إذا كانت آدا واهمة فعلاً عندما فاجأت زوجها بوضعيته تلك. أكان هناك مجال للشك؟!.. فمن الضروري التذكير أنه عندما يتعانق اثنان يكون لهما وضعية تختلف تماماً عندما يلّمع أحدهما حذاء الآخر. كان مزاجي معتدلاً، وشعرت بضرورة أن أكون عادلاً بحق غويدو. فآدا غيورة بلا شك، وقد يحدث أنّ المسافة ضيقة وأنّ الشخصين استبدلا مكانهما ليس أكثر. قالت زوجتي بصوت كئيب إنّ أختها متأكدة مما رأته، وإنها تحكم بشكل سيء لشدة تأثرها. وأضافت:

- كانت ستحسن صنعاً لو تزوجت بك!..

فأهديتها جملة، وكنت أشعر بنفسي أكثر براءة: - بل ربما أحسنتُ صنعاً بالزواج منك بدلاً منها!.. - ثم غمغمتُ قبل أن أنام:

- يا للنذالة! أن يخرب المرء بيته هكذا!..

كنت صريحاً كفاية في تأنيبه بدقة على ذلك الجزء من فعلته، ولم أكن لأوبّخ نفسي عليه.

استيقظت في الصباح برغبة متأججة أن يكون اليوم شبيهاً بالأمس. ومن المرجح أن لا تكون كارلا قد أخذت تلك القرارات الجميلة على محمل الجد أكثر مني. فكنت أشعر أنني تحررت منها تماماً. كانت قرارات جميلة ألتزم بها، ويدفعني الفضول، ويقلقني، لمعرفة ما الذي تفكر به كارلا. رغبتُ أن أراها مستعدة لقرار جديد. وكان للحياة أن تمضي هكذا، غنية بالتسلية وبذل بعض الجهود للتطور. وكنت سأقضي معظم اليوم بفعل الخير وبالندم في أصغر أجزائه. فالقلق موجود لأنّ كارلا، في عامي الغني بالقرارات، لم تأخذ إلاّ قراراً واحداً: أن تظهر محبتها لي. أخذت ذلك على عاتقها ومن الصعب الاستنتاج إن كانت ستأخذ قراراً جديداً يلغي ما سبقه بسهولة.

تحطّم خيالي عندما لم أجدها في المنزل، فعضضت أصابعي من

twitter @baghdad_library

الأسف. أدخلتني العجوز إلى المطبخ، وأخبرتني أنّ ابنتها ستعود قبيل المساء لأنها ستأكل خارج البيت. لذا لم تكن تلك النار المتواضعة تتّقد على الفرن، كما جرت العادة.

- ألم تكن تعرف ذلك؟ - سألتني العجوز بعينين تتّسع من المفاجأة. فغمغمت بشرود وتفكير:
- علمت بذلك البارحة. لكني لم أكن متأكداً من أنها قصدت اليوم بكلامها.

خرجت بعد أن ألقيت التحية، وكشرّت عن أسناني خلسة، فكان يلزمني بعض الوقت لأتشجع على الغضب في العلن. دخلت إلى الحديقة العامة، وتنزهت فيها لنصف ساعة كي آخذ وقتي في إدراك ما جرى. وكان الأمر واضحاً لدرجة أنني لم أفهم شيئاً. وفجأة، دون شفقة، أرغمت نفسي على الالتزام بقرار مماثل، فلم أكن على ما يرام. أخذت أعرج وأقاوم ضد ألم ما، وأتنفس جيداً لكني أعدّ الشهقات واحدةً واحدة، فعليَّ أن أتّخذ قراراً واحداً بعد الآخر، ولديّ حدس أنني لو لم أكن واعياً لمتّ من الغيظ.

في تلك الساعة كان عليّ أن أذهب إلى مكتبي أو إلى مكتب غويدو بالأحرى، ولم يكن سهلاً أن أبتعد هكذا عن ذلك المكان. ما الذي كان عليّ فعله؟ كان النهار مختلفاً تماماً عن السابق! لو كنت أعرف على الأقل عنوان ذلك الأستاذ اللعين الذي خطف عشيقتي مني ويغنّي على حسابي فوق ذلك!

عدت إلى العجوز ثانية. كنت سأجد كلمة أرسلها إلى كارلا لنلتقي مجدداً. إذ كان من الصعب أصلاً أن أراها أمامي على وجه السرعة، فهذا سيمنحني مصاعب جمّة.

وجدتها جالسة بالقرب من نافذة المطبخ منهمكة في ترقيع أحد

الجوارب. رفعت نظارتيها ورمقتني بنظرة استجوابية لشدة فزعها، فأربكتني. ثم سألتها:

- أتعلمين أنّ كارلا قررت الزواج بالأستاذ لالي؟..

بدت المعلومة جديدة عليَّ أيضاً، مع أنّي سمعتها مرّتين. لكني لم أعرها انتباهاً في اليوم الماضي. خدشت كلماتها مسامعي، ووجدتها بوضوح تذوب قبل أن تدخل إلى أذنيّ تماماً، ووصلت للتو إلى أعماقي التي تلوّثت من الألم. نظرت إليَّ العجوز حائرة هي الأخرى. لقد خشيت بالطبع أن تتطفل بشؤون الفتاة التي ستؤنّبها على ذلك. ثم انفجرت بالغبطة الواضحة:

- أقالت لك ذلك؟... فالأمر صحيح إذن! أعتقد أنها أحسنت صنعاً! ما رأيك؟

ضحكت العجوز الشمطاء من كل قلبها، وكنت أظنها على علم بعلاقتي مع ابنتها. كنت سأضربها بكل سرور، لكني اكتفيت بالقول إنّ من واجب الأستاذ أن يقدّم نفسه، ويبدو أنها تسرعت.

وللمرة الأولى تثرثر العجوز معي من شدة فرحتها. لم توافقني على رأيي، فعندما كانت صغيرة كان الشبّان يتزوجون أولاً، ويفكّرون بالمستقبل ثانياً. فلماذا كان على ابنتها أن تفكر بالمستقبل باكراً، وهي ليس لديها متطلبات كثيرة، وسيكلّفها التدريب الآن ثمناً أقلّ نظراً لكونها ستجد الأستاذ في زوجها.

كانت تلك الكلمات بمثابة تأنيب على بخلي، فأمدّتني بفكرة مذهلة رفعت معنوياتي. كان الظرف الذي أحمله في جيبي دوماً يحتوي على مبلغ لا بأس به، فأخرجته، وأغلقته وأعطيته للسيدة كي تسلّمه لابنتها. ربما كانت لديّ رغبة في أن أدفع لعشيقتي بشكل لائق أخيراً، لكني كنت أرغب برؤيتها، وامتلاكها ثانية. فعليها أن تراني مجدداً إن أرادت

twitter @baghdad_library

أن ترجع المال أو تأخذه، لأنها ستشعر بضرورة أن تشكرني حينها. تنفست الصعداء، فلم ينته كل شيء إلى الأبد حينها!

قلت للعجوز إنّ الظرف يحتوي على القليل من الأموال المتبقية مما سلّمني إياه أصدقاء المرحوم إنريكو إليهما. وعندما هدأتُ أكثر أرسلتُ إلى كارلا بباطن الحديث أنني سأبقى صديقها الأفضل على طول الحياة، ولها أن تتوجّه إليّ متى شعرت بحاجة إلى الدعم. وتركت عنواني في مؤسسة غويدو.

وانطلقت بخطوة أكثر مرونة من تلك التي جاءت بي. لكن ذلك اليوم كان موعداً لمشاجرة عنيفة مع أوغوستا. وكان السبب في اتهامي لملوحة حساء الخضار، ولم تكن زوجتي توافقني. فأخذتني نوبة غضب جنونية لأني شعرت أنها تهزأ بي، وجذبت غطاء الطاولة حتى وقعت الأواني كلها أرضاً. فبدأت الطفلة، التي كانت في حضن المربية، تصرخ. فتمالكتُ أعصابي لأنّ الطفلة بدت كأنها تؤنبني. شحب وجه أوغوستا بإتقان معتاد، أخذت الطفلة بين ذراعيها وخرجت. وبالغت في حركتها أيضاً: هل ستتركني آكل وحدي مثل الكلب؟ لكنها عادت على عجل، دون الطفلة. رتّبت الطاولة، وجلست عند صحنها، ووضعت فيه الملعقة كأنها تستعد للأكل.

كنت غاضباً جداً في أعماقي، وتفهّمت حينها أنني لعبة في أيدي قوى الطبيعة الطائشة، تلك الطبيعة التي لا تجد صعوبة في تكديس قواها، فتطلقها بسهولة أيضاً. وتوجّه غضبي الباطني نحو كارلا التي تظاهرت بأنها تتصرف لصالح زوجتي فقط، وهاهي الآن تزعجها!..

وظلّت زوجتي على هذا النظام حتى هذه الأيام: عندما تراني في تلك الظروف، لا تعترض لا تبكي ولا تناقش. وعندما شرعت أعتذر منها بلطف، أرادت أن تشرح لي شيئاً: إنها لم تكن تضحك، إنما ابتسمت

بالطريقة ذاتها التي تعجبني كثيراً ولطالما امتدحتها عليها.

فخجلت بعمق، وتوسلت أن تحمل الطفلة إلينا بسرعة. وعندما صارت بين ذراعي داعبتها كثيراً. ثم أجلستها فوق رأسي، ومسحت عينيّ، بثيابها التي غطت وجهي، من الدموع التي لم تذرفها أوغوستا. لعبت مع الطفلة وكنت أعرف أنني بهذا أقترب كثيراً من زوجتي دون اللجوء إلى الاعتذار. فعاد إلى وجهها لونه المعتاد حقاً.

ثم انتهى ذاك اليوم بشكل موفّق أيضاً، فلم يتغيّر شيء كما لو أنني التقيت بكارلا صباحاً في المكان المعتاد. ولم تنقصني التسلية. فاعتذرت من أوغوستا مراراً لتعود إليها ابتسامتها الأمومية عندما أقول أو أفعل أشياء غريبة. فويل لها إن تصرفت بشكل سيء في حضوري، أو إن حرمتني من ابتساماتها الودية التي أعدّها أفضل مكافأة لما أقول.

وفي المساء تحدثنا عن غويدو ثانية، ويبدو أنه تراضى مع زوجته. وذهلت زوجتي بطيبة قلب أختها. وهذه المرة كان دوري في الابتسام، لأنها لم تذكر طيبة قلبها التي كانت أكبر بكثير، فسألتها:

– وهل ستغفرين لي إن قمت بإفساد بيتنا؟!.. – ارتبكتْ:

– نحن لدينا طفلتنا – هتفت – أما آدا فليس لديها أبناء يربطونها بذاك الرجل.

لم تكن تطيق غويدو، وأعتقد أنها كنّت له الغلّ لأنه جعلني أتألم كثيراً. وبعد أشهر قليلة، أهدت آدا زوجها توأمين، ولم يفهم أبداً لماذا كنت أهنِئُهُ بحرارة. كان بوسعه النوم مع كل الخادمات دون أن يلحقه ضرر، بعد أن أصبح أباً، حتى من وجهة نظر أوغوستا نفسها.

ولكن في صباح اليوم التالي تنفستُ الصعداء عندما وجدت ظرفاً مرسلاً من كارلا على طاولتي في المكتب. فلم ينته كل شيء بعد، وكان بوسعي مواصلة حياتي محاطاً بكل الأدوات الضرورية. وللاختصار،

twitter @baghdad_library

كانـت قـد حـددت موعـداً معي في الحادية عشـرة صباحـاً، في الحديقة العامة عند المدخل الأقرب لمنزلها. كنا سنلتقي، ليس في غرفتها، إنما في مكان قريب منها جداً.

لم أتمكن من الانتظار أكثر، فوصلت إلى الموعد قبل ربع ساعة. لو لم تكن كارلا في المكان المحدد لما توانيت بالذهاب إلى منزلها قدماً، وهذا مريح أكثر بالنسبة لي. كان ذلك النهار مترعاً بأوائل الربيع اللذيذ والمشرق أيضاً. وعندما تجاوزت شارع ستاديون الصاخب ودخلت في الحديقة، وجدت نفسي في هدوء الطبيعة الذي لا يبدده حفيف الأعشاب الدائم إذا ما داعبها الهواء.

وبخطوة سريعة انطلقت مغادراً الحديقة عندما جاءت كارلا بمواجهتي. كانت تحمل الظرف في يديها، وتقترب مني دون ابتسامة محيية، بل بقرار صارم يرتسم على وجهها الشاحب. وكانت ترتدي ثوباً من القماش الثخين تعترضه خطوط زرقاء يناسبها ويجعلها تبدو جزءاً من الحديقة. ولاحقاً، فـي اللحظـات التـي كرهتهـا فيهـا، فكرت أنها لبسـت هكذا لتظهر فاتنة في نفس اللحظة التي ستتخلى عني فيها. بل كان أول أيام الربيع ما ألبسـها هكذا. لابدَّ أن أذكّر أنّ حلية المرأة أخذت دوراً صغيراً في حبي الطويل والعنيف. كنت ذاهباً مباشـرة إلى مكتبها، والنسـوة المتواضعات بسـيطات جداً عندما يبقين في المنزل. مدّت يدها وشددتُ عليها قائلاً:

– أشكرك لمجيئك!

كم جميل لو بقيت لطيفاً هكذا خلال مدة اللقاء كلها! بدت كارلا متأثـرة باضطـراب يجعـل شـفتيها ترتجف عندما تحدثـت. وعندما تغنّي كانت حركة الشفاه هذه تحول بينها وبين الأنغام أحياناً. قالت لي:

– وددت لو أستطيع إرضائك في قبول هذا المال منك، لكني لا أستطيع مطلقاً. أرجوك أن تستعيده..

عندما رأيتها على وشك البكاء، أرضيتها فوراً باستعادة الظرف الذي وجدته في يدي بعد وقت طويل من مغادرتي لذلك المكان.

– أحقاً لا تودّين رؤيتي؟

سألتها دون أن أذكر إجابتها في اليوم الماضي. كان مستحيلاً أن تخاصمني تلك الشبقة.

– زينو!.. – أجابتني برفق – ألم نقطع عهداً أننا سننفصل إلى الأبد؟.. بعد عهدنا ذاك أخذتُ على نفسي التزاماً يشبه ما أخذته أنت قبل أن تعرفني. إنه مقدّس مثل التزاماتك وأكثر. آمل أن تفطن زوجتك أنك ملك لها وحدها الآن...

مازالت تفكر في أهمية جمال آدا، ولو كنت متأكداً أنّ الانفصال تمّ بسببها، لسارعت في إصلاح ما أفسدت. كنت سأعلمها أنّ آدا ليست بزوجتي، وكنت سأريها أوغوستا ذات العين الحولاء بمظهر المربيّة الفاضلة. ولكن هل كان ذلك أكثر أهمية من الالتزام الذي أخذته على نفسها؟.. كان عليَّ أن أناقشها بهذا. حاولت أن أتحدث بهدوء بينما كانت شفتاي ترتجف أيضاً، ولكن من شدة الشهوة. فأخبرتها أنها لم تكن تعلم كم كنت أفكر فيها، وأنّ ليس لها الحق في التصرف من رأسها. وكان يجول في ذهني البرهان العلمي لما وددت أن أقول، أيّ ذاك الاختبار الشهير لداروين على مهرة عربية[1]. ولكن حمداً للسماء

(1) في كتابه (أصل الأنواع)، يذكر داروين تجربة أجريت في إفريقيا: حيث تمّ التزاوج بين مهرة عربية أصيلة الدم وبين ذكر الكواجا (حيوان منقرض من فصيلة الحمار الوحشي). وقد ولدت أحصنة مهجّنة منطقياً بفعل هذا التزاوج. وبعد ذلك، زُوّجت المهرة بحصان عربي أسود؛ لكن الأحصنة التي ولدت من التزاوج الثاني، بين دماء نقية من النوع ذاته، حملت صفات جسدية عائدة للكواجا بشكل لا لبس فيه. ويشرح داروين هذه الظاهرة كبروز مجدد لصفات وراثية قديمة ومفقودة بالأحرى؛

twitter @baghdad_library

أنني شبه متأكد من عدم التنويه به. لابدَّ أنني تحدثت عن الحيوانات وإخلاصها الملموس، بتلعثم دون معنى. ثم تركت المواضيع الصعبة عليَّ وعليها في تلك اللحظة، وقلت:

– وما هو هذا الالتزام؟.. وما الأهمية التي يملكها مقارنة مع الحب الذي ربطنا لأكثر من عام؟..

مسكتها بخشونة من يدها شاعراً بالحاجة إلى فعل حيوي عندما لم أجد كلاماً يحلّ محلّه. فانسحبت بحيوية أكبر آخذة يدها من يدي كأنني ألمسها للمرة الأولى.

– كلاّ! – قالت كأنها تقسم – قطعت على نفسي التزاماً مقدّساً جداً مع رجل قطعه على نفسه تجاهي.

ما من شك! إنّ الدم الذي صعد فجأة إلى وجنتيها كان مدفوعاً من الغيظ الذي تكنّه لرجل لم يأخذ على عاتقه أي عهد تجاهها. ثم شرحت بشكل أفضل:

– مشينا البارحة في الطرقات متعانقين بصحبة أمه.

وقد تسري دماء مختلطة في الدورة الدموية لهذه الأحصنة، مما يسمح بظهور تلك الصفات القديمة أحياناً ولأسباب مجهولة. ويقدّم العلم الحديث تفسيراً يكاد يتطابق مع وجهة نظر داروين، عدا أنّ العوامل الوراثية «الحديثة» تحلّ مكان الطاقة السحرية المنسوبة للدم في انتقال الصفات. وعليه يتضح أنّ زينو، الذي أساء فهم داروين، كان يريد أن يقول لكارلا إنها لم تعد تتمكن من التخلص منه، فالأولاد التي ستنجبهم من زواجها بالأستاذ قد تظهر عليهم الصفات الجسدية للحبيب الأول، أي لزينو نفسه. وهذا ما يؤكده فينيغر في كتابه (الجنس والشخصية)، مستشهداً بتجربة داروين نفسها، بأنّ الذكر متفوّق على الأنثى، وينتصر في جميع معاركه ضدها، بما فيها تلك الخاسرة، طالما أنها ستحتفظ بشيء من صفاته في شخصيتها عن طريق الجنس حتى لو انفصلت عنه؛ لذا يرى الأخير أنّ مشاعر الأبّوة والأمومة وهم تعيس، مما كان سيساعد زينو بإقناع عشيقته بعدم جدوى الزواج بأحد لتبقى له وحده. المترجم.

كان واضحاً أنّ حبيبتي تبتعد عني أكثر فأكثر. مشيت خلفها بجنون، بقفزات تشبه قفزات الكلب الذي يلهث وراء قطعة لحم شهية. مسكت يدها بعنف ثانية:

- حسناً، - اقترحت - فلنمش إذن متعانقين في شوارع المدينة كلها بهذه الوضعية الفريدة كي يشاهدنا الجميع. نعبر شارع ستاديون ثم طلعة كيوزا ثم نهبط عند السوق حتى سان أندريه فنعود إلى غرفتنا من الجانب الآخر، كي ترانا المدينة بأسرها.

كانت المرة الأولى التي أفكر بالتخلي عن أوغوستا! وبدت لي تلك حرية كبرى لأنها ستفقدني كارلا أيضاً. سحبت يدها ثانية، وقالت بحدة:

- إنها الطريق نفسها التي مشيناها البارحة!

فانفعلت أكثر:

- هل يعرف كل شيء؟.. أيعرف أنك كنت معي حتى البارحة؟..

- أجل - أجابت بافتخار - إنه على علم بكل شيء...

شعرت بالضياع والغضب، كذلك الكلب الذي يغرس أسنانه في ثياب من يمسك بتلك القطعة الشهية عندما لا يقوى على التهامها. وقلت:

- لزوجك هذا معدة ممتازة. سوف يهضمني اليوم، وسيهضم أي شيء يخطر في بالك غداً.

لم أسمع نبرة كلماتي جيداً. أذكر أني كنت أصرخ من الألم. أما هي، فعبّرت بازدراء لم أحسب أنّ عينيها اللطيفتين كغزالة قادرتان عليه:

- أتقول ذلك لي؟... ولم لا تمتلك الشجاعة لتقوله على مسامعه؟

فاستدارت وانطلقت صوب المخرج بخطوة سريعة. وندمت على كلماتي، لكني صدمت من المفاجأة أنه بات محرّماً عليّ أن أعامل كارلا برقّة أقل. أوقفتني تلك الصورة البيضاء والزرقاء في مكاني وهي تخطو حتى وصلت إلى المخرج. ولم أكن أعرف ما أقوله عندما قررت

twitter @baghdad_library

أن أركض خلفها. ولكن من المستحيل أن نفترق هكذا. فأوقفتها عند بوابة بنايتها، وأخبرتها بصراحة عن الألم العظيم الذي حل بي حينئذٍ:

– أنفترق هكذا.. بعد كل هذا الحب؟!

مشت دون أن تجيبني، فتبعتها على الدرج. ثم رمقتني بنظرة عدائية:

– إذا أردت سيادتكم أن تتعرّف على زوجي، فلتتفضل معي! ألا تسمع؟ إنه يعزف البيانو!..

فسمعت حقاً أنغام (التحية) لشوبرت على طريقة ليسزت. ولم أكن رجلاً مخيفاً لأنني لم أتمرن على ضرب الخناجر والسيوف في الصغر. فاختفت فجأة تلك الشهوة الآسرة التي أثّرت في عواطفي حتى تلك الآونة. ولم يتبقَّ من رجولتي سوى النزعة العدوانية. كنت قد طلبت باستعلاء شيئاً لا يخصني. وكان لا بدّ أن أهاجم لأتدارك خطأي، وإلا فستكون ذكرى تلك المرأة التي هددتني بزوجها قاسية جداً.

– حسناً – قلت لها – سآتي معك إذا سمحت لي بذلك.

كان قلبي يخفق ليس من الخوف، بل من خشية أن أتصرف بشكل سيئ. وتابعت صعود الدرج بقربها، لكنها توقفت فجأة، وأسندت ظهرها إلى الجدار، وبدأت تذرف الدموع دون أية كلمة. وفي الأعلى ما زالت أنغام (التحية) تنبعث من البيانو الذي دفعت ثمنه بنفسي، والذي جعل من بكائها مؤثراً جداً.

– سأفعل ما تريدين! هل تريدين مني أن أرحل؟! – سألتها.

– أجل! – أجابت ما إن تسنّى لها لفظ تلك الكلمة القصيرة.

– وداعاً! – قلت لها – وبما أنك أردتها، فوداعاً إلى الأبد!..

نزلت الدرج ببطء وأنا أصفر أنغام (التحية). وبدا لي أنها نادتني: (زينو!...)، ولا أعرف إن كان مجرد خيال. ولم أكن لأعود في تلك

اللحظة حتى لو نادتني بذلك الاسم الغريب «داريو» الذي كانت تدللني به. بل كان لدي رغبة عارمة في الانصراف لأعود مرة أخرى نقياً إلى أوغوستا. حتى الكلب، الذي يُمنع من التواصل مع الأنثى، يركض بعيداً بنقائه، بعد أن يركل على قفاه.

وعندما استيقظت في الصباح ممتلئاً بالحالة نفسها التي دفعتني نحو الحديقة العامة، بدا لي كم كنت دنيئاً ببساطة. إنها نادتني، وإن بغير اسم الحب، ولم أجبها! كان يوم الآلام الأول، وتبعته أيام كثيرة من الكآبة المريرة. وعندما لم أعد أدرك السبب وراء انصرافي هكذا، نسبت الذنب إلى خوفي من ذلك الرجل أو الخوف من الفضيحة. وإنني الآن لأقبل بالمجازفة ثانية مهما كانت، كتلك النزهة الطويلة في أنحاء المدينة التي اقترحتها. لقد فقدت لحظة محببة وكنت أعرف جيداً أنّ بعض النساء يعشن مثلها مرة واحدة، وكانت تلك المرة ستكفيني.

قررت أن أكتب لكارلا فوراً، فلم يكن ممكناً أن أترك يوماً واحداً ينقضي دون أن أحاول التقرب منها مجدداً. وكتبت رسالة علنّي أضع في كلماتها القليلة كل ما بوسعي أن أشعر به. وأعدت كتابتها مراراً، لأني كنت أجد عزائي في كتابتها. فكان ذلك تنفيساً احتجت إليه. واعتذرت لها عن الغضب الذي أظهرته بحقها، مؤكداً أنّ حبي الكبير بحاجة إلى الوقت ليهدأ، وأضفت: (كل يوم جديد يحمل معه كسرة أخرى من السكينة). كتبت هذه الجملة أكثر من مرة وأنا أعض على أسناني. ثم قلت إنني لن أسامح نفسي على الكلمات التي تفوهت بها، وأشعر بضرورة أن أعتذر منها. وللأسف، لم يكن بوسعي أن أمنحها شيئاً مما يمنحه أستاذها، فكانت تستحقه فعلاً.

تصورت أن يكون للرسالة تأثير كبير، فظننت أنها ستطلع فيتوريو عليها - بما أنه عرف كل شيء - ليعرف كم كان محظوظاً بامتلاك

twitter @baghdad_library

صديق مثلي. وحلمت أيضاً كيف بوسعنا أن نعيش حياة رائعة نحن الثلاثة، لأنّ حبي لها كان كبيراً حتى كنت أرى مصيري أجمل حينذاك، لو تسنَّى لي أن أداعبها لوحدي..

في اليوم الثالث وصلتني منها رسالة قصيرة. ولم يكن مكتوباً عليها أياً من أسمائي، لا زينو ولا داريو. كانت تقول باختصار: (شكراً! فلتكن سعيداً أنت أيضاً مع زوجتك التي تستحق كل خير!). كانت تتحدث عن آدا طبعاً..

لم تدم تلك اللحظة الرائعة طويلاً، وعند النساء لا تدوم أبداً إن لا تداهمها ممسكاً بضفائرها. وتكثفت شهوتي بسخط جامح، ليس ضد أوغوستا! فكنت ما أزال هائماً بكارلا التي ندمت على فقدانها، لأجبر نفسي على ابتسامة بلهاء رتيبة مع زوجتي التي تراها ابتسامة أصيلة.

وكان لابدَّ أن أفعل شيئاً ما. لم أكن أستطيع أبداً أن أنتظر وأتألم هكذا في كل يوم! ما عدت أريد أن أكتب لها. فللرسائل المكتوبة إلى المرأة قيمة قليلة بالكاد تذكر. كان عليّ أن أجد طريقة أفضل.

فهرولت صوب الحديقة العامة دون قرار واضح. ثم مشيت ببطء نحو بيتها، ووصلت إلى ذلك البهو فطرقت باب المطبخ. كنت سأتحاشى رؤية الأستاذ ما استطعت، دون أن أفزع من مصادفته. بل قد تكون تلك الصدفة هي المحنة التي كنت بحاجة ملحّة إليها.

وكانت العجوز كعادتها عند الفرن تحضر شيئاً ما. فذهلت لرؤيتي لكنها ضحكت ببراءة تتّسم بها فعلاً، وقالت لي:

- كم تسعدني رؤيتك! كنت معتاداً أن تزورنا يومياً، ومن الطبيعي أن لا تقطع الصلة بالكامل.

تركتها تثرثر، فأخبرتني كم كان حبّ فيتوريو لابنتها كبيراً. سيأتي مع والدته للغداء عندهما، وأضافت ضاحكة:

- سيجبر عاجلاً أن يعطيها دروساً كثيرة يومياً، فليس بوسعهما العيش منفصلين ولو للحظة واحدة.

كانت تلك الأم تضحك لسعادتها، وأبلغتني أنهما سيتزوجان خلال أسابيع قليلة. فانتابتني رائحة كريهة في فمي وكنت على وشك أن أغادر. ثم بقيت آملاً أن تمدني تلك العجوز الدجالة بفكرة حسنة أو بصيص أمل. ولعلّ الخطأ الأخير الذي ارتكبته كان بانصرافي بعيداً قبل أن أفكر ملياً بكل الإمكانيات المتاحة لدي. وظننت أنني عثرت على فكرتي لوهلة. فسألتها إن كانت مصممة أن تبقى تخدم ابنتها حتى مماتها. وقلت إنني أعرف أنّ الفتاة لم تكن طيبة كفاية معها. فتابعت الأم عملها بعناية قرب الفرن، مصغية إليَّ. كانت صافية النية بشكل لا أستحقه. تذمرت من أنّ ابنتها تفقد صبرها على أشياء لا تستحق ذلك أبداً. ثم بررت: (من المؤكد أنني أصبح عجوزاً في كل يوم يمضي، وأنسى كل شيء. لكن هذا ليس ذنبي!). إلا أنها تمنت أن تجري الأمور على ما يرام، فمزاج كارلا المتقلب كان يعتدل بعد أن عثرت على سعادتها. ثم إنّ فيتوريو، صاحب المبادئ، أظهر لها احتراماً عميقاً. وفي النهاية، بينما كانت تعدّ خليطاً من المعجنات والفاكهة، أضافت: (من واجبي أن أبقى مع ابنتي. لا أستطيع غير ذلك). وحاولت إقناعها بقلق ما، فقلت إنّ بوسعها أن تتحرر من العبودية. ألستُ موجوداً؟!.. كنت سأظل أمرّر إليها، بكل سرور، المعاش الشهري الذي أعطيه لابنتها حتى تلك اللحظة. فإنني اعتدتّ على رعاية أحد ما!.. بل كان بودّي أن أحتفظ بالعجوز التي تشكّل جزءاً من ابنتها.

أظهرت لي عرفانها بالجميل، وإعجابها بشهامتي. لكنها رأت فكرتي مستحيلة، وأخذت تضحك منها. واصطدمت تلك الكلمة القاسية في جبهتي حتى طأطأت! وعدت إلى العزلة الرهيبة حيث لا

twitter @baghdad_library

وجود لعشيقتي، ولا حتى الأمل في درب يقود إليها. وأذكر أني بذلت جهداً أخيراً لأوهم نفسي بإمكانية وجود سهم يدلّ على الدرب. فقلت للعجوز، قبل أن أغادر، إنها قد تغيّر رأيها في وقت لاحق، وتوسلت إليها أن تتذكرني آنئذٍ.

خرجت من المنزل مليئاً بالحقد والذلّ، كما لو لقيت الشر حينما تجهزت لفعل الخير تماماً. أهانتني تلك العجوز بضحكاتها العالية التي تطنّ في أذني، ولم تكن تعني إلاّ السخرية من اقتراحي الأخير.

لم أشأ أن تراني أوغوستا بتلك الحالة، فكنت أتنبأ بمصيري. ولو ذهبت إليها هكذا لأسأت معاملتها، فتنتقم مني بشحوب وجهها الذي يزعجني كثيراً. فضّلت السير في الشوارع، بخطىً إيقاعية عسى أن تعدّل مزاجي. وحدث ذلك فعلاً!.. توقفت عن التذمر من القدر، ورأيت نفسي كأنّ نوراً باهراً أضاءني فوق الرصيف. إنني لم أكن أطلب كارلا، بل أردت أن أعانقها، وحبّذا لو كان العناق الأخير. شيء مضحك حقاً! غرزت أسناني في شفتي لأقذف الألم، بجدية، على صورتي الهزلية. فهمتُ نفسي جيداً، ولم يكن من المغفور أن أبالغ في الاكتئاب عندما سنحت الفرصة لأتخلص من عادة سيئة. فكارلا لم تعد موجودة، تماماً كما رغبت مرات عدة.

وبعد وضوح كهذا مع الذات، أشارت إليّ امرأة تصبغ المساحيقُ وجهها، في شارع متطرف وصلت إليه دون وعي، فذهبت نحوها دون تردد.

وصلت إلى الغداء متأخراً جداً، لكنني كنت لطيفاً مع أوغوستا التي صارت سعيدة على الفور. ولم يكن بوسعي أن أقبّل طفلتي، ولم أتمكن من الطعام مباشرة. بل شعرت بنفسي قذراً! ولم أتظاهر بأي مرض كما فعلت غير ذي مرة لإخفاء الجريمة وتهوين الندم. ولم يبدُ لي أني سأجد

الراحة في قرار للمستقبل، وللمرة الأولى لم أقطع على نفسي عهداً. واحتجت لساعات طويلة لأعود إلى إيقاعي المعتاد الذي سلبني من الحاضر المظلم إلى المستقبل المشرق. ولاحظت زوجتي وجود شيء جديد في داخلي، فابتسمت: (لا يمكنني الشعور معك بالملل. فأنت شخص جديد في كل يوم!). أجل! تلك المرأة الريفية لم تكن تشبه أحداً وأنا كنت أملكها في داخلي. قضيت الظهيرة والمساء مع أوغوستا. كانت منشغلة وكنت بقربها لا أتحرك. بدا أنني انتقلت دون حراك إلى بركة مياه صافية، وهي الحياة الصادقة في البيت. فاستسلمت لتيار تلك المياه الذي كان يحوّلني دون أن يطهّرني، بل كان يظهر نجاستي!... وحصلت في الليلة الطويلة على قرار حاسم بالطبع. فكنت سأستحوذ على سلاح لأدافع به عن نفسي ما إن تفاجأت بوصولي إلى ذلك الجزء من المدينة. فرفع ذلك القرار من معنوياتي، وهدّأ من روعي.

لم أستطع أن أغفو على الفراش، بل تظاهرت بالشخير. فعدت إلى فكرتي القديمة في الطهارة عبر اعتراف أزفّه لزوجتي، تماماً كما فعلتُ قبيل خيانتي لها. لكنه كان اعترافاً صعباً جداً، ليس لعظمة الإثم، إنما بسبب التعقيدات التي نتج عنها. وكان لا بد أن أستغلّ الظروف المهيأة في مواجهة قاض مثل زوجتي. وقد تنتج هذه الظروف بمجرد أن استطعتُ التحدث عن العنف الغريب الذي ساعدني على قطع علاقتي بكارلا. لكني كنت سأعترف حينذاك بتلك الخيانة التي باتت قديمة، وقد تكون في غاية الشفافية لكنها تبقى مهينة بالنسبة للزوجة.

ووصلت إلى قرارات أكثر عقلانية بفضل تحليلاتي. ففكرت في تجنب الوقوع ثانية في خطيئة مشابهة، وذلك باستعجال تنظيم علاقة أخرى كتلك التي فقدتها، وكنت بحاجة إليها، كما كان واضحاً. ولكن المرأة الجديدة سترعبني أيضاً. فالكثير من المخاطر ستلحق بي وبعائلتي

twitter @baghdad_library

الصغيرة.

لم تكن ثمة كارلا أخرى في حياتي كلها. وكم بكيت لفقدانها، بدموع مرة، وهي الطيبة الحسناء التي حاولت أن تحترم المرأة التي أحبّها، ولم تنجح لأنني وضعتها أمام امرأة أخرى لا أحبها إطلاقاً.

7. مؤسسة تجارية

دعانـي غويـدو للعمـل معـه في مؤسسـته التجارية الجديدة. وكنت متشوقاً لأشاركه فيها، ومتأكداً من أنه لم يلاحظ رغبتي التوّاقة أبداً. ومن الطبيعـي أن يعجبنـي اقتـراح لعمـل مـا، بعد طـول همود، بصحبة صديق عزيـز. لكـن مقصـداً آخـر كان وراء ذلـك أيضـاً. فكنـت لا أزال آمل أن أصبح تاجراً مهماً، ورأيت أنه من الأسـهل أن أترقى وأنا أعلّم غويدو، من أن أتتلمذ على يدي السـيد أوليفي. فالكثير من البشـر يتعلمون إذا أصغوا لأنفسهم فقط، أو لا يتعلمون شيئاً إذا أصغوا للآخرين.

وكان لديّ أسباب أخرى لأرغب بالعمل في تلك المؤسسة. كنت أود أن أكـون مفيـداً لغويـدو! فأنـا أعـزّه كثيـراً قبل كل شـيء، وهو يبدو شـديد العوز لرعايةٍ رغبت بسـرور أن أقدّمها له حتى لو أراد أن يظهر واثقاً وقوياً. وكنت سأبدو غير مكترث بآدا إذا اقتربت أكثر من زوجها، ليس أمام أوغوستا فقط، بل أمام ضميري أيضاً.

وبالمحصّلة، لم كنت أنتظر منه سـوى كلمة واحدة لأضع نفسـي تحـت تصرفـه. ولـم ينطـق بهـا فـي البداية، لمجرد أنه كان يراني لا أميل إلـى التجـارة نظـراً لرفضـي العمل في مؤسسـتي الخاصـة. قال لي يوماً: (لقد أكملت المرحلة التجارية العليا كلها، إلاّ أني أظل متوجساً بوجوب تنظيم كل التفاصيل بعناية، تلك التي تضمن سلامة أي مؤسسة تجارية. إنني أتّفق مع فكرة أنّ التاجر لا ينبغي أن يشغل نفسه بشيء؛ فإذا احتاج إلى الميزان ينادي القبانيّ، وإذا احتاج إلى القانون يسـتدعي المحامي،

twitter @baghdad_library

ويضع حساباته في أيدي المحاسب. وكم من السيئ، من حيث المبدأ، أن تسلّم أسرار الحسابات لشخص غريب!).

كان هذا أول تلميح لأعمل معه. وفي الحقيقة لم أكن قد جرّبت المحاسبة إلاّ في تلك الأشهر القليلة عندما استملت السجلّ من وكيلي؛ لكنني كنت متأكداً من كوني المحاسب الوحيد الجدير بالثقة بالنسبة لغويدو.

ثم تحدثنا بصراحة للمرة الأولى عن إمكانية التعاون في مؤسستنا التجارية عندما ذهب ليختار الأثاث لمكتبه. فطلب مكتبين لغرفة الإدارة، وسألته بخجل حينذاك: - لماذا اثنين؟..

فأجابني: - المكتب الثاني لأجلك!..

شعرت بعرفان لتلك المعزّة التي يكنّها لي حتى كدت أعانقه. وعندما خرجنا من المحل، شرح لي بارتباك أنّ الحديث عن مكانتي في الشركة مازال مبكراً. فالهدف من المكتب الثاني لكي يحبّبني بالمجيء إليه كلما رغب بمجالستي. ولم يشأ أن يكرهني على شيء؛ وكان يبقى حراً في هذه الحالة. وحالما تجري أمور تجارته على ما يرام سيمسح لي بمكانة ما في إدارة شركته.

حينما كان يتحدث عن تجارته، كان وجهه الأسمر الوسيم يصبح جدّياً. ويبدو أنه فكر ملياً بكل المشاريع التي سيتفرغ لأجلها. فكان ينظر بعيداً، فوق رأسي، ووثقت بجدية تأملاته كثيراً حتى استدرت أيضاً لأنظر إلى ما كان ينظر، أي إلى تلك المشاريع التي ستحمل السعد إليه. لم يرغب في المشي على درب النجاح العظيم الذي سار عليها حماي، ولا على درب القناعة والتواضع الذي سار بها أوليفي. فكان الاثنان تاجرين تقليديين بالنسبة له. لابدَّ أن نطرق درباً أخرى، وكان سيشاركني بكل سرور لأنه رآني ما زلت سليماً، إذ لم يدنّس العجوزان براءتي بعد.

بدا لي كل ذلك صحيحاً، وكان النجاح التجاري الأول في طريقه إليّ، فتضرّج وجهي من الفرحة للمرة الثانية. وكان مني أن عملت معه ولأجله سنتين كاملتين دون أي مكافأة، سوى المجد الذي وصلت إليه في غرفة الإدارة، كامتنان على إعجابه بي. وكانت هذه الحقبة الأطول التي تفرغت فيها لعمل واحد بالتأكيد. ولا أستطيع أن أفخر بها لأنّ هذا العمل لم يعد بأية فائدة عليّ ولا على غويدو، وفي التجارة - كما يعلم الجميع - يبقى الحكم على النتيجة.

احتفظت بثقتي بنفسي كوني باشرت بتجارة عظيمة لثلاث أشهر تقريباً، أي الوقت الضروري لإنشاء تلك الشركة. وعرفت أنّ وظيفتي لم تكن بمتابعة التفاصيل كالمراسلات والمحاسبات وحسب، بل عليّ أن أراقب المشاريع أيضاً. ظلّ غويدو يسيطر عليّ عموماً، حتى كاد أن يحطّمني، لكن حظي السعيد حال بينه وبين رغبته. كان يكفي أن ينوه بإشارة كي أهرع إليه. وهذا ما يولد فيَّ الدهشة حتى الآن وأنا أكتب عمّا مضى، بعد أن حظيت بالوقت لأفكر بذاك الجزء الكبير من حياتي.

ومازلت أكتب عن تلك السنتين لأنّ تعلّقي بغويدو يبدو كدلالة واضحة عن المرض. فما السبب الذي دفعني لأتعلق به كي أتعلّم منه التجارة الكبرى، وأعلّمه تلك الصغرى حالما تعلّقت به؟.. وما السبب الذي أشعرني بأحسن حال في تلك الوضعية، كأنّ صداقتي به تعني عدم اكتراثي بآدا؟ من الذي استوجب عليَّ ذلك؟ ألم يكن وجود أولئك الأطفال التي منحتنا إياهم الحياة كافياً لنتحقق من لامبالاتنا المتبادلة؟ لم أكن أكره غويدو، لكنه ليس بالصديق الذي كنت سأختاره بحرية طبعاً. فكثيراً ما رأيت أخطاءه بوضوح، حتى بات تفكيره يضايقني حينما لا أحزن على بعض نقاط ضعفه. ولطالما ضحيّت بحريتي لأجله، وغالباً ما استسلمت لحالاته الكريهة بهدف مساعدته فقط! إنها دلالة واضحة

twitter @baghdad_library

وفريدة عن المرض أو الشهامة.. ميزتين تنسجمان كثيراً! ويظلّ هذا صحيحاً حتى لو أنّ المودة بيننا تطورت مع الوقت كما يحدث عادة بين الأفاضل الذين يتقابلون يومياً. كانت مودتي له عظيمة! فعندما رحل شعرت بفقدانه لوقت طويل، بل رأيت حياتي فارغة لأنه اجتاح جزءاً كبيراً منها بشخصيته ومشاريعه.

يضحكني أن أتذكر أخطاءنا في مشروعنا الأول: وهو شراء الأثاث، حيث ابتلينا به ولم نكن قد قررنا كيف نوزّع المكتب بعد. وتأخرنا باختيار المكتب لاختلافنا في الرأي حوله. فكنت قد رأيت عند حميّ والسيد أوليفي أنّ المكتب يجاور المخزن ليسهل مراقبته. لكن غويدو اعترض مشمئزّاً:

- كل المكاتب في تريستا تفوح منها رائحة السمك والجلد!..

- فكان يؤكد أنه بوسعه تنظيم المراقبة عن بعد، وكان محتاراً رغم ذلك. وذات يوم أنذره بائع الأثاث بالمجيء لاستلامها، وإلاّ سيرميها في الطريق. وإذ به يهرع لاستئجار مكتب كان آخر ما عرض عليه، دون مخزن قريب، في قلب المدينة تماماً. ولهذا السبب لم نمتلك مخزناً أبداً.

يتكون المكتب من غرفتين واسعتين بإنارة ممتازة، وغرفة صغيرة ليس فيها نافذة. وعلى باب تلك الغرفة المخنوقة عُلّقت لائحة كُتب عليها نقشاً: (المحاسبة)، وعلّق على باب إحدى الغرف: (الصندوق)، وعلى الثانية: (خاص).

درس غويدو التجارة في إنكلترا وعاد منها بحِكم مفيدة جداً. فكان دور (الصندوق) أن يشمل على صندوق حديدي رائع ببوابة تقليدية؛ أما غرفتنا (خاص) فأصبحت فاخرة ومفروشة بالمخمل الرمادي، وتشمل على مكتبين وصوفا كبيرة وعدة أرائك مريحة.

ثم حان وقت شراء الكتب وباقي الأدوات. فكانت مكانتي كمدير

حينها ليست موضع نقاش. وكنت أطلب الأشياء فتصل بسرعة. وفي الحقيقة كنت أفضّل أن لا أتابع بهذا النشاط، لكن الواجب أجبرني بطلب كل شيء يحتاج إليه المكتب. وظننت أني اكتشفت الاختلاف الكبير بيني وبين غويدو. فمعلوماتي تنفعني لأتحدث، وأفكاره تنفعه ليفعل. وعندما يصل إلى معرفة ما كنت أعرفه، وليس أبعد من ذلك، كان يشتري. وصحيح أنّ التجارة تقتضي أحياناً أن لا نفعل شيئاً، أي أن لا نبيع ولا نشتري، لكني رأيت في هذا قرار رجل يدّعي معرفة الكثير. وكنت سأجرؤ على الشك في كسلي أيضاً.

تهورت جداً في طلب تلك المشتريات. ذهبت إلى مكتب أوليفي لآخذ قياسات آلة النسخ وكتب الحسابات. ثم ساعدني ابنه في فتح الكتب، وشرح لي كيفية المحاسبة بالقسمة المضاعفة للمرة الثانية، وهي أمور ليست صعبة لكنها تُنسى بسهولة. وكان سيشرح لي الموازنة أيضاً متى احتجنا إليها.

وكنا نتناقش في تنظيم أمورنا، مع أني لا أزال أجهل ما الذي سنفعله في ذلك المكتب، والآن أعلم أنّ غويدو أيضاً لم يكن يعرف شيئاً حينها. أذكر أننا تناقشنا لأيام عن المكان الذي سنضع فيه الموظفين إن احتجنا إليهم. فاقترح أن نضع ما أمكننا في غرفة (الصندوق)؛ لكن الفتى لوشانو، الموظف الوحيد حتى اللحظة، أكد استحالة أن يُوظّف في تلك الغرفة أشخاص لا يؤتمنون على الصندوق نفسه. كان مزرياً أن تأخذ درساً من الفتى ساعي البريد! فجاء الوحي ينقذني:

- أذكر أنّ البريطانيين يتعاملون عبر الإيرادات إن لم أخطئ! - كانت معلومة عرفتها في تريستا.

- أحسنت!.. - قال غويدو - تذكرت ذلك الآن. غريب أنني نسيت شيئاً كهذا!..

twitter @baghdad_library

وأخـذ يشـرح لـه بالطـول والعـرض كيـف أنّ اسـتخدام الكثير من الأمـوال لـم يعـد ضروريـاً، فالإيـرادات تدور بين النـاس بأية قيمة تريد. وكان انتصارنا عظيماً، فصمت لوشانو.

استفاد هذا الفتى كثيراً مما تعلّمه من غويدو. فصار ساعي البريد تاجـراً محترمـاً فـي مدينتنـا اليـوم، ومـازال يلقـي علـيَّ التحيـة بابتسـامة متواضعـة. وكان غويـدو يهـدر جـزءاً كبيـراً من النهـار على تعليمه أولاً، ثم عليَّ ثم على الموظفة. أذكر أنه فكر طويلاً بالتجارة عبر الوكالة كي لا يخاطر بأمواله. وشرح لي جوهر هذا النوع من التجارة، ولأني أفهم بسرعة قصوى، أخذ يشرحها للوشانو الذي جلس طوال الوقت يصغي إليه بكل إشارات الانتباه المتأجج من عينيه اللامعتين في وجهه الأملط. ولا يسعني القول إنّ غويدو أهدر وقته، لأنّ الفتى كان الوحيد بيننا الذي نجح في ذلك النوع من التجارة. ثم يقال إنّ العلم هو الذي ينتصر!

وفـي تلـك الآونـة كانت الأمـوال تصلنا من بوينوس آيريس. وكان عمـلاً جديـاً! بـدا لـي الأمـر سـهلاً فـي البدايـة، لكنّ أسـواق مدينتنا لم تحضّـر نفسـها لتلـك العملـة الأجنبيـة. فاحتجنا ثانية لابـن أوليفي الذي علّمنا كيف نركّب تلك الإيرادات. ثم تركنا حينما شعر أننا وصلنا إلى نقطـة لا بـأس بهـا؛ فوجـدت جيوب صاحبـي تملؤها النقود، حتى عثرنا على أحد المصارف الذي سـلّمنا دفتراً من الإيرادات تعلّمنا اسـتعماله بسرعة. فاضطرّ غويدو أن يطلب من أوليفي أن يسهّل عليه تلك العملية المذكورة:

– أؤكد لك أني لن أدخل في منافسة ضد شركة صديقي!..

لكنه كان يرى التجارة من زاوية مختلفة، فأجابه:

– حبّذا لو كان المنافسون أكثر عدداً في تعاملاتنا، لكان الوضع أفضل!

فذهل صديقي، وفهم جيداً كما يحدث له بالعادة، وتعلّق بتلك النظرية التي أروت ظمأه.

لم يكن لغويدو مفهوم دقيق في البيع والشراء، بصرف النظر عن تأهيله العلمي. حيث دهش لقدرتي على تأسيس حساب رأس المال، وتسجيل النفقات أيضاً. ثم كان ضليعاً بالمحاسبة لدرجة أن يدرس أي مشروع يُعرض عليه من الناحية الحسابية قبل كل شيء. وزيادة على ذلك، كان يرى أنّ الإلمام بالمحاسبة تمنح العالم مظهراً جديداً. فالدائن والمستدين يوجدان في كل شيء، حتى عندما يتشاجر اثنان أو يتعانقان.

يمكن القول إنه دخل عالم التجارة مدججاً بأقصى دوافع التهور. إذ رفض عدداً كبيراً من المشاريع، بل ظلّ يرفضها لستة أشهر بمزاج هادئ كالحكماء:

- كلا! - كان يقول، فيبدو هذا الحرف كنتيجة لعملية حسابية دقيقة حتى إذا تعلّق الموضوع بقانون لم يسمع به من قبل. وأصبح ذاك تأملاً حينما رأى كيف تمرّ الأعمال والأرباح السريعة والخسارة عبر المحاسبة بالضرورة. كان هذا آخر ما تعلّمه، فوضعه فوق كل معارفه.

يؤسفني أن أغتاب صديقي المسكين، فلا مهرب من الصدق لفهم الذات بشكل أفضل. أذكر كم كان ذكياً في حشد خيالاته، داخل مكتبنا الصغير، التي أعاقتنا في كل مشاريعنا الموفّقة. فعندما بدأنا العمل بالوكالة ذات مرة، دفعنا آلاف المناشير في البريد. وقام غويدو بهذا التأمل:

- كم من الطوابع كنا سنوفر لو عرفنا أيّ هذه المناشير سيصل إلى الأشخاص الذين يعنيهم أمرها قبل أن نرسلها!..

ولم تكن العبارة تعرقل الأمور لوحدها، فأعجب بفكرته كثيراً وبدأ يرمي المناشير المغلقة في الهواء ليرسل تلك التي ترتمي على جهة

twitter @baghdad_library

العنوان فقط. فذكّرتني هذه التجربة بشـيء مشـابه قمت به في الماضي، إلا أنه لم يصل إلى ما وصلتُ إليه. وبالطبع لم أقم بجمع وإرسال تلك المناشير التي ألغاها، لأني لم أكن متأكداً أنّ الإلهام مهزلة ولذا توجّب عليَّ أن لا أهدر الطوابع التي سيدفع ثمنها.

جنّبني حسـن الحظ من الهلاك على أيدي غويدو، ومنعني حسـن الحظ مرة أخرى أيضاً من أخذ دور فعّال في مشاريعه. وأقول ذلك علناً لأنّ البعض في تريستا يظنّ أنّ الأمر لم يكن كذلك، بل إنني لم أتدخل يوماً بفكرة اعتباطية - كفكرة الفواكه المجففة - أثناء كل الوقت الذي قضيتـه معـه. ولـم أورّطـه في أي مشـروع كما لـم أمنعه من القيام بآخر؛ بل كنت أنصحه فحسـب!.. وكنت أدفع به نحو النباهة والنشـاط، ولم أتجرأ على رمي أمواله فوق طاولة اللعب.

كنت أتظاهر بالخمول بالقرب منه، وحاولت أن أضعه على جادة الصواب وربما لم أنجح في ذلك لشـدة كسـلي. وفي المحصلة، عندما يلتقـي رجـلان لا يحـقّ لأي أحـد منهمـا أن يقرّر من يكون دون كيخوته ومن سانشوبانزا. فهو يقوم بالأعمال، وأنا أحلّلها وأنقده كما يجب ثم أتبعه ببطء شديد حاملاً سجلاتي، مثل سانشو الطيب.

فشـلت التجارة بالوكالة فشـلاً ذريعاً دون أن يلحق بنا أي ضرر. وكان بائع قرطاسية نمساوي هو الوحيد الذي أرسل إلينا بعض البضائع، وباع لوشانو قسماً منها بعد أن عرف شيئاً فشيئاً حجم الوكالة التي كانت تحق علينا، وفعل ذلك كله بعد أن استأذن غويدو. لم يكن من الأخير إلاّ أن وافق لأنها كانت أموراً صغيرة، ولأنّ المشروع الأول كان سيجلب الحظ بفشـله على هذا النحو. ترك لنا هذا المشـروع الأول فضلاته من الأدوات المكتبية في مخزن المهملات الصغير، وتوجّب علينا دفع ثمنها والاحتفاظ بها. وكان لدينا منها ما يكفي مؤسسة تجارية أكثر نشاطاً من

شركتنا، ولسنوات طويلة.

ولقرابة الشهرين تحوّل ذلك المكتب المضيء في وسط المدينة إلى مكان محبب نلتقي فيه. فكنا نادراً ما نعمل، ونثرثر طويلاً كأصدقاء طيبين، حتى مع لوشانو البريء، الذي يرتبك كثيراً كلما تحدثنا في المشاريع، كما يرتبك الكثير من أولاد جيله إن سمعوا حديثاً عن النساء. وأعتقد أننا حصلنا بالمجمل على مشروعين في صناديق مستعملة وفارغة، حين التقى العرض والطلب عندنا في اليوم نفسه، فحصلنا على فوائد قليلة بفضل ذلك.

فكنت أستمتع ببراءة مع الأبرياء لأني لم أخسر كارلا بعد. أذكر الأيام بتفاصيلها في تلك الحقبة بكل سرور. ومساءً، في البيت، كان لديّ الكثير لأرويه على مسامع أوغوستا، فأخبرها بكل كبيرة وصغيرة تجري في المكتب بلا استثناء، ودون أن أجبر على إضافة شيء لأزوّر الحكاية. ولم أتخبط عندما هتفت زوجتي باضطراب:

– ولكن متى تبدؤون بجني الأموال؟!...

أموال؟! لم نفكر في ذلك مطلقاً حينئذٍ، فكنا نعرف ما علينا فعله في البداية: أن نتوقف ملياً لنشاهد وندرس السوق والبلد، بل وحتى القارة. فالمؤسسة التجارية لا تُفتح عبثاً! وكانت تطمئن لتبريراتي.

ثم استضفنا ضيفاً مشاكساً في المكتب؛ جرو الصيد. كان دائم الحركة واليقظة، وكان غويدو يحبه كثيراً، فدعمه بنظام غذائي قوامه اللحم والحليب. وكنت أنظر إليه بسرور، عندما لا تشغلني الأفكار والأعمال، وهو يقفز في المكتب بتلك الحركات الأربع أو الخمس التي نفهمها من الكلب، والتي تجعله غالياً على قلوبنا. لكنه لم يكن في مكانه المناسب بيننا كمشاكس وقذر لحدّ لا يطاق! كان حضوره أول برهان أظهره غويدو على عدم كفاءته لإدارة شركة تجارية، مما

twitter @baghdad_library

يثبت الغياب الكلي للجدّية. وحاولت جاهداً أن أشرح له أنّ الكلب لا يستطيع الترويج لأعمالنا، لكني لم أمتلك الشجاعة للإصرار عليه، فأخرسني بإجابة ما.

لذا توجب عليَّ أن أفرّغ نفسي لتربية زميلي هذا، فأوجعته بركلة تنشأ من شهوة متأججة عندما يكون صاحبه خارج المكتب. وكان الكلب يئنّ، ثم يعود إليَّ ظناً أنني لم أضربه عمداً. لكن الركلة الثانية تشرح له الأولى بشكل أفضل فينزوي، ولا يعمّ السلام ما لم يعد غويدو إلى المكتب. ثم ندمت لاعتدائي على بريء، بعد أن سبق السيف العذل. غمرته باللطف، لكنه لم يعد يثق بي، بل كان يُظهر نفوره مني في حضور صاحبه.

- غريب!.. - قال غويدو - من حسن حظك أنني أعرفك جيداً، لأني كنت سأفقد الثقة بك، فالكلاب لا تخطئ بكراهيتها عادة...

وكنت على وشك أن أروي له كيف اكتسبت كراهية الكلاب لأبدد شكوكه!

حدثت بعض المناوشات بيني وبينه مبكراً بخصوص أمر لا يستحق الاهتمام كثيراً. فلمّا كان منشغلاً بالمحاسبة خطر في رأسه أن يضع نفقاته العائلية على حساب النفقات العامة. وبعد أن تشاورت مع أوليفي اعترضت على فكرته ودافعت عن مصالح والده العجوز. ولم يكن ممكناً بالفعل أن يضع كل نفقاته على ذلك الحساب، ونفقات آدا وما كلّفهما ولادة التوأمين. فهذه النفقات تخصّه، لا الشركة. ثم اتفقنا على حل أن يكتب إلى بوينوس آيرس ليطلب راتباً شهرياً. لكن والده رفض معقّباً أنّ ابنه يحصل على الخمسة وسبعين بالمئة من الأرباح مسبقاً، بينما لا يحصل هو إلاَّ على الباقي. بدت لي إجابته محقة، لكن صديقي ما انفكّ

يكتب الرسائل الطويلة لوالده ليناقش المسألة من وجهة نظر أعمق، كما كان يقول. وكانت بوينوس آيريس بعيدة، فاستمرت المراسلات بينهما إلى أن أغلقتْ المؤسسة. وانتصرت وجهة نظري! فبقي حساب النفقات العامة صافياً لا تلوثه نفقات غويدو الخاصة، أما رأس المال فتبدد بأكمله بعد انهيار المؤسسة دون نتيجة تُذكر.

كانت كارمن هي الشخص الخامس الذي دخل إلى مكتبنا، إن لم نستثن آرغو[1] طبعاً. وكنت موجوداً على تكليفها بالوظيفة، حيث أتيت من عند كارلا إلى المكتب بمزاج معتدل، أشبه بالثامنة صباحاً عند الأمير تاليراند[2]. رأيت آنسة في الممر المعتم، وقال لي الفتى إنها تود التكلم إلى غويدو شخصياً. كان لديّ ما أفعله، فرجوتها أن تنتظر خارجاً. دخل غويدو بعد قليل إلى غرفتنا دون أن يلحظ وجود الآنسة، فسلّمه الفتى بطاقة الحضور التي قدّمتها الآنسة. قرأها ثم قال بحدّة وهو يخلع سترته لأنّ الطقس حار:

– كلا ! – وسرعان ما راوده شكّ ما:

– عليَّ أن أتكلم معها لأحترس ممن أوصاها بالمجيء إليَّ.

أدخلها، فنظرت إليها عندما ارتمى غويدو على سترته ليلبسها واستدار إلى الآنسة بوجهه الأسمر الوسيم وعينيه البراقتين.

إنني متأكد من رؤية الكثير من الفتيات أكثر جمالاً من كارمن، لكن لسن جميلات مفترسات بجمال فتّاك من النظرة الأولى. تُخلق

(1) آرغو: إشارة إلى الكلب؛ ويلّمح زينو إلى إحدى قصص سفيفو نفسه، بعنوان (آرغو وصاحبه). وأطلق هوميروس هذا الاسم على كلب أوديس الوفي أيضاً. ففيه سخرية من مقام غويدو القيادي. المترجم.

(2) السياسي الفرنسي (Charles Maurice de Talleyrand-Périgord 1754-1838). من إحدى مقولاته إنّ ممارسة الحب في الصباح الباكر تبعث طمأنينة كبرى. المترجم.

twitter @baghdad_library

النسوة عادة لرغبتهن من حيث المبدأ، بينما لم تكن تلك بحاجة إلى هذه المرحلة. ابتسمتُ بالنظر إليها، بل ضحكتُ أيضاً. بدت لي كأنها حِرفيّ يركض بين الناس صارخاً بجودة منتجاته. قدّمت نفسها لأجل الوظيفة، لكني رغبت أن أقحم نفسي في المفاوضات لأسألها: (أيّ وظيفة؟ تقصدين السرير، أليس كذلك؟!).

لاحظت أنّ وجهها لم يكن ذا لون معين، لكنَّ ألوانَه دقيقة كفاية؛ فالأبيض ناصع جداً، والأحمر يشبه لون الفواكه الطازجة، حتى المصطنع يكاد يخالط الكمال. وكانت عيناها الغامقتان الكبيرتان تعكس نوراً باهراً لتكتسب نظراتها أهمية كبرى.

دعاها غويدو إلى الجلوس وكانت تنظر بتواضع إلى مظلّتها أو إلى حذائها الملّمع. عندما تكلّم إليها رفعت عينيها بسرعة واتجهت بهما إليه، فأنهكت ربّ العمل البائس بنوريهما. كانت ثيابها متواضعة، لكن هذا لم يكن لصالحها لأنّ التواضع يتبدد على جسمها؛ عدا حذاءها الفاخر، ويذكّر قليلاً بالبطاقة البيضاء الذي كان يضعها فيلاسكيز[1] تحت أقدام العارضات التي يرسم أجسادهن. حتى فيلاسكيز كان سيضع بطاقته على سواد الإسفلت ليقصي كارمن عن الأجواء.

بقيت أصغي إليهما بفضول لأنني كنت هادئاً. سألها غويدو إن كانت تعرف الكتابة بالاختزال. فاعترفت أنها لا تجيدها مطلقاً، وأضافت أنّ لديها خبرة جيدة في التنضيد والتحرير. غريب! كان ذلك الوجه المنسج بين رقّيه ونعومته يصدر صوتاً خشناً، فلم أتمكن من إخفاء صدمتي:

(1) دييغو فيلاسكيز (1599–1660) من أعظم الرسامين الإسبان في العصر الباروكي. وقد يكون ثمة رابط بين اختيار هذا الرسام واختيار اسم «كارمن» الإسباني أساساً. المترجم.

- هل أنت مريضة؟! - سألتُها.
- لا! - أجابتني - ولم هذا السؤال؟

فوجأت بسؤالي حتى احتدّت نظرتها إليّ أكثر. لم تكن على دراية بأنّ صوتها كان نشازاً، وافترضتُ مكرهاً أنّ أذنيها الصغيرتين لا تعملان على أتم وجه كما يبدو..

سألها صاحبي إن كانت تتقن الإنكليزية أو الفرنسية، أو الألمانية. كان يترك لها الخيار نظراً لأننا لم نكن نعرف حينها لأي لغة سنحتاج. فأجابت إنها تعرف القليل من الألمانية. لم يأخذ غويدو قراراً عبثياً في حياته، إذ قال:

- لسنا بحاجة إلى الألمانية لأنني أتقنها جيداً.

كانت الآنسة تنتظر الكلمة النهائية التي بدت أنها قيلت بشكل أو بآخر. ولكي تعجّل فيها، قالت إنها تبحث عن عمل جديد لتزداد خبرة. لذا سترضى حتى بمبلغ متواضع.

أولّ تأثير للمرأة الجميلة على الرجل عندما تفضح بخله. شدَّ غويدو كتفيه ليبدي عدم انشغاله بأمور تافهة، وحدّد لها راتباً قبلته بامتنان، وأوصاها أن تتعلم طريقة الكتابة المختزلة بجدية. وقد أوصى بذلك لمجرّد الحذر مني، لأنه جازف بالقول إنّ أول موظف سيختاره لابدَّ أن يكون كاتباً محترفاً.

وفي المساء نفسه رويت لزوجتي عن زميلتنا الجديدة. فحزنت كثيراً، وفكرت - دون أن أقول شيئاً - أنه كلّفها ليجعلها عشيقته. لكني أكدتُ أنه بوسعه استعادة طراوته من الصعقة العاطفية دون أن تنتج تبعات عنها، رغم أنه تصرف كعاشق مغرم بالفعل. ثم إنّ مستواها كان يبدو رفيعاً.

وبعد أيام قليلة - لا أعلم إن كان محض صدفة - زارتنا آدا في

twitter @baghdad_library

المكتب، ولم يكن غويدو قد وصل بعد. فوقفت معي قليلاً لتسألني في أي ساعة يصل. ثم دخلت بخطىً مترددة إلى الغرفة حيث لم يكن فيها سوى كارمن ولوشانو. كانت الفتاة تتدرب على الآلة الكاتبة منهمكة في البحث عن كلّ حرف على حدة. رفعت عينيها الجميلتين لترى آدا التي أمعنت النظر فيها. كم كانتا مختلفتين! كانتا تتشابهان قليلاً، لكن كارمن تبدو كأنها آدا إذا امتلأت بالحيوية. وتأملتُ كيف كانت الأولى ترتدي ثياباً فاخرة أكثر، لكنها لم تكن لتصبح إلاّ زوجة وأمّاً؛ بينما كانت الثانية تأخذ دور العشيقة بصرف النظر عن ارتدائها للباس متواضع كي لا تتسخ ثيابها بالآلة الكاتبة. ولا أعرف إن كان في هذه الدنيا علماء يفسّرون سبب احتشاد النور في نظرات الآنسة أكثر من نظرات السيدة، لتصبح عيني الأخيرة مجرّد جهاز ترى الأشياء والأشخاص من خلاله وليس لتفتنهم بها. تحمّلت كارمن نظرات آدا المهينة والغريبة نوعاً ما، وقد يكون فيها شيء من الحسد، أو هكذا خُيّل إليّ!

كنت أرى آدا تمتاز بجمالها للمرة الأخيرة، كما عندما رفضتني. ثم حان وقت حملها الفظيع، واحتاج التوأم لتدخّل الجرّاح ليخرجا إلى الحياة، وسرعان ما أصيبت بمرض سلب منها كل جمالها. لذا أذكر جيداً تلك الزيارة، وأذكرها أيضاً لأنني استلطفت جمالها المتواضع والمهزوم أمام جمال الأخرى المختلفة عنها. لم أكن أهوى كارمن بالطبع ولم تعجبني إلاّ عيناها الرائعتان وألوانها المشرقة، ثم صوتها الغليظ، وأخيراً الطريقة التي توظّفت بها هناك، والتي كانت بريئة منها. بل أردت الخير لآدا فعلاً حينها، ومن الغريب أن تعزّ امرأة كنت تشتهيها بضراوة ولم تتمكن من استحواذها، ولا تعنيك الآن أبداً. وقد تصل بك الظروف إلى الرأي ذاته لو أنها انضمّت إلى رغباتك؛ ومن المفاجئ أن نتحقق مرة ثانية من عدم أهمية بعض الأشياء التي نعيش لأجلها.

أردت أن أخفّف عليها فأخذتها إلى الغرفة الأخرى. غويدو، الذي وصل بعد قليل، احمرّ خجلاً من زيارة زوجته. وأدلت آدا بسبب منطقي جداً لمجيئها، لكنها سألته حين غادرت المكان:

- هل عيّنتم موظفة جديدة في المكتب؟
- أجل! - أجابها، وليخفي اضطرابه لم يجد أفضل من أن يقاطعها بسؤاله إذا ما جاء أحدهم ليبحث عنه. وبعد أن حصل على إجابتي النافية، راودته تكشيرة أسف كما لو كان ينتظر زيارة مهمة، بينما كنت أعلم أننا لم نكن ننتظر أحداً. ثم قال لآدا بمظهر اللامبالي الذي نجح في ارتدائه: - كنا بحاجة لكاتب محترف!...

شعرت بالغبطة عندما سمعته يخطئ في جنس الشخص الذي احتاج إليه.

حمل قدوم كارمن الحياة إلى مكتبنا. لا أتحدث عن الحيوية التي تصدرها عيناها، أو عن جمال وجهها وألوانه المتناسقة، بل عن الأعمال بالضبط. إذ حصل غويدو على دافع للعمل بوجودها. وأراد أن يبرهن لي أولاً أنّ وجودها ضروري، فكانت تبتدع الجديد كل يوم ليشارك به هو أيضاً. ولوقت طويل، كان نشاطه وسيلة ليتقرب منها بشكل أفضل، وبلغ فائدة لا مثيل لها. فكان عليه أن يعلّمها شكل الأحرف التي يكتبها ويصحّح أخطاءها الإملائية لكثير من الكلمات. فدأب على هذا برقّة ولطف، ومهما كانت المكافأة من جانبها فلن تكون فريدة واستثنائية.

وكانت المشاريع المثمرة التي ابتدعها أثناء الحب قليلة. ففي إحدى المرات عمل طويلاً بخصوص مشروع تحت مادة قانونية استنتجنا أنها ممنوعة. ووجدنا أنفسنا فجأة أمام رجل ينقبض وجهه من الألم الذي أصعدناه إليه دون علمنا. أراد الرجل أن يعرف ما دخلنا نحن في تلك

twitter @baghdad_library

المادة، وافترض أننا متآمرون وعملاء لمنافسين كبار في الخارج. كان منزعجاً في المرة الأولى وخشينا الأسوأ، وحينما اتضحت براءتنا ضحك في وجهنا، وأكد أننا لا نصلح لشيء. وانتهى به الأمر للظن أنه كان محقاً؛ لكن قبل أن نجهّز أنفسنا للحكم مضى وقت ليس بقصير، كتبت كارمن خلاله رسائل لم تكن بقصيرة. وجدنا أنّ القانون لا يمكن التلاعب عليه لأنه محاط بالعقبات. ولم أتحدث بهذا المشروع لأوغوستا لكنها تحدثت به إليَّ، لأنّ غويدو تحدث به إلى آدا ليثبت لها حجم العمل الذي يقع على عاتق كاتبنا المحترف! وظلّ المشروع الذي لم ينجز مهماً جداً بالنسبة له. وكان يتحدث بشأنه كل يوم، مقتنعاً أنَّ شيئاً كهذا لا يمكن أن يحدث في أي مدينة أخرى من العالم. فمحيط تريستا التجاري التعيس يضيّق الخناق على كل تاجر مبادر مقدام كما حدث معه.

ومرّت على أيدينا أعمال كثيرة في تلك الحقبة، وكان منها مشروع أحرق أيدينا بالفعل. ولم نكن قد بحثنا عنه، بل كان هو من عثر علينا. أقحمَنا رجل من دالماسيا[1] يدعى تاشيش بذاك المشروع. كان والده قد عمل مع والد غويدو في الأرجنتين. وجاء لزيارتنا في البداية ليستعلم عن بعض الأمور التجارية التي استطعنا أن نوفّرها له.

وكان تاشيش شاباً وسيماً، بل في غاية الجمال، طويل القامة وذا بنية قوية؛ وكان لوجهه الأسمر عينان بلون أزرق غامق منسجم، وحاجبان طويلان وشارب كثيف أسود ذو انعكاس ذهبي. كان آية بانسجام الألوان، فبدا لي كأنه خلق ليرافق كارمن. وبدا له كذلك أيضاً، وصار يزورنا يومياً. وكانت محادثاتنا تدوم في المكتب لساعات دون أن نشعر بالملل. فالرجلان يتصارعان للحصول على قلب الفتاة، كما

(1) دالماسيا: الإقليم البلقاني الذي يمتدّ على طول الساحل الأدرياتيكي الشرقي، ويقع معظمه في كرواتيا قريباً من مدينة تريستا. المترجم.

تتباهى جميع الحيوانات بأفضل ميزاتها عندما تعشق. ظلّ غويدو متحفظاً لأنّ الدلماسي يزوره في بيته أيضًا فكان يعرف آدا، لكنه لم يستطع أن يضرّه بشيء في عيون كارمن؛ وعلمت بذلك على الفور لأني أعرف عينيها جيداً، بينما علم تاشيش بالأمر لاحقاً. اشترى من عندنا، بدلاً من الذهاب إلى المصنع، عدة عربات من الصابون التي دفع ثمنها بنسبة عالية جداً، كذريعة لرؤية الموظفة فقط. ثمَّ أقحمنا بذلك المشروع الكارثي، في سبيل الحب أيضاً.

لاحظ الوالد أنّ سعر سلفات النحاس يرتفع في بعض الفصول ويهبط في الأخرى تلقائياً. لذا قرر أن يشتري ستين طناً من إنكلترا، للمضاربة في الوقت الأنسب. تحدثنا مطولاً بذلك المشروع، بل حضرناه بالتعامل مع مؤسسة بريطانية. ثم أبرق الأب لابنه أنّ اللحظة الملائمة حانت كما يبدو له، وأخبره بالسعر المناسب لإكمال المشروع. فجاء إلينا تاشيش، راكضاً ومغرماً، ليسلّمنا المشروع، آخذاً بالمقابل نظرة جميلة ورقيقة من عيني كارمن. قبض المسكين النظرة بامتنان غافلاً أنها كانت علامة عشق لابن صديق والده.

أتذكر كيف استعدَّ غويدو للمشروع السهل بثقة وهدوء؛ ففي بريطانيا يمكن أن تحدد البضاعة لتسليمها إلى مينائنا أينما نزلت دون أن تتحرك من مكانها ثانية إلى الشاري. حدّد القيمة التي أراد أن يقبضها بدقة، وحدّد قيمة الشراء بمساعدتي ليُعلم بها صديقنا البريطاني. وكتبنا الرسالة المهمة معاً بالإنكليزية بمساعدة القاموس. وبعد إرسالها، أخذ يحسب كم من المال سيمطر في صندوقه مكافأةً على هذا المجهود الوجيز. ولترضى الآلهة على إنصافه، رأى أن يكافأني بشيء ما، وبقليل من الخبث، ليكافأ كارمن أيضاً التي عاونته بنظراتها. كلانا أراد أن يرفض، لكنه كان يخشى حسدنا فوافقت حالاً لأطمأنه. وكنت أعلم،

twitter @baghdad_library

بدقة حسابية، أنه لن يحصل مني إلاَّ على أجمل التهنئات، لكني فكرت أنه قد يشكّ بها. فعندما نريد لبعضنا الخير يعشق بعضنا بعضاً، لكن رغباتنا المتوقدة تصاحب المشاريع التي نشارك بها حصراً.

كان المشروع محسوباً من كل جوانبه، بل أذكر أنّ غويدو بات يحسب كم شهراً سيعيل عائلته والمكتب من الأرباح التي سيحصل عليها، أي عائلتيه كما كان يقول أحياناً أو مكتبيه أحياناً أخرى عندما يشعر بالضيق في بيته. كان المشروع محسوباً جداً، وربما فشل لهذا السبب. إذ وصلت رسالة قصيرة من لندن كتب فيها: (ملاحظة) ثم إشارة على سعر السلفات في ذلك اليوم، وكان أعلى بكثير من السعر الذي أخبرناه للشاري. فوداعاً للمشاريع!.. ما إن علم تاشيش بالأمر حتى هاجر تريستا.

في تلك الحقبة توقفت عن المجيء إلى المكتب قرابة الشهر، لذا لم أر رسالة تخصّ الشركة ذات طابع مسالم وذات تداعيات خطيرة على صاحب العمل. كانت الشركة البريطانية تُعلمنا بتأكيد رسالتها الأولى وتنّوه بطلبنا الصالح حتى إلغائه. ولم يكترث غويدو نهائياً لإرسال الإلغاء، وأنا، عندما عدت إلى المكتب، لم أتذكر ذلك المشروع. وبعد أشهر عدة، جاءني إلى المنزل مساءً وبيده رسالة لم يفهمها، ظن أنها وصلت إلى عنواننا بالخطأ مع أنّ عنواننا البريدي واضح عليها، وقد وضعته بعناية بعد أن استأجرنا المكتب للتوِّ. كانت الرسالة تحتوي على ثلاث كلمات: (أرسلنا الستين طناً). ففهمت على الفور، ولم يكن هذا صعباً لأنّ سلفات النحاس كان مشروعنا الضخم الوحيد. وقلت له ما فهمت من الرسالة؛ وهو أنّ السعر، الذي حدّدناه لإجراء الطلب، كان قد تغيّر؛ وهكذا أصبحنا سعداء بامتلاك ستين طناً من سلفات النحاس! فاعترض:

– كيف يعقل أن أوافق على تنفيذ الطلب متأخراً؟

ففكرت: (لابدَّ أن توجد الرسالة الأولى في مكتبنا)، لكنه لم يذكر أنه استلم شيئاً من هذا القبيل. فاقترح مضطرباً أن نهرع إلى المكتب على وجه السرعة لنتحقق من وجودها. وافقت إذ خشيت من مناقشة أمر كهذا أمام زوجتي التي كانت تجهل غيابي عن المكتب لمدة شهر.

وصلنا إلى المكتب بسرعة، وكان صديقي حزيناً لرؤية نفسه مجبراً على المشروع الضخم الأول، وكان سيركض حتى لندن ليعفي نفسه منه. فتحنا الباب متلمّسين طريقنا في الظلمة حتى وصلنا إلى الغرفة، فأشعلنا المصباح. وجدنا الرسالة على الفور وكانت، كما توقعت، تُعلمنا أنّ طلبنا الصالح حتى إلغائه دخل حيّز التنفيذ.

نظر غويدو إلى الرسالة، وانقبض وجهه من الأسف أو من الرغبة المضنية في إتلاف كل ما كان على قيد الوجود ببساطة الكلمة.

– تصور أنه كان كافياً أن نكتب كلمتين لنتفادى شراً كهذا!..

لم يكن يعاتبني بالتأكيد، لأنني كنت غائباً عن المكتب. ولم أكن قد رأيت تلك الرسالة مسبقاً حتى لو عثرت عليها بسرعة، فكنت أعلم أين ينبغي أن تكون. لكني التفتّ إليه بحزم لأصون نفسي تماماً من أي تأنيب محتمل:

– كان عليك أن تقرأ كل الرسائل بعناية أثناء غيابي!..

فهمد انقباض وجهه، ورفع كتفيه متمتماً:

– وما أدراك؟ قد يجلب هذا المشروعُ الحظَ السعيد!

وتركني بعد قليل، فعدت إلى المنزل.

لكن تاشيش كان محقاً: ففي بعض المواسم يهبط سعر السلفات لأدنى الدرجات، وكان لدينا الوقت الكافي لدراسة الظاهرة كلها خلال تنفيذ الطلب خاصة مع استحالة إنزال البضاعة للآخرين بذلك السعر،

twitter @baghdad_library

فتزايدت خسارتنا. طلب غويدو نصيحة مني في اليوم الأول. فكان بوسعه أن يبيع بخسارة قليلة مقارنة مع تلك التي سيتحملها من بعد. لم أشأ أن أعطيه النصائح، لكني لم أتناس تذكيره بفكرة تاشيش المقنعة، وهي أنّ هبوط السعر سيستمر أكثر من خمسة أشهر. فسخر غويدو:

- لا ينقصني الآن إلاّ الاستعانة بقرويّ لإدارة أعمالي!..

حاولت أن أصحّح له قائلاً إنّ ذلك القروي كان يقضي وقته في مشاهدة سلفات النحاس في مسقط رأسه دالماسيا. ولست نادماً على الخسارة التي مني بها غويدو من المشروع، فلو أصغى إليَّ لتجنّبها.

ناقشنا الأزمة مع أحد الوكلاء في وقت لاحق، وكان رجلاً قصير القامة، بديناً وحيوياً ولماحاً. أنّبنا على فعلتنا، لكنه لم يقاسم رأي تاشيش. فحتى لو كان السلفات بضاعة مستقلة بحد ذاتها بالسوق، لكنه يتأثر بتقلبات سعر المعدن نفسه. اطمأن غويدو قليلاً لتلك المقابلة، وتوسل إلى الوكيل أن يمدّه بآخر الأنباء عن حركات الأسعار، فكان ينتظر أن يكسب شيئاً ما من البيع دون أن يخسر شيئاً. فضحك الوكيل من كلامه، ثم قال كلمة ضمن حديثه، لاحظتُها لأني شعرت بصحّتها:

- غريب أنّ الناس لا يستسلمون إثر خسارة ضئيلة؛ ويصمدون حتى الخسارة الكبرى التي تقودهم إلى الاستسلام النهائي.

لم ينتبه غويدو لكلمات الوكيل، لكنه أعجبني حينئذٍ لأنه لم يقل كيف وصلنا إلى هذه الصفقة. قلت له ذلك فافتخر بنفسه. كان يخشى أن نشوّه سمعتنا وسمعة بضاعتنا إن عُرفت حكاية تلك الصفقة.

ولم نتحدث بسلفات النحاس بعد ذلك لوقت طويل، أي إلى أن وصلتنا رسالة من لندن تدعونا إلى دفع المستحقات، وإعطاء بعض المعلومات لإرسال البضاعة. تخيّل، استيراد وتخزين ستين طناً من السلفات! انتابه الدوار. قمنا بحساب كم سندفع لتخزين البضاعة بضعة

أشهر، وكان المبلغ ضخماً! لم أقل شيئاً، لكن السمسار الذي كان يود رؤية البضاعة تصل إلى تريستا بكل سرور، لأن بيعها سيقع على عاتقه عاجلاً أم آجلاً، نوّه لغويدو أنّ المبلغ الذي بدا ضخماً لم يكن إلاً قليلاً إذا حُسب بالنسبة المئوية على قيمة البضاعة. فضحك غويدو لأنّ التنويه كان فريداً:

– إنني لا أملك مئة كيلو من السلفات. لدي ستين طناً، لسوء الحظ!...

سلّم أمره في نهاية المطاف مقتنعاً بحساب الوكيل الدقيق، نظراً لأنّ أي ارتفاع طفيف في السعر سيؤدي إلى تغطية النفقات وسيفيض منه بعض الفوائد أيضاً، ما لم يراوده الوحي حينئذ. فعندما تلمع فكرة تجارية في ذهنه، يهذي بها حتى لا يبقى مكان لاعتبارات أخرى في رأسه. فكّر مثلاً أن تباع البضاعة في الميناء من قبل أشخاص سيتوجب عليهم دفع ثمن الاستيراد من إنكلترا. فلو سلّم بضاعته إلى البائعين أنفسهم، الذين سيوفرون نفقات الاستيراد، لحصل على سعر أعلى بكثير من الذي عُرض عليه في تريستا. لم تكن الفكرة صائبة، لكن أحداً لم يناقشه إرضاءً لخاطره. وحين انتهت المعضلة، ابتسم بمرارة على وجهه كأنه مفكر سوداوي وقال:

– لن نتحدث بالأمر أبداً. كان الدرس قاسياً للغاية. علينا الآن أن نتعلم منه لنستفيد.

ولكننا لم نتوقف عن الحديث بالأمر. لم يعد يملك ثقته العظيمة في رفض المشاريع، وعندما أريته، في نهاية العام، كم من الأموال خسرنا، غمغم:

– ذلك السلفات الملعون سبب شقائي! لطالما شعرت بضرورة أن أستعيد قواي بعد تلك الخسارة!..

twitter @baghdad_library

حثّني فقدان كارلا على التغيب عن المكتب، فلم يعد بوسعي أن أشهد على علاقة كارمن وغويدو. كانا يتبادلان النظر ويبتسمان في وجودي. فتركت المكتب متقززاً بقرارٍ اتخذته في المساء عندما كنت أغلق المكتب، ودون أن أخبر أحداً. بل انتظرت أن يسألني غويدو عن السبب، فحضّرت نفسي لأهينه بما يستحق. وكان بوسعي أن أكون قاسياً معه نظراً لكونه لا يعرف شيئاً عن نزهاتي في الحديقة العامة.

كان ذلك نوع من الغيرة، لأنّ كارمن بدت لي كأنها كارلا بالنسبة له؛ لكنها كارلا بنسخة ألطف وأكثر طواعية. لقد كان محظوظاً أكثر مني بامرأته الثانية، كما بالأولى. لكنه ربما كان محظوظاً بفضل مزاياه التي حسدته عليها ومازلت أعتبرها دونية. وهذا ما أمدّني بنقمة جديدة تجاهه: فبالتوازي مع إتقانه لعزف الكمنجة، كان يعرف كيف يعيش حياته. وقد بتُّ أعلم أنني ضحيّت بكارلا من أجل أوغوستا. وعندما كنت أستذكر تلك السنتين السعيدتين التي تكرّمت كارلا عليَّ بهما، أدرك بصعوبة كيف تحمّلتني لوقت طويل، كونها تمتاز بما عرفتُ عنها. ألم أهنها كل يوم بحبي لأوغوستا؟.. أما غويدو، فكنت متأكداً أنه كان يستمتع بكارمن دون أن يتذكر آدا للحظة. فامرأتان في حياته ليستا كثيرتين، وإنني بريء للغاية إذا ما قارنت نفسي به. لقد تزوجت أوغوستا دون أن أحبها، ورغم ذلك لم أتمكن من خيانتها دون أن يؤنبني ضميري. ربما تزوج بآدا دون أن يحبها أيضاً، وأتذكر الحب الذي ألهمتني إياه كوني لا أكترث بها مطلقاً، ويبدو أنني لو كنت في مكانه لكنت مرهفاً أكثر مما أنا عليه في مكاني... لأنني أحببتها كثيراً..

لم يأت غويدو ليبحث عني، بل كنت أنا من عاد إلى المكتب محاولاً رفع معنوياتي بعد سأم طويل. فتعامل معي بناءً على شروط عقدنا الذي يؤكد أنني لست مجبراً على أي عمل منظّم في مشاريعه.

وعندما نلتقي في مكان ما يظهر لي تلك المودة العظيمة التي كنت ممتناً عليها. ولم يبدُ متذكراً أنني تركت الطاولة التي اشتراها لي. لم يكن هناك بيننا سوى حيرة واحدة، وهي حيرتي أنا. عندما عدت إلى مكاني استقبلني كما لو تغيّبت لمدة يوم واحد، وعبّر بحرارة عن سعادته لعودتي، ولنيّتي بالعودة إلى العمل، فصرخ:

- أحسنتُ صنعاً إذن عندما لم أسمح لأحد أن يلمس كتبك!..

وفعلاً وجدت السجلّ والجريدة في مكانهما الذي تركتهما فيه.

قال لي لوشانو:

- آمل الآن أن نتحرك من جديد بحضورك. أظن أنّ السيد غويدو لم يتشجع في مشروعين إذ حاول ولم يفلح. لا تقل له شيئاً عن رأيي. حاول أن تشّجعه ما استطعت!

لاحظتُ أنّ في ذلك المكتب القليل من العمل فعلاً وأننا عشنا حلماً رائعاً حتى جاءت خسارة السلفات لتوقظنا. واستنتجت أنّ غويدو لم يعد يشعر بضرورة ملحّة للعمل ليضع كارمن تحت سيطرته، ففترة المحاولة بينهما انقضت باكراً وباتت عشيقته.

فاجأني ترحيبها لأنها احتاجت أن تذكّرني بشيء كنت قد نسيته كلياً. يبدو أنني تطاولت عليها قبل أن أغادر المكتب، في تلك الأيام التي تبعتُ فيها الكثير من النساء بعد أن خسرت حبيبتي. كلّمتني بجدية وارتباك: كان يسعدها رؤيتي ثانية، لأنها اعتقدت أنني أكن معزّة لغويدو وأنّ نصائحي تفيده، وأرادت أن تعقد معي صداقة أخوية طيبة، إن كنت أسمح بهذا. مدّت يدها اليمنى إليَّ بسخاء، وارتسم على وجهها الجميل مظهر صارم لتظهر الأخوية الصافية في العلاقة.

تذكرتُ حينئذ واحمررت خجلاً، وربما لو تذكرت من قبل لما عدت إلى المكتب أبداً. كان أمراً سريعاً ضمن أمور كثيرة أخرى من

twitter @baghdad_library

نفس المستوى، ولو لم تذكّرني بها لشعرت بعدم وجودها. فبعد أيام قليلة من انفصالي عن كارلا، كنت جالساً أدقق في السجلات تساعدني كارمن. فمرّرت يدي شيئاً فشيئاً، لأرى جيداً في الصفحة، حول خصرها ورحت أشدّ عليه أكثر فأكثر. فابتعدت كارمن واثبة، وغادرتُ المكتب.

كان بوسعي الدفاع عن نفسي بابتسامة تدفعها للابتسام لأنّ النسوة تملن إلى الابتسامة من مواقف شائنة كتلك!.. كان بوسعي القول: (حاولت القيام بأمر ولم أنجح به، ويؤسفني ذلك. لكني لا أضمر أية كراهية تجاهك وأودُّ أن أكون صديقاً مثلما تريدين). أو كان بوسعي أن أجيب كشخص جدّي، معتذراً منها ومن غويدو أيضاً: (اعذراني ولا تحكمان عليَّ قبل معرفة بأية حال كنت حينها).

ولكنني لم أنبس ببنت شفة، وقد أغلق الغيظ حلقي فتيّبس، ولم يتسن لي الحديث. كل النساء اللاتي رفضنني بحزم تركن بصمة مأساوية على حياتي. لم أمر بحقبة تعيسة جداً، وبدل الإجابة لم أكن مستعداً إلا أن أكشّر عن أنيابي، وهو شيء مزعج عليك أن تخفيه. ربما لم أجد ما أقوله لأنني حزنت لرؤية وميض أمل يتلاشى بقسوة كنت أرجو أن يتحقق. وأعترف أني أحسنت صنعاً بعدم رؤية كارمن كعشيقتي التي خسرت، تلك الفتاة المريحة التي لم تطلب مني سوى أن تحيى بقربي وأن لا تراني مجدداً فيما بعد. فالعشيقة التي لا تسبّب المتاعب هي عشيقتان في واحدة. لم تكن أفكاري واضحة هكذا في ذلك الحين بالطبع، لكني شعرت بها والآن أعرفها جيداً. ولو صرت عشيق كارمن لفعلت خيراً لآدا دون أن أضرّ أوغوستا كثيراً. ولو عاشرنا - أنا وغويدو - امرأة واحدة لخنّا زوجتينا بشكل أقل.

أجبتُ بعد مرور أيام، لكني أخجل من فعلتي حتى اليوم. فالشبق الذي أوصلني إليه انفصالي عن كارلا كان وراء تلك الفعلة. وأندم عليها

أكثر من أي ذنب آخر ارتكبته. فنحن نندم على الأقوال الهمجية التي نختارها من عقولنا أكثر من الأفعال الشنيعة التي تجبرنا عليها غرائزنا.

إنني أنعت بالأقوال كل ما هو ليس فعلاً، لكنني أرى في كلمات إياجو[1] مثلًا أفعالًا حقيقية. فنحن نرتكب الأفعال، بما فيها كلمات إياجو، لنحصل على لذة أو مربح؛ فيشارك فيها كل جسدنا، حتى ذلك الجزء الذي يتوجب عليه المثول أمام قاضٍ يصبح رؤوفاً. لكن اللسان الغبي لا ينصاع للأوامر إرضاءً لجزء صغير من الجسد يشعر بالهزيمة دونه، بل يظل موهوماً بخوض معركة حتى بعدما تضع الحرب الخاسرة أوزارها. ويتحرك دوماً وسط استعارات هائلة سواء للتجريح أم للمداعبة. وعندما تستعر الكلمات تحرق من يتفوه بها.

لاحظت أنّ ألوانها التي ساعدتها على التوظيف في مكتبنا خسرت رونقها. تصورتُ أنها زالت نتيجة معاناة ليست ملموسة، حسب رأيي، فعزوتها لحبها لغويدو. وغالباً ما نميل نحن الرجال إلى الترحم على النساء اللاتي يهجرننا ليذهبن مع آخرين. ولا نرى أبداً أي نفع سيجنينه منهن. قد يكون بوسعنا أن نحب الإنسان الذي نتحدث بشأنه – مثلما حدث في حالتي – لكننا لا نقدر أن ننسى، آنئذ أيضاً، كيف تنتهي مغامرات الهيام عادة. أحسست برأفة صادقة تجاه كارمن لم أشعر بمثلها تجاه أوغوستا أو كارلا، فقلت لها:

– أتسمحين لي بتقديم بعض النصائح، بما أنك كنت لطيفة معي بدعوة الصداقة؟..

(1) اياجو: شخصية في مأساة عطيل الخيالية لشكسبير، يكون دوره حمّال راية عطيل ومأمور عنده. له وجهان في المسرحية، الأول مطيع، والثاني يخفي حب الثأر والانتقام؛ يتعاون مع وجهاء البندقية ليفتن بين سيده وحبيبته النبيلة كي لا يتزوجها. فينجح بالإيقاع بينهما، من خلال نصائحه وأنباءه الكاذبة وتزوير الحقائق. المترجم.

twitter @baghdad_library

فلم تسمح لي، لأنها ظنت أنّ أية نصيحة ستكون جارحةً، كما تظن كل النساء في المواقف الصعبة. فخجلت وتلعثمت: - لا أفهم!.. لمَ تقول ذلك؟ - ولكي تجعلني أصمت: - عندما سأحتاج إلى النصائح لن أتردد في المجيء إليك، سيد كوزيني!..

وعليه فلم يتسنَّ لي أن أوعظها، مما أضرني فعلاً. فلو أوعظتها لوصلت إلى درجة عالية من الصدق بالتأكيد؛ وربما حاولت أن أضمّها بين ذراعي مجدداً، ولما عدت أغضب لنيّتي في الظهور بهيئة الكاذب الأفّاق.

وصار غويدو يتغيب عن المكتب لعدة أيام من كل أسبوع لأنه تولّع بالصيد البري والبحري. أما أنا، إبان عودتي وحتى وقت طويل، واظبت على المجيء إلى المكتب، منهمكاً بترتيب السجلات يومياً. وغالباً ما كنت مع كارمن ولوشانو اللذين اعتبراني رئيساً للمكتب. ولم يبدُ أنّ كارمن تألمت من غياب عشيقها، بل تصورتُ أنها تحبه، فيسعدها أن يستمتع بوقته. ولابد أن يكون قد أبلغها مسبقاً بأيام غيابه كي لا تملّ من انتظاره. وعلمت من زوجتي أنّ آدا لم تكن مثل كارمن، فكانت تتذمر بمرارة لكثرة غياب زوجها. وفي المجمل لم يكن هذا سبب تذمّرها فحسب، فهي تتأفف من الإساءات الصغيرة والكبيرة بالعصبية نفسها، مثلها مثل كل النسوة الكريهات. فغويدو لم يكن يخونها فقط، بل كان يعزف الكمنجة دوماً عندما يكون في المنزل. تلك الكمنجة، التي آلمتني كثيراً، كانت عبارة عن سهم آخيل لتنّوع عطائها! وعلمت أنه جاء إلى المكتب ليباشر علاقته بالموظفة بتنويعات رائعة على (حلاق إشبيلية)، ثم توقف عن ذلك لأنه لم يعد بحاجة، حيث يوفّر عزفه للمنزل كي لا يصطدم بمحادثة زوجته المملة.

لم يحدث شيء بيني وبين كارمن ثانية. انتابني إحساس مبكر

باللامبالاة تجاهها، كأنها غيّرت جنسها، كما حدث معي تجاه آدا: الشفقة لكلتيهما.. وليس أكثر!

كان غويدو يحيطني بلطفه، وأظن أنه أدرك قيمتي عندما تركته وحيداً في ذلك الشهر. فآنسة لذيذة مثل كارمن قد تكون محببة من وقت لآخر، لكنها لا تطاق أبداً لأيام بأكملها. دعاني إلى صيد السمك، فرفضت لأني أكره الصيد. لكني انتهيت بمرافقته في مساء ما شعرت فيه بملل خانق.

يفتقد السمك لأي وسيلة اتصال مع البشر، ولا يستطيع أن يولّد فينا الشفقة عليه. فهو ينازع حتى عندما يكون سالماً وناجياً تحت الماء!.. حتى الموت لا يستطيع أن يغيّر من هيئته! وآلامه، إن وجدت، تتستّر برمتها تحت حراشفه.

وعندما دعاني مرة إلى صيد ليلي، تأكدت أولاً من أنّ زوجتي ستسمح لي بالخروج في ذلك المساء والبقاء خارجاً لساعة متأخرة. قلت له إنني أعرف أنّ زورقه ينطلق من المرفأ في الثامنة مساءً، وسأكون هناك حينها إن استطعت. فينبغي أن يعرف مسبقاً أنه قد لا يراني في ذاك المساء، وقد لا أجيء إلى الموعد، مثلما فعلت غير مرّة.

لكنني طُردت من المنزل حينذاك بفعل صرخات طفلتي أنتونيا. وكلما داعبتها والدتها ازداد نحيبها. فجرّبت أحد أنظمتي بإطلاق الشتائم في أذن تلك القردة الشقية، ولم تغيّر الطفلة إلا من إيقاع عويلها، لأنها صارت تصرخ من الفزع. ثم أردت أن أطبّق نظاماً آخر أكثر حيويةً، لكن أمها ذكّرتني باقتراب الموعد، واصطحبتني حتى الباب قائلة إنها ستنام وحدها إن عدت متأخراً. كانت مستعدة أن تحتسي قهوة الصباح وحدها، رغبةً في إبعادي. ثمّة خلاف، هو الوحيد، بيني وبينها في طريقة التعامل مع الأولاد المزعجين: إذ يبدو لي أنّ أوجاع الطفل أقل أهمية

twitter @baghdad_library

من أوجاعنا، وتستحقّ عناء أن نعاقبه عليها في سبيل إعفاء الكبار من الإزعاج؛ أما هي فكانت ترى الخضوع لرغبات الأولاد من واجبنا نظراً لكوننا من جاء بهم إلى الحياة.

كان لدي الوقت لأصل إلى الموعد بدقة، فعبرت المدينة ببطء ناظراً إلى النساء وأفكر باختراع آلة خاصة تحلّ أي خلاف ينشب بيني وبينها. لكن البشرية لم تكن قد تطورت بعد لتستخدم آلتي!... إنها معدّة للمستقبل البعيد، ولن تستطيع مساعدتي ما دمت لا أثبت السبب البسيط لشجاري مع زوجتي، وهو عدم وجود آلة بسيطة! وقد تكون بسيطة حقاً: قطار منزلي مثلاً.. أو كرسي صغير مجهّز بعجلات تقضي عليه الطفلة يومها، وفيه زرّ إلكتروني إن ضغطت عليه يمضي الكرسي بعيداً حاملاً الطفلة حتى يصل لآخر نقطة في المنزل، حيث يخفت صوتها لشدة ابتعادها، ويغدو محبباً أكثر!... سينعم الوالدان بالهدوء والمحبة معاً...

كانت ليلة غنية بالنجوم وتفتقد القمر، من تلك الليالي التي تستطيع أن تنظر فيها إلى البعيد، ولذا كانت جميلة وساكنة. نظرت إلى النجوم التي ما زالت تحمل علامة من نظرة والدي الوداعية حينما كان يحتضر. ورأيت إنتهاء المرحلة التي يشاكس فيها أولادي ويملؤون البيت صراخاً. وقد يشبهونني؛ فكنت سأحبهم من باب الواجب ودون عناء. كنت مطمئناً من كل شيء في تلك الليلة الرائعة، دون الحاجة لاتخاذ القرارات.

وعند المرفأ، كانت أضواء المدينة محجوبة من الكوخ القديم الذي يقع هناك. فالظلام تامّ والماء حائل اللون ومرتفع وهادئ، كأنّ الكسل ينفخ فيه. لم أنظر بعد إلى السماء ولا إلى البحر. فعلى بعد خطوات مني كانت هناك امرأة ترتدي حذاءً فاخراً يلمع في الظلام مستدعياً انتباهي. بدت لي كأنها، في تلك المسافة القصيرة المظلمة، موجودة في غرفة مقفلة معي. فالمغامرات الأكثر روعة تحدث عندما لا نتوقعها. وعندما

رأيتها تقترب مني فجأة، انتابني إحساس لطيف لوهلة واختفى بسماعي صوت كارمن الغليظ. أرادت أن تتظاهر بالسرور لأنني كنت مدعواً إلى تلك السهرة، لكنها من الصعب أن تتظاهر بشيء بصوتها في ذلك الظلام. وقلت لها بحزم:

– دعاني غويدو. لكني سأجد شيئاً آخر لأترككما إن أردت.

فاعترضت معربة عن سرورها لرؤيتي للمرة الثالثة في ذلك اليوم. أخبرتني أنّ الزورق الصغير سيجمع المكتب بأكمله، فلوشانو مدعوٌ أيضاً. اللعنة على أعمالنا إن غرقنا! لقد نوّهت عن حضور لوشانو لتعطي طابعاً بريئاً للسهرة. ثم ثرثرت بتقلب قائلة إنها المرة الأولى التي ترافق بها غويدو إلى الصيد؛ فزلّ لسانها عندما قالت إنه لا يؤسفها الجلوس على «الصفيحة» في الزورق. وبدا لي غريباً أنها تعرف ذلك المصطلح، فاعترفت أنها تعلمته عندما ذهبت إلى الصيد مع غويدو في المرة الأولى. وأضافت، لتبرز البراءة التامة للرحلة الأولى:

– ذهبنا في ذلك اليوم لاصطياد الإسقمري وليس الشبوط... صباحاً!

كم مؤسف أنها توقفت عن الثرثرة، فكنت سأعرف كل ما يهمني، لكن الزورق اقترب منا بسرعة. وكنت دائم الشكّ حينها: ألم يتوجب عليَّ الذهاب بعيداً في اللحظة التي رأيت فيها كارمن؟!.. ربما لم تكن في نية غويدو أن يدعونا معاً، لأني كدت أرفض دعوته، على ما أذكر. كان الزورق قد رسا أثناء ذلك، فنزلت كارمن فيه بعنفوان واثق تحت الظلام دون أن تتكئ على يد لوشانو، فصرخ غويدو عندما رآني مرتبكاً:

– هيَّا! لا تضيّع علينا الوقت!..

فصرت داخل الزورق بقفزة واحدة أيضاً، وكانت قفزتي لا إرادية، ناتجة عن صراخ غويدو. نظرت إلى اليابسة بشهوة حارقة، لكن لحظة

twitter @baghdad_library

تردد واحدة كفت لتجعل عودتي مستحيلة. فجلست على مقدّمة الزورق الصغير، وعندما اعتدت على الظلام رأيت غويدو جالساً في المؤخرة مواجهي، وعلى قدميه - أي على الصفيحة - تجلس الفتاة. وكان لوشانو يفصلنا لأنه يجدّف. لم أشعر بكثير من الأمان ولا الراحة في ذلك الزورق الصغير. وسرعان ما تأقلمت، فنظرت إلى النجوم التي طمأنتني مجدداً. ولم يكن غويدو ليخاطر في خيانة آدا بوجود الفتى، الخادم المطيع لعائلة زوجتينا، لذا لم أر مشكلة في وجودي.

كنت أرغب أن أستمتع تحت السماء وفوق البحر وضمن الهدوء الرحب. لو كان عليَّ أن أندم على وجودي وأتألم، لكان البقاء في المنزل أفضل لتعذّبني طفلتي أنتونيا. نفخ هواء الليل المنعش رئتي، وأدركت أنني قادر على التسلية بصحبة غويدو وكارمن، اللذين أعزهما بصدق.

مررنا بقرب المنارة ووصلنا إلى البحر المفتوح. وعلى بعد بضعة أميال لمعت أضواء الزوارق الشراعية التي لا تعدّ. هناك تُدبّر المكائد بحق السمك، عند سان أندريه، المكان المفضّل لدى الصيادين، حيث تدور الكثير من القوارب مثلنا بهدوء. قام غويدو بتحضير سنارات ثلاثة غارزاً فيها القريدس من ذنبه ليصبح طعماً. سلّم إلينا السنارات قائلاً إنّ خاصتي، المصنوعة من الرصاص، يفضّلها السمك. أودعت القريدس من ذيله الموخوز في ظلمات البحر، وبدا كأنّه يحرّك جزءه الأعلى الذي لا يتألم. وبدت حركته علامة على الغرق في التأمل وليس في الألم. وما قد يسبب الألم في الأجسام الكبيرة، يقود إلى تجربة جديدة عند الأجسام الصغيرة، أو يدغدغ تفكيرها. دفنته تحت عشرة أمتار في الماء كما أوصاني غويدو، ثم فعل الموظفان مثلي. وكان غويدو يجدّف بيد واحدة في المؤخرة ليدفع القارب بطريقة محكمة تمنع التفاف السنارات على بعضها. ويبدو أنّ لوشانو لم يعد قادراً على تولّي أمور القارب، لكنه

تولّى أمر الشبكة الصغيرة التي سيجلب بوساطتها السمك من السنارة حتى السطح. فلم يكن لديه ما يفعله لوقت طويل. أما غويدو فكان يشعوذ كثيراً. والله أعلم إن تعلّق بكارمن بسبب شغفه بالتعليم أم حباً بها. كنت أود أن لا أصغي إليه لأتابع التأمل في ذاك الكائن الصغير الذي يواجه شراهة السمك، معلّقاً في الماء، محرّكاً رأسه ليوقع خصمه في الشرك. لكنه ناداني أكثر من مرة لأصغي إلى نظريته في الصيد. فالسمك قد يمسّ الطعم عدة مرات، وقد نشعر بذلك، وعلينا أن نحترس في جلب السنارة ما لم تكن مشدودة، فلا بد أن نكون مستعدين أثناء الاختطاف الذي يثبّت الطعم بفم السمكة. أسهب غويدو في الشرح كعادته. وأراد أن يشرح لنا ما الذي سنشعر به بأيدينا حالما ينقضّ السمك على الطعم. وظلّ يشرح حتى عندما فهمنا بالتجربة إيقاع التردد على اليدين في كل حركة تقوم بها السنارة. وتوجّب علينا أن نخرجها لنجدّد الطعم أكثر من مرة، حينما يصبح الحيوان المفكر وجبة لسمكة نبيهة تتجنب الفخ.

وكان هنالك البيرة والمأكولات الخفيفة على متن القارب، وتبّل القبطان السهرة كلها بثرثرته التي لا تنضب. فتحدث عن أعماق البحار الغنية أيضاً. ولم يكن يقصد الأسماك أو ما يضيّعه الإنسان هناك، كما ظن لوشانو. فالأعماق تحتوي على محلول الذهب أيضاً. وفجأة تذكّر أنني درست الكيمياء، فقال لي:

– حتى أنت تعرف شيئاً عن هذا الذهب، أليس كذلك؟

لم أكن أذكر الكثير، لكنني أذعنت مجازفاً بملاحظة لفّقتها حالاً:

– إنّ ذهب البحار هو الأغلى ثمناً.. يكلّف الحصول على سبيكة واحدة سائلة خمس سبائك من التي نعرفها!..

أعطاني لوشانو ظهره غير آبه، بعد أن استدار إليّ مترقباً تأكيدي على الثراء الذي نعوم فوقه، ولم يعد يكترث بأمر ذلك الذهب. أما

twitter @baghdad_library

غويـدو أكّـد كلامـي، إذ تذكّـر أنّ ذلـك الذهـب أغلى بخمس مرات من العـادي، تمامـاً كمـا قلـت أنـا! وكان يفتخر بي لدرجة أنه اعتنق نظريتي، بينما كنت أعرف أنها من صنع أفكاري. من الواضح أنه اعتبرني عديم الخطورة، فلم يشعر بأية غيرة على المرأة الجالسة في أحضانه. فكرت لوهلة أن أضعه في موقف محرج، كأن أتذكر فجأة أنّ استخراج سبيكة من ذلك الذهب يكلّف ثلاث سبائك فقط، أو عشر سبائك دفعة واحدة.

لكن سـنارتي نادتني حينها عندما شُـدّت على حين غرّة، فشـددتها إليّ وصرخت. اقترب مني غويدو بقفزة واحدة وأخذها من يدي، فأعطيته إياها طواعية. بدأ يشـدّها شـيئاً فشـيئاً، حتى انخفضت مقاومتها، فشـدّها بعزم. لمع لون السمكة الفضي في المياه الداكنة؛ وسرعان ما استسلمت لآلامهـا دون مقاومـة. وعندهـا أدركـتُ آلام هـذا الحيوان الصامت، لأنه كان يصـرخ صامتـاً فـي جريـه المسـتعجل صوب المـوت. وحالما جلبه لوشانو بالشبكة وخلع الطعم من فمه بارتياح، رأيته ينازع فوق أقدامي. تلمّس الفتى السمكة الضخمة:

– إنه شبوط يزن ثلاثة كيلو غرام!..

قـال معجبـاً بثمـن تلـك السـمكة في السـوق. ثـم لاحظ غويدو أنّ الماء ركدت تلك الساعة، ومن الصعب اصطياد المزيد. قال إنّ الصيادين يعتقدون أنّ السـمك لا يأكل شـيئاً عندما تركد الماء لا مداً ولا جزراً. وتفلسـف عـن الخطـر الـذي ينتـج عن شـهية الحيـوان، ثم أخذ يضحك دون أن ينتبه للمجازفة بذلك، وقال:

– إنك الوحيد الذي استطاع الصيد هذا المساء!

مازالت فريسـتي تتخبط فوق القارب، فإذ بكارمن تصرخ. فسـأل غويدو، دون أن يتحرك، برغبة شديدة بالضحك: – هل من شبوط آخر؟

أجابت كارمن بحيرة: – بدا لي كذلك! لكنه ترك الطعم!

إنني متأكد أنه نكزها شهوةً بها. وبتّ أشعر بالضيق، ولم أتابع الصيد بسرور، بل أحرّك السنارة بطريقة لا تستطيع الأسماك المسكينة أن تضعها في فمها. فصرّحتُ برغبتي في النوم، وطلبتُ منه أن ينزلني عند سان أندريه. ثم توجست أن يربطوا سبب انصرافي بصرخة كارمن، فأخبرتهم بالمسرحية التي قامت بها طفلتي تلك الليلة، وبرغبتي بالتأكد إن كانت على ما يرام.

فأشفق غويدو كعادته، وأرسى القارب عند الشاطئ. أعطاني السمكة التي اصطدتها، لكني رفضت. واقترحت أن أردّ لها حريتها بقذفها في الماء ثانية. فاحتجّ لوشانو، بينما قال غويدو عن طيب خاطر:

– لو كنت أعلم أنّ المسكينة ستستعيد حريتها وعافيتها لفعلت ذلك، لكنها الآن لا تصلح إلاّ كوجبة في الصحن!...

تبعتهم بنظراتي لأتأكد من عدم استغلالهم للحيّز الذي شغلته. كانوا رائعين معاً، وذهب القارب بعيداً، مرفوعاً قليلاً من المقدمة نتيجة الثقل الكبير في المؤخرة.

بدا لي أنّ ارتفاع حرارة الطفلة عقاباً إلهياً. ألم أكن وراء مرضها بتصنع القلق على صحتها؟ لم تنم أوغوستا بعد. جاء الطبيب باولي منذ قليل وأكدَّ أنّ الحرارة المفاجئة لم تكن تمهيداً لمرض خطير. بقينا طويلاً نحدّق بها كيف تغفو في سريرها، وبشرة وجهها ناشفة ومحمرّة جداً تحت شعرها المجعّد المرسل. لم تكن تصرخ، لكنها تتأوه بين الفينة والأخرى لتقطع همودها الطويل. يا إلهي! كيف أبقاني المرض بقربها! كنت سأعطيها جزءاً من حياتي لأحرر أنفاسها! كيف أتخلص من الندم عندما فكرت أنها تزعجني، وقضيت كل ذلك الوقت، الذي تألمت فيه، بعيداً عنها، ومع تلك الرفقة؟

– كم تشبه آدا! – قالت أوغوستا بغصّة.

twitter @baghdad_library

فعلاً!.. انتبهنا لذلك للمرة الأولى. وكلما كبرت أنتونيا كان الشبه يتضح أكثر، حتى خشيت أن يلحقها مصير خالتها ذاته.

قمنا للنوم بعد أن وضعنا سريرها بجانب أمها. لكني لم أنم، إذ شعرت بثقل على قلبي كما في تلك الليالي التي رأيت فيها خطايا النهار تمرّ بصور ليلية من ألم وندم. أتعبني مرض الطفلة كما لو كان من صنيعتي. فثرت! كنت صافي النية وكان بوسعي الاعتراف بكل شيء. فقلت كل شيء. أخبرت زوجتي عن لقائي بكارمن وعن وضعيتها فوق القارب؛ ثم عن صرختها التي ظننتُها من وخزة غويدو. لكن أوغوستا كانت متأكدة، وإلاَّ فلماذا ملأت السعادة صوت غويدو مباشرة بعد ذلك؟ حاولت أن أخفّف من اقتناعها، وتوجّب عليّ أن أتحدث أكثر. فقمت بما يشبه الاعتراف بتلك الأمور التي تخصني عن الملل الذي أخرجني من المنزل وعن ندمي لأنني لم أحب أنتونيا بما فيه الكفاية. وسرعان ما شعرت بالتحسن، ونمت عميقاً.

انخفضت حرارة الطفلة في الصباح، فتحسن وضعها. أطلق الألم سراحها فتحركت بهدوء، لكنها مازالت شاحبة ومرهقة كأنها بذلت جهداً لا يتناسب مع جسدها الصغير. وكانت خارجة للتو منتصرة من معركة سريعة طبعاً. وفي الهدوء الذي نعمتُ به أيضاً، تذكرتُ بحسرة كيف وضعت صاحبي أمام خطر كبير، فرجوت أوغوستا أن تعدني بألاَّ تخبر أحداً بشكوكي. فاعترضت قائلة إنها ليست شكوكاً، إنما حقيقة واضحة؛ الأمر الذي نفيته دون النجاح بإقناعها. ثم وعدتني بما رغبت، فذهبت إلى المكتب مطمئناً.

لم يكن غويدو قد وصل وأخبرتني كارمن أنهم كانوا محظوظين بعد انصرافي، فاصطادوا شبوطين أصغر حجماً ولكن بوزن معتبر أيضاً. لم أصدّق، وفكرت أنها أرادت إقناعي بأنهم لم يتوقفوا عن الصيد حينما

تركتهم. ألم تكن الماء راكدة؟ ولأي ساعة بقوا في البحر؟

ثم استعانت بلوشانو لتقنعني باصطياد السمكتين، وفكرتُ أنه قادر على فعل أي شيء منذئذ ليستلطف غويدو.

وحدث أمر غريب بما فيه الكفاية، خلال الهدوء الرائع الذي سبق مشروع السلفات، لم أقدر على نسيانه لأنه فضح ادعاءات غويدو المفرطة من جهة، كما وضعني تحت الضوء من جهة أخرى حتى أصبح صعباً أن أتوهم ذلك.

في يوم ما كنا نحن الأربعة في المكتب، وكان لوشانو الوحيد الذي يتحدث في التجارة. فضرب مسامع غويدو بكلمة مهينة، كان صعباً أن يتحملها في وجود كارمن. ولكن الدفاع عن النفس أصعب في تلك الحالة، لأنّ لوشانو كان يؤكد أنّ أحد المشاريع، الذي نصحه بها منذ شهور ورفضها، عادت بالأموال مضاعفة على من تعهّدها. فما كان من غويدو إلاَّ أن صرّح بازدرائه التجارة، ثم أكد أنه إن لم يحالفه الحظ فيها لجنى المال من أعمال أخرى أكثر ذكاءً، كالكمنجة مثلاً. فوافقه الجميع، وكنت من بينهم شرط أن يدرس أكثر. امتعض من كلماتي، وقال إنه سيقوم بأشياء أخرى إن تعلّق الموضوع بالدراسة، كالأدب مثلاً. فوافق الجميع ثانية، وكنت من بينهم لكن بقليل من التردد. فلم أكن أتذكر وجوه أدبائنا العظماء، وكنت أستحضر وجهاً واحداً على الأقل يشبه وجهه، فصرخ حينها:

– أتريدون حكايات جميلة؟ أنا أرتجل منها الكثير، مثل إيسوب!

فضحك الجميع ما عداه. أحضر الآلة الكاتبة، وأنهى الحكاية الأولى بسلاسة كأنه يكتب بالقلم، وبإيماءات أكثر مما يتطلبه عمل شاق كهذا على الآلة الكاتبة. أعطى الورقة إلى لوشانو، ثم غيّر رأيه، فأخذها ثانية وأرجعها إلى مكانها على الآلة، وكتب حكاية

twitter @baghdad_library

ثانية. لكنها كلّفته جهداً أكبر من الأولى، حتى إنه نسي أن يستمر في استعراض الإيحاءات، وصحّح ما كتب أكثر من مرة. لذا أعتقد أنّ القصة الأولى لم تكن من تأليفه وأنّ الثانية كانت من بنات أفكاره حقاً لأنه تعب في تأليفها. فكانت الأولى تقول إنّ عصفوراً انتبه إلى باب القفص المفتوح، ففكر أولاً أن ينتهز الفرصة ليطير بعيداً، لكنه غيّر رأيه خشية أن يخسر حريته إذا أُغلق الباب خلال فترة غيابه. أما الثانية تتحدث عن فيل، وكانت ثقيلة بحجم فيل فعلاً. إذ شعر ذلك الحيوان العملاق بضعف ساقيه، فذهب يستشير أحدهم، وكان طبيباً شهيراً، فصرخ عندما رأى تلك الساقين الضخمتين: - لم أر في حياتي ساقين بهذه القوة!

لم تثر القصتان من انتباه لوشانو لأنه لم يكن ليفهمها طبعاً. كان يضحك بإفراط، إذ يبدو له هزلياً أن يقدّم غويدو شيئاً كهذا على أنه تجاري. ثم ضحك مجاملة عندما شرحنا له أنّ العصفور كان يخشى أن يفقد حريته في العودة إلى القفص، وأنَّ الطبيب كان معجباً بساقي الفيل الضعيفتين. لكنه سأل بعدئذٍ:

- وكم من الممكن أن تربح من هاتين الحكايتين؟..

تعامل غويدو معه بفوقية:

- أربح السعادة من إنجازهما، ثم الكثير من الأموال إن رغبت بكتابة المزيد.

أما كارمن فكانت متأثرة حتى الارتباك. طلبت منه الإذن بنسخهما، وشكرته بامتنان عندما أهداها تلك الأوراق بعد أن وضع إمضاءه عليها بالقلم.

وما دخلي أنا؟ لم يكن لديّ أية حجة لأنال إعجابها، وهي التي لا تعنيني كما قلت سابقاً. لكني تذكرت طريقتي في الحياة لأصدّق أن

المرأة - أياً كانت - تستحق أن يخوض الرجل صراعاً لانتزاعها، حتى إن لم تثر فيه أية شهوة. ألم يتحارب الأبطال في العصور الوسطى للفوز بنسوة لم يروهنّ أصلاً؟ فاشتعلت الآلام الموجعة في جسدي النحيل فجأة، واتضح أنني لن أقوى على إطفائها ما لم أنازله بقصّ الحكايات أيضاً.

طلبتُ الآلة الكاتبة وبدأت بالارتجال فعلاً. والحق يقال إنّ إحدى القصص التي رويتها كانت في بالي منذ عدة أيام، لكنني ارتجلت عنوانها: (نشيد الحياة). وكتبت تحته، بعد تأمل قصير: (حوار). واستسهلت أن أجعل الحيوانات تتكلم على أن أقوم بوصفها. فولدت قصتي من حوار قصير:

- (القريدس المفكر): إنّ الحياة جميلة ولكن علينا أن نحافظ على المكان الذي نحن فيه.
- (الشبوط) وهو يركض نحو طبيب الأسنان: إنّ الحياة جميلة ولكن ينبغي أن نفتك بتلك الحيوانات الصغيرة الخائنة، التي تخفي في ثنايا لحمها اللذيذ معدناً حاداً.

وبعدئذٍ كان عليّ أن أبدع الحكاية الثانية وكانت الحيوانات تنقصني. فتبادلت النظرات مع الكلب الذي يمكث في زاويته، واستخرجت إحدى الذكريات من عينيه الخجولتين: إذ كان غويدو عائداً من رحلة صيد منذ أيام قليلة، وكان مليئاً بالبراغيث فذهب لينظّف نفسه في المخزن. خطرت الحكاية ببالي إذن وكتبتها بسلاسة: (في قديم الزمان كان هناك أمير لسعته براغيث كثيرة، فناجى الآلهة أن تنزل بها عقاباً ببرغوثة واحدة قوية وضخمة، واحدة فقط، وأن يوجّه البراغيث الأخرى على باقي البشر. فلم تقبل أية برغوثة بالبقاء وحيدة مع ذلك الإنسان الهمجي. وكان على الأمير أن يحتفظ بالبراغيث كلها).

بدت لي الحكايتان في منتهى الروعة حينئذ. فالأفكار التي تخرج

twitter @baghdad_library

من دماغنا لها مظهر محبب وعظيم خصوصاً إذا امتحنّاها إبان إبداعها. وللحقيقة أقول إنّ «الحوار» يعجبني حتى الساعة لأني كنت بارعاً في تأليفه. فنشيد الحياة عند المحتضر أمر ظريف جداً لمن يرونه يموت، وحقاً فإنّ الكثير من المحتضرين ينفقون النفَس الأخير ليلفظوا السبب الذي يموتون لأجله، كما يبدو لهم، فيمنحون نشيد الحياة للآخرين الذين يتمكنون من تجنب ذلك الحادث. وفيما يخص الحكاية الثانية لا أود التحدث بشأنها، فقد علّق غويدو عليها بحنكة عندما صرخ قائلاً:

- هذه ليست حكاية، بل أسلوب تنعتني بالحيوان من خلاله.

فضحكت معه، وسرعان ما تلاشت الآلام التي دفعتني إلى الكتابة. وضحك لوشانو عندما شرحت له ما أردت قوله، ووجد أنه ما من أحد سيدفع شيئاً على حكاياتي ولا على حكايات غويدو. لكن كارمن لم تعجبها خرافاتي، ورمقتني بنظرة حاقدة جديدة، وفهمتها كما لو كانت كلمة حقيقية: (أنت لا تحب غويدو!).

كنت مصدوماً بها لأنها كانت على صواب حينذاك. وشعرت بأني تصرفت كما لو كنت أكرهه، وأنا الذي أعمل عنده دون مقابل. فكان لا بد أن أنتبه لطريقتي في التصرف معه. قلت له بلطف:

- أعترف بكل سرور أنّ قصصك أفضل بكثير من قصصي. ولكن عليك أن تعرف أنها أولى القصص التي كتبتها في حياتي.

لكنه لم يستسلم:

- ومن قال لك إنني كتبت شيئاً قبل هاتين القصتين؟

كانت نظرتها تبدو أكثر لطفاً، ولكي أجعلها ألطف بكثير قلت له:

- لديك موهبة فريدة في القصّ بالتأكيد.

فأضحكت مجاملتي الجميع ثم أضحكتني أيضاً. وضحكوا عن

طيب خاطر لأني لم أكن خبيثاً بمجاملتي، كما كان واضحاً.

أعطى مشروع السلفات جدّية كبرى لمكتبنا. فلم يتسنَ لنا الوقت لقصّ الحكايات. وقمنا بقبول جميع الأعمال التي عُرضت علينا تقريباً؛ عاد القليل منها بفوائد قليلة، وعاد الكثير منها بالخسائر. وكان البخل الغريب أحد عيوبه الرئيسة فهو كريم جداً خارج العمل. كان يصفّي بعض المشاريع على عجل إن أظهر جودته، طامعاً بأخذ الفائدة القليلة التي ستأتي منه. وإذا اصطدم بمشروع سيئ، لم يكن يقرر أبداً متى يصفّيه حتى لو تأخرت اللحظة التي يتلمس جيبه. لذا أعتقد أنّ خسائره كانت عالية دوماً على عكس أرباحه.

إنّ مزايا التاجر ليست إلاّ حصيلة مزايا شخصيته، من رأسه حتى أخمص قدميه. وتصلح على غويدو كلمة واحدة يملكها اليونانيون بمعنى (الداهية الأبله[1]). فكان محتالًا بالفعل ولكنه أحمق بالفعل أيضاً. وكان متقد الذكاء الذي لم ينفعه إلاّ بتزييت المستوى المائل الذي ينزلق عليه نحو الأسفل دائماً.

بالتزامن مع السلفات، وقع على رأسه توأمان من حيث لا يدري. وكانت المفاجأة انطباعه الأول أكثر من السعادة. فبعد أن زفّ عليَّ الخبر، نجح بقول فكاهة أضحكتني كثيراً، ولم يقوَ على الاحتفاظ بعبوسه. إذ قال رابطاً بين التوأمين والستين طناً من السلفات:

– إنّ المشاريع العملاقة مكتوبة عليّ!

ولأواسيه ذكّرته أنّ زوجتي كانت في شهرها السابع من جديد، وأني سأصل إلى أطنانه الستين بعدد الأطفال مبكراً. فأجاب بفطنة:

(1) في اللغة اليونانية الفصيحة نجد كلمة واحدة مركّبة (Oxymoros)، تدلّ على شخص واحد بعينه يجمع بين متناقضين: (Oxys) تعني «الماكر، الذكي» و (Moros) وتعني «الغبي، المغفل». المترجم.

twitter @baghdad_library

– كمحاسب محترف، لا أرى تشابهاً في الأمرين.

وبعد زمن قصير، أخذه الحنان تجاه طفليه. أخبرتني أوغوستا، التي كانت تقضي معظم يومها عند آدا، أنه كان يفرّغ ساعات لهما في كل يوم. وكان يداعبهما وينوّمهما، وقد فرحت زوجته لأنّ الودّ يولد من جديد بينهما. وضع لهما مبلغاً ضخماً في مصرف التوفير حينها، ليجدا دعماً ما في سن البلوغ. أذكر ذلك لأني سجّلتُ المبلغ بنفسي في حسابه الخاص.

دُعيت أيضاً لرؤية التوأمين، بل أوصتني أوغوستا بذلك، إذ كان بوسعي أن أهنّئ آدا التي كانت في السرير لا تقوى على رؤية أحد، بصرف النظر عن مضيّ عشرة أيام على الولادة.

كان الطفلان يمكثان في مهدين في غرفة ملاصقة لغرفة والديهما. صرخت آدا من سريرها:

– أهما جميلان يا زينو؟...

بقيت متفاجئاً من نغمة ذلك الصوت، فكان يبدو لي أجمل: كان صراخاً حقيقياً لأنها تبذل جهداً فيه، ويبقى جميلاً رغم ذلك. ويرجع جمال صوتها إلى الأمومة دون شك، لكني تأثرت به لأني اكتشفته عندما تكلمت إليَّ تماماً. وشعرت أنها لم تنادني باسمي فقط، بل لفظت قبله كلمة ودية مثل (عزيزي) أو (أخي)! أحسست بامتنان عظيم فأصبحت طيباً وحنوناً، وأجبت بابتهاج:

– إنهما جميلان.. غاليان.. متشابهان كأعجوبتين!... – وكانا في الحقيقة يبدوان ميتين شاحبين، ويصرخان معاً ولا يتوافقان أبداً.

وسرعان ما عاد غويدو إلى حياته الأولى. لقد دأب على المجيء إلى العمل بعد مشروع السلفات، لكنه كان يذهب للصيد في يوم السبت ولا يعود حتى صباح الاثنين متأخراً عن المعتاد ليلقي نظرة على المكتب

قبل الغداء. ثم يذهب مساء لصيد السمك، وغالباً ما يقضي الليل في البحر. وكانت أوغوستا تروي عليَّ أحزان أختها التي تقضي معظم يومها وحيدة تتألم من غيرة حاقدة. وكانت زوجتي تهدّأ من روعها قائلة إنّ في الصيد البري والبحري لا وجود للنساء. ثم علمت آدا بأنّ كارمن ترافقه في صيد السمك - والله أعلم ممن عرفت - ثم اعترف بنفسه مضيفاً أنه ما من سوء في استلطاف موظفة مجتهدة تعمل عنده. ألم يرافقهما لوشانو أيضاً؟ ثم أقسم في النهاية بألاّ يدعوها مجدداً طالما أنّ ذلك يُحزن زوجته. وصرح أنه لن يكفّ عن الصيد الذي يكلّفه الكثير من المال. وقال إنه يعمل كثيراً - وكان في المكتب الكثير من العمل حينها فعلاً - ولا بد أن يروّح عن نفسه. لم توافقه آدا في رأيه، بل كانت ترى أنّ أفضل ترويح عن النفس يكون ضمن العائلة. ووافقتها أوغوستا دون شروط، بينما كنت أراه ترويحاً ضجيجياً، فصرختْ:

- ألست في المنزل بساعات ملتزمة يومياً؟

كان صحيحاً، وأعترف أنّ هناك فرق كبير بيني وبينه، لكني لم أجرؤ على الفخر بذلك. فقلت لها مداعباً شعرها:

- هذا كلّه بفضلك، لأنك استعملت مناهج قاسية في التربية.

وعلى الجانب الآخر كانت الأمور عند صديقي المسكين تسوء يوماً بعد يوم. ففي البداية كان هناك طفلان ولكن مربية واحدة لأنه يأمل أنّ آدا ستستطيع تغذية واحد من الأولاد. لكنها لم تقو على ذلك، فأجبر على إحضار مربية أخرى. وعندما يريد غويدو أن يضحكني، كان يروح ويجيء في المكتب يحارب الزمن قائلاً:

- مربيتان... طفلان... وزوجة واحدة!

كانت آدا تكره كمنجة غويدو. وتتحمل بكاء طفليها ولا تطيق سماع صوت تلك الآلة. قالت ذات مرة لأوغوستا:

twitter @baghdad_library

– أشعر أنني أعوي مثل كلب بوجه تلك الأنغام!

غريب! فزوجتي تطرب كلما مرّت بجوار مكتبي لتسمع أنغامي الناشزة!

– كان زواجهما عن حب. – قلت مستغرباً – ألم تكن الكمنجة الجانب الأفضل لغويدو؟

نسيت كل تلك النمائم نهائياً عندما رأيت آدا مجدداً. كنت أول من انتبه لمرضها. ففي أوائل شهر نوفمبر – كان يوماً بارداً ورطباً وغائماً – تركت المكتب على غير عادتي في الثالثة ظهراً، وذهبت إلى المنزل لأستريح وأحلم لبعض الوقت في مكتبي الدافئ. ولكي أصل إلى هناك، عليّ أن أمرّ بالممر الطويل، فتوقفت قبالة غرفة الجلوس لأني سمعت صوت آدا المرتبك والرائع – أظن أنّ الصفتين مترادفتان – أقبلت إلى تلك الغرفة مدفوعاً بفضول لأرى كيف كانت الحورية الهادئة تستطيع أن تُخرج ذلك الصوت الذي يذكّرني قليلاً بإحدى الممثلات عندما تريد أن تبكي الجمهور دون أن تذرف دمعة واحدة. كان صوتاً مصطنعاً بالفعل، أو بدا لي هكذا لأني شعرت به متأثراً ومؤثراً دوماً للمرة الثانية بعد أيام كثيرة، دون أن أرى صاحبه. ظننت أنهما يتحدثان عن غويدو، وإلاّ فما الذي يجعل آدا متأثرة لهذا الحد؟

ولكن المرأتان، وهما تحتسيان القهوة معاً، كانتا تتحدثان بأمور منزلية: الثياب والخدم... الخ. واكتفيت برؤية آدا لأفهم أنّ صوتها لم يكن مصطنعاً. فكان وجهها مؤثراً أيضاً، وكنت أول من اكتشف تغيّره، وذلك الصوت الذي، إن لم يكن مرتبطاً بإحساس ما، كان يعكس جسدها بدقة، لذا كان حقيقياً وصادقاً. شعرت بذلك فوراً، ولست طبيباً لأفكر بالمرض، لكنني حاولت أن أفسّر التحول في مظهرها كتأثير لنقاهة بعد الولادة. هل من المعقول أنّ غويدو لم يلحظ هذا التغير الكبير

في زوجته؟.. كنت أعرف عينيها جيداً، تلك العينين اللتين خشيتهما كثيراً لأنهما يحللان الأشياء والأشخاص بفتور سواء للرفض أو القبول. وتأكدت مباشرة أنهما تغيّرتا لتصبحا أكبر كأنّ الحدقة توسعت لترى أفضل. كانت عيناها لا تتوافقان مع وجهها الشاحب والحزين.

مدّت يدها بحرارة كبيرة وقالت:

– أعرف جيداً أنك تستغل كل لحظة لتأتي وترى زوجتك وابنتك..

كانت يدها رطبة من العرق، وأعرف أنّ هذا دلالة على الضعف. وتصورت أنها ستستعيد لونها الأصلي وملامح وجهها الواثقة وجمال عينيها ما إن تستعيد قواها. رأيت في مديحها لي توبيخاً بحق غويدو، وأجبت عن طيب خاطر أنّ زوجها، كصاحب للشركة، لديه مهام ومسؤوليات تستوجب عليه البقاء في المكتب لمدة أطول. فنظرت إليَّ لتتحقق من جدية إجابتي، ثم قالت:

– رغم هذا يبدو لي أنه بوسعه إيجاد وقت لزوجته وولديه.

– وكان صوتها يميل للبكاء. جلست بابتسامة تثير الشفقة وأضافت:

– وإضافة للعمل، هناك صيد البرّ والبحر!.. إنّ الصيد يهدر الكثير من الوقت.

تحدثت، بأسلوب لبق أذهلني، عن الوجبات اللذيذة التي يتناولانها بعد كل رحلة صيد.

– إني لأرفض ذلك الطعام بسرور! – أضافت حينئذٍ بدمعة وتنهيدة. لكنها لم تصف نفسها بالتعيسة، بل باتت لا تتخيل حياتها دون التوأمين اللذين تعشقهما!.. وأردفت مبتسمة، بشيء من المكر، أنها تحبهما الآن أكثر عندما أصبح لكل منهما مربيته

twitter @baghdad_library

الخاصة. لم تكن تنام كثيراً، لكن أحداً لا يزعجها عندما يأخذها النعاس.

وعندما سألتها إن كانت تنام قليلاً، تأثرت وصارت جدية لتخبرني أنّ هذا مصدر إزعاجها الأكبر. ثم أضافت بغبطة: - لكنني الآن أتحسن!

وتركتنا بعد قليل لسببين: عليها أن تزور أمها قبل المساء ثم إنها لم تعد تحتمل حرارة غرفتنا المجهزة بمدفأة كبيرة. ففكرتُ أنّ الشعور بارتفاع الحرارة أكثر من الضروري دلالة على القوة، بعد أن ظننت للتو أنّ درجة الحرارة جيدة. فقلت مبتسماً:

- لا يبدو أنك ضعيفة جداً، سترين كيف تشعرين بشكل مختلف عندما تصبحين في عمري.. - ففرحتْ لسماعها توصف بالشابة.

ورافقناها حتى البهو. بدت كأنها بحاجة ملحّة لصداقتنا. فلكي تقوم بتلك الخطوات القليلة، سارت بيننا وتمسكت أولاً بذراع أختها ثم بذراعي. وسرعان ما تصلبتُ خوفاً من الرجوع لعادة قديمة بضغط أيّ خصر أنثوي يقترب مني. وما زالت تتحدث في البهو كثيراً حتى اغرورقت عيناها بالدموع، للمرة الثالثة في ربع ساعة، لأنها تذكرت والدها.

وعندما انصرفت قلت لزوجتي إنّ تلك لم تكن امرأة بل ينبوع جمال. ورغم ملاحظتي لمرض آدا، إلاَّ أنني لم أهتم لذلك. كانت عيناها جاحظتين، ووجهها نحيل، وصوتها متغير. حتى ميزة الرأفة لم تكن لها، بل نسبتُها إلى الوهن والأمومة المضاعفة. ظهرتُ كملاحظ رهيب بالمحصلة، لأنني رأيت كل شيء. لكني كنت جاهلاً متميزاً لأني لم ألفظ الكلمة الصحيحة: الداء!

في اليوم التالي، طلب الطبيب النسائي الذي عالج آدا مساعدة

الطبيب باولي الذي أسرع في لفظ الكلمة التي لم أستطع أن أقولها: «داء بازيدوو». أخبرني غويدو بذلك واصفاً المرض بفقه عظيم ومشفقاً على آدا التي تألمت كثيراً. وإني أفكر، عن حسن نية، أنّ علمه وشفقته لم يكونا كبيرين. كان مظهره كئيباً عندما يتحدث عن زوجته، بينما يظهر متفائلاً بالحياة والتعليم عندما يكتب الرسائل لكارمن. وكان يظن أنّ الطبيب الذي أسمى المرض باسمه هو بازيدوو صديق غوته[1]، لكني علمت حالاً أنه كان شخصاً آخر حين قرأت عن المرض في إحدى الموسوعات.

إنّ داء بازيدوو مرض مهم وعظيم! كان في منتهى الأهمية أن أعرفه. تعمقت بقراءته في دراسات متخصصة، وظننت أنني اكتشفت السر الجوهري للجسد البشري حينذاك. أعتقد أنّ الكثير من الناس، مثلي، تشغل عقولهم أفكار معينة لحقبة طويلة من الزمن، وتأخذ حيّزاً كبيراً منهم لدرجة أنها تغلق الباب في وجه أفكار أخرى. ويحدث هذا للشعوب أيضاً! إذ تعيش على أفكار العالم.داروين بعد أن عاشت على أفكار الزعيم روبسبير والقائد نابليون، وتنتقل إلى الطبيب المكتشف ليبيغ أو ربما إلى الشاعر ليوباردي قبل أن يتّربع بسمارك على عرش الكون!

ولكني كنت الوحيد الذي عاش على أفكار بازيدوو! شعرت أنه سلّط الضوء على جذور الحياة كما هي حقاً: إذ تتموضع البشرية على طول خط مستقيم، ويقع داء بازيدوو على رأس هذا الخط الذي يضمن الاستهلاك الخارق والمعطاء للطاقة الحيوية على إيقاع متسارع، كخفقات قلب جامح؛ بينما يقع افتقار المناعة على الرأس الآخر، حيث

(1) مكتشف المرض هو الطبيب الألماني (Karl Von Basedow 1799-1854). أما صديق غوته فهو الفيلسوف التربوي الألماني (Johann Bernard Basedow 1723-1790). المترجم.

twitter @baghdad_library

يدان البشـر المسـاكين بالهلاك بمرض يبدو في طريقه إلى الزوال، لكنه مسـترخ ليـس إلا. ويوجـد الرابـط الوحيـد بين المرضيـن في المنتصف، ويسـمّى - عـن جهـل - بالعافيـة التـي لا تـدوم إلاّ لبرهـة. وبين المركز وطرف بازيدوو يعيش كل أولئك الصاخبين الذين يسرفون الحياة على الرغبـات الكبـرى والمطامـح والتسـلية، والعمل أيضاً. وأما على الطرف الآخـر، يوجـد أولئـك البائسـون الذيـن يرمون الفتات فـي صحن الحياة بغية التوفير، ويعيشون بوضاعة طويلة الأمد تظهر كعبء على المجتمع. ويبدو أنّ هذا العبء ضروري أيضاً، فيتقدم المجتمع لأنّ المصابين بداء بازيـدوو يدفعـون عجلتـه التـي لا تتدهور بفضل الآخرين الذين يكبحون سرعتها. إنني مقتنع أنّ الأمر أبسط من ذلك بكثير إن أردت بناء مجتمع. لكنها هكذا: بتضخم الغدة الدرقية عند واحد من الأطراف وبنقص التروية عنـد الطـرف الثانـي، وليـس هنالـك عـلاج. في المنتصـف يوجد أولئك المصابون ببداية تضخم الغدة أو الاستسقاء؛ لتبقى العافية المثالية غائبة، على طول الخط، وعند كل البشرية.

لم تكن غدة آدا قد تضخمت، على حد زعم أوغوستا، لكن أعراض الـداء الأخـرى كانـت كلهـا موجـودة. مسـكينة آدا! كانـت تبدو لي مثالاً للتوازن والعافية، حتى إنني حسبت، لوقت طويل، أنها اختارت زوجها بنفس الروح الباردة التي كان والدها يختار بها بضاعته. ولكنها اختطفت من قِبل مرض سيجرّها إلى نظام مختلف تماماً: أي الانحرافات النفسية! أصبتُ حينها بمرض خفيف لكنه مستديم، إذ فكرت في بازيدوو لوقت طويـل. إننـي أعتقـد أنّ المـرض سـيلحق بنـا، ولو كنا في أبعد مكان في هذا الكون. ما علينا سوى أن نتحرك، ففي الحياة سموم، ويوجد الكثير من السموم المضادة أيضاً؛ بالمضيّ إلى الأمام فقط سيكون بوسعنا أن نفلت من الأولى ونستفيد من الأخرى.

كان مرضي يهيمن على تفكيري، كحلم ورعب معاً. لابدَّ أنّ فكرة ما تسبّبت فيه: إذ ينشأ الانحراف عن الصحة من وصفه حقاً؛ تلك الصحة التي ترافقنا لوهلة من حياتنا. وكنت أعرف ماهية الصحة عند آدا، أفلا يمكن للانحراف أن يجعلها تحبني، وهي التي رفضتني عندما كانت معافاة؟ لا أعرف كيف تغلغل هذا الرعب، أو الأمل، في عقلي! هل لأن صوتها العذب والمحطم بدا كدلالة حب عندما تكلمت إليَّ؟ أصبحت قبيحة جداً ولم يعد بوسعي أن أرغب بها، ولكني كنت أراجع علاقتنا الماضية ويبدو أنها لو أحبتني فجأة لوجدت نفسي في ظروف حرجة تشبه قليلاً ظروف زوجها تجاه صديقه البريطاني صاحب الستين طناً من سلفات النحاس. تماماً.. الحالة ذاتها!... لقد صارحتها بحبي منذ بضع سنين، ولم أظهر أي إحساس مختلف عدا أني تزوجت أختها. ولم تحمها الأعراف في تلك الاتفاقية، بل الشهامة فحسب. وبدوت منشغلاً بها، أي لو أنها قدّمت نفسها لي بعد عدة سنين، بغدة ضخمة مهيبة، لكان من واجبي أن أحافظ على عهودي.

لكني أذكر أنّ هذا المشهد جعلني أشفق عليها. ولم أشمت طبعاً عندما عرفت بآلامها التي ألحقها زوجها بها؛ لكني، بالمقابل، تجاهلت الأمر لأفكر بسعادة بمنزلي الذي رفضت آدا دخوله، ولم يكن فيه مكان للآلام قطعاً. إلا أنّ الأمور تغيرت حينئذ: فآدا التي رفضتني بازدراء لم تعد موجودة، اللهم إن لم تخطئ النصوص الطبية.

لقد كان داؤها خطيراً. فبعد أيام قليلة، نصح الطبيب باولي بإبعادها عن العائلة، وإرسالها إلى مصحة في بولونيا. أبلغني غويدو بهذا، لكن زوجتي قالت إنّ أختها المسكينة عانت الأمرّين حتى في تلك اللحظة. فكان صاحبي سفيهاً لدرجة أنه اقترح وضع كارمن كوصية على المنزل خلال غياب زوجته، ولم تمتلك آدا الشجاعة لتقول بصوت عال كل ما

twitter @baghdad_library

فكرت فيه من اقتراح كذاك، لكنها أقسمت أنها لن تغادر المنزل ما لم يؤذن للخالة ماريا بالوصاية عليه، فوافق الرجل طواعية مع أنه ظلّ يفكر بالأمر. قال يوماً لكارمن إنها لو لم تكن مشغولة كثيراً في المكتب، لكان سيأتمنها بسرور على إدارة منزله؛ فتبادلنا النظر أنا ولوشانو، واكتشف كل منا في وجه الآخر تعبيراً خبيثاً بالتأكيد. خجلت كارمن وتمتمت أنها لا تستطيع أن توافق.

– طبعاً – قال غويدو غاضباً – فليس بوسعنا أن نفعل شيئاً مجدياً في الحياة خوفاً من تلك التحفظات الغبية!..– سكت فوراً، وفوجئتُ من اقتضابه هذه الخطبة المهمة.

رافقت العائلة آدا إلى المحطة. وطلبت مني أوغوستا أن أشتري باقة أزهار لأختها. وصلت متأخراً قليلاً بباقة زاهية من أزهار الأوركيد. كانت آدا تراقبنا، وعندما أعطتها أوغوستا الباقة، قالت لنا: – أشكركما من كل قلبي!

كان القصد أنها أخذت الأزهار مني أيضاً، وشعرت بكلماتها دلالة عن حب أخوي لطيف، لكنه فاتر بالوقت نفسه. لم يكن لبازيدوو أيّ دخل طبعاً!

كانت المسكينة تبدو كعروس صغيرة بعينيها الجاحظتين من السعادة، فداؤها بارع بتحريف المشاعر أيّما كانت. سيرافقها زوجها ليعود بعد بضعة أيام. انتظرنا انطلاق القطار على المقعد. وبقيت آدا تطلّ من نافذة المقصورة، وظلّت تحرّك المنديل حتى لم تعد ترانا. ثم رافقنا السيدة مالفنتي الدامعة إلى بيتها، وقبّلتني في لحظة الفراق بعد أن قبّلت أوغوستا. قالت، تبكي وتضحك:

– عذراً! فعلته دون قصد، لكني سأقبّلك ثانية إن سمحت لي.

حتى آنّا الصغيرة، بنت الاثني عشر ربيعاً، قبّلتني. وألبيرتا، التي

كانت على وشك أن تترك المسرح الوطني لتتزوج، والتي تتحفظ معي بالعادة، مدّت يدها إليَّ بحرارة في ذلك اليوم. غمرني الجميع بالمودة لأنّ زوجتي بخير، وأومأوا بدلالات الغيظ إلى نسيبي لأنّ زوجته مريضة.

لكني خاطرت أن أصبح زوجاً شريراً في تلك الآونة. تسببت بألم كبير لزوجتي بالخطأ، أثناء منام حلمت فيه ببراءة، وجعلتها تشارك فيه أيضاً.

كنا في الحلم ثلاثاً، أنا وزوجتي وآدا، نطلّ من نافذة هي الأصغر - للدقة - في بيوتنا الثلاث، أي بيت حميّ وبيتي وبيت آدا. كنا إذن على نافذة المطبخ في بيت حميّ التي تشرف على فسحة صغيرة، ولكنها تشرف في المنام على السوق مباشرة. وكانت آدا تقف بيننا وتشبكنا بذراعيها، وتلتصق بي أكثر حيث المجال صغير جداً. نظرت إليها ورأيت أنّ عينيها عادتا حازمتين، وتقاطيع وجهها نقية بما فيها رقبتها المغطاة بشعرها المجعّد التي كنت غالباً ما أراها عندما تدير إليّ ظهرها. وبصرف النظر عن برودها الشديد، الذي أبداها بصحة جيدة، كانت ما تزال تلتصق بي كما ظننتها في أمسية خطوبتي عندما كنا نحيط بالطاولة المتكلمة. قلت بابتهاج لأوغوستا، باذلاً جهداً لأنشغل بها أيضاً: «انظري كيف استعادت عافيتها؟ ولكن أين بازيدوو؟». «ألا ترى؟»، قالت، وكانت الوحيدة بيننا التي تستطيع الوصول لترى من النافذة على الشارع. فنظرنا بصعوبة نحن أيضاً، ورأينا حشداً مهيباً يتقدم صارخاً. «أين بازيدوو؟» سألت مرة أخرى. ثم رأيته يتقدم الحشد. كان عجوزاً قبيحاً يرتدي ثوباً ممزقاً من قطعة نسيج رثة؛ وشعره الأشيب والأشعث المرفرف في الهواء يغطّي رأسه الكبير؛ وعيناه ناتئتان عن جوفهما، تترقبان بنظرة ملحوظة كما عند الحيوانات التي تركض خائفة من تهديدٍ ما. والحشد يصرخ: (اقتلوا صاحب المرض المعدي! اقتلوه!)..

twitter @baghdad_library

ثم كان هناك فاصل لليلة ساكنة. وحينها، كنت أنا وآدا وحدنا عند السلّم الأكثر ارتفاعاً في كل بيوتنا، ذاك الذي يقود إلى سطح داري. كانت تعلوني درجتين وتلتفت نازلة نحوي وأنا صاعد إليها. عانقتُ ساقيها فانثنت نحوي لا أعلم إن كان ضعفاً منها، أو رغبة في الاقتراب مني أكثر. بدت لي مشوّهة لوهلة بفعل دائها، ولكني نظرت إليها بحزن، فرأيتها جميلة ومعافاة كما كانت عند النافذة. قالت لي بصوتها الواثق: «اسبقني، سأتبعك فوراً!». فتحركت لأسبقها مهرولاً، لكن ليس بالسرعة الكافية، فلم أنتبه لباب السطح الذي يُفتح شيئاً فشيئاً ليظهر رأس بازيدوو الأشيب ووجهه الخائف المخيف. رأيت ساقيه وجسده النحيل الذي لم يغطّه الرداء بالكامل. فركضتُ بعيداً، دون إدراك السبب، لأسبق آدا أم لأهرب منها يا تُرى.

يبدو أنني استيقظت ليلاً من شدة الإعياء، ورويت كل الحلم أو جزءاً منه لأوغوستا عندما هدأتُ، لأستعيد النوم الهادئ العميق. وأعتقد أنني، بين النعاس واليقظة، قمت بعادتي القديمة بالاعتراف بأخطائي.

ففي الصباح كان وجهها شاحباً مصفرّاً مثلما يكون في المناسبات الهنيئة. كنت أذكر الحلم كله، ولكن لا أذكر بالدقة ما الذي رويته لها. قالت لي باستسلام مؤلم: - إنك تحلم بها لأنك مكتئب من مرضها وسفرها..

دافعت عن نفسي بالضحك والسخرية. لم تكن آدا من يعنيني، بل بازيدوو. فأخبرتها بقراءاتي والفرضيات التي استنتجتها، ولكني لا أعرف إن نجحت في إقناعها. إذ من الصعب أن تدافع عن نفسك عندما يتعلق الأمر بحلم؛ فلا مجال لمقارنة هذا بأن تأتي إلى زوجتك طازجاً من خيانتك لها وأنت بكامل وعيك. بالمحصلة، لم أكن لأخسر شيئاً

إن غارت زوجتي من أختها، لأنها كانت تحبها كثيراً. أما بالنسبة لي، فكانت تعاملني بحذر ودود، وممتنة لي على الحب مهما كان حجمه.

وبعد عدة أيام، عاد غويدو من بولونيا بأخبار جيدة. لقد ضمن مدير المصحة شفاءً تاماً لآدا شرط أن تنعم بهدوء وسكينة في بيتها. وأخبرنا بتشخيص الطبيب ببساطة ودون وعي، ولم يفطن أنّ العائلة تأكدت من شكوكها تجاهه عندما سمعته. وقلت لأوغوستا:

– ها أنا مهدد بقبلات جديدة من أمك...

يبدو أنّ غويدو لم يشعر بالراحة في بيته تحت وصاية الخالة ماريا، فكان يروح ويجيء في المكتب مغمغماً:

– طفلان.. ثلاث مربيات... وما من زوجة!

وغالباً ما كان يتغيب عن المكتب أيضاً ليروّح عن نفسه صابّاً جام غضبه على الحيوانات البرية والبحرية. ولم يبد سعيداً عندما وصلتنا رسالة من بولونيا، في أواخر العام، تفيد أنّ آدا تعافت وأنها تستعد للعودة إلى الديار. هل اعتاد على الخالة لأنه كان نادراً ما يراها لدرجة أن يتحملها؟... لم يظهر مزاجه السيئ معي بالطبع، لكنه عبّر عن شكه برسالة زوجته التي قد تكون مستعجلة في ترك المصحّة قبل أن تتأكد من أية وعكة جديدة. وبالفعل، عندما توجّب عليها العودة إلى بولونيا، وبعد وقت قصير من ذلك الشتاء نفسه، قال لي بنبرة انتصار: – ألم أقل لك ذلك؟

لا أظن أنّ ذلك النصر كان لفرحة أخرى سوى أنه تنبّأ بشيء ما. لم يكن يتمنى السوء لزوجته، لكنه كان سيتركها لوقت طويل في بولونيا بكل سرور.

عندما عادت آدا، كانت أوغوستا نزيلة الفراش لأنها وضعت مولودها الثاني ألفيو، فكانت تلك المناسبة مؤثرة حقاً. أرادت مني أن

twitter @baghdad_library

أذهب إلى المحطة حاملاً باقة أزهار، وأقول لآدا إنّ زوجتي تريد أن تراك في اليوم نفسه؛ وإن لم تستطع المجيء معي إلى البيت، توسلت إليَّ أن أعود مباشرة إلى المنزل لأصفها لها، ولأخبرها إن كان جمالها، الذي تفخر به العائلة، قد عاد إليها كاملاً.

في المحطة كنا أنا وغويدو وألبيرتا فقط، لأنّ السيدة مالفنتي كانت تقضي معظم يومها قرب زوجتي. على المقعد، كان نسيبي يحاول أن يقنعنا بغبطته الكبرى بعودة زوجته. لكن ألبيرتا لم تعره انتباهاً بحجة أنّ النقاش في الأمر ليس ضرورياً، كما قالت لي لاحقاً. بالنسبة لي، بتّ خبيراً بالنفاق معه؛ فاعتدتّ على التظاهر بتجاهل مشاعره لكارمن، ولم أجرأ يوماً على التلميح لأخطائه بحق زوجته. لذا لم أستصعب أن أتّبع طريقة في الإعجاب بفرحته بعودة زوجته المحبوبة.

عندما وصل القطار إلى المحطة عند منتصف النهار، سبقنا ليصل إليها وهي تنزل. أخذها بأحضانه وقبّلها بحب كبير، وفكرت عندما رأيت ظهره المنحني ليقبّل زوجته الأقصر قامة منه: (يا له من ممثل بارع!). ثم أخذ يدها وقادها إلينا:

– هاهي تعود إلى حبنا!..

وحينها تماماً بانت حقيقته، أي الزيف والخداع، لأنه لو نظر جيداً إلى وجه تلك المسكينة لانتبه أنها، بدل أن تعود إلى حبنا، كانت تعود إلى عدم اكتراثنا. كان وجهها مشوّهاً لأنها استعادت وجنتيها ولكن بغير محلّهما؛ كما لو أنّ اللحم، عندما عاد، نسي أين كان فهبط إلى الأسفل. لذا كانت أشبه بنفخة أكثر من أن تكون وجنة. وعادت عيناها إلى مدارهما، لكن أحداً لم يعرف تصليح الأضرار التي لحقت بهما عندما خرجا. كانت خطوط وجهها الأساسية والدقيقة محطّمة أو كأنها غيّرت محلها. فعندما توقفنا خارج المحطة تحت شمس الشتاء المبهرة

رأيت أنّ ألوان وجهها التي أحببته لم تعد موجودة. كان لونها شاحباً يتضرج ببقع حمراء على الأجزاء اللحمية. بدا أنّ الأطباء لم يعيدوا الصحّة إلى وجهها، إنما نجحوا في اصطناعها.

قلت لأوغوستا إنّ آدا عادت جميلة، تماماً كما كانت فتاة. فسرّت لذلك، وبعد أن رأتها، فاجأتني أنها أكدت كلامي كما لو كانت أكاذيبي المشفقة حقائق بديهية:

– إنها جميلة كما كانت فتاة وكما ستكون ابنتي!

من الواضح أنّ عين زوجتي ليست دقيقةً جداً.

لم أر آدا ثانية لوقت طويل. كان لديها طفلين، ونحن كذلك. لكن الأختان يلتقيان أكثر من مرة في الأسبوع، ودائماً عندما أكون خارج المنزل.

واقترب أوان الموازنة العامة، فكان لدي الكثير من العمل. بل كانت تلك المدة هي أطول مدة عملت بها في حياتي، ففي بعض الأيام بقيت على مكتبي لعشرة ساعات متتالية. وعرض عليَّ غويدو أن يطلب محاسباً ليساعدني، لكني لم أوافق. فكنت قد أخذت على عاتقي المهام وعليَّ أن أكملها حتى النهاية. ورغبت أن أكافأه على غيابي الحزين لمدة شهر، وأردت أن أظهر اجتهادي لكارمن أيضاً، كأمارة معزّة لعشيقها.

وبدأت أكتشف خسارتنا الفادحة في ذاك العام الأول كلما تابعت إعداد الحسابات. فاكتأبت وأخبرته بكل وضوح عن المأساة. لكنه كان مستعجلاً للانطلاق إلى الصيد، ولم يشأ أن يسمعني:

– سترى أنّ الأمر ليس خطيراً كما يبدو لك. ثم إنّ العام لم ينته بعد.

وفعلاً كان هناك ثمانية أيام لنهاية السنة.. فقط.

أفضيت سري إلى أوغوستا التي رأت أولاً أنّ الضرر من تلك

twitter @baghdad_library

المسألة قد يلحق بي أيضاً. النسوة هكذا دوماً! لكن زوجتي كانت غير اعتيادية حتى بين النساء اللواتي يتألمن من أضرارهن.

ألن أصبح أنا أيضاً محل مسؤولية عن الخسائر التي سبّبها غويدو؟ - سألت. أرادت أن أستشير محام حالاً. ورأت في الوقت نفسه أن أنفصل عن غويدو وألاّ أذهب ثانية إلى مكتبه...

لم يكن من السهل إقناعها أنني لست بموضع مسؤولية عن شيء كوني لست سوى موظف عنده. لكن ليس بالإمكان أن نعتبر موظفاً من لا يأخذ راتباً شهرياً، وإنما شيء ما أشبه بشريك لصاحب العمل. - كانت تدعم حجتها. وعندما اقتنعت، بقيت على رأيها طبعاً، لأنها اكتشفت أنني لن أخسر شيئاً إذا تركت المكتب الذي سيقضي على سمعتي التجارية بالتأكيد. تباً!.. شهرتي التجارية!.. وافقتها على أهمية الحفاظ عليها. وبما أنها لم تكن محقة في كلامها، ختمت قائلة إنه عليّ أن أفعل كما تريد. فسمحت لي أن أنهي الموازنة لأنني كنت قد بدأت بها، لكن عليَّ أن أجد طريقة لأعود إلى مكتبي المنزلي حيث لا أكسب الأموال، لكني لا أخسر شيئاً بالمقابل.

واكتشفت شيئاً غريباً في تجربتي، إذ لم أكن قادراً على ترك ذلك العمل حتى لو كنت قد قررت هذا. فاستغربت!.. علينا أن نستخدم الصور لفهم الأمور بشكل أفضل. تذكرتُ أنّ البريطانيين سابقاً كانوا يطبّقون عقوبة الأعمال الشاقة بوضع السجين ضمن حلقة تدور على الطاقة المائية، فتُجبر الضحية على تحريك ساقيها بإيقاع معين وإلا تهشّمتا. أي إنك عندما تعمل تكون مكرهاً بنفس الطريقة؛ وعندما لا تعمل تكون وضعيتك نفسها. وأعتقد أني وأوليفي كنا معلّقين هكذا، إلاّ أنني كنت معلّقاً بطريقة لا أحرّك فيها ساقيّ. فكانت وضعيتنا تعطي نتيجة مختلفة حقاً، وإني متأكد الآن أنّ النتيجة لم تكافؤه كما لم تؤنّبني. لكنها تختلف

إن كنا معلّقين في حلقة متحركة أو ثابتة، ومن المستحيل أن ننزل عنها.

ولم أزل أذهب إلى المكتب، حتى بعد إنهاء الموازنة، بالرغم من قراري بعدم الذهاب إلى هناك. كنت أتردد بعد الخروج من المنزل، فآخذ اتجاه المكتب، وأمشي إلى أن يحدد لي الاتجاه أن أجد نفسي جالساً على الكرسي المعتاد في وجه غويدو. ولحسن الحظ طُلب مني أن لا أترك محلي، فوافقت فوراً، لاكتشافي أنني متسّمر عليه في ذلك الوقت.

في الخامس عشر من كانون الثاني، كانت الموازنة قد أنجزت.. كارثة حقيقية! قدّرت الخسارة بنصف رأس المال. ولم يرغب غويدو بإطلاع نجل أوليفي عليها خشية أن يفضح الأمر. لكني رفضت آملاً أن يجد الأخير، بخبرته المهمة، خطأً ما قد يغيّر الوضع كله. فربما كان هناك مبلغ في المدفوعات يعود إلى المستحقات، وقد نصل إلى حالة مختلفة بتعديل ما. ابتسم نجل أوليفي ووعده بأقصى الكتمان، ثم عمل معي ليوم كامل، ولم يعثر على أي خطأ لسوء الحظ. لقد تعلمت كثيراً في تلك المراجعة برفقة ذلك الشاب، وبتّ أستطيع مواجهة وإتمام ميزانيات أهم من تلك بكثير.

- وماذا ستفعلون الآن؟ - سأل الشاب ذو النظارتين قبل أن ينصرف. كنت أعرف مسبقاً بما كان سينصحنا. فوالدي، الذي حدّثني عن التجارة كثيراً في طفولتي، كان قد علّمني ذلك: علينا أن نحلّ المؤسسة، حسب القوانين السارية، طالما خسرنا نصف رأس المال، ويحبّذ أن نرسيها على قواعد جديدة. تركته يعيد عليَّ النصيحة. وأضاف: - نحن نتحدث عن أمر شكلي. - ثم ابتسم - وقد يكلّفكما عدم التقيد به غالياً!

في المساء، أخذ غويدو يراجع الميزانية التي لم يعرف كيف يتأقلم عليها بعد. فعل ذلك دون طريقة علمية، متحققاً من هذا المبلغ وذاك

twitter @baghdad_library

عن طريق الصدفة. أردت مقاطعة عمله غير المجدي، وأعدت على مسامعه نصيحة ابن أوليفي في حل المؤسسة شكلياً على وجه السرعة.

كان وجهه متشنجاً حتى تلك اللحظة مرهقاً نفسه في إيجاد الخطأ. وكان عبوسه يشبه اشمئزازَ من يجد طعماً كريهاً في فمه. وعندما كلّمته رفع وجهه الذي انبسط بصعوبة لينتبه. لم يستوعب مباشرة، لكنه ضحك من قلبه عندما فهم. إنني فسّرت تعبير وجهه على أنه قاس ومكفهر عندما كان ينازل تلك الأرقام التي لا تتغير، سعيداً وثابتاً عندما يضع مشكلته الأليمة جانباً ليسمع اقتراحاً يرجعه إلى أوَجه كربّ عمل.

لم يكن يفهم. بدت له نصيحة من عدوّ. شرحت له أنّ نصيحة أوليفي الابن كانت مفيدة لمواجهة خطر يداهم المؤسسة، بأن يخسر أموالاً أخرى فيجبر على الإفلاس. فالانهيار المحتمل قد يكون متعمّداً إن لم نأخذ الحلول التي اقترحها الشاب بعين الاعتبار، سيّما بعد إدخال هذه الموازنة في سجلاتنا. وأضفت:

– العقاب على الانهيار المتعمّد، في أنظمتنا، هو السجن!...

تضرّج وجهه حتى خشيت أن يصاب بجلطة دماغية. صرخ:

– في هذه الحالة لا يحتاج أوليفي لإعطاء النصائح! إذا حدث هذا الأمر سأحلّ مشكلتي بنفسي!

فرض قراره وشعرت أنني أقف أمام رجل يعي حجم مسؤولياته. فأخفضت من نبرة صوتي، وصرت معه في الرأي. وعندما نسيت أني نصحته بأخذ تلك النصيحة بعين الاعتبار، قلت له:

– وهذا ما عارضت عليه أوليفي أنا أيضاً. فالمسؤولية مسؤوليتك، ونحن لا نتدخل عندما تقرر مصير الشركة، لأنها شركتك وشركة والدك.

في الحقيقة لقد قلت هذا لزوجتي وليس لأوليفي، فكان صحيحاً

أني قلت ذلك لأحد ما. وبعد أن سمعت تصريح غويدو الرجولي كان بوسعي أن أقوله حتى لأوليفي، لأني أُفتن بالشجاعة والقرار. وكنت أعشق اللباقة التي تنتج عن تلك المزايا، وعن مساوئ أخرى أيضاً. وتمسكت برأيي لأني أردت أن أخبر كل كلماته لأوغوستا لكي أطمأنها.

- يقال عني لست موهوباً في التجارة، وأنت تعرف هذا وقد يكون صحيحاً. أستطيع إتّباع ما تأمرني به، لكني لا أستطيع تحمل مسؤوليات ما تقوم بفعله أنت.

فوافق بحماس، وشعر بخير عندما سمع كلمات المديح موجهة إليه، لينسى آلامه من الموازنة التعيسة. فقال:

- إنني المسؤول الوحيد هنا. كل شيء يحمل اسمي ولن أقبل على أيٍ كان أن يتحمل أعباء المسؤوليات.

وهذا ما كان جيداً لأنقله لأوغوستا، بل أفضل بكثير مما طلبت. وكان يجب أن يرى هيئته عندما صرخ بما صرّح: بدا كحواريّ بدل أن يبدو نصف فاشل! تريّث مستريحاً على موازنته السلبية، فكان يصبح رب عملي وسيدي. واحترق اندفاعي لمحبته بسبب تعبير وجهه عندما أعجب بنفسه عن غير حق هذه المرة، كمرات عديدة طوال حياتنا المشتركة. كان ينشز.. أجل! عليَّ أن أقول هكذا بالضبط. ذلك الموسيقيّ الكبير كان ينشز!

سألته بخشونة:

- أتريد أن أرسل بنسخة من الموازنة لوالدك غداً؟

وكنت على وشك أن أصرّح له بقسوة أكبر أنني لن أعود ثانية إلى المكتب بعد إنهاء الموازنة. ولم أقل ذلك لأنني لم أكن أعرف أين أقضي ساعات الفراغ. لكن سؤالي كاد أن يحلّ محلّ التصريح الذي عدلت عنه، وفي الوقت ذاته كنت أذكّره أنه ليس رب العمل الوحيد

twitter @baghdad_library

في ذلك المكتب.

تفاجأ من كلماتي لأنها لا تتوافق أبداً مع ما قلته حتى تلك اللحظة، بموافقتي البديهية، وقال لي بالنبرة الأولى نفسها:

– سأخبرك كيف يتوجب عليك كتابة تلك النسخة.

فاعترضتُ صارخاً، ولم أصرخ هكذا في حياتي كلها لأنه بدا أطرش. قلت إنّ القانون يلزم المحاسب بالمسؤولية أيضاً، ولم أكن مستعداً لعرض رسوم بالنسخة الصحيحة بتجميع أرقام خيالية. فشحب وجهه واعترف أنني على حق، لكنه أضاف أنه سيد العمل الآمر بأن لا تعطى أي نتائج من سجلاته. فبادلته الاعتراف بأنه على حق بكل سرور، وصرّح أنه سيكتب لوالده بنفسه ما إن يهدأ. بل بدا كأنه سيكتب إليه مباشرة. لكنه غيّر فكرته واقترح عليَّ أن نتمشى قليلاً، فأردت أن أرضيه. افترضت أنه لم يهضم الموازنة جيداً ولذا أراد أن يتحرك قليلاً.

ذكّرتني النزهة بليلة خطبتي. كان ينقصها القمر إذ كان الضباب موجوداً في الأعلى، وفي الأسفل أيضاً، فمشينا واثقين ضمن جو صاف. حتى هو تذكر تلك السهرة الخالدة:

– إنها الليلة الأولى التي نتمشى فيها معاً من جديد، أتذكر؟ شرحت لي حينئذٍ أنّ القبلة توجد حتى على القمر كما هنا في الأسفل. لم تنته القبل على القمر حتى الآن، إنني واثق من ذلك مع أنه غائب هذا المساء. أما هنا في الأسفل...

هل أراد أن يباشر باغتياب آدا؟ تلك المريضة المسكينة! قاطعته، ولكن بلطف، على وشك أن أشاركه الرأي. ألم أكن قد رافقته لأساعده على النسيان؟

– حقاً! ليست القبلة بمتاحة دوماً هنا في الأسفل! أما هناك في الأعلى لا توجد إلاَّ صورة عن القبلة. إنها حركة قبل كل شيء.

كنت أحاول أن أبعده عن قضاياه، أي آدا والموازنة، بدليل أنني استطعت أن أكبت جملة كنت على وشك أن أقولها، وهي أنّ القبلة في الأعلى لا تلد توأمين. لكنه لم يجد أفضل من التذمر من مآسيه الأخرى ليتخلص من الموازنة. فتحدّث بسوء عن زوجته، كما توقعت. بدأ بالندم على أنّ عام زواجه الأول كان كارثياً بالنسبة له. لم يتحدث عن التوأمين اللذين كانا غاليين وجميلين، بل عن داء زوجته. كان يفكر أنّ المرض يجعلها حادة الطبع وغيورة، ولا تبادر بالحب في الوقت نفسه. انتهى بالهتاف حزيناً:

– إنَّ الحياة ظالمة وقاسية!..

بدا أنه حرّم عليَّ نهائياً أن أقول كلمة تعبّر عن حكمي بعلاقته بآدا؛ وشعرت بضرورروة أن أقول شيئاً ما. أنهى حديثه عن الحياة وقد أرفق بها صفتين لا يحملان أية مغالاة إبداعية. فرحت أنقد ما تفوّه به، وكان أفضل شيء فعلته. ففي كثير من المرات، نقول أشياء تتبع نغمة الكلمات التي تتشابك صدفة. ثم نتحقق فوراً إن كان ما قلناه يساوي ثمن الزفير الذي استهلكنا لأجله؛ وفي بعض المرات نكتشف أنّ ذلك الاشتباك العرضي ولّد فكرة جديدة. فقلت:

– إنّ الحياة ليست حلوة ولا مرّة؛ إنما الحياة أصليّة!

عندما فكرت بجملتي بدت كأنها شيء مهم. هكذا رأيت الحياة جديدة للغاية، حتى بقيت أشاهدها كما لو رأيتها للمرة الأولى بكل أشكالها الهوائية والسائلة والصلبة. لو قلت هذه الجملة لأحد ما لا يعرفنا ولا يشاركنا أفكارنا، لبقي مذهولاً أمام هذه العبارة الضخمة عديمة الجدوى. كان سيسألني مثلاً: (وكيف استطعت أن تتحملها؟!) لكنه لو علم بكل التفاصيل، ابتداء بتلك الأجساد السماوية المعلّقة في السماء لتُرى وليس لتُلمس، وانتهاء باللغز الذي يحيط بالموت، لهتف بالتأكيد:

twitter @baghdad_library

(إنها أصليّة جداً!).

– الحياة أصلية! – قال غويدو ضاحكاً – أين قرأت هذا؟!..

لم أصر على تأكيد عدم قراءتها في أي مكان، لأنه سيقلل من قيمتها. لكنني وجدت الحياة أصلية كلما فكرت بها. ولم أكن مضطراً لأراها من الخارج مصمَّمة بطريقة غريبة. كان يكفي أن نذكر كل ما تمنيناه من الحياة نحن البشر لأراها غريبة جداً حتى أختتم بأنّ الإنسان لا ينتمي إليها لأنه وُضع فيها بالخطأ.

وعلى غفلة منا، وجدنا أنفسنا نتجه إلى مرتفع بلفيديري. وعندما وصل غويدو إلى السور الذي تمدد عليه في تلك الليلة، صعد عليه وتمدد تماماً مثل المرة الماضية. وكان يغني بسبب ضغط الأفكار، ويفكر بأرقام حساباته الجائرة بالتأكيد. أما أنا تذكرت أني أردت قتله هناك، وعندما قارنت مشاعري بتلك اللحظة مع هذه، أعجبت أكثر بأصالة الحياة الفريدة. وتذكرتُ فجأة أني، منذ قليل، تحدثتُ بعنف، وبنزوة رجل طموح، مع المسكين في أكثر أيامه سوءاً. ففكرت ملياً: كنت أشرف، دون شفقة، على عذابه من تلك الموازنة التي شاركت بوضعها بعناية فائقة. فراودني شك غريب، ثم ذكرى أغرب بكثير للتو. الشكّ: هل كنت طيباً أم شريراً؟ أما الذكرى فاستحضرتها من الشكّ الذي لم يكن بجديد: كنت أرى نفسي طفلاً وأرتدي بنطالاً قصيراً، وعندما رفعت رأسي سألت أمي الباسمة: (هل أنا طيب أم شرير؟!). فلا بد أن يكون الشكّ ملهماً من الكثيرين الذين قالوا للطفل إنه طيب، ومن آخرين صنّفوه بين الأشرار ليمازحوه. ولم يكن عجيباً أن يستغرب الطفل من صفتين متباينتين. يا للحياة الأصلية! فالعجب أنّ الشكّ الذي حيّر الطفل بأسلوب صبياني، لم يُمحى بعد من ذهن البالغ الذي قطع منتصف حياته.

هناك تماماً، وفي ليلة حالكة، انتابتني رغبة في القتل. فأضناني ذاك

الشكّ بعمق. لم يتألم الطفل كثيراً، عندما جال الشكّ في رأسه الصغير، لأنّ الناس يخبرون الأطفال أنهم سيتعافون من الشراسة عاجلاً. ولكي أتخلص من هذا العذاب أردت أن أعتقد بذلك مجدداً، ونجحت فيه. ولو لم أفلح لبكيت عليَّ وعلى غويدو وعلى حياتنا الحزينة. إنّ القرار يجدّد الأوهام! قررت أن أضع يدي بيده لنتعاون سوياً على النهوض بتجارته التي تتعلق حياته وحياة عائلته بها، دون أي مقابل لي. وبدأت أفكر بإمكانية النشاط والاحتيال والدراسة لأجله، وسلّمت بإمكانية أن أصبح تاجراً عبقرياً وعظيماً ومبادراً لأساعده فقط. هذا ما فكرت به تماماً في تلك الليلة المعتمة من هذه الحياة الأصلية!

توقّف غويدو عن التفكير في الموازنة، فنهض من مكانه وبدا أكثر هدوءاً. قال لي، كأنه استخلص المغزى من تأمّل طويل، إنه لن يخبر والده بشيء، وإلاَّ سيضطر العجوز المسكين إلى رحلة طويلة ليترك شمس الصيف ويأتي إلى ضباب الشتاء. ثم قال إنّ الخسارة تبدو جسيمة للوهلة الأولى، لكنها ليست كذلك في الحقيقة إن لم يكن عليه أن يتحملها لوحده. فكان سيطلب من آدا أن تضع نصف الخسارة على عاتقها، وسيسمح لها بجزء كبير من الأرباح الطائلة من العام المقبل كمكافأة لها، أما النصف الآخر من الخسارة فسوف يتحمله هو.

لم أنبس ببنت شفة، بل فكرت أنّ إسداء النصح محرّم عليَّ، وإلاَّ كنت سأقحم نفسي في أمور لا تخصني، فلم أشأ أن أكون قاض بين زوجين. وكنت ممتلئاً بالقرارات الجيدة حينها، فرأيت أنها ستحسن صنعاً إن شاركت في مؤسسة أديرها أنا وزوجها.

رافقته حتى باب منزله، وشددت على يديه طويلاً لأجدد القرار بصمت. ثم فكرت أن أقول له عبارة لطيفة، وانتهى بي الأمر أن وجدت هذه:

twitter @baghdad_library

- أتمنى أن ينعم التوأمين بليلة سعيدة، ليسمحا لك بالنوم لأنك بحاجة إلى الراحة..

وعندما مضيت في طريقي عضضت على شفتي من الندم لأني لم أجد أفضل من هذه العبارة. فكنت أعلم أنّ التوأمين بات لكل واحد منهما مربيّته، وينام على بعد نصف ميل من غرفة والده، وليس باستطاعتهما إزعاجه في نومه! على كل حال، فهم مقصد التهنئة لأنه قبلها بامتنان.

عدت إلى منزلي فوجدت زوجتي في غرفة النوم مع الأولاد. كان ألفيو يرضع من صدرها بينما تنام أنتونيا في السرير على جنبها لأرى رقبتها المغطاة بشعرها المجعد. وتوجب عليَّ أن أشرح سبب تأخري، فأخبرتها بالطريقة التي فكر بها غويدو كيف يتخلص من خسارته. بدت فكرته حقيرة.

- لن أقبل بذلك لو كنت مكانها. - هتفت بعنف، ولكن بصوت خافت كي لا توقظ الطفلين. فناقشتها، تدفعني قراراتي النبيلة:

- ألن تساعدينني لو وقعت بمصاعب غويدو نفسها؟

فضحكت:

- شتّان بين الأمرين! فبيننا يوجد ما هو مفيد أكثر مما بينهما! - أومأت إلى الطفل الذي بين ذراعيها وإلى أنتونيا. ثم أكملت بعد تأمّل قصير: - ألا يجدر بك أن تعوّضها عن خسارتها إن نصحتها بالتضحية بأموالها ليستمرّ هذا المشروع الذي لن تستمرّ فيه أنت؟

كانت فكرتها تنم عن جهلها. لكني هتفت، يدفعني الإيثار: - ولم لا؟!

- ألا ترى أنّ لدينا طفلان اثنان علينا أن نفكر بهما.

كنت أراهما طبعاً! كان سؤالها كصورة بلاغية لا معنى لها.

– أوليس لديهما طفلان اثنان هما أيضاً؟! – سألتها بنبرة مستعلية.

فأخذت تضحك بشدة حتى أرعبت ألفيو الذي ترك ثديها ليبكي على الفور. فانشغلت به ضاحكة. وقبلت ضحكتها لأنني نلتها بفضل شخصيتي الطريفة. وفي الحقيقة، وبينما أجرت سؤالها، انتابتني عاطفة حب في صدري لأمهات كل الأطفال، ولأطفال كل الآباء. وما إن ضحكت أنا أيضاً حتى تبددت تلك العاطفة.

وهدأ الشك الغاضب في عدم التأكد من طيبتي بشكل جوهري، وشعرت أنني حلّلت تلك المشكلة المضنية. إذ لم أكن طيباً ولم أكن شريراً، كما لم أكن أشياء أخرى كثيرة. فالطيبة هي الضوء الذي ينير ظلام الروح الإنسانية على ومضات آنيّة، ونحن بحاجة لمشعل ناري ليولّد النور. (وكانت روحي تحتوي عليه، وسيعود إليها عاجلاً أم آجلاً). ويتمكن الكائن المفكر، بفضل ذلك النور، أن يختار الوجهة كي يتسنى له التحرك وسط الظلام فيما بعد. لذا بوسعنا أن نتظاهر بأننا طيبون، طيبون جداً ودائماً، وهذا هو الأهم. وعندما يعود النور لن يفاجأنا ولن يبهر أنظارنا. وأستطيع أن أنفخ عليه لأطفأه أولاً، عندما لا أضطر له، لأني أستطيع أن ألتزم بقراري، أي بالوجهة.

إنّ قرار الشهامة سلمي وعملي وكنت هادئاً عندئذٍ. غريب! فالمبالغة بالنبل كانت ستجعلني أبالغ بالإعجاب بنفسي وبقدرتي. فما الذي بوسعي فعله لغويدو؟.. كان صحيحاً أني آمر الآخرين في مكتبه كما كان السيد أوليفي يأمرني في مكتبي، لكن هذا ليس برهاناً على شيء. ولأكون عملياً أكثر: ما الذي كنت سأنصح به غويدو في اليوم التالي؟.. هل أعتمد على الوحي؟.. حتى على طاولة القمار لا يتبع أحد وحيه عندما يلعب بأموال غيره! عليك أن تبدع عملاً في كل يوم لكي تُحيي مؤسسة تجارية، وقد تفلح في هذا إن كنت تعمل دون كلل

twitter @baghdad_library

أو ملل مع مجموعة منظمة. ولست أنا من يستطيع فعل شيء من هذا القبيل، ولا يبدو عادلاً أن أذعن لقوة الخير لأدان بالضجر المؤبد. إلا أني شعرت بالانطباع الذي ولّدته فيَّ ضربة الشهامة بالالتزام الذي قطعته على نفسي مع غويدو، ولم أقدر أن أغفو. تنفست بعمق لأكثر من مرة حتى تنهدت بشدة؛ فكما بدوت مجبراً على التعلق بمكتب غويدو، كان السيد أوليفي مجبراً على التعلق بمكتبي. غمغمت أوغوستا أثناء النعاس:

– ما بك؟! هل وجدت جديداً تخبره للسيد أوليفي؟..

وجدتُها! كنت سأنصح غويدو باتخاذ أوليفي الابن كمدير لأعماله!... ذاك الشاب الجديّ المثابر في عمله، كنت أراه في أعمالي على مضض إذ يبدو مستعداً لخلافة والده في تولّي الإدارة ليجعلونني خارجاً عنها بالكامل. لكنه كان مناسباً في مكتب غويدو، ولصالح الجميع. فإذا حدّد غويدو وضعيته في المؤسسة لأنقذ نفسه، ولكان الفتى مفيداً في ذلك المكتب أكثر من مكتبي.

أعجبتني الفكرة فأيقظتُ زوجتي لأخبرها بها. حتى هي تحمست لذلك ولكل شيء.. بدا لها أنني كنت سأخرج من تلك المشاريع الخطيرة بسهولة. فنمت عميقاً بضمير مطمئن، لأني وجدت طريقة لإنقاذ غويدو دون أن أتضرر، بل على العكس تماماً.

لا شيء أسوأ من أن ترى نصيحتك تردّ عليك بعد أن درستها بصدق باذلاً فيها مجهوداً كلّفك أغلى ساعات النوم. بالنسبة لي كان هناك مجهوداً آخر: وهو التخلص من الأوهام بإمكانية الاستفادة من مشاريع صديقي. وكان المجهود مهولاً، وقد وصلت إلى نبل حقيقي أولاً، ثم إلى موضوعية محضة كانت ستلعنني!..

رفض غويدو نصيحتي بازدراء. لم يكن يؤمن بقدرة الفتى، ثم كان يزعجه مظهره كشاب عجوز، وتزعجه نظارتاه اللامعتان على وجهه

الخامل أيضاً. كان الموضوع يجعلني أعتقد أنّه من كل القواعد السليمة لم تكن لدى غويدو إلاَّ واحدة: الرغبة في جعلي أغضب. إذ قال لي في النهاية أنه سيوافق على السيد أوليفي العجوز كمدير للمكتب، وليس أوليفي الفتى. لكني لا أظن أنّ بوسعي ضمان مساعدة السيد أوليفي، ثم إني لم أكن مستعداً لتولّي إدارة أعمالي بين اللحظة والأخرى. أخطأت عندما ناقشته، وقلت له إنّ العجوز لم يكن ذا همية. أخبرته كم من الأموال كان سيكلّفني عناده لأنه لم يرغب بشراء تلك الفواكه المجففة في الوقت المناسب.

– حسناً ! – هتف – إذا كان العجوز ليس مهماً جداً، فما القيمة التي ستكون للفتى وهو ليس إلاَّ تلميذاً عند أبيه؟..

هاهي حجة مقنعة أخيراً، ومؤسفة بالنسبة لي لأني أخرجتُها منه بثرثرتي المتهورة. وبعد عدة أيام أخبرتني أوغوستا أنّ غويدو اقترح على آدا تحمّل نصف خسارة رأس المال، فرفضت آدا قائلة لأوغوستا:

– يخونني ويريد أموالي أيضاً!

لم تتشجع أوغوستا أن تنصحها بإعطائه شيئاً، لكنها أكدت أنها فعلت ما بوسعها لتعدل آدا عن حكمها على إخلاص زوجها. فأجابت بطريقة توضح أنّ اتخاذ هذا القرار سيكون أبعد مما يعتقد. وفكرت أوغوستا: علينا أن نضحّي لأزواجنا بكل شيء، لكن هل تنطبق هذه المسلّمة على غويدو أيضاً؟!..

أصبحت تصرفاته غير اعتيادية في الأيام اللاحقة. فكان يأتي إلى المكتب بشكل متقطع ولا يبقى فيه أكثر من نصف ساعة فيمضي بعيداً كمن نسي منديله في المنزل. ثم علمت أنه كان يذهب حاملاً لزوجته حججاً جديدة تبدو له مقنعة. كانت هيئته حقاً هيئة رجل قد بكى أو صرخ كثيراً أو أنه تشاجر مع أحدهم. ولم يتمكن من إخماد الغيظ الخانق

twitter @baghdad_library

الذي يوصل الدموع إلى عينيه، حتى في وجودنا. سألته ما الذي جرى. فأجاب بابتسامة حزينة، ولكنها ودية ليظهر لي أنه لم يكن مستاءً بسببي. ثم استكان ليحتدث إليَّ دون عصبية كبيرة. قال في النهاية كلمات قليلة: آدا تؤلمه بغيرتها.

أخبرني أنهما يتناقشان بقصصها الحميمة، بينما كنت أعرف أنه يناقشها بقصة (حساب الخسائر والأرباح). وبدا أنّ هذا لا يحمل أهمية تذكر. كان يقوله هو، وكانت تقوله آدا لأختها عندما لا تتحدث سوى عن غيرتها. حتى إنّ عنف تلك النقاشات الذي يترك أثراً عميقاً جداً على وجهه، كان يعطي انطباعاً بأنهما يقولان الحقيقة.

واتضح فيما بعد أنّ الزوجين لم يتحدثا إلاَّ بموضوع الأموال. فهي لم تظهر له مآسيها العاطفية التي تسيطر عليها، يدفعها كبرياؤها؛ وهو قد يؤنبه ضميره ويزيد من سعير غضبها النسائي، فغالباً ما ناقشها بالمشاريع كأنّ باقي المشاكل ليس لها وجود. وأتعب نفسه في الجري وراء تلك الأموال، بينما هي، التي لا تفقه شيئاً بالتجارة، كانت تعارض اقتراحه بحجة وحيدة: الأموال ستبقى للأولاد.. وعندما كان يجد حججاً أخرى، كسلامته والنفع الذي سيعود للأولاد إن كُتب البقاء للمؤسسة والضمان بأن يعمل تحت القانون، كانت تصدّه دائماً بـ(لا) جائرة. مما كان يغضبه، مثل الأطفال. وعندما يتحدثان للآخرين عن السجال المحتدم بينهما، يخفيان الحقيقة ليظهران على صواب بتأكيد عذابهما من الحب والغيرة.

منعني سوء الفهم إذن من التدخل في الأوان المناسب لأضع حداً لمسألة الأموال المؤسفة. كان بوسعي أن أؤكد له أنّ المسألة ليس لها قيمة على أرض الواقع. صحيح أنني محاسب متخلف لا أفهم الأمور إلاَّ عندما أنقلها على السجلات لأراها بوضوح، ولكن يبدو لي أني فهمت باكراً أنّ الدعم الذي طالب به زوجته لم يكن ليقلب الموازين.

فما الذي سيجنيه من ذاك الدعم المالي؟ لن تبدو الخسارة أقل حجماً هكذا، إلاَّ إذا كانت آدا لا تقبل برمي الأموال في ذلك الحساب، الأمر الذي لم يطالب به غويدو. فالقانون ليس مغفلاً ليتغاظى عن جذب رؤوس أموال جديدة إلى شركة منيت بخسائر فادحة.

لم يأت غويدو إلى المكتب في الصباح، مما فاجأنا لأننا كنا نعلم أنه لم يذهب للصيد في مساء اليوم السابق. وعند الغداء علمتُ من أوغوستا المتأثرة والمرتبكة أنه حاول الانتحار. لكنه بات خارج الخطر. وأعترف أنّ الخبر، الذي بدا مأساوياً لزوجتي، أغضبني كثيراً. استنجد بهذه الطريقة العنيفة ليقضي على مقاومة زوجته! لقد فعل ذلك بكل ما أوتي من طيش، لأنه جعل زوجته ترى علبة المورفين منزوعة الغطاء في يديه قبل أن يتجرع منه. وعندما سقط في الخمول الأول، اتصلت آدا بالطبيب وغدا خارج الخطر على الفور. لقد قضت ليلة فظيعة لأنّ الطبيب ظنَّ أنه سيقوم بعملية ليخرج السم. ثم طال ارتباكها بسببه لأنه انهال عليها بالتوبيخ، ما إن عاد إليه الوعي قليلاً، واصفاً إياها بعدو جائر يعرقل نجاحه في العمل السليم الذي كان مستعداً للقيام به.

فوافقت آدا مباشرة على إعطاءه المال الذي طلبه. لكنها، بقصد الدفاع عن نفسها، تكلمت بوضوح وأفرغت ما كانت تحصر بداخلها منذ زمن طويل. وهكذا وصلا إلى تسوية لأنه نجح - كما تظن أوغوستا - في محو أي شك يجول في خاطر آدا يتعلق بإخلاصه. وكان حيوياً، إذ صرخ عندما كلّمته بشأن كارمن:

- أتغارين منها؟ حسناً، سأقيلها اليوم إن أردت.

لم تجب آدا وظنت أنها وافقت على اقتراحه الذي سيلتزم به. لكني عجبت منه كيف أحسن التصرف في فترة الهذيان، واقتنعت أيضاً أنه لم يتناول حتى تلك الجرعة الصغيرة من المورفين كما قال. كان يبدو لي

twitter @baghdad_library

استسلاماً من الروح المتماسكة بعد أحد تأثيرات ذهاب العقل، فتنصاع لاعترافات ساذجة. ألم أكن قد خرجت من تجربة مشابهة مؤخراً؟.. فازداد غيظي واحتقاري له.

بكت زوجتي وهي تقصّ الحالة التي مرّت بها أختها. فآدا لن تكون جميلة بعينيها الجاحظتين من الفزع.

وكان هناك جدال طويل بيني وبينها حول ضرورة القيام بزيارة مبكرة لهما أم أن أتظاهر بعدم معرفة شيء وأنتظر رؤيته في المكتب مجدداً. كانت تلك الزيارة تبدو لي عملاً شاقاً لا يحتمل، فماذا أقول إن لم أبح برأيي فيه ما إن أراه؟.. كنت أقول:

- إنه حدث مهين بالنسبة لرجل! ليس لديَّ أية رغبة بالانتحار، ولكن ما من شك أنني لو قررت ذلك سأنجح فيه مباشرة!

كنت أشعر بهذا حقاً وأردت نقله لأوغوستا. لكن بدا لي أنني أشرّف غويدو إن قارنت نفسي به.

- ليس علينا أن نكون ضالعين في الكيمياء لنعرف كيف ندمّر هذا الجسد الرقيق. ألا توجد في مدينتنا، كل أسبوع تقريباً، خياطة تبتلع محلول الفوسفور الذي تحضره في بيتها الفقير؛ فتموت بذلك السم البدائي، بصرف النظر عن أي تدخل، ووجهها ينقبض من الألم الجسدي والنفسي الذي تخضع له روحها البريئة؟..

لم تقبل أوغوستا ببراءة روح الخياطات المنتحرة؛ ولكن، بعد اعتراض سريع، حاولت إقناعي بتلك الزيارة ثانية. أخبرتني أنه ما من داع للارتباك، فهي تحدثت معه وكان يتصرف بسكينة وهدوء كما لو أنه أقدم على فعل شائع.

خرجت من المنزل دون إرضائها بالظهور مقتنعاً بأفكارها، وبعد

حيرة وجيزة مضيت دون شـك لأرضيها. ومع أنّ النزهة كانت قصيرة، لكـن وقـع خطواتـي كان يسـوقني لتخفيـف حكمـي على غويـدو أيضاً. تذكرتُ الوجهة التي رسـمها النور الذي أضاء روحي منذ أيام. فغويدو كان مراهقـاً طائشـاً وعدتـه بمغفرتـي، وكان سـينضج حتمـاً إن لم ينتحر قبل ذلك.

أدخلتنـي الخادمـة إلـى غرفـة صغيرة، لعلّهـا مكتب آدا. كان النهار غائماً، والغرفة الصغيرة، بنافذتها المغطاة بسـتارة كثيفة، مظلمة. وكانت صـور والديهمـا ترتـع علـى الجـدران. مكثـت قليـلاً لأنّ الخادمة عادت لتقودنـي إلـى غويـدو وآدا فـي غرفـة نومهما. أما تلك غرفة كبيرة ومنيرة حتى خلال ذلك النهار المظلم، بنافذتيها الكبيرتين وأثاثها الفاخر بألوانه الفاتحة. كان رأسه ملفوفاً على السرير وآدا تجلس بقربه.

استقبلني غويدو دون ارتباك، بل بامتنان واضح. كان يبدو ناعساً، لكنه استيقظ وتحرك ليرحّب بي. ثم استلقى على المخدة وأغمض عينيه. هل تذكر أنّ عليه تقليد دور المصاب بتأثير المورفين الحاد؟ كان مثيراً للشفقة لا للغضب على أية حال، وشعرت بنفسي طيباً جداً.

لم أنظر إلى آدا فوراً. كنت أخاف من ملامح وجه بازيدوو؛ وعندما رأيتها انتابتني مفاجأة لطيفة، فكنت أنتظر الأسوأ. كانت عيناها أكبر من حجمهما فعلاً، ولكن الانتفاخ الذي حلّ مكان وجنتيها قد اختفى، وبدت لي أكثر جمالاً. كانت ترتدي ثوباً أحمر عريضاً يغطيها حتى ذقنها ليضيع فيه جسدها الجميل المسكين. كان فيها شيء من التواضع، ولتلك العينين شـيء من الحزم. لم تتضح كل أحاسيسـي ولكني شـعرت أنني أجلس بقرب امرأة تشبه آدا التي كنت أحب كثيراً.

وفـي لحظـة معينـة حملـق غويـدو بعينيـه. أخذ من تحـت المخدة إيصالاً لاحظتُ عليه توقيع آدا. أعطاني إياه وطلب مني أن أقبض قيمته

twitter @baghdad_library

وأعتمد منه مبلغاً في حساب أفتحه باسم آدا.

– باسم آدا مالفنتي أم آدا سبيير؟ – سألها مازحاً..

شدّت كتفيها وقالت:

– أنتما تعرفان ما هو الأفضل.

– سأخبرك لاحقاً كيف تجري التسجيلات الأخرى. – أضاف باختصار أشعرني بالإساءة. كنت على وشك أن أقطع عليه النعاس، مصرّحاً بأنه إذا أراد تسجيلات أخرى فليفعلها بنفسه.

في الوقت الذي حملت إليه آدا فنجاناً ضخماً من القهوة السوداء، سحب ذراعيه من تحت الغطاء وحمل الفنجان بيديه إلى فمه. كان يبدو طفلاً بالفعل حينما أدخل أنفه بالفنجان.

عندما تأهبت للانصراف، أكد لي أنه سيأتي إلى المكتب في الصباح التالي. وكنت ودّعت آدا، لكنني فوجئت بها تتبعني لاهثة حتى مخرج الدار:

– أرجوك يا زينو! تعال هنا للحظة. عليّ أن أخبرك شيئاً.

تبعتها إلى الصالة الصغيرة حيث كنت قبل قليل، وسمعت حينها بكاء أحد توأميها. بقينا واقفين كلانا ينظر في وجه الآخر. مازالت تلهث، ففكرت لوهلة أنها ستطلب مني، في غرفة مظلمة، الحب الذي عرضته عليها فيما مضى.

كانت عيناها في الظلام مريعة. فسألت نفسي بقلق ما الذي عليّ فعله. ألم يكن من واجبي أن آخذها بين ذراعي لأوفّر عليها طلب شيء ما؟!.. يا لتلك اللحظة كم تدفقت فيها القرارات! من إحدى أصعب المسائل في هذه الحياة أن تخمّن ما الذي تريده المرأة. ليس مجدياً أن تسمع كلماتها، فنظرة واحدة قد تكفي لمحو نقاش طويل عريض، ولا تعرف النظرة كيف تدير أمورنا عندما تجد نفسك معها، من صميم

إرادتها، بغرفة صغيرة معتمة ومريحة.

وعندما لم أستطع أن أتنبأ بما كان يدور في خلدها، حاولت أن أفهم ما يدور في نفسي. بم كنت أرغب؟ هل كنت أريد تقبيل تلك العينين وذلك الجسم المتهالك؟.. لم أستطع أن أعطي إجابة واضحة لأني رأيتها قبل قليل عفيفة حازمة، بملابسها المنزلية الناعمة، شهية مثل الفتاة التي كنت قد أحببتها.

ارتبطت دموعها بالقلق، مما أطال الوقت الذي لم أعرف فيه ما الذي تريد وبم أرغب. وأخيراً، أخبرتني عن حبها لزوجها مرة ثانية، وبصوت محطم مرة ثانية. فلم يعد لي حقّ فيها، ولم يعد لها واجب عليّ. تلعثمت:

– أخبرتني أوغوستا أنك ستترك غويدو لأنك لم تعد تهتم بشؤونه. أتوسل إليك أن تستمر في مساعدتي. لا أعتقد أنه قادر على العمل لوحده.

طلبت مني الاستمرار بفعل ما كنت أفعله أصلاً. كان شيئاً قليلاً جداً فحاولتُ أن أسمح بشيء أكبر:

– سأبقى أساعده إن كانت هذه رغبتك، بل سأفعل كل ما بوسعي لمساعدته بأفضل مما قمت به حتى الآن.

ها أنذا أبالغ مجدداً! فطنت لذلك في نفس اللحظة التي أقع في المشكلة، ولكن لم أتمكن من الرفض. أردت أن أقول لها (أو أن أكذب عليها) إنها تضغط عليَّ. لم تكن تريد مني الحب، بل المساعدة. وتكلمتُ معها بطريقة تجعلها تصدّق بأنني مستعد للقيام بكليهما.

مدّت يدها إلي، فارتعش جسدي. المرأة تعرض الكثير في مدّ يدها!.. لطالما أحسست بذلك، فعندما أشدّ على يد امرأة أشعر أني أعانقها كلها. وقمت بما يشبه العناق، بالمقارنة البديهية بين يدي ويدها.

twitter @baghdad_library

فكانت لمسة حميمة بلا شك. أضافت:

– عليَّ أن أعود فوراً إلى المصحّة في بولونيا، وسأكون مطمأنة إذا عرفت أنك مازلت ترافقه.

– سأبقى معه! – أجبت مستسلماً. عليها أن تظن أنّ استسلامي كان يعني التضحية لأجلها. لكني كنت أستسلم للرجوع إلى حياة معتادة، نظراً لأنها لم تفكر في المبالغة التي حلمتُ بها.

بذلت مجهوداً لأهبط على الأرض بسلام. واكتشفت مشكلة حسابية ليست بسيطة في ذهني. عليّ أن أفتح حساباً لآدا من مبلغ الإيراد الذي كنت أحمله في جيبي. كان هذا واضحاً، ولم يكن واضحاً مثل ذلك التسجيل الذي قد يتعلق بحساب الأرباح والخسائر. لم أقل شيئاً عن الشك بأنّها لم تكن تعرف بوجود سجلّ يحتوي على حسابات مختلفة في هذا العالم.

ولكنني لم أشأ أن أخرج من تلك الغرفة دون أن أقول شيئاً آخر. وبدل التكلم عن الحسابات، قلت جملة باستهتار لأقول شيئاً ما وحسب. وشعرت بأهميتها بعدئذ بالنسبة لي ولآدا ولغويدو؛ لكنها مهمة بالنسبة لي قبل كل شيء، فأنا الذي يخاطر أكثر منهما. كانت الجملة بغاية الأهمية؛ حتى أني تذكرتها لسنوات طويلة، كأني حرّكت شفاهي لأقولها بحركة مستهترة، في تلك الغرفة المعتمة، وبوجود كل تلك الصور على الجدار. قلت:

– لقد تزوّجت برجل غريب الأطوار أكثر مني يا آدا!..

يا للكلمة، كم تستطيع عبور الزمن! إنها حدث بحد ذاته يعيد توصيل نفسه مع باقي الأحداث! وكانت تصبح حدثاً تراجيدياً لأنها موجّهة لآدا. لم أتمكن من التذكر بحماس شديد، تلك الساعة التي اختارت آدا خلالها بيني وبين غويدو على تلك الدرب المشمسة لكي

أمشي بقربها وأبذل جهداً في جعلها تدلي بضحكة كنت أتلقاها كوعد، بغباء كبير! وتذكرت أيضاً أنني أصبحت دونياً بسبب الارتباك الذي حلّ بساقيّ بينما كان غويدو يتحرك برشاقة أكثر من آدا نفسها، ولم يشعر بأية دونية كأنه لم يأخذ بعين الاعتبار تلك العصا الغريبة الذي اعتاد على حملها. - صحيح! - قالت بصوت منخفض، ثم ابتسمت بودّ - لكنني سعيدة لأختي لأنك أفضل بكثير مما توقعت. - وبتنهد - هذا يهوّن ألمي بأنّ غويدو لم يكن كما كنت آمل.

كنت ساكتاً، ومليئاً بالشكوك. فكرت أنها قالت إني كنت كما كانت تأمل أن يكون غويدو. أكان حباً إذن؟.. ثم قالت أيضاً:

- إنك الرجل الأفضل في العائلة. نضع أملنا وثقتنا بك. - ثمَّ شدت على يدي وشددت على يدها أكثر، فسحبتها قبل أن تزول الريبة. وعرفتُ مجدداً ما الذي ينبغي فعله في تلك الغرفة المظلمة. وربما داعبتني مجدداً لتخفض من وقع فعلتها: - يؤسفني أني جعلتك تتألم... هل تألمت كثيراً حقاً؟!..

فاتّسعت عيناي في ظلام ذكرياتي لتبحث عن ذلك الألم وغمغمت:

- أجل!..

وشيئاً فشيئاً، تذكرت كمنجة غويدو، وكيف كانوا سيرمونني خارج تلك الصالة لو لم أتشبّث بأوغوستا؛ وكيف كنت أراقبهما يتبادلان القبلات في تلك الصالة على الطاولة الملكية. وفجأة تذكرت كارلا أيضاً، وكيف تدخّلت بقصتها. ثم سمعت صوتها يقول إني أنتمي لزوجتي، أي لآدا. فكررت، بينما كانت الدموع تصعد إلى عيني:

- كثيراً! أجل! تألمت كثيراً!

وكانت آدا تشهق أيضاً:

- يؤسفني ذلك!... - بذلت جهداً لتقول: - ولكنك الآن تحب

twitter @baghdad_library

أوغوستا!...

فقاطعتها شـهقة للحظة، وأنا ارتعشـتُ دون أن أعرف إن توقفت لتسمع ما إذا كنت سأؤكد ذلك الحب أو أنفيه. لحسن الحظ لم تعطِني الوقت للحديث، لأنها أكملت:

- لابدَّ أن يكون بيننا حب أخوي حقيقي. إنني بحاجة إليك. بات عليّ أن أكون أماً لذلك المراهق النائم هناك، وعليّ أن أعتني به. هلاّ ساعدتني في مهمتي الصعبة هذه؟

كادت أن تستند إليّ بعاطفتها الجيّاشة كما في المنام. لكنني انتبهت إلى كلماتها. كانت تطالبني بحب أخوي، وكان الالتزام بالحب، الذي قد يربطني بها، يصبح واجباً عليّ تجاهها. لكني وعدتها بمساعدة غويدو، وأن أساعدها وأن أفعل كل ما كانت تريده. لو كنت أكثر هدوءً لحدّثتها عن عدم كفاءتي بالالتزام الذي طلبته مني، لكني كنت سـأدمّر العاطفية الخالدة لتلك اللحظة. وبالمجمل، كنت متأثراً بأني لا أسـتطيع الشـعور بعدم كفاءتي. ففكرت حينها أنه لا وجود لرجل غير كفء، حتى غويدو نفسه سيتخلى عن عدم كفاءته ببضع كلمات تعطيه الحماسة الضرورية.

رافقتني إلى البهو وبقيت هناك، مسـتندة عند سـياج الدرج تراني أنزل، كما فعلت كارلا دوماً. وكان غريباً أن تفعله آدا التي تحب غويدو، وكنت ممتناً لها على ذلك، حتى أني رفعت رأسي مرة أخرى لأحيّيها، قبل أن أنزل عتبة الدرج الثانية. هكذا يفعل العشّـاق، وربما يصلح هذا للعشق الأخوي أيضاً.

مضيت سعيداً. رافقتني حتى البهو، وليس أبعد من ذلك. فلم يعد ثمّة شـكوك. بقينا هكذا: كنت قد أحببتها لكني أحب أوغوسـتا حينها، وحبي القديم لها يستوجب عليّ أن أتفانى لأجلها. ومازالت تعشق ذلك الفتى، لكنها تخصني بحب أخوي ليس لأني تزوجت أختها وحسب، بل

لتعوّضني عن الآلام التي سبّبتها بحقي، والتي كوّنت رباطاً سرياً بيننا. لكل هذا مذاق خاص في الحياة. ألم يتمكن هذا السلام أن يقودني إلى العافية الحقيقية؟ بالفعل، مشيت في ذلك اليوم دون ارتباك وأوجاع. وشعرت بنفسي نبيلاً وقوياً، وتجدّد الإحساس بالثقة في قلبي. نسيت أني خنت زوجتي بطريقة سفيهة، أي قررت أن لا أخونها ثانية وكان هذا يشبه النسيان إلى حد كبير. وشعرت بنفسي كما تراني آدا حقاً، الرجل الأفضل في العائلة.

وعندما أخذت البطولة بالاضمحلال، أردت أن أثيرها ثانية، لكن آدا باتت في بولونيا. فأضحت كل المساعي لاستخراج دافع جديد مما قالته لي بلا جدوى. أجل! كنت سأقوم بالقليل الذي أقدر عليه لغويدو، لكن قراراً كهذا لم يكن ليملأ رئتيّ بالهواء ولا شراييني بالدماء. وبقي في قلبي لآدا استلطاف يتجدد كلما كتبت رسالة لأوغوستا تذكرني فيها بكلمة ودودة. وكنت أبادلها الودّ من كل قلبي وأرافق علاجها بالدعاء، عساها تنجح في استعادة صحتها وجمالها!..

في اليوم التالي، جاء غويدو إلى المكتب وانشغل بالتمحيص في التسجيلات التي كان يريد أن يقوم بها، فاقترح:

– فلننقل الآن حساب الأرباح والخسائر إلى النصف مع حساب آدا.

هذا ما كان يريده، ولم يكن لينفعه بشيء. لو نفذتُ إرادته دون مبالاة، كما فعلت حتى بضعة أيام خلت، لقمت بتلك التسجيلات ببساطة ولما عدت أفكر فيها. لكني شعرت من واجبي أن أخبره بكل شيء. وفكرت أني سأمنحه دفعة إلى العمل إذا أعلمته بصعوبة مسح الخسارة التي منينا بها.

شرحت له أنّ آدا، على حد علمي، أعطت ذلك المبلغ لكي يوضع

twitter @baghdad_library

في اعتماد حسابها، وهذا ما لم يعد ممكناً إن وضعنا فوقه نصف خسارة الموازنة من الجانب الآخر. ثم إنّ جزءاً من الخسارة الذي أراد نقله على حسابه الخاص كان يعود إليه بالأصل، بل كانت ستعود إليه الخسارة برمّتها، فلم يكن يلغيها هكذا بل يثبّتها. فكرت بالأمر كثيراً حتى استرسلت بالشرح، وختمت:

– لو افترضنا أن يحصل هذا – لا سمح الله! – في الظروف التي تنبأ بها أوليفي، ستتضح الخسارة في سجلاّتنا ما إن يدققها مراقب محنّك.

نظر إليَّ مشدوهاً. كان على دراية كافية في المحاسبة ليفهم كلامي، ورغم هذا لم تصله الفكرة، لأنّ رغبته تعيقه من التأقلم مع الواقع. ثم أضفت لأجعله يرى كل شيء بوضوح:

– أترى أنه لم يكن من داعٍ أن تضع آدا ما وضعته؟

شحب وجهه بشدة عندما أدرك أخيراً، وأخذ يقرض أظافره بعصبية. ظلّ يتخيل، لكنه أراد أن ينتقم لنفسه وأمر، بطريقته المضحكة بلعب دور القائد، أن تتم تلك التسجيلات، رغم كل التوضيحات التي أسديت بها. وأضاف:

– إنني مستعد للكتابة في تلك السجلاّت وربما سأوقّع أيضاً لأعفيك من أية مسؤولية!

لقد فهمت! أراد أن يستمر بالأحلام حيث لم يعد من متسع إلا لأمنية صغيرة: تزوير الحسابات!..

تذكرت كم من عهود قطعتها على نفسي في بلفيديري، ثم أمام آدا في تلك الصالة الصغيرة المعتمة في بيتها. فتكلمت بشهامة:

– سأكمل كل التسجيلات التي ترغب بها. لا أشعر بحاجة لتحميني بتوقيعك. إنني هنا لأساعدك، لا لأضيّق عليك!..

فشدَّ على يدي بود، وقال:

– إنّ الحياة صعبة، وإنها لراحة عظمى أن يكون لدي صديق مثلك.

نظرنا إلى بعضنا متأثرين، وكانت عيناه تبرقان. فقلت ضاحكاً لأتخلص من سيل العواطف المخيفة:

– إنّ الحياة ليست بصعبة، لكنها أصلية جداً!..

فضحك من قلبه هو أيضاً.

ثم بقي بقربي ليرى كيف أصفي حساب الخسائر والأرباح. قمت بذلك ببضع دقائق. فمات ذلك الحساب، جارّاً معه إلى العدم حساب آدا أيضاً الذي سجّلناه كملاحظة على كتيّب صغير، لنضمن اختفاء أيّ شاهد في حال وقوع مصيبة جديدة، ولنتذكر أنَّه علينا دفع الفوائد لها. فرفع النصف الآخر من الحساب الأول المستحقات الطائلة أساساً في حساب غويدو.

إنّ المحاسبين بطبيعتهم فصيلة من الحيوانات تميل إلى السخرية. عندما قمت بتلك التسجيلات، كنت أفكر: «ذلك الحساب – المسمّى بالأرباح والخسائر – مات قتلاً، أما الآخر – حساب آدا – رحل بميتة طبيعية لأننا لم نفلح بإبقائه على قيد الحياة. لكننا لا نعرف كيف نقتل حساب غويدو الذي بدا كقبر حقيقي مفتوح في مكتبنا، لكونه لدائن شكّاك».

وكنا لا ننفكّ نتحدث لوقت طويل عن المحاسبة في ذلك المكتب. كان غويدو يراهن على إيجاد مخرج آخر يحميه بشكل أفضل من مكائد القانون المحتملة، كما كان يسميّها. أظن أنه استشار أحد المحاسبين، لأنه اقترح في يوم ما أن نتلف السجلاّت القديمة بعد أن نؤلّف سجلات جديدة نضع فيها صفقة مزيّفة لاسم مستعار، ليظهر أنه دفعها بالمبلغ

twitter @baghdad_library

الذي استدنّاه من آدا. كان مؤلماً أن أثبط من همّته لأنه كان قادماً إلى المكتب بحيوية فيها الكثير من الأمل! اقترح تزويراً وقفت ضده. فحتى تلك اللحظة لم نقم سوى بتحريف الحقائق مهدّدين بالضرر من أعطانا موافقته ضمنياً. أما الآن يريد اختراع تحرّك في البضائع. رأيت أيضاً أنه بوسعنا أن نشطب أي أثر للخسائر هكذا، ولكن بأي ثمن! كان علينا أن نبتدع اسم الشاري أو نأخذ إذنَ أحد سيدخل في اللعبة. لم أكن ضد إتلاف السجلات مع أني انهمكت في الشغل عليها، إلا أن كتابة سجلات جديدة كان عملاً مضنياً أيضاً. فقمت ببعض الاعتراضات التي انتهت بإقناعه. ليس من السهل أن تزوّر فاتورة ما، فما بالك بتزوير الوثائق التي تثبت وجود البضائع وملكيتها أيضاً؟!..

أعدل عن خطته، لكنه جاء في اليوم التالي إلى المكتب بخطة جديدة تقوم على إتلاف السجلات القديمة أيضاً. فتعبت من عرقلة خططه بالجدال، واعترضت:

– من يراك تفكر جدياً بهذا، يعتقد أنك تحضر نفسك للإفلاس! وإلاَّ، فأي أهمية يحملها التخفيض الطفيف من رأسمالك؟ حتى هذه الساعة لا يحقّ لأحد أن يراقب سجلاتك. علينا الآن أن نعمل بجدية دون الانشغال بحلول غبية.

اعترف أنّ تلك الأفكار كانت تؤرقه. ولكن ماذا يفعل؟.. كان سيقع مباشرة بسوء حظ صغير، في تلك العقوبة الجزائية، لينتهي في السجن!..

كنت أعرف من خلال دراساتي القانونية أنّ أوليفي شرح لنا بدقة فائقة ما الذي ينبغي أن يفعله التاجر إذا قام بموازنة مشابهة. لكني نصحته أن يستشير محام لنتخلص من هذا العبء. أجابني أنه فعلها مسبقاً، أو بالأصح لم يكن عند محام لهذا الغرض، لأنه لم يشأ أن يفضي سرّه حتى للمحامي. لكنه ثرثر بالأمر مع صديقه المحامي الذي اصطحبه

في إحدى رحلات الصيد. فكان يعلم أنّ أوليفي لم يخطئ ولم يبالغ.. لسوء الحظ..!..

وعندما استوعب عبثية أفكاره، توقف عن التفكير بتزوير الحسابات، لكنه لم يستعد هدوءه لهذا السبب. كان وجهه يكفهرّ كلما جاء إلى المكتب ورأى سجلاته الضخمة. اعترف لي في يوم ما أنه كلما دخل إلى المكتب شعر بوجوده في بهو السجن فيسارع بالهرب. سألني مرةً:

– هل تعرف أوغوستا بكل شيء عن موازنتنا؟

فخجلت لأنني شممت في السؤال رائحة ملامة. ولكن إذا كانت آدا تعرف شيئاً عن الموازنة فمن البديهي أن تعرف به أوغوستا أيضاً. لم أفكر مباشرة بهذا، وكنت أستحق تلك الملامة التي ينوي أن يوجّهها لي، ولذا غمغمت:

– ربما تعرف شيئاً عن طريق آدا، أو عن طريق ألبيرتا التي قد تصغي من آدا!..

كنت أراجع كل السبل التي قد تتسلل إلى أوغوستا، ولا يبدُ لي أني نفيت علمها بكل شيء من السبيل الأول، أي مني؛ بل لأؤكد أنّ السكوت قد يكون غير مجدٍ بالنسبة لي. يا للخسارة! لو اعترفت بأني لا أملك أسراراً مع زوجتي، لشعرت بالصدق والسعادة معاً! فشؤون صغيرة كهذه، أي إنكار أمر من الأفضل الاعتراف به ليعلن براءتي، تكفي لإرباك أكثر الصداقات وثوقاً.

سأروي أمراً حدث بعد عدة أيام، مهما كان غير ذي أهمية بالنسبة لي أو لغويدو. إذ أوقفني ذلك السمسار الثرثار، الذي عملنا معه بصفقة سلفات النحاس، في الشارع. ونظر إليّ من الأسفل إلى الأعلى لقصر قامته الذي يعرف استخدامها وهو ينخفض على ساقيه وقال لي بتهكم:

– يقال إنكم قمتم بمشاريع ناجحة أخرى مثل صفقة السلفات!..

twitter @baghdad_library

فشدّ على يدي عندما رآني مندهشاً، وأضاف:

– أتمنى لكما أفضل المشاريع دوماً. وآمل ألا تشكّك في أمنيتي!...

وتركني. إني أفترض أنّ شؤوننا الخاصة قد وصلت إليه عن طريق ابنته التي كانت تدرس في مدرسة آنّا. ولم أخبر غويدو بتلك الحادثة الصغيرة. فكنت أحرص على حمايته من إزعاجات لا تفيده بشيء.

ذهلت من أنّ غويدو لم يعد يميل لكارمن، لأني أعرف أنه وعد زوجته رسمياً بتسريحها. وكنت أحسب أنّ آدا ستعود إلى المدينة بعد بضعة أشهر مثل المرة الأولى. لكنها، ودون أن تمرّ إلى تريستا، ذهبت لتقيم في فيلا على بحيرة ماجوري حيث حمل إليها غويدو الأولاد بعد مدة.

وإبان عودته من تلك الرحلة – لا أعلم إن كان هو من تذكر ذلك أم كانت آدا من ذكّرته به – طلب مني أن أوظّف كارمن في مكتبي، أي عند أوليفي. كنت أعلم مسبقاً أنه ما من شاغر في ذلك المكتب، لكنه توسل إليَّ كثيراً فوافقت أن أتحدث مع وكيلي بهذا الشأن. ولحسن الحظ والصدفة، كان هناك موظفٌ يستعد لترك العمل في تلك الأيام، لكنه كان يقبض أدنى مما تقبضه كارمن في الأشهر الأخيرة من سخاء غويدو الذي يدفع لنسوته – برأيي – من حساب النفقات العامة. أعلمت أوليفي العجوز بقدرات الموظفة وأخبرته بأفضل المعلومات، فقبل أن تعمل عنده براتب الموظف المستقيل نفسه. نقلت هذا إلى غويدو الذي غضب وارتبك حتى نطح رأسه في الحائط:

– كيف يعقل أن تقبض راتباً أدنى من الراتب السابق؟ ألا يمكنك إقناع أوليفي بإعطائها مبلغاً يساوي راتبها هنا على الأقل؟..

كنت أعلم أنّ ذلك ليس بإمكان أوليفي، لأنه لا يعدُّ نفسه زيراً

لموظفاته كما نفعل نحن. فإذا ما فطن أنها تستحق ليرة بالناقص من راتبها، لما توانى عن انتزاعها دون شفقة. وبقينا هكذا؛ لم يتلقّ أوليفي إجابة نهائية، وبقيت كارمن تحوّم عينيها الجميلتين في مكتبنا.

بيني وبين آدا سرٌ ظلّ مهماً لأنه بقي سراً. كانت لا تنفكّ تكتب لأوغوستا، ولم تخبرها أبداً بأنها تلقّت مني التوضيحات، كما لم تخبرها بأنها أوصتني بزوجها، ولم أتحدث بذلك أيضاً. في يوم ما أرتني أوغوستا رسالة من آدا تخصّني. كانت تسأل عني قبل كل شيء، وانتهت باستدعاء شهامتي لأقول شيئاً ما عن أوضاع غويدو التجارية. انزعجت عندما شعرت أنها تتجه نحوي ثم طمأنتني أنها تتجه نحوي لتستعلم عن غويدو كالعادة. ولم أجرأ على التنويه بشيء للمرة الثانية.

كتبت لآدا، بموافقة أوغوستا ودون إخبار غويدو. جهّزت نفسي على الطاولة مقرراً أن أكتب رسالة تجارية حقاً، وأخبرتها عن سعادتي للطريقة التي يدير بها غويدو أعماله بدقة وعناية.

وكان هذا صحيحاً، أو كنت سعيداً منه يومها على الأقل، لأنه نجح بجني بعض الأموال بعد أن باع بعض البضائع الذي خزّنها منذ أشهر. وكان صحيحاً أنه يبدو يعمل بدأب، لكنه رغم هذا لا ينقطع عن الذهاب إلى الصيد في كل أسبوع. كنت أبالغ بسرور في مديحي له، لأني ظننت أنه سيؤثر إيجاباً على شفاء آدا.

قرأت الرسالة ولم أكتفِ بذلك، فكان ينقصها شيء ما. آدا اتجهت إليَّ، ومن المؤكد أنها تود سماع أخباري، ومن غير اللائق أن لا أعلمها بشيء. أذكر هذا كأنه حدث البارحة. شعرت رويداً رويداً بارتباك على تلك الطاولة كأني كنت وجهاً لوجه معها مجدداً، في تلك الغرفة الصغيرة والمعتمة. أكان عليّ أن أشدّ أكثر على يدها الرقيقة التي مدّتها إلي؟!..

ثم كان عليّ أن أكتب الرسالة ثانيةً لأنّ بعض الكلمات الخطيرة

twitter @baghdad_library

سقطت مني سهواً: فكنت متشوقاً لرؤيتها ثانية آملاً أن تستعيد صحتها وجمالها. مما كان يعني أنني أخذت المرأة، التي عرضت يدها فقط، على طول الحياة. كان واجبي أن أشدّ على تلك اليد برقّة وطويلاً لتفهم أني فهمت كل شيء، أي ما لا يمكن أن يقال أبداً.

لن أقول كل العبارات التي مررت عليها لأجد فيها شيئاً يمكن أن يحل مكان مصافحة اليد الطويلة والرقيقة والمعنوية. تحدثت طويلاً عن شيخوختي المبكرة. لم أكن أستطيع قضاء لحظة هادئة دون أن أشيخ. كان شيئاً ما يضاف إلى عظامي وعروقي في كل دورة دموية، ولم يكن يعني إلا الشيخوخة. وفي كل صباح عندما أستيقظ، يبدو لي العالم رمادياً أكثر، ولم أكن أنتبه لذلك لأنّ الأشياء تظلّ منسجمةً. لم يكن في اليوم أية بقعة من ألوان اليوم الماضي، وإلاَّ فكنت سأتنبه لذلك، وكان الندم سيفقدني الأمل. أذكر أني أرسلت المكتوب بشعور بالغ الرضا، ولم أكن أخاطر بتلك الكلمات، ولو كان تفكيرها مطابقاً لتفكيري لفهمت مصافحتي الودية ليدها. كانت بحاجة لقليل من الفطنة لترى أنّ ذاك البحث المفصّل عن الشيخوخة لا يعني سوى الخوف من أنّ الحب لن يبلغني وأنا في سباق مع الزمن. كنت أبدو أصرخ للحب: «تعال! تعال!».. لكني لست متأكداً من رغبتي به. ولو كان فيه شك فهو نتاج كتابتي هذه.

تركت نسخة من تلك الرسالة لأوغوستا، مقتطعاً منها البحث المفصّل عن الشيخوخة. لم تكن لتفهم شيئاً، لكن الحذر واجب. وكنت سأحمرّ خجلاً إن رأتني بينما أصافح يد أختها!.. أجل. مازال بوسعي أن أشعر بالخجل. وقد خجلت عندما استلمت بطاقة شكر من آدا لم تذكر فيها شيئاً عن ثرثرتي عن الشيخوخة. يبدو لي أنها كانت تخاطر معي أكثر من مخاطرتي معها. ولم تكن تسحب يدها الرقيقة من ضغط

يدي، بل كانت تتركها تمكث دون حراك. ويعدّ عدم الحراك عند النساء من أحد مظاهر القبول.

بعد أيام قليلة من كتابة تلك الرسالة، اكتشفت أنّ غويدو بدأ يشارك في مضاربات البورصة، وقد أفشى السمسار نيليني سرّه.

أعرف هذا الشخص منذ سنوات عدة، لأننا كنا تلامذة في المدرسة نفسها التي تركها باكراً ليعمل في مكتب لأحد عمومه. ثم تقابلنا أكثر من مرة، وأذكر أنّ الفرق في مصيرينا جعلني أتفوّق عليه في علاقتنا. كان يلقي التحية أولاً، وحاول أن يتقرب مني غير مرة. مما كان يبدو لي طبيعياً، بل بدا غير قابل للشرح عندما أصبح متعجرفاً في حقبة لا أذكرها تماماً. فلم يعد يلقي التحية، وبالكاد يردّ على تحيتي. فقلقت لأنّ بشرتي حساسة جداً وتُخدش بسهولة. لكن ما الذي عليّ فعله؟! ربما اكتشف أني أعمل عند غويدو حيث بدوت مرؤوساً، فاستحقرني لهذا؛ أو فلتفترض، بالاحتمال نفسه، أنه شعر بكبر النفس بعد موت عمه ليتركه سمساراً مستقلاً في البورصة. ففي الأجواء الصغيرة يوجد الكثير من هذه العلاقات؛ وقد ينظر الواحد للآخر بنقمة وازدراء مستبقاً حدوث أمر عدائي.

لذا فوجئت برؤيته يدخل إلى المكتب، حيث كنت وحدي، ليسأل عن غويدو. رفع قبّعته ومدّ يده للمصافحة. ثم جلس بسرعة وحرية كاملة على إحدى أرائكنا الكبيرة. نظرت إليه باهتمام، لم أكن قد رأيته عن كثب منذ سنوات، فاستعدت كل انتباهي الحاد إزاء النقمة التي يظهرها لي.

كان عمره حوالي الأربعين عاماً، قبيحاً للغاية بسبب الصلع التام الذي تقطعه واحة من الشعر الأسود الغزير عند الرقبة، وأخرى عند الصدغين. ولون وجهه أصفر، وجلده خشن، بصرف النظر عن أنفه الضخم وقامته الصغيرة؛ فكان نحيفاً يتحرك حسب استطاعته، حتى

twitter @baghdad_library

أني شعرت بألم خفيف ولطيف عند عنقي عندما تحدث إليّ، وكان هذا الشيء اللطيف الوحيد الذي رأيته فيه. شعرت أنه في ذلك اليوم يكبت ضحكته وينقبض وجهه من شدة السخرية أو الازدراء الذي لم يؤذني به نظراً لأنه ألقى التحية باحترام بالغ. لكني اكتشفت فيما بعد أنّ تلك السخرية كانت من صفاته التي منحتها إياه أمنا الطبيعة غريبة الأطوار. إذ كان فكّاه لا يغلقان بشكل تامّ؛ فتبقى بينهما فتحة، في أحد جوانب فمه، تعيش فيها السخرية بسلام. ولعلّه لم يكن يتخلى عن قناعه إلا عندما يتثاءب، فيعشق السخرية من الحاضرين. ولم يكن غبياً أبداً، بل كان يومئ بتلميحات فتاكة غالباً ما يخصّ بها الغائبين.

كان دجّالاً كبيراً، يستخدم خياله خاصة إذا تحدّث عن البورصة؛ ويتعامل معها كأنها شخص حي، فيصفها بالغاضبة من خطر ما، أو بالكسولة، ولها وجه يعرف كيف يبكي ويضحك. ويراها تصعد السلم راقصة، أو تنزل عنه متدحرجة؛ ثم يعجب بها كيف تعشق سهماً ما، وكيف تخون آخر؛ بل وحتى كيف تعلّم الناس الارتقاء والتحديث. ولا يعرف التعامل معها إلا أصحاب الأذهان النافذة. فالكثير من الأموال تضيع تحت قدميها، وليس من السهل الانحناء لجمعها.

تركته ينتظر بعد أن عرضت عليه سيجارة، والتفتُّ إلى عملي باستجابة معينة. فملّ بعد قليل، وقال إنه لا يستطيع الانتظار أكثر. وما كان آت إلى غويدو إلا ليخبره بأنّ بعض الأسهم لصاحب الاسم الغريب ريو تينتو، الذي نصح غويدو بشرائها منذ أربع وعشرين ساعة بالضبط، قد قفزت إلى الأعلى بمعدل عشرة بالمئة. وأخذ يضحك من قلبه: - بينما نتحدث هنا، أو بينما أنتظر هنا بالأحرى، تتكفل المضاربات بعد إغلاق البورصة بالباقي. إن أراد السيد سبيير أن يشتري تلك الأسهم الآن سيدفع بها رقماً خيالياً. لا يتنبأ أحد مثلي بوجهات البورصة.

افتخر بنظرته الثاقبة بفضل حبه الطويل للبورصة. ثم قطع كلامه ليسألني:

- من يعلّم أفضل برأيك: الجامعة أم البورصة؟ - هوى شدقه واتسعت كوّة السخرية. فأجبته بقناعة تامة:
- البورصة طبعاً!.. - وقدّرني على إجابتي بمصافحة حارة عند انصرافه.

كان غويدو يضارب في البورصة إذن! لو انتبهت أكثر لاستطعت أن أتكهن بذلك من قبل، لأنني عندما قدّمت له حساباً دقيقاً للمبالغ غير المهمة التي جنيناها من مشاريعنا الأخيرة، نظر إليه بشيء من الازدراء ضاحكاً. كان يرى أنه علينا العمل كثيراً لنجني تلك الأموال. (لاحِظ كيف كنا سنستطيع تغطية الخسارة التي منينا بها في العام السابق ببضع مشاريع من هذا النوع!). ما الذي كان عليّ صنعه عندئذٍ، بعد أن مدحته في الرسالة قبل أيام؟

جاء غويدو إلى المكتب بعد قليل، ونقلت إليه كلام نيليني بإخلاص. جلس يصغي بقلق واضح حتى إنه لم ينتبه أنني أصبحت على معرفة بمضارباته في البورصة، وانصرف بعيداً.

وفي المساء تحدثت مع أوغوستا بهذا الشأن. ففكرت أنه علينا ترك آدا بسلام وأن نخبر السيدة مالفنتي بالمخاطر التي كان صهرها يتورط بها. طلبت مني أن أفعل ما بوسعي لأجنّبه المزيد من الأخطاء.

حضّرت مطولاً الكلمات التي سأقولها له. ونشطتّ قرارات الشهامة المتأججة وتمسكت بالوعد الذي قطعته على آدا. كنت أعرف كيف أمسك بناصية غويدو وأقوده إلى طاعتي. كل منا قد يرتكب طيشاً باللعب في البورصة - كنت سأشرح له - وإنّ تاجراً لديه موازنة كموازنته سيتهور

twitter @baghdad_library

أكثر من الجميع. في اليوم التالي بدأت بشكل جيد:

- إنك الآن تضارب في البورصة. هل تريد أن تنتهي في السجن؟
- سألته بحزم.

كنت أحضر نفسي لمشهد مزعج، وحفظت تصريحي حتى في اللغة الصريبة، وهو أني سأترك الشركة نهائياً إن أراد أن يسلك طريقاً خطيراً.

عرف غويدو كيف يجرّدني من سلاحي بسرعة. حفظت سره حتى هذا اليوم؛ إذ أباح لي حينها، باسترسال تلميذ شاطر، بكل تفاصيل أعماله. كان يعمل في أسهم لشركات المناجم في بلد لا أعرفه، وكانت ستدرّ عليه أرباحاً تكفيه ليغطي خسارة ميزانيتنا. وإن كان حظه سيئاً لدرجة أن يخسر ما قد جناه، كان سيتوقف عن اللعب ببساطة؛ أما إذا حالفه الحظ فكان سيأتي مسرعاً ليضع السجلات وفق القوانين التي خشي منها دوماً.

رأيت أنها لم تكن مناسبة للغضب بل كان من واجبي أن أهنئه. وبما يخصّ مسألة الحساب قلت إنه بوسعه أن يطمئن، لأنه عندما يتوفر المال يصبح من السهل أن ننظّم كل الحسابات المزعجة. وعندما نعوّض خسارة حساب آدا في سجلاتنا، أو نخفض ما كنت أسمّيه بالهاوية، أي حساب غويدو، فلم تكن حساباتنا لتنحرف عن مسارها أبداً.

ثم اقترحت عليه أن ننظّم ذلك حالاً، وأن نضع عمليات البورصة في حساب الشركة. ولم يوافق لحسن الحظ، فكنت سأصبح محاسب المقامر، وأضع على عاتقي مسؤوليات كبيرة. أما هكذا فكانت الأمور ستجري كما لو لم أكن موجوداً. رفض اقتراحي لأسباب بدت لي منطقية، فكان من الشؤم أن يوفي دينه فوراً، وإنها خرافة شائعة على جميع طاولات اللعب أن يجلب مال الآخرين الحظ. لا أصدّق ذلك، لكني لا أغفل أية بصيرة عندما ألعب!

وأنّبت نفسي لأني قبلت بأقاويله دون أي اعتراض. ولكني عندما

رأيت السيدة مالفنتي تتصرف بنفس الأسلوب، إذ أخبرتني أنّ زوجها استطاع أن يجني أموالاً كثيرة من البورصة، وآدا أيضاً التي تعدُّ المضاربة كأي نوع آخر من التجارة، أدركت أنني لن أندم مطلقاً على عدم تأنيبه. ولكي أوقفه عن تلك الدرب، لم يكن اعتراضي ليكفي لأنه لا يحمل أي نفع ما لم يكن مدعوماً من كل أفراد العائلة.

وهكذا استمرّ غويدو في المضاربات، وكانت كل العائلة تدعمه. وكنت أيضاً من بين المجموعة، حتى دخلت بعلاقة صداقة غريبة جداً مع نيليني. من المؤكد أنه لم يكن صديقاً مناسباً لأني أعتبره جاهلاً ومدّعياً، لكن غويدو انتظر منه نصائح جيدة، فاستطعت - تحسباً - أن أخفي مشاعري ببراعة حتى ظنني صديقاً مخلصاً. ولا أنفي أن استلطافي له نشأ من الرغبة في تجنّب الضيق الذي عشته عندما كان يزدريني بسخريته المتدلّية على وجهه القبيح. ولم أعوّده على احترام أكثر من مصافحة يده والتحية عندما يأتي وينصرف. إلاّ أنه كان محترماً جداً، ولم أتمكن من تجاهل احترامه بالامتنان الذي أعتبره أكبر احترام قد نتبادله في هذه الحياة. كان يمدّني بسجائر مهرّبة بسعر زهيد. ولو كان ألطف من ذلك لجرّني إلى المضاربات. وربما لم أضارب يوماً كي لا ألتقي به كثيراً.

بل كنت ألتقي به كثيراً!.. كان يقضي الساعات في مكتبنا بمعزل عن عشقه لكارمن، كما كان واضحاً. كان يأتي ليؤنسني، ويبدو أنه نوى أن يعلّمني السياسة التي تعمّق بها بسبب البورصة. كان يشرح لي كيف تتصافح القوى العظمى بود في يوم ما، وتتبادل اللكمات في اليوم التالي. ولا أعلم إن تنبّأ بالمستقبل لأني لم أكن أصغي إليه من شدّة كرهي له، إنما أحتفظ بابتسامة غبية ورتيبة. كان سوء الفهم أساس علاقتنا؛ فقد يفسّر ابتسامتي على أنها إعجاب. لم يكن الذنب ذنبي! أعلم الأمور التي يعيدها كل يوم وحسب. وبوسعي أن أحذر جانبه كونه إيطالياً من النوع

twitter @baghdad_library

الشكّاك؛ فكان يرى أنّ تريستا لا بدّ أن تبقى نمساوية. وكان يعشق ألمانيا وقطاراتها التي تصل على موعدها المحدّد. وكان اشتراكياً وفق أهوائه، فيريد أن لا يملك المواطن الواحد أكثر من مئة ألف كرونة. لم أضحك عندما أقرَّ، وهو يخاطب غويدو، بأنه يمتلك مئة ألف كورونة فقط، لا أكثر ولا أقل. لم أضحك ولم أسأله إن كان سيحجم عن نظريته عندما يجني أموالاً أخرى. فعلاقتنا كانت غريبة حقاً، ولم أستطع أن أضحك معه ولا حتى عليه.

عندما بدّد إحدى أملاكه، نهض عن الأريكة حتى رأت عينيه السقف، بينما ظلّ فمه موجهاً إليَّ. بل كان يرى عبر فمه! أردت مرة أن أنتهز تلك الوضعية لأفكر بشيء ما، لكنه لفت انتباهي بسؤاله الفوري:

- هل تصغي إليَّ؟..

وبعد تلك العاطفة الظريفة، لم يخبرني غويدو بأعماله لوقت طويل. وكان نيليني سيقول شيئاً ما، لكنه أخذ يتظاهر بالتحفظ على الأسرار أيضاً. فعلمت من آدا نفسها أنّ زوجها مازال يجني الأموال.

عندما عادت وجدتها قبيحة من جديد. كادت تختنق من شدة سمنتها. انتفخ خدّاها أكثر هذه المرة، وكانا في غير محلّهما إطلاقاً، أما وجهها فبدا مربّعاً. وما زالت عينها تشذّ عن شكلهما. وكانت مفاجأتي كبيرة، لأني سمعت غويدو، والآخرين الذين كانوا بانتظارها، يقولون إنّ كل يوم يمضي يحمل لها العافية والطاقة الجديدة. لكن عافية المرأة تكمن في جمالها أولاً!

وكانت لي مفاجآت أخرى مع آدا. سلّمت عليّ بحرارة، لكن ليس بقدر سلامها مع أوغوستا. فلم يعد بيننا أسرار، ومن المؤكد أنها لم تعد تذكر كيف بكت عندما تذكرت أنها سبّبت لي الكثير من الآلام. هكذا أفضل بكثير! نسيت حقوقها عليّ أيضاً! كنت صهرها الطيب، وكانت

تعزني لأنني لم أغيّر من مشاعري تجاه زوجتي. فهذا الأمر يثير إعجاب كل آل مالفنتي.

في يوم ما اكتشفت أمراً فاجأني كثيراً: آدا ما تزال تظن أنها جميلة! عند البحيرة، بعيداً، كان أحدهم قد تغزّل بها، ومن الطبيعي أن تزهو بهذا النجاح. وبدت لي تلك الأحدوثة مبالغاً فيها، إذ ادّعت أنها غادرت القرية لتملص من هيام ذلك العاشق. أقبل أن تكون هذه القصة شبه حقيقية، فآدا ستبدو أقلّ بشاعة بنظر من لم يرها من قبل. طبعاً، ليس كثيراً، بتلك العينين، وذلك اللون ومظهر الوجه! كانت بنظرنا تبدو أكثر بشاعة لأننا نعرفها من قبل، ولأننا تلمّسنا كوارث الداء الواضحة.

دعونا غويدو وآدا إلينا ذات مساء. كان لقاء عائلياً محبباً. ويبدو كاستمرار لخطبتنا المتزامنة، لكن شعر آدا لم ينره أي ضوء. وقبيل انصرافهما، بقيت وحدي معها للحظة أساعدها على ارتداء المعطف. انتابني شعور مختلف عن علاقتنا في الحال. كنا قد تُركنا وحدنا، وكان بوسعنا أن نتحدث بما لا نودّ أن نتحدث به أمام الآخرين. ووجدت أخيراً ما يلزم أن أقول:

- أنت تعلمين أنه يضارب الآن في البورصة! - قلت بنبرة جدية. أشكّ في بعض المرات أنني، بتلك النبرة، أردت أن أذكّرها بآخر لقاء بيننا ولم أقبل أن تنساه.
- أجل! - قالت ضاحكة - يحسن صنعاً بذلك. لقد أصبح بارعاً كفاية على حد قولهم. - فضحكت معها، وشعرت أنني لا أتحمل أية مسؤولية. وبينما كانت تغادر غمغمت: - وتلك! أما تزال تعمل لديكما؟..

لم أجب لأنها أصبحت بعيدة. ولم يعد ماضينا موجوداً، لكن غيرتها بقيت. وكانت الغيرة متأججة كما في لقائنا الأخير.

twitter @baghdad_library

الآن، وبينما أفكر بالأمر، أجد أني انتبهت متأخراً إلى أنّ غويدو كان يبدأ بالخسارة في البورصة. إذ اختفت ملامح النصر التي لطالما أنارت وجهه، وظهر ذلك القلق الرهيب مجدداً كما ظهر عندما أتممنا الموازنة. سألته مرة كطفل بريء:

– لمَ تقلق كثيراً إن كان في جيبك ما يلزم لجعل كل تلك التسجيلات واقعية؟! لن يسجنوك مادمت تملك الكثير من المال.

ولكن جيبه حينها قد نفد من كل شيء، كما علمت لاحقاً. وأجزمت أنه ربط نفسه بالحظ، ولم آخذ بالحسبان تلك الأمارات الكثيرة التي كانت تقنعني بعكس ذلك.

في إحدى أمسيات آب أخذني معه إلى صيد السمك ثانية. وعلى ضوء البدر الباهر، كان هناك القليل من إمكانية الصيد بالطعم. لكنه أصرَّ قائلاً إنّ البحر سيقينا من الحرّ. ولم نجد أي شيء آخر بالفعل. فلم نجدّد الطعم بعد أول تجربة، وتركنا السنارات معلّقة في القارب الذي يدفعه لوشانو بالعرض. كانت أشعة القمر تصل إلى عمق البحر لتنير درب الأسماك الضخمة، فتجعلها أشدّ انتباهاً إلى دسائسنا؛ بل وحتى الحيوانات الصغيرة تصبح قادرة على نهش الطعم، دون أن يصل فمها الصغير إلى المعدن. ولم يكن طعمنا إلاَّ هبة لتلك الكائنات الدقيقة. جلست في المؤخرة وهو في المقدمة. غمغم بعد قليل: – كم حزين كل هذا النور!.. قال ذلك لأنّ الضوء يمنعه من النوم على الأغلب، فوافقته على رأيه لأرضيه، وكي لا أعكّر ذلك الهدوء المهيمن، الذي نتحرك فيه ببطء، بنقاش غبي. لكن لوشانو اعترض قائلاً إنّ الضوء يعجبه كثيراً. وبما أنّ غويدو لم يجبه، أردت أن أسكته قائلاً إنّ الضوء أمر محزن بالتأكيد، فهو يوضح ضراوة الأشياء في هذا العالم، ولأنه يحول بيننا

وبين السمك. فضحك لوشانو وصمت.

بقينا صامتين لوقت طويل. تثاءبت أكثر من مرة في وجه القمر، وندمت لأني تركته يجرني لأصعد ذاك القارب. فسألني غويدو فجأة:

- بما أنك درست الكيمياء، أيّهما أفضل برأيك: الفيرونال النقي أم فيرونال الصوديوم؟..

لم أكن أعرف حقاً ما هو حامض الصوديوم، ولا يُطلب من الكيميائي أبداً أن يعرف الكون عن ظهر قلب. فأنا أعرف من الكيمياء ما يساعدني على البحث عن معلومة ما في كتبي، إضافة إلى أنه يساعدني على النقاش في أمور أجهلها، كما في هذه الحالة.

فيرونال الصوديوم؟!.. الجميع يعرف أنّ مركّبات الصوديوم هي تلك التي تُمتصّ بسهولة! بل تذكرت بمناسبة الصوديوم نشيداً لهذا العنصر قرأه الأستاذ في الدرس الوحيد الذي حضرته عنده، يقول فيه إنّ الصوديوم مجرّد عربة تصعد عليها العناصر الأخرى لتتحرك بسرعة. وقد ذكر الأستاذ كيف يمضي كلور الصوديوم من جسد لآخر، ويحتشد بسبب الجاذبية الوحيدة في الفتحة الأعمق من الأرض، أي البحر. لا أعرف إن نقلت فكرة الأستاذ بدقة، ولكن في تلك اللحظة، أمام رحابة كلور الصوديوم الواسعة، تحدثت عن الصوديوم باحترام عظيم. وبعد تردد، سألني ثانية:

- هل يتجرّع من ينوي الانتحار فيرونال الصوديوم؟

- أجل!... - أجبت.

ثم ذكرت بعض الحالات التي يراد بها التظاهر بالانتحار، ولم أنتبه أنني أذكّره بحدث مؤسف في حياته. أضفت:

- ومن لا يريد أن يموت فليأخذ الفيرونال النقي!..

كان على أسئلته عن الأحماض أن تجعلني أفكر. لكنني لم أدرك

twitter @baghdad_library

شيئاً، فكنت منشغلاً بالصوديوم. وكنت أستطيع، في الأيام اللاحقة، أن أحمل إليه تأكيدات جديدة عن المزايا التي نسبتها إلى الصوديوم: فهو يستخدم للتسريع في الخلطات التي ليست إلاَّ ذراعين حادين بين جسمين، يحلاّن محلّ التركيبات والتشرّبات لتضاف إلى زئبق الصوديوم؛ فالصوديوم هو الوسيط بين الذهب والزئبق. لكنه لم يعد يهتم بالحامض، وإني أفكر الآن أنّ رأيه بالبورصة كان يتحسن في تلك اللحظة.

وبعد مرور أسبوع، جاءت آدا إلى المكتب ثلاث مرات، وفي المرة الثانية ظننت أنها تود التحدث إلي، لأنها صادفت المربّي نيليني في المرة الأولى. فانتظرته لينصرف ساعة كاملة، لكنها أحبّت أن تثرثر معه فبقيت من باب الواجب. بعد أن قدّمته إليها، تنفستُ الصعداء سعيداً بأنّ صاحب الفتحة الشدقية لن يلتفت إليَّ؛ ولم أجاذبهما أطراف الحديث.

وكان نيليني طريفاً، وفاجأ آدا برواياته عن التجريح الذي يتمّ في البورصة كما في أية صالة نسائية؛ إلاّ أنهم في البورصة - كالعادة - يفهمون بذلك أكثر من أي مكان آخر، على حد زعمه. ظنت آدا أنّه يتجنى على النساء، فقالت إنها لا تعرف ما الذي يعنيه بالتجريح. تدخّلتُ عندئذٍ لأؤكد أنها، في كل هذي السنين الطوال، لم تسمعني أية كلمة جارحة. وابتسمتُ لأني أنّبتها ضمنياً. فهي لم تكن تجرّح أحداً لأنها لا تنشغل في أمور الآخرين أساساً. عندما كانت بصحة جيدة، فكرت في أمورها الخاصة؛ وعندما هاجمها الداء لم يبق فيها سوى جزء صغير حر تشغله الغيرة. كانت أنانية حقاً، لكنها أخذت شهادتي بامتنان.

تظاهر نيليني بأنه لا يثق فيَّ ولا فيها. قال إنه كان يعرفني منذ سنين طويلة، ويظنني طيباً جداً، مما أمتعني وأمتع آدا أيضاً. إلاّ أني تضايقت عندما اعتبرني من أفضل أصدقائه - للمرة الأولى أمام الآخرين - وأنه يعرفني حق المعرفة لهذا السبب. لم أجرأ على الاعتراض، وشعرت

بالإساءة من تصريحه الوقح، مثل فتاة وبّخها أحدهم في العلن على خيانتها له.

كنت طيباً جداً، قال نيليني. حتى إنّ آدا، بمكر النساء المعروف، كانت لتقول كلاماً مجرّحاً دون أن أنتبه لذلك. وشعرت أنها ما تزال تستمتع من تلك المجاملات المشكوك بأمرها، بينما علمت لاحقاً أنها تركته يتحدث آملة أن ينهك وينصرف. لكنها انتظرت طويلاً.

عندما عادت للمرة الثانية وجدتني مع غويدو، فقرأت على وجهها تعبيراً عن نفاد الصبر وتكهنت أنها كانت تريدني أنا. استوقفتني أحلامي المعتادة حتى عادت. لم تكن تطلب مني حباً في الحقيقة لكنها كانت ترغب كثيراً بأن نبقى وحدنا. من الصعب أن يفهم الرجال كل ما تريده النساء، لأنهن لا يعرفن بم يرغبن أحياناً.

لم يصلني أي شعور جديد من كلماتها. وكان صوتها محطّماً من المشاعر ما إن تكلّمت، لكن ليس مسبقاً لأنها تحدثت معي. أرادت أن تعرف بأي حق لم تسرّح كارمن. فقلت كل ما كنت أعرف، بما فيه محاولتنا تأمين فرصة عمل لها عند أوليفي.

فهدأت فوراً، لأنّ كلامي تطابق تماماً مع كلام غويدو. ثم علمتُ أنّ نوبات الغيرة كانت تأتيها على فترات متعاقبة، ودون سبب ظاهر، ثم تختفي بكلمة واحدة تقنعها.

وجّهت لي سؤالين آخرين: إن كان صعباً إيجاد عمل لموظفة بالفعل، وإن كانت عائلة كارمن تمرّ بظروف عصيبة تجعلها تتعلق براتب الفتاة.

شرحت لها أنّ في تريستا كان صعباً جداً إيجاد عمل لفتاة في المكاتب. ولم أستطع أن أجيب على السؤال الثاني لأني لم أكن أعرف أحداً من عائلة كارمن.

twitter @baghdad_library

– أما هو يعرف عائلتها فرداً فرداً! – غمغمت بغضب والدموع تسيل على وجنتيها.

ثم صافحتني عندما أرادت الانصراف وشكرتني. قالت، بينما كانت تبتسم بين الدموع، إنها تعتمد عليّ. أعجبتني ابتسامتها لأنها لم تكن موجهة إلى الصهر مؤكداً، بل إلى ذاك الذي يرتبط بها بأسرار ملزمة. فحاولتُ التأكد إن كنت أستحقها، وهمستُ:

– أخشى عليه من مضاربات البورصة، وليس من كارمن!..

فشدت كتفيها:

– ليس لهذا أهمية. كلّمتُ أمي بهذا الشأن. حتى والدي كان يضارب في البورصة وجنى الكثير من الأموال!..

مازلت محتاراً من الجواب، فتابعت:

– نيليني هذا لا يعجبني، ثم إنه ليس صديقي كما يقول!

فنظرت إلي مستغربة:

– لكنه يبدو لي رجلاً نبيلاً للغاية، حتى زوجي يعزّه كثيراً. ثم إني أظن أنّ غويدو ينتبه إلى أعماله الآن أكثر من ذي قبل.

كنت قد قررت أن لا أسيء لزوجها، فصمتّ.

عندما وجدت نفسي وحيداً لم أفكر بغويدو، بل فكرت بنفسي. ربما كان جيداً أن تكون آدا كأخت لي أخيراً ولا شيء آخر. فهي لم تكن تَعِد بالحب ولا تهدده. ومشيت حائراً وشارداً لعدة أيام في المدينة، ولم أصل إلى فهم نفسيتي. لماذا شعرت كأنّ كارلا تتركني في تلك اللحظة؟!.. لم يكن قد حدث شيء جديد. أعتقد بصراحة أنني احتجت دوماً لمغامرة أو لأمر معقّد يشبهها. فعلاقتي بآدا لم تكن معقدة كفاية.

في يوم ما أنذر نيليني على كرسيه أكثر من المعتاد من عاصفة تلوح في الأفق، لم تكن سوى أزمة مالية. فالبورصة امتلأت فجأة ولم

تعد تستوعب شيئاً!...

– فلنرم أنفسنا في الصوديوم! – اقترحتُ..

لم تعجبه مقاطعتي لحديثه، لكنه تجاهلها لأنه لا يقوى على الغضب. قال إنّ المال أصبح نادراً وغالياً في العالم فجأة. كان مصدوماً بما يحدث الآن، وتوقع هذا قبل شهر من حدوثه.

– ربما أرسلوا الأموال كلها إلى القمر!.. – قلت.

– إنها أمور جدية لا يُمزح بشأنها. – أكد وهو ينظر إلى السقف دوماً – سوف نرى الآن من لديه روح المقاتل الحقيقي، ومن سيقع صريعاً من الضربة الأولى.

ولم أتكهن أنه وضع غويدو بين المحاربين الذي سيجرّب صبرهم، كما لم أفهم لماذا سيصبح المال قليلاً في العالم. اعتدت أن أدافع عن نفسي من نصائحه بالشرود الذي ابتعد دون أن يمسسني مع أني شعرت فيه.

وبعد أيام قليلة، أخذ نيليني يعزف أنغاماً مختلفة بالكامل. فقد حدث شيء جديد. اكتشف أنّ غويدو حصل على الكثير من الأموال مع تاجر عملة آخر، فاعترض بنبرة استفزازية. فهو لم يبخل عليه بشيء، حتى بالاحترام. وكان يريد مني أن أشهد له على ذلك. ألم يخفِ عني أعمال غويدو، وهو الذي يعاملني كأفضل صديق لديه؟!.. لكنه بات حراً من أي تحفظ، وبوسعه أن يصرخ في أذني أنّ غويدو كان غارقاً في الخسارة حتى شعر رأسه. وبالنسبة للأعمال التي أنجزت عن طريقه، أكّد أنه سيقاوم عند أول تحسن طفيف وسينتهز لحظات أفضل. وكان مريعاً أن يسيء لغويدو في أول مشكلة تقع بينهما.

تفوّق نيليني على آدا بجموح غيرته لغويدو! أردت أن أحصل منه على الأخبار، لكنه كان غاضباً وظل يتحدث عن الإساءة التي صدرت

twitter @baghdad_library

عن صاحبي. بقي رصيناً رغم كل قراراته.

وفي الظهيرة وجدت صديقي في المكتب. كان مستلقٍ على الصوفا في حالة غريبة تجمع بين اليأس والنوم. سألته:

– هل صحيح أنك غارق في الخسارة؟..

لم يجبني بسرعة، رفع ذراعه الذي كان يغطي به وجهه الشاحب وقال:

– هل رأيت أكثر من حظي سوءاً بحياتك كلها؟..

أعاد ذراعه، وغيّر وضعيته ليستلقي على ظهره. أغمض عينيه، وبدا كأنَّه نسي وجودي.

لم أتمكن من مواساته. أهانني حقاً بظنه أنه الرجل الأسوأ حظاً في العالم. ولم يكن يبالغ، بل كان يكذب. كنت سأواسيه لو استطعت، لكني استصعبت هذا. فأنا أرى أنه لا يستحق الشفقة من هو أكثر براءة وسوء حظ من غويدو، وإلا فلن نمتلك إحساساً آخر غير هذا في الحياة، مما يسبب الملل. إنّ القانون الطبيعي لا يعطي الحق بالسعادة بل إنه يحدّد الشقاء والألم. وعندما يتوفر الغذاء، تجد الطفيليات تأتي إليه من كل حدب وصوب، ويتكاثرون بعجلة إن كانوا قلّة. وتكون الفريسة في البدء كافية، وسرعان ما تتناقص لأنّ الطبيعة لا تقوم بالحسابات بل بالتجارب. فينخفض عدد المستهلكين حين انتهاء الوجبة بفعل الموت اللاحق للألم، ويعود التوازن على جناح السرعة. فلمَ التذمر؟.. ورغم هذه الحقيقة ترى الجميع يتذمرون. أولئك الذين لم يحصلوا على حصتهم من الفريسة يموتون صارخين بوجه الظلم، أما أولئك الذين حصلوا على قوتهم يرون أحقيتّهم في الحصول على قسمة أكبر. فلمَ لا يموتون ويعيشون صامتين؟.. أما الطرفة فتكون في غبطة من نال حصة وافرة من الغذاء، ورغم هذا تراه لا يخبئ نفسه، بل يخرج وسط الأضواء والتصفيق.

فصرخة المنتصر هي الصرخة الوحيدة المقبولة.

أما غويدو!.. فكانت تنقصه كل مزايا الاستحواذ أو الثراء على الأقل. كان يأتي من مقامرات البورصة ليبكي على خسارته. لم يكن يتصرف كرجل نبيل، بل كان يثير فيَّ الاشمئزاز؛ ولهذا السبب فقط لم يجد مودّتي عندما كان بأمسّ الحاجة إليها. حتى قراراتي المتكررة لم ترافقني تلك اللحظة.

كانت أنفاسه تأخذ قالباً منتظماً وصاخباً. كان يغفو!.. كم كان ناقص الرجولة عند المصائب! كانوا قد سلبوا منه الغذاء، فربما أغمض عينيه ليحلم باستحواذه، بدل أن يفتحهما جيداً ليقتنص جزءاً ولو صغيراً.

انتابني الفضول لأعرف إن كانت آدا تعلم بالمصيبة التي حلّت به. سألته بأعلى صوتي، فارتعش وشعر بحاجة إلى الراحة ليعتاد على مصيبته التي أدرك حجمها فجأة: - لا.. لا.. - غمغم ثم أغمض عينيه.

من المؤكد أن يميل إلى النوم من يُصفع على وجهه بقوة، فالنوم يعيد القوى. بقيت أنظر إليه مترقباً. كيف كنت سأساعده وهو نائم؟!.. لم يكن هذا وقت الاسترخاء المناسب. حملته بخشونة من كتفه، وحرّكته.

- غويدو!..

كان نائماً حقاً. نظر إليَّ، غير واثق، بعين يصارع النعاس. ثم سألني:

- ماذا تريد؟!.. - أعاد سؤاله بغضب بعد قليل: - ماذا تريد؟!...

كنت أريد مساعدته، وإلاَّ فلم يكن لي الحق في إيقاظه. فغضبت وصرخت أنه لم يكن وقت النوم، بل كان عليه أن يتنشط ليعرف كيف يصلّح وضعه. وعليه أن يحسب ويناقش مع كل أفراد عائلتنا وعائلته في بوينوس آيريس.

فجلس مصدوماً من استيقاظه بتلك الطريقة. وقال لي بمرارة:

- كنت ستحسن صنعاً لو تركتني أنام. من سيساعدني الآن؟ ألا

twitter @baghdad_library

تذكر النقطة التي كان عليّ بلوغها في المرة الماضية لأحصل على القليل الذي أحتاج إليه لأنقذ نفسي؟!... نحن الآن بصدد أرقام خيالية! إلى من تريدني أن أتجه؟

وهتفت، دون رحمة، بل وبكل الغضب الذي كان عليّ أن أجنّبه إياه:

– أولست موجوداً هنا؟ - ثم نصحني البخل أن أخفض من تضحياتي:

– أليست آدا موجودة؟ أليست حماتنا موجودة؟ ألا يمكننا أن نتحد لننقذك؟

فنهض واقترب مني بدلالة واضحة على أنه سيعانقني، ولم أرغب بهذا. كان لي الحق أن أوبّخه وقد عرضت عليه مساعدتي. فوبّخته بأقصى العبارات على ضعفه وغروره الذي دام حتى قاده إلى الهلاك. تصرّف من رأسه دون أن يستشير أحداً. فكم من مرة حاولت أن أكلمه لأصونه وأحميه، لكنه رفض ساكباً كل ثقته في كأس نيليني وحده.

ابتسم غويدو حينئذٍ. ابتسم حقاً ذلك الملعون! قال إنه لم يعد يعمل معه منذ خمسة عشر يوماً، عندما انتابه حدس أنّ شلّة ذلك النصّاب تجرّه إلى الكارثة.

كان متميزاً بنعاسه وابتسامته، يدمّر كل من حوله ويبتسم. فاتّبعت أسلوب القاضي الصارم، فلا بد أن أربّيه قبل إنقاذه. أردت أن أعرف ما حجم الخسارة، وغضبت عندما قال إنه لا يذكر المبلغ بدقة. وغضبت أكثر عندما قال رقماً ضئيلاً، ثم تبيّن أنه المبلغ الذي كان عليه دفعه لحلّ الشركة في منتصف الشهر الذي مرَّ يومان على بدايته. لكنه أكد أنّ ثمة وقت حتى نهاية الشهر، وأنَّ الأمور قد تتغير. فندرة الأموال في السوق لم تكن لتدوم إلى الأبد. صرخت:

- وإذا فقد المال من هذا الكوكب، هل ستبحث عنه في القمر؟

- وأضفت أنه لم يعد بوسعنا أن نتلاعب ولا ليوم واحد. لم يعد بوسعنا أن نخاطر برؤية الخسارة تزداد وتتفاقم. قلت إنّ الخسارة ستقسّم على أربع، وسيتحملها كل مني، وهو (أي والده)، والسيدة مالفنتي، وآدا؛ وعليه أن يعود إلى التجارة بلا مخاطر، وأني لم أعد أريد رؤية نيليني في مكتبنا ولا أي سمسار أو تاجر عملة آخر أبداً.

فتوسل إليَّ بخضوع أن لا أصرخ كثيراً كيلا يسمعنا الجيران. فأجهدت نفسي لأهدأ ونجحت، شرط أن أشتمه بصوت منخفض. فخسارته كانت شنيعة كجريمة، وعلى المرء أن يكون دابّة حقيقية ليضع نفسه في مصاعب من ذاك النوع. شعرت بضرورة أن يُلقّن الدرس كله. فاحتج بلطف حينها. من لم يضارب في البورصة في حياته؟ حتى جوفاني، التاجر القدير، لم يكن ليفوته يوم دون أن يقامر في البورصة؛ وحتى أنا دخلتها.. كان غويدو يعرف ذلك.

فاعترضت، لأنّ ثمة فرق بين مضاربة وأخرى. فهو كان يخاطر بكل أملاكه، أما أنا خاطرت بعائد شهر واحد. كان يحزنني أن أراه يتملص من مسؤولياته كالصبيان. لقد أكد أنّ نيليني هو الذي قاده إلى القمار أكثر مما ينبغي، بجعله يظن أنه سيمضي نحو حظ سعيد. فضحكت وسخرت منه. لم يكن نيليني محطّ اتهام لأنه يقوم بعمله. ألم يتعجّل في مضاعفة حظوظه عن طريق سمسار آخر بعد أن ترك نيليني؟.. كان سيفخر بعلاقته الجديدة لو ضارب من وراء ظهر نيليني.

ولكي يصلح ما أفسد، لم يكتفِ بتغيير وكيله طبعاً، والاستمرار على الطريق نفسه متبوعاً من الحسد ذاته؛ بل أراد أن أتركه بسلام واعترف بخطأه بغصة.

twitter @baghdad_library

توقفت عن توبيخه، لأنه أثار عطفي حينئذٍ. وكنت سأضمّه لو أراد. قلت إني سأضع كيفية تدبير المال الذي التزمت بتقديمه على عاتقي مباشرة، وسأستطيع أن آخذ على عاتقي التحدث إلى حماتنا. أما هو فعليه أن يتحدث مع آدا.

ازدادت شفقتي عندما أباح أنه كان سيتحدث مع حماتنا بكل سرور عوضاً عني، لكنه يخشى أن يتحدث مع آدا.

- إنك تعلم كيف خلقت النساء! لا يفهمن في الأعمال، ويرغبن أن تنجح في النهاية دائماً! - لم يكن ليحدّثها مطلقاً، بل كان سيطلب من السيدة مالفنتي أن تعلمها بكل شيء.

خفف هذا القرار من روعه كثيراً وخرجنا معاً. رأيته يمشي بقربي ورأسه منحن، فندمت لأني تصرفت معه بقسوة. ولكن كيف كنت سأحلّ المسألة؟!.. كان عليه أن يتوب أيضاً، إن لا يود الذهب إلى الدمار طواعية! كم كانت علاقته سيئة بزوجته إذن!... كان يخشى أن يتحدث معها!!..

اكتشف طريقة ليضايقني مجدداً. فعندما كان يمشي وجد اكتمالاً لخطّته التي أعجبته كثيراً. لم تكن فكرته تنصّ على أن لا يكلّم زوجته بهذا الشأن فحسب، بل كان سيجد طريقه كي لا يراها في ذلك المساء، لأنه سينطلق إلى الصيد مباشرة. لقد تحرّر من الغموض بعد ذلك القرار. فكان كافياً، برأيه، أن يشرف على الموضوع ليسمح لنفسه بالذهاب إلى الهواء الطلق، مبتعداً عن كل التوجسات، ليستعيد هيئته الصارمة ويستمتع بها كثيراً. احتقرتُه!.. فبتلك الطريقة كان سيعود إلى البورصة بالتأكيد ليغامر ثانية ويخاطر بمصير عائلته، ومصيري أيضاً. قال لي:

- أريد أن أسمح لنفسي بتلك المتعة الأخيرة، وأدعوك للمجيء معي شرط أن تعدني بأن لا تذكّرني بأحداث هذا اليوم.

كان يكلّمني باسماً، وصار جدياً أمام وجهي الجدي، فأضاف:

- إنك ترى حاجتي للراحة بعد تلك الضربة التي تلقّيتها، سأستطيع استعادة مكانتي الهجومية بشكل أفضل.

كان صوته يبدي عاطفة لم أتمكن من الشكّ في صدقها، لذا استطعت أن أكبت غضبي أو أن أظهره برفضي للمجيء معه فقط، قائلاً إنه عليَّ البقاء في المدينة لأدبّر المبلغ الضروري. كان كلامي بمثابة تأنيب! أنا، البريء، أبقى في مكاني، بينما هو، المذنب، يروّح عن نفسه.

كنا قد وصلنا أمام بيت السيدة مالفنتي. نسي فرحته بساعات المرح التي كانت بانتظاره، وحافظ على رتابة التعبير عن الألم الذي سببته له. لكنه روّح عن نفسه، قبل أن يتركني، بتأكيده على الاستقلالية، أو على الحقد كما بدا لي. قال إنه مستغرب حقاً من أن يكتشف فيَّ صديقاً حقيقياً. فكان متردداً في قبول التضحية التي سأقوم بها لأجله، وذكّرني بأنه لم يشأ أن يلزمني معه بأي شيء، فكنت حراً في العطاء. فخجلت من نفسي. قلت له لأتخلص من الارتباك:

- لماذا ترغب أن أسحب يدي وقد عرضتُ نفسي لمساعدتك كلياً قبل دقائق، دون أن تطلب مني شيئاً؟

نظر إليَّ مرتبكاً قليلاً، ثم قال:

- سأقبل مساعدتك بكل سرور بما أنك أردت ذلك، وأشكرك أيضاً. لكننا سنبرم عقد شراكة جديد كلياً ليكون لكل واحد منا ما يستحقه. بل إن كان لدينا عمل، وأردت الاستمرار معي، سيكون لك راتب شهري. سنضع شركتنا الجديدة على أسس حديثة. وهكذا لن نخشى من أضرار أخرى، بعد أن أخفينا خسارة عامنا الأول.

أجبته:

twitter @baghdad_library

– لم يعد لهذه الخسارة أية أهمية وليس عليك أن تفكر بها. حاول أن تضع حماتنا في صفك فقط. هذا ما يهمنا الآن ليس إلاّ.

تركنا بعضنا. وأظن أني ضحكت من السذاجة التي يُظهر غويدو مشاعره الحميمة عبرها. لقد أصرَّ على تلك الخطبة الطويلة فقط ليقبل منحتي دون أن يتحتم عليه إظهار الامتنان. لكني لم أطالبه بشيء، وكان يكفيني معرفة أنه عليه الاعتراف بذلك.

وبعد أن تخلصت منه، شعرت بارتياح كأني ذهبت إلى الهواء الطلق أيضاً. وشعرت حقاً بالحرية التي انتزعتها مني قراراتي بتأديبه وإعادته إلى جادة الصواب. فالمربّي مقيّد أكثر من التلميذ في الواقع. وكنت قد قررت فعلاً أن أوفر له ذلك المال، لا أعرف بالطبع إن كنت أفعل ذلك محبة به أو بآدا أو ربما لأتخلص من تلك المسؤولية الصغيرة التي كانت ستقع على كاهلي لأنني عملت في مكتبه. وفي المحصلة قررت أن أضحي بجزء من ثروتي. والآن أنظر إلى ذاك اليوم من حياتي بعين راضية. فذلك المال كان سينقذه ويضمن لي راحة ضمير كبيرة.

مشيت حتى المساء خالي البال، ففقدت الوقت المفيد للذهاب إلى البورصة لأبحث عن السيد أوليفي الذي قد يوفر لي مبلغاً كبيراً. ثم فكرت أنّ الأمر لم يكن مستعجلاً. فكان لدي الكثير من الأموال تحت تصرفي، مما يكفي لأشارك في ترميم وضعه حتى الخامس عشر من ذلك الشهر، وكنت سأحتاط لآخر الشهر لاحقاً.

وفي ذلك المساء لم أفكر بغويدو ثانية، لكني، في وقت متأخر، عندما نام الأطفال، تأهبتُ أكثر من مرة لأخبر زوجتي بالكارثة المالية، وبالضرر الذي سيلحق بي. لكني لم أشأ أن أزعج نفسي بالنقاشات، ومن الأفضل أن أتحفّظ لإقناعها في اللحظة التي يقرر الجميع أن يشاركوا في ترتيب الأعمال. ثم لماذا عليّ أن أكون منزعجاً بينما يستمتع غويدو

بوقته؟!

نمت جيداً؛ وذهبت إلى المكتب، في الصباح، بجيب ليس مليئاً بالمال (كان لديّ الظرف القديم الذي تركته لي كارلا، واحتفظت به حتى ذلك الوقت كشيء من ذكراها إخلاصاً لها. وفيه بعض النقود التي سحبتها من أحد البنوك أيضاً). قضيت الصباح بقراءة الصحف، بين كارمن التي كانت تخيّط، ولوشانو الذي يتدرب على عمليات الحساب. وعندما عدت إلى البيت على ساعة الغداء، وجدت أوغوستا حائرة ومنهارة. كان يغطي ذاك الشحوب العظيم وجهها، الذي لا ينتج إلاً عن آلام أكون السبب فيها. قالت لي بلطف:

– علمت أنك ستضحّي بجزء من ثروتك لتنقذ غويدو! أعلم أنه ليس من حقي أن أستعلم عن ذلك...

ارتبكت لأنها كانت تشكّ كثيراً في حقوقها. ثم قالت من جديد لتلومني على سكوتي:

– وصحيح أني لست مثل آدا، لأني لم أخالف إرادتك يوماً.

كنت أحتاج للوقت لأفهم ما الذي جرى. لقد ذهبت إلى آدا صباحاً، عندما كانت الأخيرة تناقش مسألة غويدو مع أمها. استسلمت آدا لبكاء طويل وأخبرتها عن شهامتي وأنها لن توافق نهائياً. بل إنها توسلت أختها أن تقنعني بالعدول عن رأيي.

فطنت سريعاً أنّ زوجتي كانت تعاني من مرض قديم، وهو الغيرة من أختها. لكني لم أعوّل على ذلك، بل فوجئت من مسلك آدا:

– هل بدت لك مستاءة؟ – سألت جاحظاً عينيّ من هول المفاجأة.

– لا! لا!.. ليست مستاءة. – صرخت أوغوستا الصادقة – لقد قبّلتني وعانقتني.. ربما لكي تعانقك أنت..

كانت طريقة تعبير مضحكة جداً. نظرت إليّ بتوجس وتفحّص.

twitter @baghdad_library

فاعترضتُ:

– أتظنين أنّ آدا مغرمة بي؟ ما الذي يجري في رأسك؟

لكني لم أنجح في طمأنتها، فكانت غيرتها تزعجني كثيراً. ومن الرائع أنّ الذكر الآخر لم يكن يتسلى في تلك الساعة، بل كان يواجه ظرفاً حرجاً بين زوجته وحماته. لكني كنت منزعجاً أنا أيضاً، وبدا أنه لا بد من المعاناة كثيراً بسبب البراءة التامة.

حاولت أن أهدأها مداعباً شعرها. أبعدت وجهها عن وجهي لتراني بشكل أفضل، وأنّبتني برقة بالغة أثّرت فيَّ كثيراً.

– أنا أعلم أنك تحبني أيضاً – قالت.

لم تكن حالة آدا النفسية تهمها كثيراً، بل حالتي أنا. فجاءني الوحي لإثبات براءتي:

– آدا مغرمة بي إذن.. – ضحكتُ. ثم ابتعدتُ قليلاً عنها لتراني أفضل. ونفختُ وجنتيّ قليلاً، وحولتُ عينيّ بطريقة غير طبيعية حتى أشبه آدا المريضة. نظرت إليَّ أوغوستا مذهولة ثم عرفت فوراً من كنت أقصد، فانتابتها سعادة كبيرة خجلت منها كثيراً:

– لا!.. لا تسخر منها أرجوك!..

ثم اعترفت، وهي تضحك طبعاً، أنني أبدعت في تقليد وجه آدا المشوّه الذي يبعث على المفاجأة. وكنت أعرف ذلك إذ شعرت أني أعانقها بتقليدها. وعندما كنت وحدي قلدّتها أكثر من مرة برغبة وتقزز.

وفي الظهيرة ذهبت إلى المكتب علّني أجد غويدو. انتظرته بعض الوقت ثم قررت أن أعود إلى المنزل. كان عليَّ أن أعرف أيضاً إن كان من الضروري أن أطلب المبلغ من أوليفي. فلا بد أن أكمل معروفي قبل أن تزعجني رؤية آدا تتحول وهي تشكرني، والله أعلم كم من المفاجآت ستلحق بي من تلك المرأة!..

وعلى درج منزله، صادفت السيدة مالفنتي التي كانت تصعد ببطء. أخبرتني بالطول والعرض ما الذي قرروه بشأن أعمال الفتى. اتفقوا في مساء اليوم السابق أن ينقذوه من مصيبته الحقيقية. وعلمت آدا، في الصباح فقط، أنني كنت بصدد التعاون لتغطية الخسائر، ورفضت بحزم. وكانت أمها تعذرها:

– ما العمل؟!.. إنها لا تريد أن تندم على إزعاج أختها المفضّلة.

توقفت المرأة، في البهو، لتلتقط أنفاسها وتتكلم. وقالت ضاحكة إنّ الأمر سينتهي دون أن يضرّ بأحد. فقد ذهبت مع آدا وغويدو، قبل الغداء، ليأخذوا النصح من محامي العائلة؛ وهو صديق قديم، يدرّب آنّا الصغيرة الآن. قال المحامي إنه ليس ضرورياً أن ندفع لأننا لسنا بمجبرين في القانون. غويدو عارضه بشدة متحدثاً عن الواجب والشرف، لكنه استسلم دون شك عندما قرر الجميع ألا يدفعوا، بما فيهم آدا.

– وهل ستعلن الشركة إفلاسها في البورصة؟! - سألتُ مرتبكاً.

– نعم، على الأرجح! - أجابت السيدة متنهدة قبل أن تصعد الدرج الأخير.

اعتاد غويدو على القيلولة بعد الغداء، لذا استقبلتنا آدا وحدها في تلك الصالة الصغيرة التي كنت أعرفها جيداً. ترددت للحظة عندما رأتني، لكنني كنت ثابتاً واضحاً كأني أعرف بارتباكها مسبقاً. ثم أجهدت نفسها لتمدّ يدها بحركة سريعة رجولية لتبدد بها ارتباكها الأنثوي الظاهر.

– ربما أخبرتك أوغوستا بامتناني. لا أعلم ماذا أقول لك الآن لأنني مرتبكة ومريضة أيضاً. أجل! إني مريضة! قد أكون بحاجة للعودة إلى بولونيا مجدداً!..

قاطعتها شهقاتها: - أطلب منك الآن معروفاً. أتوسل إليك أن تخبره بأنك لست مضطراً لتزويده بالمال أنت أيضاً. سنقوده إلى برّ

twitter @baghdad_library

الأمان بعدم مساعدتك له.

كانت تشهق لأنها تذكرت مرضها، ثم شهقت ثانيةً قبل أن تكمل حديثها عن زوجها:

– إنه مراهق، وعلينا أن نعامله على هذا الأساس. إذا علم أنك ستعطيه ذلك المبلغ، سيضحّي بما تبقّى على اللهو. بتنا متأكدين من الإفلاس المحتمل في البورصة. المحامي قال ذلك.

أخبرتني برأي شخص معتبر قبل أن تأخذ رأيي. وكان لرأيي ثقله، كمتردد قديم إلى البورصة، إذا ما وضع بجانب رأي المحامي، لكني لم أتذكر رأيي. بل تذكرت أني كنت بموقف محرج، فلم يكن بوسعي أن أسحب التزامي الذي قطعته مع غويدو. وكانت المكافأة مقابل التزامي أني ظننت نفسي مخولاً بأن أشتمه بأعلى صوت، واضعاً في جيبي ما يشبه الفوائد عن رأس المال الذي لم أعد أتمكن من رفضه حينئذٍ.

– آدا! – قلت مرتبكاً – لا أظن أنه بوسعي أن أتنصّل هكذا من يوم لآخر. أليس أفضل أن تقنعي غويدو بالقيام بما ترغبين؟

قالت السيدة مالفنتي، بلطفها الذي أظهرته لي دائماً، إنها تتفهم موقفي الخاص جيداً، وإنّ غويدو سيكون مرغماً للانصياع لإرادتهم عندما يمتلك ربع المبلغ الذي كان بحاجته. لكن آدا أخذت تبكي خلف منديلها، وقالت:

– أسأت صنعاً بعرضك الرائع هذا!. سترى نتائج فعلتك الآن!..

رأيتها مترددة مابين امتنان عظيم ونقمة شديدة. ثم أضافت أنها لم تعد تريد سماع شيء بشأن عرضي. وطلبت مني أن لا أوفر ذلك المبلغ، لأنها ستمنعني من إعطائه لغويدو كما ستمنعه من قبوله.

وكنت متردداً حتى انتهيت بتلفيق كذبة. فقلت لها إنني دّبرت هذا المال مسبقاً. وأشرت إلى جيب القميص حيث يوجد ظرف كارلا.

فنظرت إليّ آدا هذه المرة بكثير من الإعجاب الحقيقي الذي أسعدني حتى لو لم أستحقه. وعلى أي حال، لا أعطي مسوغاً آخر لتلك الكذبة سوى الميل الغريب إلى تقديم نفسي أمامها أعظم مما كنت، حتى منعتني من انتظار غويدو وأخرجتني من منزلها. وكان من الممكن أن يحدث عكس ما حدث، أي أن يطلبا مني تسليم المال الذي ادّعيت حمله معي. وأيّ لون كان وجهي سيأخذ حينها!.. فقلت فجأة إنه كان لدي أعمالاً مستعجلة في المكتب، ولذت بالفرار.

رافقتني آدا حتى الباب وأكدت إنها ستجعل غويدو يأتي ليشكرني على شهامتي ويرفض عرضي. أدلت بذاك التصريح بحزم حتى أصابتني رعشة. وبدا لي أنّ قرارها الحازم سيضرب جزءاً مني. كلا!.. لم تكن تحبني في تلك اللحظة، وكانت شهامتي أمراً مبالغاً فيه. فشهامتي تزهق روح كل من تصادفه، ولم يكن عجيباً أن يعترض عليها الممنوحون. وعندما كنت ذاهباً إلى المكتب، حاولت أن أخلع عني هذا الضيق الذي سببته آدا بتصرفاتها، وتذكرت أنني أضحّي لأجل غويدو وليس لأجل أحد آخر. فما علاقة آدا؟.. قررت أن أُعلمها بذلك في المناسبة القادمة.

ذهبت إلى المكتب كي لا أندم لأني كذبت. لم يكن شيئاً بانتظاري. انهمر المطر، في ذلك الصباح، ناعماً ومستمراً؛ فأنعش طقس الربيع المتقلب. سأكون في منزلي بخطوتين، بينما كان عليَّ أن أسير طريقاً طويلة أكثر للوصول إلى المكتب، وهذا ما أزعجني كفاية. بدا كأنه تجاوب لالتزامي.

وبعد قليل لحقني غويدو. أبعد لوشانو لينفرد بي. كانت هيئته المضطربة تساعده في معاركه مع زوجته التي كنت أعرفها جيداً. ومن الواضح أنه بكى وصرخ.

سألني عن رأيي باقتراحات زوجته وحماتنا، وكان يعرف أنني أعلم

twitter @baghdad_library

بها. بدوت مرتبكاً أمامه، ولم أشأ أن أخبره برأيي الذي لم يكن يوافق آراء المرأتين. وكنت أعرف أني لو اعتنقت رأيهما لتسببت بجدال جديد معه. وكنت سأحزن لو أبديت ارتباكاً بمساعدته. وكنا قد اتفقنا مع آدا في النهاية أنّ القرار سيرجع لغويدو وليس لي. فقلت إنه لا بد أن يحسب ويتبصّر ويسمع نصائح أشخاص آخرين أيضاً، فلم أكن رجل الأعمال الذي يعطي نصيحة دقيقة في معضلة معقدة كتلك. وسألته، لأكسب الوقت، أن نستشير السيد أوليفي؛ مما كان كافياً لجعله يصرخ:

– ذلك المغفّل! – صرخ – أرجوك أن تتركه جانباً!..

لم أكن متحمساً للدفاع عن أوليفي، لكن غويدو لم يكتف بهدوئي. كنا في حالة مطابقة لليوم السابق؛ لكنه صرخ أولاً فتوجب عليّ السكوت. إنها مسألة توزيع أدوار. وكنت مليئاً بارتباك يشلّ حركتي.

أصرَّ أن يسمع رأيي، فتحدثت بإلهام إلهي. تحدثت جيداً لدرجة أننا كنا سنتلافى المصيبة التي ستقع بعدئذ لو كان لكلماتي تأثير اعتباطي. قلت إنني كنت سأفرّق بين المسألتين، أي حلّ الشركة في الخامس عشر من ذلك الشهر، وتصفية الأعمال في آخر الشهر. فلم نكن لندفع مبلغاً طائلاً في منتصف الشهر حقيقة؛ وفي الوقت نفسه علينا أن نجبر النساء أن يخضعن لتلك الخسارة الخفيفة نسبياً، فيكون لدينا الوقت الكافي لنصفّي الأعمال بشكل أفضل. فقاطعني سائلاً:

– أخبرتني آدا أنك تحمل المال في جيبك. أهو معك الآن؟!...

خجلت. لكني وجدت كذبة أخرى جاهزة أنقذتني.

– لقد وضعته في المصرف منذ قليل، نظراً لأنهما لم يقبلا هذا المال في بيتك. ولكن بوسعنا أن نأتي به وقتما نشاء، حتى في صباح الغد إن أردت.

فلامني لأنني غيّرت ما صرخت به في الأمس بأني لن أنتظر تصفية

آخر الشهر لأضع الأمور على نصابها! واجتاحته عاصفة من الغضب حينذاك، أوقعته منهكاً على الصوفا!.. كان بوده أن يرمي نيليني وكل الوسطاء الآخرين خارج المكتب لأنهم جروه إلى مضاربات البورصة. آه! كان هو بلا شك من بادر بإمكانية الانهيار، لكن ليس إلى الدرجة التي تجعله يخضع لإرادة نسوة لا يفهمن شيئاً.

شددت على يده وكنت سأعانقه لو سمح لي. لم أكن أريد شيئاً سوى أن أراه يصل إلى ذلك القرار: لا لعب بعد اليوم... أما العمل فكل يوم! هكذا فقط كنا سنضمن مصيرنا واستقلاليته. نتحدث حينها عن عبور تلك الحقبة الصعبة والقصيرة، لكن كل شيء سيكون أبسط وأسهل فيما بعد.

تركني بعد قليل منهاراً وهادئاً أكثر. كانت رياح القرارات الحازمة تجتاحه في لحظات ضعفه أيضاً:

– سأعود إلى آدا!.. – غمغم وابتسم بمرارة، ولكن بثقة.

رافقته حتى الباب وكنت سأرافقه حتى المنزل لو أنّ العربة لم تكن بانتظاره.

كان الانتقام الإلهي يلاحقه. وبعد نصف ساعة من انصرافه فكرت أنه كان من الأفضل لو ذهبت إلى منزله لأساعده، ليس لأنني شككت أنّ خطراً ما سيلحق به، إنما لأني بتّ في جانبه كلياً وكنت سأساهم في إقناع آدا وأمها بمساعدته. فالإفلاس في البورصة لم يكن أمراً يثير إعجابي، وتقسيم الخسارة على أربعة ليس اقتراحاً عبثياً بالنتيجة، ولا يمثّل الانهيار لأي أحد.

ثم تذكرت أنَّ واجبي الأكبر حينها ليس مساعدة غويدو، بل تأمين المبلغ الذي وعدته به في اليوم التالي. فذهبت فوراً لأبحث عن أوليفي، وحضّرت نفسي لمعركة جديدة. وكنت قد أبدعت نظاماً يضع

twitter @baghdad_library

مبلغاً ضخماً تحت إمضائي في سنوات عديدة بتحويل كل ما تبقّى من تركة والدتي منذ ذلك الوقت حتى بضعة أشهر. كنت آمل أن لا يخترع أوليفي المصاعب، لأني لم أكن قد سألته أبداً أكثر مما كنت أستحق من الفوائد حتى ذلك الوقت، وكان بوسعي أن أضمن له عدم الإزعاج بطلبات مشابهة، متمنياً أن يعوّضني غويدو بجزء من المبلغ على الأقل رغم كل شيء.

لم يتسنَّ لي العثور على أوليفي؛ كان قد خرج للتوّ من مكتبه عندما دخلت إليه. افترضوا أنه ذاهب إلى البورصة، ولم أجده هناك أيضاً. فذهبت إلى منزله حيث علمت أنه كان يشارك في جلسة لمؤسسة اقتصادية يشغل فيها منصباً فخرياً. وكان بوسعي أن أذهب إليه هناك، لكن الليل قد هبط والمطر ينهمر بلا انقطاع حتى غمر الشوارع بالسيول.

استمر الفيضان الليلة بأكملها، ولن أنساه طول حياتي. إذ كان المطر ينهمر بهدوء وبشكل عمودي وبالكثافة نفسها دائماً. وكان الوحل ينزل من المرتفعات التي تحيط بالمدينة فيغلق أقنية الصرف إذا تجمّع مع الأوساخ. قررت العودة إلى المنزل بعدما انتظرت في أحد الأماكن توقّف الأمطار أو تغيّر الطقس دون جدوى. مشيت تحت الماء متحركاً على الجزء الناتئ من بلاط الطريق، وركضت نحو البيت غاضباً وملوثاً حتى عظامي. غضبت أيضاً لأنني أضعت وقتاً طويلاً في البحث عن أوليفي. قد يكون وقتي ليس ثميناً لهذا القدر، لكني أعاني بفظاعة من إهدار الوقت. وفكرت عندما كنت أركض: (فلنترك كل شيء للغد حيث سيكون الطقس صافياً ودافئاً. غداً سأذهب إلى أوليفي وغويدو معاً. قد أستيقظ باكراً جداً لكن لا بد أن يكون الطقس صافياً ودافئاً). كنت مقتنعاً بدقة قراري حتى قلت لزوجتي إنّ الجميع يؤجلون أعمالهم للغد. غيّرت ملابسي ونشّفت جسدي وارتديت خفيّن مريحين ودافئين بقدميّ

المنهكتين. وتناولت العشاء أولاً ثم ذهبت لأنام بعمق حتى الصباح، بينما كان المطر يجلد النافذة.

ولم أدرِ بأحداث الليلة الماضية إلا فيما بعد. عرفنا أنّ المطر تسبّب بفيضانات في أجزاء متعددة من المدينة، ثم عرفنا أنّ غويدو قد مات.

وعرفت لاحقاً جداً كيف وقع أمر كهذا. ففي حوالي الحادية عشرة، عندما غادرت السيدة مالفنتي، أخطر غويدو زوجته بأنه شرب كمية كبيرة من الفيرونال. أراد إقناعها بأنه يشعر بذنبه، وعانقها وقبّلها وطلب منها السماح لأنه جعلها تتألم. أكد لها أنها كانت حبه الوحيد في حياته قبل أن يأخذه الهذيان. لم تصدّقه حينها لا بحبه ولا بابتلاعه لكمية كبيرة من السم حتى يموت؛ ولم تصدّقه حتى حين فقد وعيه، بل تخيلت أنه يتظاهر بهذا ليأخذ مزيداً من الأموال منها.

وبعد مضي حوالي الساعة، رأت أنه ما يزال ينام بعمق. ففزعت وكتبت برسالة إلى طبيب يقطن غير بعيد عن بيتهما، وذكرت فيها أنّ زوجها بحاجة إلى إسعاف طارئ لأنه تجرّع كمية كبيرة من الفيرونال.

وحتى تلك اللحظة لم تكن الرهبة قد ملأت المنزل لتنذر الخادمة - وهي امرأة عجوز تقيم لديهما منذ وقت قصير - بخطورة الموقف وحتمية مهمتها.

وتكفّلت الأمطار بالباقي. فوجدت الخادمة نفسها تسبح بالماء حتى ركبتيها، وأضاعت الرسالة. ولم تفطن لضياعها إلاّ عندما وصلت إلى الطبيب. لكنها استطاعت أن تخبره بوجود حالة طارئة، وأخذته معها إلى المنزل.

كان الطبيب مالي في الخمسين من عمره تقريباً؛ لم يكن عبقرياً لكنه طبيب ماهر يقوم بما يتوجب عليه على أحسن وجه. لم يكن لديه الكثير من الزبائن، لكنه كان مشغولاً دائماً بالعمل لحساب شركة فيها

twitter @baghdad_library

الكثير من الموظفين الذين يقاضونه بقليل من السخاء.

كان قد وصل إلى منزله قبيل وصول الخادمة، وقد تنشّف واحتمى بالمدفأة. تخيّل بأي مزاج كان يترك الموقدة! فعندما انشغلتُ بالتحقيق في أسباب موت صديقي المسكين، خفت أن أتعرّف عليه. لم أحصل منه إلاَّ على التالي: عندما خرج من منزله وتحمّم بالماء تحت المظلة، تندّم على دراسة الطب عوضاً عن الزراعة، ذاكراً أنَّ الفلاح يبقى في منزله عندما تمطر السماء.

وصل إلى سرير غويدو ووجد آدا هادئة تماماً. الآن وقد أصبح الطبيب بقربها، تذكرت جيداً كيف لعب غويدو بمشاعرها منذ أشهر متصنعاً محاولة انتحار. فلم يعد عليها أن تتحمل أية مسؤولية، بل ينبغي على الطبيب أن يكون ضليعاً وعارفاً بكثير من الأمور، حتى بما يخص الأسباب التي تخدع المرء بتدبير محاولة انتحار. وقد علم الطبيب بتلك الأسباب بالتزامن مع إصغائه للرياح التي تكتسح الشوارع. ولم يجلب معه العدّة الضرورية لعلاج التسمم نظراً لكونه لا يعرف لماذا استدعي أصلاً. فتأسّف لذلك مغمغماً ببضع كلمات لم تفهمها آدا.

والأسوأ من هذا، أنه لم يرسل أحداً لإحضار تلك الأدوات ليشرع في غسيل المعدة، بل كان عليه أن يذهب بنفسه. جسّ نبض المريض فوجده رائعاً. سأل آدا إن كان زوجها ينام نوماً عميقاً. فأجابت بنعم، ولكن ليس لهذه الدرجة. فحص عينيه؛ كانتا تستجيبان للضوء بشكل جيد! ثم غادر موصياً أن تعطيه ملاعق من القهوة المرّة المكثّفة من وقت لآخر. وعرفت أيضاً أنه تمتم بنقمة عندما بلغ الشارع:

– كيف يُسمح لأحدهم أن يحاول الانتحار في طقس كهذا؟!...

لم أجرأ على تأنيبه على التقصير عندما تعرفت عليه، لكنه تكهن بذلك ودافع عن نفسه إذ قال إنه صعق في الصباح عندما علم بوفاة

المريض. حتى أنه شك في أن يكون استعاد وعيه وتجرّع كمية أخرى من الفيرونال. ثم أضاف إنّ المستهترين بفنون الطب لا يستطيعون أن يتخيلوا كيف يعتاد الطبيب، على طول خبرته، الدفاع عن نفسه بوجه الزبائن الذين يعتدون عليه ولا يفكرون إلاّ بأنفسهم.

وبعد قرابة الساعة ملّت آدا من وضع الملعقة بين أسنان زوجها لأنه كان يحتسي القليل من القهوة والباقي يلوّث المخدة. ففزعت مجدداً وطلبت من الخادمة أن تأتي بالطبيب باولي. حملت البطاقة بعين الاعتبار هذه المرة، لكنها أخذت أكثر من ساعة لتبلغ منزل الطبيب. ومن الطبيعي أن نتوقف بين الفينة والأخرى عند إحدى البوابات عندما تمطر كثيراً. فذلك المطر لم يكن يبلّل فحسب، بل يخدش أيضاً.

ولم يكن الطبيب في منزله، كان قد دعاه أحد المرضى وذهب إليه آملاً أن يعود باكراً. ويبدو أنه فضل أن ينتظر عند مريضه حتى توقّف المطر. وكانت ممرضته سيدة كبيرة في العمر، أجلست الخادمة بالقرب من المدفأة وانشغلت بإنعاشها. لم يترك الطبيب عنوان مريضه، لتقضي المرأتان عدة ساعات بالقرب من النار. عاد الطبيب عندما توقفت المطر للتو. وعندما وصل إلى آدا حاملاً كل العدة اللازمة لعلاج غويدو، كان الفجر يبزغ. ولم يكن هناك شيئاً يفعله عند السرير إلاّ أن يخفي على المرأة موت زوجها؛ وأن يستدعي أمها قبل ذلك، علّها تواسي ابنتها في الفجيعة.

لذا جاءت الأخبار متضاربة ومتأخرة جداً. وعندما نهضت من فراشي كان لديّ آخر نقمة ضد غويدو المسكين: إذ كان يعقّد كل مصيبة بهزلياته! خرجت من المنزل دون أوغوستا، فلم تستطع أن تترك طفلها فجأة. وحينما أصبحت في الخارج، رافقني شك ما. ألم يكن من الأفضل أن أنتظر المصارف حتى تفتح وأن يكون أوليفي في مكتبه لأبدو مجهّزاً بالمال أمام غويدو؟ وبعد قليل صدّقت خبر تدهور حالته

twitter @baghdad_library

الصحية مع أني عرفت بها من قبل!..

عرفت الحقيقة من الطبيب باولي الذي صادفته على الدرج. صدمت بالخبر حتى كدت أقع أرضاً. فكان قد أصبح شخصاً مهماً في حياتي، منذ أن عرفته. وكنت أراه مهالاً بالنور الذي أضاء جزءاً من أيامي حتى وفاته. وقد تبدّل ذلك النور، عند موته، كأنه مرّ بموشور فجأة، وهذا ما شوّش نظري. إنه كان مخطئاً، لكني رأيت خطاياه تتبدد برحيله حالاً. كان ذلك المضحك مغفلاً، برأيي، عندما مرّ بمقبرة فاخرة فتساءل أين يدفن المذنبون. بات غويدو نقياً! لقد طهّره الموت!...

تأثر الطبيب لأنه شاهد آلام آدا. قال لي شيئاً عما قضته في تلك الليلة الفظيعة. ونجحوا بإقناعها في النهاية أنّ أي إسعاف وعلاج لم يكن لينقذه من حجم السم الذي تجرّعه. فويل لها إن عرفت أكثر من ذلك!..

– ولكني – أضاف الطبيب بحسرة – لو وصلت قبل ساعة لأنقذته. وجدتُ علب السم الفارغة. تفحصتها. كانت الجرعة قوية، لكنها ليست أقوى من المرة السابقة...

وأنا رأيت إحدى العلب وقد كُتب عليها: (فيرونال). لم يكن فيرونال الصوديوم إذن. فتأكدت – خلافاً للجميع – أنه لم يكن يريد الموت لنفسه؛ لكني لم أخبر أحداً بذلك أبداً.

تركني الطبيب بعد أن قال لي إنه لا يستحسن أن أرى آدا في تلك اللحظة، لأنه أعطاها مهدئات قوية ولم يشكّ بسرعة تأثيرها.

وفي الممر، سمعت بكاءها الناعم يأتيني من تلك الغرفة التي استقبلتني بها مرتين. كانت تصدر كلمات مفردة حافلة بالأسى لم أفهمها. فكلمة (هو) تعاد مراراً، وتخيلت ما كانت تقول. كانت تعيد إنشاء علاقتها مع الميت المسكين بطريقة لا تشبه علاقتها به حياً. وكان بديهياً بالنسبة لي أنها أخطأت بحق زوجها الحي، الذي مات من أجل جريمة شارك

الجميع بارتكابها لأنه كان يضارب في البورصة برضا الجميع. وتركه الجميع وحده عندما تعيّن عليه أن يدفع، وكان مستعجلاً بذلك. كنت أنا الناجي الوحيد، فليس لي دخل بما جرى حقاً، كما أني شعرت بواجبي في إنقاذه.

وفي غرفة النوم كان يرقد المسكين، مغطى باللحاف. ولا يعبّر حزمه المعهود عن قوته، بل عن دهشة كبيرة بأنه مات دون رغبة بذلك. كان اللوم مطبوعاً على وجهه الأسمر الجميل. ولم يكن لومه موجهاً صوبي بالتأكيد.

ذهبت إلى أوغوستا لأتوسل إليها أن تأتي لتواسي أختها. كنت متأثراً جداً، وهي بكت بينما عانقتني:

- كنت بمثابة أخ له. - همست - إنني الآن فقط أوافقك الرأي بالتضحية بجزء من ثروتنا لتطهّر ذكراه.

وانشغلت لأشرّف صديقي المسكين، فألصقت على باب المكتب حينها بلاغاً يعلن إغلاق المكتب إثر وفاة صاحبه. كتبت نعوته بنفسي، وقمنا بترتيبات الجنازة في اليوم التالي، بالاتفاق مع آدا. علمتُ أنها قررت أن تتبع النعش إلى المقبرة، فكانت تود أن تثبت له حبها. مسكينة! أعلم أيّ ألم يرافق الحسرة عند قبر ما؛ لقد عانيت من ذلك كثيراً حين توفّي والدي.

قضيت الظهيرة داخل المكتب المقفل بصحبة نيليني. توصّلنا لحساب موازنة عامة لوضع غويدو. كان ذلك مخيفاً! لم يكن رأس مال الشركة قد تدمّر، بل كان غويدو يبقى مستديناً بالمقدار نفسه وأكثر إن كان عليه أن يوفي كل شيء.

أردت أن أعمل بصدق لمصلحة رفيقي الراحل، لكنني لم أتمكن من القيام بشيء سوى الأحلام. كانت فكرتي الأولى تقتضي أن أضحّي

twitter @baghdad_library

بحياتي كلها في مكتبه، وأن أعمل لصالح آدا وولديها. لكن هل كنت سأنجح بفعل كل شيء على ما يرام؟..

ثرثر نيليني، كعادته، بينما كنت أنظر للبعيد البعيد. شعر أيضاً بضرورة أن يغيّر علاقته جذرياً مع الميت. استوعب كل شيء حينئذ! فقد عرف غويدو المسكين طريقه إلى الانتحار، عندما أساء له. لذا عليه أن ينسى كل شيء. وبشّرني بأنه سيفعل ذلك حتماً. لم يكن ليحقد على أحد، فهو كان يعز غويدو ومازال.

التحمت أحلامي بأحلام نيليني وتشابكت. لم يكن حلّ تلك الكارثة لينتج عن تجارة بطيئة، إنما في البورصة نفسها. أخبرني عن صديق له استطاع أن ينقذ نفسه في الرمق الأخير مضاعفاً حسابه.

تحدّثنا لساعات طويلة. ووافقت على اقتراح نيليني، بمتابعة ما بدأه غويدو، قبل منتصف النهار بقليل. قبلت اقتراحه بغبطة كأني استرجعت صديقي إلى الحياة. واشتريت في النهاية على اسم المسكين أسهماً كثيرة من صاحب الاسم الغريب (ريو تينتو، ساوث فرانش) وهكذا دواليك..

فباشرت خمسين ساعة قصوى من العمل الذي لطالما انتظرته طوال حياتي. وبقيت أروح وأجيء بخطوات كبيرة في المكتب حتى المساء، بانتظار معرفة أنّ أوامري قد نُفذّت. وكنت أخشى أن يعلم الجميع في البورصة بانتحار غويدو، وأنّ اسمه لم يعد جديراً بالثقة لالتزامات جديدة. لكن أحداً لم يتكلم عن موته منتحراً لعدة أيام. وعندما تسنى لنيليني أن يخبرني أنّ أوامري نُفذّت، عشت حالة قلق حقيقي تزداد من معرفتي بخسارة جزء مهم من العقود بعد أن استلمتها. أذكر ذلك القلق كأنّه عمل حقيقي بحت. لدي حدس غريب في تذكّر كيف بقيت جالساً، لخمسين ساعة، دونما انقطاع، على الطاولة كأني ألعب بأوراق الشدة. لا أعرف أحداً قاوم هكذا لساعات.

كنت أسجّل متيقظاً أي تحرك في الأسعار، تارة أتقدم إلى الأمام وأتراجع تارة أخرى بالذي يناسبني ويناسب صديقي العزيز أيضاً. وبقيت متيقظاً حتى في الليل.

وعندما كنا بمنتصف الشهر لم أخبر أحداً بحلّ الشركة، لأني خشيت من تدخّل أحد أفراد العائلة ليحول بيني وبين عملية الإنقاذ التي تأهبت لدخولها. أوفيت كل شيء، لأنّ أحداً لم يتذكر تلك الالتزامات، كونهم منشغلين بجثة تنتظر الدفن. ولم تكن تكلفة حلّ الشركة باهظةً كما كان متوقعاً، فقد حالفني الحظ بسرعة.

تألمت لفقدانه كثيراً حتى بدوت أعزّي نفسي مجازفاً بتوقيعي أكثر من مجازفتي بأموالي. لقد صاحبتني الشهامة التي حلمت بها مراراً، ورافقني القلق الذي أزعجني حتى أني لم أضارب في البورصة على حسابي أبداً.

أفضى شغلي الشاغل (كاللعب بأوراق الشدة) إلى عدم مشاركتي في جنّاز غويدو. حدث ذلك حينما قفزت قيمة الأسهم التي انشغلنا بها إلى الأعلى، في ذاك اليوم تماماً. قضينا الوقت، أنا ونيليني، بحساب كم سنعوّض من الخسائر. كانت ثروة السيد سبيير تبدو عند النصف فقط! ملأتني تلك النتيجة العجيبة بالفخر. حدث فعلاً ما توقّعه نيليني بنبرة شك اختفت حينها طبعاً، فكرر كلماته ذاتها وقدّم نفسه كنبي حقيقي. أرى أنه تنبأ بذلك وعكسه أيضاً، فلم يكن ليخطئ أبداً. لكني لم أقل له ذلك لأن طموحه كان يفيدني في العمل؛ حتى شهواته كانت تؤثر على الأسعار.

غادرنا المكتب عند الثالثة، وركضنا لأننا تذكرنا أنّ الجناز سيبدأ عند الثالثة إلاّ ربعاً. وعند طلعة كيوزا، رأيت التشييع في البعيد وعرفتُ عربة صديق لي أرسلها إلى الجناز من أجل آدا. فقفزنا داخل إحدى

twitter @baghdad_library

عربات الساحة، آمرين السائق أن يلحق الجنازة. وبقينا (نلعب بأوراق الشدة) في تلك العربة. كنا نفكر بعيداً عن صديقنا الراحل حتى تأففنا من بطء العربة. فمن يعلم ما الذي يحدث في البورصة من ورائنا حينئذ؟! نظر إليّ نيليني وسألني لماذا لا أضارب في البورصة على حسابي.

- حتى هذه اللحظة - قلت ولا أعرف لماذا خجلت - لن أعمل إلاَّ لحساب صديقي العزيز. - ثم أضفت بعد تردد وجيز: - سأفكر في نفسي لاحقاً. - أردت أن أترك لديه الأمل في جرّي إلى البورصة دائماً وباحتفاظه كصديق في آن معاً. لكني قلت عبارة في نفسي لم أجرؤ على لفظها أمامه: «لن أضّع حياتي بين يديك أبداً!». وبدأت حصة النصائح: - من يعلم متى سنحظى بفرصة رائعة كهذه! - نسي أنه علّمني من قبل أنّ البورصة تجود بالفرص الرائعة كل ساعة.

وعندما وصلنا إلى المكان حيث تقف العربات بالعادة، أخرج نيليني رأسه من النافذة وصرخ متفاجئاً. فعربتنا تتابع السير خلف جنازة تمشي نحو المقبرة اليونانية.

- هل كان السيد غويدو يونانياً؟ - سألني مستغرباً.

حقاً.. كان التشييع يمضي ما بعد المقبرة الكاثوليكية ويمضي صوب مقبرة أخرى، يهودية، يونانية، بروتستانتية، أو صربية...

- ربما كان بروتستانتياً! - قلت أولاً، لكنني تذكرت فوراً أني حضرت حفل زفافه في الكنيسة الكاثوليكية.

- قد يرتكبون خطأ ما! - هتفتُ ظناً أنهم سوف يدفنوه في المكان الخاطئ.

فانفجر نيليني ضاحكاً باسترسال فجائيّ حتى ارتمى في عمق العربة خائر القوى فاغراً فمه في وجهه الصغير.

- لقد أخطأنا! - هتف. وعندما استطاع أن يوقف انفجار سعادته، انهال عليَّ بالتوبيخ. فكان عليّ أن أرى أين كنا ذاهبين لأني من المفترض أن أعرف الموعد والأشخاص... الخ. لقد لحقنا بجنازة شخص آخر!..

لم أضحك معه، فكنت غاضباً، ولم أتحمل تأنيبه. لِمَ لا ينظر جيداً هو أيضاً؟.. وكبحت جماح مزاجي السيئ لأني كنت أفكر بالبورصة أكثر من الجنازة. فنزلنا من العربة لنتجه بشكل صحيح، وتوجهنا إلى مدخل المقبرة الكاثوليكية. وتبعتنا العربة. انتبهت أنّ أهل الفقيد الآخر كانوا ينظرون إلينا مستغربين، لأنهم لم يفهموا لماذا تركنا جنازة المسكين في ذروتها بعد أن شيّعناه - مشكورين - كل هذه المسافة. كان نيليني يسبقني نافد الصبر. سأل البواب متردداً: - هل وصلت جنازة السيد غويدو سبيير؟..

لم يتفاجأ البواب من السؤال الذي بدا لي مضحكاً. أجاب أنه لا يعرف شيئاً. قال فقط إنّ من خلف السياج دخلت جنازتان في نصف الساعة الأخيرة.

فنظرنا إلى بعضنا بحيرة. من الطبيعي أننا لم نكن نعرف إن كانت الجنازة توجد في الداخل أم في الخارج! حينها قررت من رأسي، فلم يكن منطقياً أن أدخل في الرسميات التي بدأت وأحدث جلبة فيها. لن أدخل إلى المقبرة إذن. بالمقابل، لم أكن لأخاطر بمصادفة الجنازة أثناء عودتي. لذا رفضت أن أشارك في مراسم الدفن وكنت سأعود إلى المدينة سالكاً درباً طويلة. تركت العربة لرفيقي الذي لم يشأ أن يتغيب عن الدفن احتراماً لآدا الذي كان يعرفها.

وللتملص من أي لقاء، صعدتُ إلى الشارع الريفي الذي يأخذ إلى البلدة، بخطوة سريعة. وبتّ غير آسف لأني أخطأت في الجنازة

twitter @baghdad_library

ولم أودّع المسكين للمرة الأخيرة. لم أشأ أن أعطّل نفسي في تلك الممارسات الدينية، فكان لا بد أن أقوم بواجب آخر. عليّ أن أنقذ شرف صديقي، لأدافع عن ثروته لمصلحة الأرملة وولديها. وعندما ستعلم آدا أني عوضت ثلاثة أرباع الخسارة كانت ستغفر لي غيابي عن الجنازة. وكنت أعيد الحسبة مراراً وتكراراً: غويدو كان قد خسر ضعف ثروة أبيه؛ وتقلصت الخسارة إلى نصف تلك الثروة، بعد تدخّلي. فصحيح إذن أنني عوضت ثلاثة أرباع الخسارة.

كان الطقس رائعاً في ذلك اليوم. وكانت شمس الربيع تلمع، والهواء صحي ونقي في الريف الذي مازال مبللاً. اتسعت رئتاي، بعد ضيق مؤلم في الأيام الأخيرة. وكنت مفعماً بالقوة والعافية، فالصحة لا تتضح إلاَّ بالمقارنة. قارنت نفسي بغويدو المسكين، وصعدت عالياً بالنصر في نفس المعركة التي أردته قتيلاً. كان كل شيء حولي مفعماً بالصحة، حتى الريف بأعشابه النضرة. فالفيضان الغامر، كارثة اليوم السابق، أعطى تأثيرات إيجابية فقط؛ والشمس المشعة وفّرت الدفء الذي اشتاقت إليه الأرض المتجمدة. وكان مؤكداً أنه كلما ابتعدتُ عن المصيبة صارت السماء الزرقاء صافية حتى وقت الغروب. لكن هذا كان تنبؤاً بالتجربة لم أتذكره؛ ويراودني الآن فقط بينما أكتبه. ولم تمتلأ روحي في تلك اللحظة إلا بنشيد عافيتي وعافية الطبيعة برمّتها... العافية الأبدية!...

أسرعت الخطى، وحمدت الله لأني شعرت بخفة خطوتي المهرولة بينما أهبط التل. وعندما وصلت إلى ممر سان أندريه، تباطأت خطواتي مجدداً عند السهل. لكني شعرت بالخفة دوماً؛ فكان الهواء يحملني.

كنت قد نسيت كلياً أنني آتٍ من جنازة صديقي الحميم، ولي خطى المنتصرين وأنفاسهم. لكن فرحتي بالنصر كانت مهداة لصديقي

المسكين، الذي نزلتُ الحلبة لأجله.

ذهبت إلى المكتب لأنجز الأعمال. وكانت تجري ببطء، لكني لم أفقد ثقتي بنفسي. فكنت سأعود إلى (اللعب بأوراق الشدة) دون أن أرتاب في بلوغ غايتي.

كان عليّ الذهاب إلى منزل آدا أخيراً. فتحت أوغوستا الباب، وسألتني على الفور: - كيف تغيبت عن الجنازة وأنت رجل العائلة الوحيد؟!

وضعت المظلة والقبعة، وقلت لها بتردد إنني سأتحدث بهذا الشأن مع آدا كي لا أكرره. وأكدت لها أنّ أسبابي مقنعة. لم أكن متأكداً منها جداً، فانتابني فجأة وجع خاصرتي ربما من التعب. لا بد أنها ملاحظة أوغوستا.. إذ جعلتني أشك بإمكانية غفران تغيّبي الذي تسبّب بفضيحة ما. كنت أرى أمامي كل المشاركين في المراسم يشردون عن آلامهم ليتساءلوا أين أكون!..

آدا لم تأتِ، وعلمت أنها لم تكن تعرف أني بانتظارها. استقبلتني السيدة مالفنتي التي كلّمتني بعبوس لم أشاهده عليها من قبل. بدأت أعتذر، ولكني كنت بعيداً جداً عن التأكيد الذي جعلني أطير من المقبرة إلى المدينة. تلعثمت. وإضافة إلى قول الحقيقة كمبادرتي الشجاعة في البورصة لحساب غويدو، قصصت أحداثاً أقل صدقاً. فقبل قليل من ساعة الجناز، كان عليّ أن أبعث رسالة مستعجلة إلى باريس لأعطي أمراً ما، ولم يكن وارداً أن أغادر المكتب قبل تسلّم الرد. وكان صحيحاً أني ونيليني كنا قد أبرقنا إلى باريس، ولكن قبل يومين، وقبل يومين أيضاً تسلّمنا الرد. كنت أعي أنّ الحقيقة وحدها لن تكفي لتعذرني، ربما لأني لم أستطع أن أقولها كلها بالحديث عن العملية الهامة التي أنتظرها منذ أيام، أي تنظيم التغيّرات النقدية العالمية وفقاً لرغبتي. لكن

twitter @baghdad_library

حماتي أعذرتني عندما سمعت الرقم الذي رست عليه خسارة غويدو. شكرتني والدموع في عينيها، فكنت الرجل الأفضل في العائلة ثانية، وليس الوحيد.

طلبت مني أن آتي في المساء مع أوغوستا لنعزّي آدا التي لم تكن مستعدة لاستقبال أحد، وستخبرها بكل شيء أثناء ذلك. فانصرفت بكل سرور مع زوجتي. حتى هي لم تشأ أن تبقى عند أختها التي ما إن تخرج من بكاء يائس حتى تدخل في حالة انهيار يجعلها تشرد عن الجالسين. فانتابني أمل ما:

- لم تكن آدا من تنبّه لغيابي إذن!..

اعترفت لي أوغوستا أنها كانت ستخفي عني ذلك، لكنها رأت غضب أختها من غيابي مبالغاً فيه. طلبت آدا منها بعض التوضيحات؛ وعندما قالت إنها لا تعرف شيئاً عني إذ لم ترني بعد حينها، استسلمت من جديد ليأسها صارخة أنّ غويدو كان سينتهي هكذا لأنه مكروه من جميع أفراد العائلة.

وكان على أوغوستا أن تدافع عني بتذكير آدا أني كنت الوحيد الذي حرص على إنقاذه بالطريقة المثلى. ولو سمع أحد كلامي، لما اندفع زوجها لمحاولة الانتحار. لكنها آثرت السكوت متأثرة بحالة آدا، فخافت أن تزيدها سوءاً إن جادلتها. وكانت واثقة بأنّ توضيحات أمها ستقنع أختها بأنها أجحفت بحقي، وكنت واثقاً من ذلك أيضاً. بل تذوقتُ تلك الثقة متخيلاً دهشتها وإعرابها عن الامتنان. فكانت كل حركاتها استثنائية، بسبب بازيدووا!

عدت إلى المكتب حيث علمت أنَّ ارتفاعاً طفيفاً حصل في البورصة قد يؤمل منه تحسناً في صباح اليوم التالي. وبعد العشاء، كان عليّ أن أذهب إلى آدا وحدي لأن زوجتي ستبقى إلى جانب الطفلة.

استقبلتني السيدة مالفنتي التي قالت إنها مشغولة في المطبخ وستتركني وحدي مع ابنتها. ثم اعترفت بأن آدا طلبت منها أن تتركنا لأنها تريد أن تقول لي شيئاً لا يجب أن يسمع به الآخرون. وقالت مبتسمة قبل أن تترك الصالة التي قابلتُ فيها آدا مرتين:

– ليست مستعدة بعد لتغفر غيابك عن الجنازة، ولكن... تقريباً!...

كان قلبي يخفق في تلك الغرفة دوماً، وهذه المرة ليس خشية أن أراني محبوباً ممن لا أحبه. اعترفت أني ارتكبت خطأً فادحاً لتغيّبي عن الجنازة منذ لحظات قليلة، بعد أن سمعت كلمات السيدة. فآدا التي عرفت أنها ستكسب ثروة مقابل غفرانها، لم تكن لتسامحني فوراً. كنت جالساً أنظر إلى صور أسرة المرحوم. يبدو والده العجوز راضياً عما فعلت. أما والدته، التي ترتدي ثوباً بأكمام واسعة وقبّعة متوازنة فوق شعرها الكثيف، كانت ملامحها غاضبة.

حقاً! فأي شخص يبدي مظهراً مختلفاً عن الآخر أمام آلة التصوير. نظرت إلى أشياء أخرى محتقراً نفسي من التنقيب في تلك الوجوه. فلم تكن الوالدة لتتنبأ بأني لن أحضر مراسم دفن نجلها!..

ولكن الطريقة التي حدّثتني بها آدا كانت مؤلمة ومفاجئة. لابدَّ أنَّها حضّرت طويلاً ما أرادت قوله لي، حتى إنها لم تأخذ توضيحاتي بعين الاعتبار ولا حتى اعتراضي أو استدراكي التي لم تكن لتتنبأ به أو تتحضر له. فمشت في طريقها كحصان مسرع حتى النهاية.

دخلت مرتدية ثوب حداد أسود، وكان شعرها أشعث بفعل يد استعدت لشده عندما لم تتمكن من تسريحه. وصلت عند الطاولة التي جلستُ عليها، وأسندت نفسها إليها لتراني جيداً. لقد نحف وجهها من جديد وفقد تلك العافية الفريدة التي كانت تنمو بغير محلّها. لم تكن جميلة كما عندما هامت بغرام غويدو؛ ولكن دائها لم يكن واضحاً إذا

twitter @baghdad_library

ما دقّق أحد فيها. لم يكن موجوداً! بل كان الألم الجائر يستحوذ عليها. وقد أدركتُه جيداً حتى إني لم أستطع التحدث، وما إن نظرت إليها حتى فكرت: «أي كلمات تعادل ضمّها بين ذراعي أخويًا لأواسيها وأحثها على البكاء لتروّح عن نفسها؟!». وعندما شعرت بأنها تعتدي عليّ، رغبت أن أردّ الفعل، لكن ردي كان ضعيفاً حتى إنها لم تسمعه.

تكلمت كثيراً، ولا أستطيع أن أعيد كل ما قالته. استهلّت حديثها بشكري جدياً، إن لم أخطئ، ولكن ليس بحرارة تعادل الفائدة التي ستعود إليها وإلى ولديها. ثم أنّبتني فجأة:

– فعلت ما فعلت ليتبيّن أنه مات من أجل شيء لا يستحق الكثير من العناء!..

ثم أخفضت صوتها كأنها أرادت أن تخبرني بسرّ، وكان في صوتها المنخفض حرارة أكبر نشأت عن محبتها لغويدو، ولي أيضاً كما بدا.

– وأعذرك لأنك لم تحضر جنازته. فلم يكن عليك أن تأتي، وأنا سأغفر لك هذا... حتى هو كان سيعذرك لو كان حياً؛ فما الذي كنت ستفعل في جنازته، أنت الذي لم تحبه يوماً؟!.. كان بوسعك أن تبكي لأجلي، بما أنك طيب لهذه الدرجة، وليس لأجله.. لأنك تكرهه! زينو المسكين!.. أخي!...

شعرت برهبة هذه الكلمات، وبغرابة تزوير الحقائق على هذا النحو. فاعترضتُ، لكنها لم تسمعني. أظنّ أني صرخت أو بذلت جهداً بذلك على الأقل:

– لكن هذا خطأ، كذب، افتراء. كيف يعقل أن تصدّقي شيئاً كهذا؟..

ثم تابعت كلامها بصوتها المنخفض:

– حتى أنا لم أستطع أن أحبه. لم أخنه حتى بأفكاري، لكني

شعرت أنني لا أملك القوة لأنقذه. كنت أشاهد علاقتك بزوجتك عن كثب وأحسدها عليك. كانت تبدو أفضل من علاقتي به. أشكرك لأنك لم تأتِ إلى الجنازة لأني لم أكن سأفهم شيئاً. أما هكذا، أرى وأفهم كل شيء. حتى أنا لم أحبه؛ وإلاَّ كيف كنت سأكره كمنجته أيضاً، ذلك التعبير الكامل عن شخصيته العظيمة؟..

وضعتُ يديّ على رأسي حينها وأخفيت وجهي. كان اتهامها ظالماً لدرجة أنني لم أستطع أن أناقشها. خفّف صوتها الدافئ من كمية العبث، حتى ردّ فعلي لم يكن قاسياً كما ينبغي لأخرج منتصراً. وقد أعطتني أوغوستا في السابق مثالاً عن الصمت الحذر كي لا أزيد الأمر سوءاً وأتسبب بمزيد من الألم. وعندما أغمضت عيني، رأيت في الظلام أنّ كلماتها اخترعت عالماً جديداً مثل أية كلمات كاذبة. بدا لي أني فهمت كرهي الدائم له، وأني كنت أرافقه باهتمام منتظراً فرصة سانحة لأجهز عليه. ثم إنها وضعته مع الكمنجة بالخانة نفسها. لو لم أكن أعرف أنّ الألم والندم يتقاذفانها، لظننت أنّ الكمنجة سيفه البتّار لأقنع نفسي بتهمة حقده. وفي الظلام رأيت جثته أيضاً، وقد طُبعت الدهشة على وجهه لكونه ميتاً هناك. فرفعتُ رأسي خائفاً. فضّلت أن أواجه اتهاماتها الجائرة على أن أواصل النظر في الظلام. لكنها ماتزال تتحدث عني وعنه:

- وأنت أيها المسكين.. كنت بقربه دائماً مع أنك تكرهه، دون أن تعلم بذلك. أردت له الخير لأنك تحبني. لا يعقل هذا! لابدَّ أن ينتهي هكذا! ظننتُ أنه بوسعي أن أستغل حبك لأزوّده بالحماية كي يستفيد. لم يكن محمياً إلاَّ ممن يحبه، ولم يكن يحبه أحد بيننا.
- ما الذي كنت سأفعل لأجله أكثر من ذلك؟!.. - سألتُها ذارفاً

twitter @baghdad_library

دموعاً حارة لأشعر بالبراءة وأشعرها بها. فالدموع تحلّ محل الصراخ أحياناً، ولم أشأ أن أصرخ وكنت أشك في حقي في الحديث أيضاً. كان عليَّ أن أتغلب على تأكيداتها فبكيت.

– كان عليك أن تنقذه يا أخي العزيز! أنت أو أنا، كان علينا أن ننقذه. لكني كنت بجانبه ولم أستطع فعل ذلك لأني لم أكن أحبه كفاية. وأنت بقيت بعيداً، غائباً حتى دفن. ثم ظهرت مدججاً وواثقاً بكل عطفك. لكنك لم تعط شيئاً قبل ذلك، رغم أنه كان معك حتى المساء. ولو كنت قلقاً عليه، لكان بوسعك أن تتنبأ بحدوث الكارثة.

منعتني دموعي من الكلام، لكني قلت شيئاً ما وطّد الأمر؛ أنَّ غويدو قضى الليلة الماضية في الصيد واللهو، لذا لم يكن بوسع أحد في العالم أن يتنبأ بما سيفعله بنفسه في الليلة التالية.

– كان بحاجة إلى الصيد! – صرخت بأعلى صوتها في وجهي، ثم وقعت على الأرض فجأة فاقدة لوعيها كأنها أجهدت نفسها في سبيل الصراخ. أذكر أني ترددت في نداء حماتي للحظة، بدا لي أنّ الإغماء يثبت شيئاً مما قالته. هرعت السيدة وألبيرتا. سألتني حماتي وهي تساعد آدا:

– هل حدّثتك بشأن العمليات الناجحة في البورصة؟.. إنه الإغماء الثاني اليوم!

طلبت مني أن أخرج، فذهبتُ إلى الممرّ حيث انتظرتُ لأعرف إن كان عليَّ البقاء أم الانصراف. كنت أحضر نفسي لتوضيحات أخرى. ونسيت أن أقول إنهم كانوا سيتجنبون وقوع المصيبة بالتأكيد لو طبّقوا اقتراحي. كان يكفي أن أقول ذلك لأقنعها بالجور الذي أوقعته عليّ.

وبعد قليل عادت حماتي، وأخبرتني أنّ آدا استعادت وعيها وأنها

تريد أن تودّعني. كانت مستلقية على الديوان الذي كنت أجلس عليه. وعندما رأتني، أخذت تبكي، وكانت الدموع الأولى التي رأيتها تذرفها. مدّت يدها الرقيقة الرطبة:

– وداعاً يا زينو العزيز!.. أرجوك أن تتذكر! تذكر دائماً! لا تنس ما قلته أبداً!

فتدخّلت حماتي لتعرف ما الذي عليّ أن أتذكره. قلت لها إنّ آدا ترغب بأن أوقف عمليات غويدو في البورصة. فخجلت من كذبتي وخشيت أن تكذّبني آدا. إلاّ أنها هتفت: – أجل! أجل! لا بد أن يتوقف كل شيء! لم أعد أريد سماع أي شيء عن تلك البورصة الملعونة!..

شحب وجهها مجدداً، وأكدت أمها لتطمئنها أنّ كل شيء سيجري بسرعة كما ترغب. ثم رافقتني السيدة إلى الباب، وطلبت مني أن لا أستعجل كثيراً، فبذلك أحسن صنعاً في مصلحة غويدو! لكني أجبت أني لم أعد أثق بذلك، فالخطر كان كبيراً ولم أعد أجرأ على التصرف بمصالح الآخرين. لم أعد أثق بالقمار في البورصة أو كانت تنقصني الثقة لأضمن لعباً منتظماً. لذا عليّ أن أوقف كل شيء فوراً، راضياً بما جرت عليه الأمور. ولم أكرر كلمات آدا على مسامع أوغوستا. لـمَ كان عليّ أن أزعجها؟!.. ولكن تلك الكلمات ظلّت تثقب أذني، لأني لم أقلها لأحد، ورافقتني لسنين طويلة. كانت ترن في ضميري، وأحللها كثيراً حتى اليوم. لا يمكنني القول إنني أحببت غويدو، لكنه كان شخصاً غريب الأطوار. وبقيت بقربه كأخ، وساعدته حسب طاقتي، ولم أكن أستحق ملامة آدا. لم نلتق بمفردنا أبداً بعد ذلك اليوم. فلم تشعر بضرورة أن تقول لي شيئاً آخر ولم أجرؤ على التفوّه بتوضيحات أخرى، كي لا أذكّرها بآلامها.

وفي البورصة انتهى كل شيء كما توقعت. وسُرّ والد غويدو بالتأكيد

twitter @baghdad_library

لأنه استرجع نصف ثروته؛ بعد أن علم، برسالة سابقة، أنه خسر كل أملاكه. ولم أستمتع بما فعلت كما كنت أنتظر. تصرفت آدا معي بأخوية حتى انطلاقها إلى بوينوس آيريس حيث ستعيش مع ولديها بجانب عائلة زوجها. وكانت سعيدة لوجودها بيني وبين أوغوستا، وتخيلتُ أنّ حديثها الأخير ناتج عن انفجار آلامها بشكل جنوني وأنها لا تذكره أيضاً. لكنها تحدثت ذات مرة عن غويدو بحضورنا، فأكدت ما قالته لي في ذلك اليوم بجملة وجيزة: - لم يكن أحد يحبه، مسكين!...

قبّلتني في لحظة انطلاقها بينما كان أحد أولادها يتعبها بين ذراعيها. ثم قالت لي عندما لم يعد أحد بجانبنا:

- وداعاً زينو، يا أخي العزيز. سأذكر دوماً أنك لم تكن تحبه كفاية، عليك أن تعرف ذلك! سأترك بلادي بكل سرور؛ أشعر أني أبتعد عن الندم والحسرة.

فعاتبتها على قولها، وقلت إنها كانت زوجة صالحة وكنت أعرف ذلك، وباستطاعتي أن أشهد. لا أعرف إن نجحتُ في إقناعها إذ لم تتكلم بعد أن نالت العبرات منها. وبعد وقت طويل شعرتُ أنها كانت تريد أن توبّخني من جديد في لحظة الوداع؛ لكني أعلم أنها أساءت في حكمها طبعاً. ولم أكن أحتاج لأؤنب نفسي على عدم حبي لغويدو.

كان النهار مضطرباً ومظلماً بفعل غيمة واحدة تتلبّد في السماء. ويحاول قارب كبير أن يخرج من الميناء، وترفرف أشرعته كالأشجار. ولم يكن هناك سوى رجلين يجدّفان، بضربات لا متناهية، ليحرّكا السفينة الضخمة بصعوبة؛ ربما سيجدان في عرض البحر هواء عليلاً. لوّحت آدا بمنديلها من على ظهر السفينة ثم استدارت لتنظر نحو سان أندريه بالطبع، حيث يرقد غويدو. كان مظهرها الأنيق يتكامل كلما ابتعدت. اغرورقت عيناي بالدموع؛ فهاهي تغادرنا ولم يعد بوسعي أن أثبت لها براءتي.

8. تحليل نفسي

3 أيار 1915

أنهيت العلاج بالتحليل النفسي. وبعد ستة أشهر من المواظبة عليه أشعر أني أسوأ من قبل. لم أترك الدكتور س. بعد، لكن قراري سيكون باتاً. أرسلت إليه البارحة قائلاً إنني انشغلت قليلاً؛ وسأتركه ينتظرني لبضعة أيام. ولو كنت متأكداً أنني سأسخر منه دون أن يزعجني ذلك لقابلته ثانية؛ لكنني أخشى أن أضطر لخنقه بيديّ.

أصاب بالملل في هذه المدينة، بعد اندلاع الحرب، أكثر مما مضى؛ فأجلس أمام أوراقي العزيزة لأستعيض عن التحليل النفسي. لم أكتب كلمة واحدة منذ عام، مطيعاً أوامر الدكتور بهذا، كما في الباقي؛ إذ يصرّ على وجوب أن أستحضر ذاكرتي بوجوده فقط، وإن قمت بذلك دون مراقبته لتداعت عقبات كثيرة ستعرقل صراحتي واسترسالي. ولكني الآن أجد نفسي مريضاً وفاقد التوازن أكثر من أي وقت مضى؛ وأعتقد أنني، بالكتابة، سأتمكن من الشفاء بسهولة من المرض الذي سبّبه العلاج. إنني متأكد على الأقل من قدرة هذه الطريقة على منح أهمية لماض لم يعد يؤلمني، وعلى دفع هذا الحاضر المملّ بسرعة أكبر.

وكنت واثقاً جداً من الدكتور حتى صدّقته عندما قال إنني شفيت، بدل أن أصدّق آلامي التي ما زلت أعيشها. كنت أقول لها: (أهذه أنت؟!).. ولم يعد من شك الآن! إنها هي حقاً! وعظامي تحولت إلى

twitter @baghdad_library

حسك أسماك راجفة تخدش اللحم. ولا يهمني هذا كثيراً، وليس هو السبب الذي يدفعني لترك العلاج. لو ظلّ الاستحضار عند الدكتور يحمل الكثير من المفاجآت والمشاعر المهمة لما توقفت عنه؛ أو كنت سأنتظر أن تضع الحرب أوزارها لأترك العلاج، لأنها أعاقتني عن أي نشاط آخر. لكني كنت أعرف كل شيء حينئذٍ؛ أي أنني لم أكن بصدد شيء آخر سوى وهم غبي واحتيال بارع لأثير مشاعر سيدة عجوز تنتابها الهستيريا. فكيف سأستطيع تحمّل صحبة ذلك الرجل المضحك، بعينيه المتحريتين وعدائيته التي تسمح له بجمع كل الظواهر في العالم ليدعم نظريته العظيمة والحديثة؟.. سأوظّف وقت الفراغ للكتابة. سأكتب قصتي مع العلاج بصدق، ما دام أنّ المصداقية تلاشت بيني وبين الدكتور. فأتنفس الصعداء إذ لن يفرض عليّ الإرهاق. وليس عليّ أن أجبر نفسي على إيمان معيّن كما لست مضطراً لأتظاهر بالإيمان. ظننت أنه ينبغي إظهار فائق الاحترام، لأخفي أفكاري الحقيقية جيداً؛ لكنه انتهز هذه الفرصة ليبدع أموراً جديدة كل يوم. وكان لا بد للعلاج أن ينتهي لأنه اكتشف أصل المرض، ولم يكن سوى ذاك التشخيص المناسب للمرحوم سوفوكليس على أوديب المسكين: كنت أحبّ والدتي وأردت اغتيال والدي!..

لم يغضبني ذلك! كنت أسمع بافتتان. كان مرضاً يرفعني إلى أعلى مستويات النبل. كم هو مهم هذا المرض فعلاً! فكان يشبّه العظماء بالحقبة الميثولوجية! ولست غاضباً الآن والقلم بيدي فقط، بل أضحك من كل قلبي. والبرهان الدامغ لعدم إصابتي بهذا المرض هو أنني لم أشفَ منه، وقد يقتنع الدكتور بذلك. فلينعم بالسلام، لأنّ كلماته لم تتمكن من إفساد ذكرياتي. إني أغمض عيني فأرى حبي الطفولي البريء الطاهر لأمي، واحترامي ومودتي لأبي.

يعير الدكتور ثقة كبيرة أيضاً لهذه الاعترافات المباركة حتى إنه لا يريد أن يعيدها إليَّ قبل أن يقرأها من جديد. يا إلهي! إنه لم يدرس إلاَّ الطب، لذا يجهل ما الذي تعنيه الكتابة باللغة الفصحى بالنسبة لنا نحن الذين نتكلم لهجتنا ولا نعرف الكتابة بها. فالاعتراف باللغة المكتوبة هو كاذب دائماً. نحن نكذّب بكل كلمة فصيحة![1] آه لو كان يعرف كيف نتحدث بسرور عن كل الأمور التي نجد لها جملاً جاهزة؛ وكيف نتجنب تلك التي تجبرنا أن نبحث لها عن حلّ في القاموس! فهكذا نختار الأحداث من حياتنا لنلاحظها. ومن الواضح أنّ مظهر حياتنا سيكون مختلفاً كلياً لو كتبنا عنه بلهجتنا.

اعترف لي الدكتور أنه، على طول خبرته، لم يشرف على مشاعر قوية كمشاعري؛ إذ تجعلني أصادف الصور التي ظنّ أنه استطاع توفيرها لي. لذا كان مستعداً لإعلان شفائي دائماً.

ولم أصطنع تلك المشاعر، بل كانت أكثرها عمقاً في حياتي كلها. فاخترعتُ الصور بعرقي، وعشتُها بدموعي. كنت أعبد الأمل في أن أعيش مجدداً، ولو ليوم واحد، براءتي الخالصة. وأنعشني هذا الأمل لأشهر عديدة. ألم أكن، بالذكرى الحيّة، كأني حصلت على أزهار أيار في عزّ الشتاء؟ أكد الدكتور نفسه أنّ الذكرى ستكون مشعة وكاملة، وستزيد حياتي بيوم. وسيكون للأزهار رحيقها، وربما شوكها أيضاً.

فبلغتُ تلك الصور بفضل الجري وراءها. وأعرف الآن أني ابتدعتها،

(1) يشير الكاتب إيتالو سفيفو إلى عجز اللغة الفصيحة في التعبير عن كل ما تفيض به النفس البشرية من أحاسيس راودتها وأحداث عاشتها. الأمر الذي كرّس له مقالات عديدة جعلت منه ناقداً لغوياً إضافة إلى كونه أديباً. ويستند سفيفو إلى التجربة اللغوية الإيطالية التي اتخذت لهجة توسكانا المحلية كلغة فصحى ووطنية، ثم يعمم الإشكالية على باقي اللغات الإنسانية. المترجم.

twitter @baghdad_library

لكن الإبداع هو حالة خلق وليس اصطناعاً للأكاذيب بالتأكيد. فكانت إبداعاتي تشبه الهلوسات التي ترافق ارتفاع الحرارة: أسير في الغرفة لكي أراها من كل الجوانب ولكي ألمسها أيضاً. وكانت الهلوسات لها صلابة الأشياء الحية ولونها ووقاحتها. وبفضل الشهوة عرضتُ الصور التي لم تكن إلاَّ في عقلي وفي الفراغ الذي شاهدتها فيه؛ ذلك الفراغ الذي شعرت فيه بالهواء والضوء والزوايا الجارحة التي لم تغب عن أي فراغ مررتُ فيه.

عندما وصلتُ إلى الهمود الذي يسهّل عليّ التوهّم، والذي يبدو لي كربط بين الجهد والكسل العظيمين بالضبط؛ ظننت أنّ تلك الصور كانت كإعادة إنتاج حقيقية لأيامي البعيدة. وكان بوسعي أن أشكّ في كونها كذلك على الفور لأنها، ما إن تختفي، حتى أتذكرها دون أي ارتباك أو تأثر. كنت أتذكرها كما يُذكر الأمرَ المحكي من قِبل من لم يحضر حدوثه. ولو كانت إعادة إنتاج حقيقية لما توقفتُ عن السخرية منها والبكاء عليها كما عندما عشتها. والدكتور يسجّل، ويقول: «وجدنا هذا، وعثرنا على ذاك» وفي الحقيقة لم يعد لدينا سوى كلمات تبرز كأنها هياكل عظمية لتلك الصور.

ظننت أني بصدد استحضار طفولتي لأنّ أولى الصور وضعتني في حقبة قديمة نسبياً، حافظت على ذكرى شاحبة منها في السابق كأنها تثبت ذلك. فكان هنالك عام في حياتي كنت أذهب فيه إلى المدرسة، أما أخي فليس بعد. ويبدو أنّ الزمن الذي تذكرته يعود إلى ذلك العام. رأيت نفسي أخرج من منزلي في صبيحة يوم ربيعي مشرق، وأمرّ في حديقتنا لأنزل إلى المدينة، وخادمتنا القديمة، كاتينا، تمسك بيدي. ولم يظهر أخي في الصورة التي حلمت بها، لكنه كان بطل المشهد. كنت أفكر فيه وهو في البيت حرٌ سعيدٌ، بينما كنت مجبراً على الذهاب إلى المدرسة. كنت

أذهب بشهقات في حلقي وبخطى محجمة وحقد حادّ في قلبي. ولم أر سوى واحدة من تلك المسيرات نحو المدرسة، وكان حقدي يقول لي إنني كنت أذهب يومياً إلى المدرسة، ويبقى أخي يومياً في المنزل إلى مالا نهاية. لكن أخي في الحقيقة بات يتردد إلى المدرسة بعد وقت قصير. إلا أنّ واقع الحلم حينئذ بدا غير قابل للنقاش، فكنت مداناً بالذهاب دائماً إلى المدرسة بينما كان لأخي أن يبقى في المنزل طوال اليوم. وبينما كنت أمشي بالقرب من كاتينا، كنت أعدّ مدة التعذيب: حتى منتصف النهار! بينما هو في المنزل أثناء ذلك! وأذكر أيضاً أنني في الأيام اللاحقة أهملت واجباتي المدرسية فهددتني المعلّمة وتوعدتني، وفكرت حينها أنه لا يخضع لذلك أيضاً. كانت رؤية واضحة جداً. فكاتينا التي عرفتها صغيرة، بدت لي كبيرة، لأني كنت صغيراً جداً بالطبع. وكانت تبدو لي عجوزاً حينئذٍ أيضاً، ولكن من المعلوم أنّ الأطفال يرون الكبار عجزّاً دوماً. ولم أنتبه، على الشارع الذي كنت أمرّ فيه للذهاب إلى المدرسة، للأعمدة الصغيرة التي تسوّر أرصفة المدينة آنئذ. وصحيح أنني ولدت باكراً كفاية لأرى تلك الأعمدة وأنا يافع، لكنها لم تعد موجودة في الشارع الذي مشيت فيه يومها مع كاتينا، ما إن بلغت.

وصدّقتُ أصالة تلك الصور حتى عندما اكتشفتْ ذاكرتي القوية باكراً، بتشجيع من ذاك الحلم، تفاصيل أخرى لتلك الحقبة؛ أهمّها أنّ أخي كان يحسدني أيضاً لذهابي إلى المدرسة. وكنت متأكداً من انتباهي لهذا، لكن ليس في حينه ليكون كافياً على تأكيد حقيقة الحلم؛ فانتُزعت منه كل مظاهر الحقيقة فيما بعد. فالغيرة كانت موجودة في الواقع، لكنها غيّرت مكانها في الحلم.

وحملتني الرؤية الثانية لحقبة قديمة أيضاً سابقة لتلك الأولى: غرفة في منزلي لا أعرف أيّها، لأنها كانت أوسع من أية غرفة أخرى في الواقع.

twitter @baghdad_library

وغريب أنني أغلقت على نفسي فيها، واكتشفت تفصيلاً لم يكن لينتج عن الرؤية البسيطة. فالغرفة كانت بعيدة عن المكان الذي تجلس فيه أمي وكاتينا حينها. ولم أكن دخلت المدرسة بعد.

كانت الغرفة كلها بيضاء، بل لم أر أبداً غرفة بيضاء أو منارة بالشمس كلياً على ذلك الشكل. أكانت الشمس في تلك الأيام تخترق الجدران؟! كانت مرتفعة بلا شك، ورغم ذلك وجدت نفسي على السرير وبيدي فنجان شربت كل ما يحتويه من حليب وقهوة، ومازلت أحرّك الملعقة لأستخرج السكّر. لم تعد الملعقة قادرة على استخراج المزيد، فحاولت أن أصل بلساني إلى عمق الفنجان، لكني لم أنجح بذلك. فأمسكت الفنجان بيد والملعقة بالأخرى، وأخذت أنظر إلى أخي النائم على سريره بجانبي كأنه كان يتجرع قهوته من الفنجان بأنفه. وعندما رفع وجهه رأيته كيف يجلس عكس اتجاه الشمس التي تضربه بالكامل، بينما كان وجهي في الظل؛ ومن يدري لماذا. كان وجهه شاحباً وقبيحاً بسبب بروز فكيّه. قال لي:

– هلاّ أعرتني ملعقتك؟!..

انتبهت للتو أنّ الخادمة نسيت أن تجلب له الملعقة. فأجبته فوراً ودون تردد:

– أجل! سأعطيك إياها إن بادلتني بالقليل من السكّر..

رفعت الملعقة عالياً لأجعله يتشوق إليها. لكن صوت كاتينا رن في الغرفة فوراً: (اخجل من نفسك أيها المرابي!).

أرجعني الفزع والخجل إلى الحاضر. وددت أن أناقشها، ولكنها اختفت في العدم بصحبة الولد وأخيه الذي كان صغيراً بريئاً ومرابياً حينئذ.

ندمت لأني خجلت كثيراً حتى أتلفت الصورة التي وصلت إليها

بعناء كبير. وكان عليّ أن أعطيه الملعقة بلطف ومجاناً، دون أن أناقش فعلتي المشينة التي كانت أولى ما اقترفت من ذنوب على الأرجح. كانت ستطلب مساعدة أمي لتعاقبني، وكنت سأراها مجدداً.

لكني رأيتها بعد بضعة أيام أو ظننت أني رأيتها مجدداً. وكان بوسعي أن أفهم حالاً أنه كان وهماً لأنّ صورة والدتي، كما تذكرتها، كانت تشبه كثيراً صورتها التي أضعها عند سريري الآن، وأعترف أنها تجلّت كشخص حي.

كانت الشمس ساطعة حتى الغشاوة! وصلني شعاع الشمس من تلك الحقبة التي ظننتها طفولتي ومن الصعب نكرانها.. مقصورة الخدم عند الظهيرة.. كان أبي عائداً إلى البيت؛ جلس على الصوفا بالقرب من أمي التي تكتب أحرفاً بحبر لا يمكن إزالته على أقمشة كثيرة موزّعة على الطاولة. وكنت موجوداً تحتها حيث ألعب بكرة صغيرة، وأقترب من أمي أكثر فأكثر. ورغبتُ في أن تشاركني اللعب. وفي لحظة معينة، شددتُ على قطعة القماش المتدلّية من الطاولة لأقف على قدمي بينهما، فحدثت حينها الكارثة.. زجاجة الحبر تقع على رأسي.. اتّسخ وجهي وثيابي وتنورة أمي.. وتلوّث بنطال والدي قليلاً.. يرفع والدي ساقه ليركلني برجله...

ولكني عدت في الوقت المناسب من رحلتي الطويلة لأجد نفسي آمناً هنا، راشداً وعجوزاً. عليّ أن أقول ذلك! تألمتُ من العقوبة المخيفة للحظة، وسرعان ما تألمت لأني لم أحضر دفاع أمي عني دون شك. ومن بوسعه أن يوقف تلك الصور عندما تجري عبر الزمن الذي يشبه الفراغ كثيراً؟ كان هذا هو مفهومي حتى آمنت بأصالة تلك الصور! لم أعد أؤمن بها الآن مع الأسف (آه كم يحزنني هذا!) وأعرف أنّ الصور لم تمض بعيداً، إنما عيناي الضعيفتان اللتان نظرتا مجدداً في الفراغ

twitter @baghdad_library

الحقيقي الذي لا يتسع للأشباح.

سأروي صوراً ليوم آخر نسب إليها الدكتور أهمية جعلته يصرح أنني شفيت.

في عمق النوم الذي غططت فيه، حلمت ما يشبه الكابوس. حلمت بنفسي وقد أصبحت طفلاً من جديد لمجرد أن أرى كيف كان ذاك الطفل يحلم أيضاً. كان يرقد صامتاً في فخ السعادة التي اجتاحت جسده الصغير. بدا له أنه بلغ رغبته القديمة أخيراً مع أنه يرقد هناك وحيداً ومعزولاً! لكنه كان يرى ويسمع بوضوح كما نرى الأشياء البعيدة في المنام ونسمع أصواتها أيضاً. كان الطفل نائماً في إحدى غرف منزلي، وكان يرى، بطريقة ما، على السقف، قفصاً مسوّراً بقواعد ثابتة، ليس له أبواب ولا نوافذ، لكنه مضاء بما يبعث السعادة وأجواؤه صافية ومعطّرة. عرف الطفل أنه الوحيد القادر على بلوغ ذلك القفص، ودون أن يصعد، بل ربما هبط القفص عنده. في ذلك القفص لا وجود إلاَّ لأريكة واحدة تجلس عليها فتاة حسناء رشيقة القوام، ترتدي الأسود، شقراء وعيناها كبيرتان زرقاوتان ويداها بيضاوتان؛ وفي قدميها الصغيرتين حذاء مطليّ يبرق تحت تنورتها. عليّ القول إنها بدت شيئاً واحداً بثوبها الأسود وحذائها الأنيق. بل كانت كل شيء! وكان الطفل يحلم أن ينالها، لكن بطريقة غريبة: فكان متأكداً أنه سيأكل منها قطعاً من رأسها ومن أسفلها.

وحينما أفكر بذلك الآن، أذهل من أنّ الدكتور، الذي قرأ كتاباتي بانتباه شديد، على حدّ زعمه، لا يذكر الحلم الذي حلمتُ به قبل أن أذهب لأنال كارلا. وعندما فكرتُ ثانية بالأمر بعد وقت قصير، لم يبد لي هذا الحلم إلاَّ امتداداً للآخر، بتعديلات طفيفة ليصبح طفولياً أكثر. لكنّ الدكتور سجّل كل شيء بعناية، ثم سألني بقليل من الغباء:

- أكانت والدتك شقراء ورشيقة القوام؟..

ذهلت من السؤال، وأجبت أنَّ جدتي كانت هكذا أيضاً. لكني شفيت نهائياً بالنسبة له. ففتحت فمي لأفرح معه وجهّزت نفسي للقادم، فما من تحقيقات وأبحاث وتأملات بعد اليوم؛ إنما إعادة تربية على أسس منهجية ودؤوبة.

وأصبحت الجلسات كتعذيب حقيقي منذئذ، وواصلتها لأني كنت أستصعب أن أتوقف عندما أتحرك أو أن أتحرك عندما أكون واقفاً. وعندما كان يوجه إليَّ كلاماً ثقيلاً في بعض الأحيان، كنت أخاطر باعتراض ما. ولم يكن صحيحاً أبداً - كما ظن - أنَّ كلماتي وأفكاري تعود لمنحرف أخرق، وكان يحملق بعينيه حينها. فكنت قد شفيت ولم أرغب بملاحظة هذا؛ لأني أعمى بالفعل. كيف لا أشعر بالشفاء بعد أن علمتُ برغبتي في خطف زوجة أبي، أي أمي؟! إنّ عنادي لا مثيل له. لكنه تقبّل أني سأشفى أكثر حالما ينتهي من إعادة تربيتي؛ فسوف أعتاد على اعتبار تلك الأشياء بريئة (أي رغبة قتل والدي ومضاجعة والدتي) ولا ينبغي أن أندم عليها؛ لأنّ هذا يحدث دائماً وفي أفضل العائلات. وما الذي كنت سأخسره؟ قال في يوم ما إنني بتّ كإنسان سليم لم يعتد على العيش دون ارتفاع حرارته. كنت سأنتظر أن أعتاد على ذلك إذن.

كان يشعر أني لم أكن ملكه بعد، فيستأنف العلاج، من حين لآخر، إضافة إلى إعادة التربية. فحاول مع الأحلام مجدداً، لكننا لم نعد نعثر على أحلام أصيلة. وبعد أن أرهقني الانتظار، ابتدعتُ له واحداً. ولم أكن لأفعل ذلك لو كنت على دراية بصعوبة اصطناع شيء كهذا. فليس سهلاً أن أتلعثم كأنني في أوج الحلم، شاحباً أتصبب عرقاً، دون أن أفضح نفسي، وبإمكانية أن يتضرّج وجهي من الجهد وليس من الخجل. تحدثتُ كما لو عدت إلى تلك المرأة في القفص، وجعلتها تعطيني قدمها لألعقها من ثقب فُتح فجأة في حائط الغرفة. «القدم اليسرى، أرجوك!»

twitter @baghdad_library

- غمغمتُ واضعاً في الرؤية تفصيلاً فريداً يجعلها تشبه الأحلام السابقة أكثر. فبدوت هكذا أنني فهمت المرض الذي رآه الطبيب فيَّ بشكل تام. إذ كان أوديب الطفل كذلك: يلعق قدم والدته اليسرى ليترك اليمنى لأبيه. وفي الجهد الذي بذلته في التخيّل بشكل واقعي (وليس هذا إلاَّ تناقضاً) خدعت نفسي أيضاً بتذوق طعم تلك القدم. فكدت أن أتقيأ.

وشاركته الرغبة في العثور على تلك الصور العزيزة من أيام المراهقة، سواء أكانت أصيلة أم لا، ولم أكن بحاجة لتأليفها أيضاً. حاولت أن أتذكرها بعيداً عنه، نظراً لكونها تغيب عني عندما يكون بجانبي. وكنت سأجازف بنسيانها إذا كنت وحيداً، لكني لم أعد بحاجة إلى العلاج كما يقول! كنت ما أزال أريد أزهار أيار في شهر كانون؛ وقد ملكتها في السابق، فلمَ لم أتمكن من امتلاكها مجدداً؟..

كنت أملّ بما فيه الكفاية في عزلتي، لكن شيئاً آخر حلّ مكان الصور لبعض الوقت فيما بعد. إذ ظننت ببساطة أني قمت باكتشاف علميّ في غاية الأهمية. وخلتني مدعواً لإتمام نظرية الألوان الفيزيائية. فلم يتخيل أسلافي، غوته وشوبنهاور، النتائج الهامة إن استخدما أيديهما في الألوان الإضافية ببراعة.

لابدَّ أن يكون معلوماً أنني قضيت الوقت مستلق على الصوفا مواجه نافذة المكتب حيث أرى قطعة من البحر والأفق. وفي مساء من غروب ملون في السماء متقطعة الغيوم، أعجبتُ طويلاً بلون أخضر نضر رائع فوق أحد القوارب المضيئة. وكان اللون الأحمر في السماء غامقاً، تخفف أشعة الشمس المباشرة من شحوبه. لقد أبهرت بذلك المنظر؛ وأغمضت عيني بعد قليل ورأيت أنّ انتباهي ومحبتي تتوجهان إلى اللون الأخضر، لأن لونه الإضافي تولّد في شبكية العين كأحمر متفكك، لا يشبه الحمرة المشعة والداكنة في السماء. نظرت إلى اللون الذي اصطنعته، وداعبته.

وكانـت المفاجـأة الكبـرى عندمـا فتحت عينـي ثانية، فرأيت ذاك الأحمر الملتهـب يجتـاح السـماء ليغطـي الأخضـر الزمردي الـذي لم أره لوقت طويل بعدئذ. لكني اكتشفت طريقة تلوين الطبيعة!.. كررت التجربة مراراً بالطبـع. والجميـل أنّ حركـة مـا كانـت موجودة في ذلك التلوين. فعندما فتحت عيني، لـم تقبل السـماء باللون الذي اسـتوطن في شـبكية عينيّ، بل كانت هناك لحظة ارتباك وصلتُ فيها لأرى الأخضر الزمردي الذي أنجب ذاك اللون الأحمر والذي أجهز عليه بدوره؛ إذ ينشـأ في العمق ليمتد مباغتاً كحريق هائل.

عندما تأكدت من دقة ملاحظتي، حملتها إلى الدكتور آملاً أن تنعش جلساتنا المملة. فأثبت قائلاً إنّ شبكية العين تكون حساسة جداً بسبب النيكوتين. فكدت أن أزلّ بلساني وأقول إنّ الصور، تلك التي وصفناها كإعادة إنتاج لأحداث وقعت في أيام الشباب، قد تكون من تأثير ذلك السم نفسه أيضاً. لكني، بهذه الطريقة، كنت سأكشف له عن عدم شفائي؛ مما يقتضي أن نعود بالعلاج إلى الصفر.

ولـم يصدّق الغبي أني كنت مصاباً بذاك السم. وهذا مؤكد في إعادة التربية التي جرّبها ليشفيني من علّة التدخين كما يسمّيها. قال إنّ التدخين لـم يكن يتسبب لي بالأذى، وعندما سأقتنع بعدم مضرّته سيصبح هكذا حقاً. وأردف أنه سلّط الضوء على علاقتي بوالدي ممثلة بأحكامي عندما كنـت يافعـاً؛ لـذا يتبيـن أنني باشـرت تلك العادة السيئة لأنافس والدي، وأني أصنف التبغ بين السـموم لشـعور أخلاقي عميق أردت أن أعاقب نفسي به لجرأتي على منافسته.

في ذلك اليوم خرجتُ من العيادة أدخن بشراهة الأتراك. كنا بصدد القيـام بتجربـة واسـتجبت لهـا بسـرور. فدخّنت طيلة اليـوم دون انقطاع، وتبـع ذلـك أرق ليلـي. وعـاد الالتهـاب المزمـن ولـم يكن من شـكّ به،

twitter @baghdad_library

لأني اكتشف تداعياته عن طريق البصاق.

وفي اليوم التالي رويت للدكتور أني دخنت كثيراً ولا أهتم بذلك. فنظر إليَّ مبتسماً وتوقعتُ أن يمتلئ صدره بالفخر. استعاد تربيتي ثانية، وبهدوء!.. كان يمضي بثقة، كأنه اعتاد أن يرى التراب يثمر إذا داسه بقدميه.

وأذكر القليل من تلك التربية. خضعتُ لها، وعندما أخرج من تلك العيادة أهتزَّ مثل كلب يخرج من الماء. فكنت أشعر بالرطوبة دون أن أبتلّ.

ولكني أذكر باحتقار كيف أكد هذا المربّي أنَّ الطبيب كوبروسيش كان على حقّ عندما وجّه إليَّ كلاماً سبّب لي الحزن. هل كنت أستحق صفعة والدي وهو يحتضر؟!.. لا أذكر أنه قال ذلك. لكني أذكر تأكيده بأني كنت أكره السيد مالفنتي أيضاً، الذي وضعته بمكانة والدي. فيعتقد الكثيرون في هذا العالم أنهم لا يستطيعون العيش دون حب ما؛ أما أنا أفقد توازني، برأيه، ما إن أحتاج لكره ما. ولم يعر أهمية لزواجي بإحدى بناته، إذ قمت بهذا لأضعه بمتناول الحقد. ثم أفسدت ذلك البيت ما استطعت، الذي اعتبرته مثل بيتي. فخنت زوجتي ومن الواضح أني كنت سأغوي آدا وألبيرتا أيضاً. لا أنفي ذلك بالطبع، بل يضحكني الدكتور حينما يتحدث بالأمر، لأنه يشبه كريستوفر كولومبوس عندما وصل إلى أمريكا. لكني أعتقد أنه الوحيد في هذا العالم الذي سيسأل نفسه إذا رآني أذهب إلى السرير مع امرأتين جميلتين: (فلنر لمَ يريد هذا الذهاب إلى السرير مع كلتيهما!).

وكان صعباً أن أتحمل ما يظنه عن علاقتي بغويدو. لقد علم بنقمتي الأولى في بداية العلاقة من روايتي نفسها؛ ولم تتلاش هذه النقمة أبداً بالنسبة له، وكانت آدا على حق عندما رأت غيابي عن جنازته كنقمة

أخيرة. لم يذكر أنني كنت مصراً على إنقاذ ثروتها بدافع الحب، ولم أخجل من تذكيره بذلك.

يبدو أنَّ الدكتور، بمناسبة الحديث عن غويدو، قام ببعض التحقيقات. فهو يؤكد أنه لم يكن كما وصفته أنا، إذا اختارته آدا. واكتشف أنه، بالقرب من عيادته، كان هناك مستودع كبير للأخشاب يعود لشركة غويدو سبيير؛ فلماذا لم أتحدث عنه؟.. لو تحدثتُ عنه لواجهتُ صعوبة جديدة في التحليل الصعب أصلاً. وعدم ذكري لذلك المستودع ليس إلاَّ دلالة على أنّ الاعتراف المكتوب باللغة الفصيحة لا يمكن أن يكون كاملاً أو صادقاً. ففي مستودع الأخشاب توجد أنواع مختلفة نطلق عليها في تريستا أسماء غريبة مأخوذة من لهجتنا، ومن الكرواتية والألمانية وأحياناً من الفرنسية أيضاً. فمن كان سيطلعني على شرح المفردات الصحيح؟ أكان عليّ، وأنا في أرذل العمر، أن أبحث في الأمر مع تاجر أخشاب من توسكانا؟ وبالمحصلة، لم يسبّب مستودع الأخشاب هذا إلاَّ الخسائر. ولم يكن لديّ ما أقول عنه لأنه بقي على حاله دوماً، اللهم إلاَّ عندما دخل إليه اللصوص وسرقوا الأخشاب ذات الأسماء الغريبة، كأنه كان معدّاً لصناعة طاولات تعنى بتجارب روحانية.

اقترحت على الدكتور أن يأخذ معلومات عن غويدو من زوجتي أو من كارمن، أو من لوشانو التاجر المعروف من قبل الجميع. ولم يذهب إلى أي واحد منهم، على حد علمي. قال إنه يخشى أن تنهار العيادة على رأسه من كثرة المعلومات والتهم والشكوك؛ ومن واجبي أن أصدّقه. من يعلم لماذا حقد عليّ بهذا الشكل؟!.. لابدَّ أن يكون هستيرياً كبيراً أيضاً طالما أنه اشتهى أمه دون جدوى، فراح ينتقم ممن ليس له أي دخل بالموضوع.

شعرت بالإرهاق من ذاك الصراع ضد الدكتور الذي أدفع له النقود.

twitter @baghdad_library

وأظن أنّ تلك الأحلام لم تعد عليّ بالخير أيضاً؛ وأردتني حرية التدخين محبطاً كلياً. فجاءتني فكرة حسنة: استشارة الطبيب باولي.

لم أره منذ سنوات عديدة. كان قد شاب قليلاً، لكن سماته العسكرية لم تستسلم للشيخوخة بعد. فكان ما يزال يرمق الأشياء بنظرة تكاد تلامسها. وحينها اكتشفت لماذا يبدو لي هكذا. كان يسرّه بالطبع أن ينظر إلى الأشياء الجميلة والقبيحة بشفقة يداعب بها الآخرين.

قررت أن أسأله عن رأيه في مواصلة التحليل النفسي. غير أني لم أتشجع على طرح السؤال عندما التقيت بتلك النظرات التي تحقق بفتور. ربما سأصبح مضحكاً لو قلت إنني أرضخ للثرثرة في هذا العمر. وحزنت لأني آثرت السكوت، فلو منعني من التحليل النفسي، لكان وضعي أبسط بكثير؛ وكنت سأحزن أكثر لرؤية نظراته العظيمة تداعبني طويلاً.

أخبرته عن الأرق والالتهاب المزمن، والانتفاخ المخيف في خدي، وبعض الآلام النافذة في ساقي، والضعف الغريب في الذاكرة أيضاً.

قام بتحليل البول في وجودي. أصبح لون السائل أسود، وتأمّل الطبيب كثيراً. ها أنذا أمام تحليل حقيقي، وليس تحليلاً نفسياً. تذكرت ماضيّ البعيد ككيميائي والتحليلات الحقيقية بشوق: أنا.. وأنبوب صغير.. ومتفاعلات! تظلّ المادة المحلَّلة نائمة حتى يوقظها المفاعل بقوة. ولا توجد المقاومة في الأنبوب، أو تنخفض حتى أدنى ارتفاع للحرارة، وليس للاصطناع أية قيمة. وفي ذلك الأنبوب، لم يحدث شيء يذكّرني بالأسلوب الذي اتخذته لإرضاء الدكتور س. حيث كنت أؤلف بعض التفاصيل عن طفولتي لتؤكد تشخيص سوفوكليس. أما هنا فكل شيء حقيقي، والسائل الذي سيخضع للتحليل محبوس في الأنبوب ينتظر المفاعل ويبقى يشبه نفسه دوماً. ويقول الكلمات نفسها كلما اختلط بالمفاعل. أما في التحليل النفسي، فالصور والكلمات لا تتكرر أبداً.

كان ينبغي أن تدعى باسم آخر، فلنطلق عليها اسم المغامرة النفسية. فهذا اسم مناسب تماماً؛ كأننا داخل غابة لا نعرف بمن نلتقي، بصديق أم بقاطع طريق!.. ولا يتبين لنا الأمر حتى عندما تنتهي المغامرة. فنستنتج أنّ التحليل النفسي يشبه استحضار الأرواح ومناجاتها.

ولكن باولي لم يصدّق أنه التقى بمرض السكر. أراد أن يراني في اليوم التالي بعد أن يحلل السائل بالتقطيب. فخرجت مبتهجاً بالمجد، مفعماً بمرض السكري. كدت أن أذهب إلى الدكتور س. لأسأله كيف سيحلل أفكاري ليعرف سبب هذا المرض فيشفيني منه. لكني تشبعت من ذلك الفرد، ولم أشأ أن أراه ثانية حتى لو كان الغرض السخرية منه.

كان مرض السكري جميلاً برأيي؛ أعترف بذلك. تحدثت مع زوجتي بشأنه، فاغرورقت عيناها بالدموع على الحال:

- تحدثت عن الأمراض كثيراً حتى اضطررت للإصابة بواحدة منها!.. - قالت، ثم حاولت أن تواسيني.

كنت أحب مرضي. تذكرت إنريكو المسكين بشوق، وكيف كان يفضل المرض الحقيقي على الوهمي. بتُّ أوافقه الرأي؛ فالمرض الحقيقي أبسط بكثير، يكفي أن تدعه وشأنه. وعندما قرأت أوصاف مرضي الجميل في إحدى المجلات اكتشفت أنه يقدّم برنامجاً للحياة، وليس للموت!.. وداعاً أيتها القرارات؛ لقد أصبحت حراً منك أخيراً. كل شيء سيمضي في طريقه دون أي تدخّل مني.

ثم اكتشفت أنَّ هذا المرض جميل دائماً، أو تقريباً دائماً. إذ يستطيع المريض أن يأكل ويشرب كثيراً دون أي ألم إذا احترس من ورم الغدد؛ ثم يموت إثر غيبوبة في منتهى الروعة.

اتصل بي الطبيب على الهاتف بعد قليل. وأخبرني أنه لا يوجد أي أثر للسكري. فذهبت إليه في اليوم التالي؛ ووصف لي حمية، لم

twitter @baghdad_library

أتقيد بها إلاَّ لبضعة أيام، وبعض الأطعمة، في وصفة صعبة القراءة؛ مما جعلني أتحسن لشهر كامل.

- هل أخافك السكري كثيراً؟ - سألني مبتسماً.

اعترضت؛ لكني لم أخبره بأني سأشعر بالوحدة ما إن يتركني وهم الإصابة بالسكري، فلم يكن ليصدّقني.

وقع بين يدي في ذلك الوقت كتاب شهير للطبيب بيرد يتحدث عن مرض العصاب. اتبعتُ نصيحته، فرحت أغيّر الأدوية كل ثماني أيام بوصفاته التي كتبتها بخط واضح. بدا لي العلاج جيداً لعدة أشهر. حتى إنريكو نفسه لم يكن ليملك هذا الحجم من الأدوية. ثم مضى هذا الإيمان أيضاً، لكني بالمقابل كنت أؤجل عودتي إلى التحليل النفسي من يوم لآخر.

ثم التقيت صدفة بالدكتور س. وسألني إن كنت قد قررت ترك العلاج. لكنه كان محترماً جداً، أكثر مما كان في عيادته. كان يريد أن يستحوذ عليَّ مجدداً بالطبع. قلت له إنني مشغول بأعمال طارئة وظروف عائلية مقلقة، وسأعود إليه ما إن أطمأن. وأردت أن أتوسل إليه أن يعيد لي كتاباتي، لكني لم أتجرأ، لأنّ ذلك سيكون اعترافاً بأني لن أعود إلى العلاج ثانية. ووفرت محاولة كهذا لحقبة لاحقة عندما سيفطن أني لا أفكر في العلاج، فيستسلم. وعند انصرافه، قال بعض الكلمات المكثفة ليجلبني إليه ثانية:

- ستجد نفسيتك متغيرة إذا ما حللتها. سترى كيف تعود إليّ حالما تعرف أني استطعت أن أقرّبك إلى العافية بوقت وجيز نسبياً.

وفي الحقيقة، أظن أنّ نفسيتي حصلت على أمراض جديدة بفضل تحليلاته.

إني أتجنب الأحلام والذكريات لأشفى من علاجه. صار رأسي الطيب لا يشعر بالأمان فوق الرقبة؛ فأنا أشرد بشكل مخيف. أتكلم مع الناس؛ وبينما أقول شيئاً، أحاول بشكل لا إرادي أن أتذكر شيئاً آخر قلته قبل قليل ولم أعد أذكره. وينطبق هذا على الأفكار التي تبدو لي مهمة جداً، كأفكار والدي التي راودته قبل أن يموت ولم يتذكرها حتى هو.

سأبتعد عن هذه الألعاب، فلا أريد أن أنتهي بمشفى المجانين.

15 أيار 1915

قضينا يومين من العطلة في لوشينكو[1] في الفيلا. كان ابني ألفيو يستعيد صحته بعد إصابته بالرشح، ليبقى في الفيلا مع أخته لعدة أسابيع، بينما نعود إليهما لنحتفل بعيد الحصاد.

نجحت أخيراً في العودة إلى ممارسة عاداتي الجميلة والتوقف عن التدخين. وأشعر بتحسن منذ أن استطعت التخلص من حرية نصحني بها دكتور غبي. اليوم وقد أصبحنا في منتصف الشهر، فوجئت بصعوبة وضع قرار صارم مع ما يمنحه التقويم. إذ أنّ الأشهر ليست متشابهة. وسوف نضطر لتدخين سيجارة أخيرة بقرار نأخذه في منظومة أخرى. فلا توجد أشهر أخرى تتعاقب وتزيد من كمية الأيام عدا تموز وآب وكانون الأول والثاني. توجد فوضى حقيقية في الوقت!..

قضيت ظهيرة اليوم الثاني وحيداً على ضفاف نهر الإيزنس، لأستريح على النحو الأفضل. لا شيء أروع من النظر طويلاً إلى المياه

(1) (Lucinico) قرية في ريف كوريزيا القريب من مدينة تريستا. وإذ تقع في الشمال الشرقي الأقصى لإيطاليا، ستصبح نقطة نزاع بين النمسا وإيطاليا التي دخلت الحرب العظمى كي تحرّر باقي أراضيها من الامبراطورية النمساوية، كتريستا وريفها في إقليم فروليجوليا. المترجم.

twitter @baghdad_library

الجارية. أنت واقف والمياه الجارية تقوم بالترفيه المطلوب لأنها لا تشبه نفسها في اللون أو الشكل ولا حتى للحظة.

كان ذلك يوماً غريباً. الرياح شديدة في الأعلى، والغيوم لا تنفكّ تغيّر من شكلها؛ لكن الطقس لم يتغير في الأسفل. ووجدت الشمسُ الدافئة ثقباً خلال تحركات الغيم، من وقت لآخر، لتبثّ أشعتها فوق هذا السفح أو ذاك من الهضبة، أو على قمة الجبل، فيبرز رونق أيار الأخضر وسط الظلال التي تغطي المشهد بأسره. كان الطقس لطيفاً، حتى سرعة الغيوم في السماء لها طعم ربيعي. ما من شك أنّ الطقس يتعافى!

كانت نقاهة حقيقية، كلحظة نادرة تجود بها هذه الحياة البخيلة، بموضوعية واقعية يتوقف المرء فيها على الشعور بأنه ضحية. في وسط تلك الخضرة النضرة التي تدللها الشمس الحلوة، استطعتُ أن أبتسم لحياتي ومرضي أيضاً. كانت المرأة تشغل فيهما حيزاً مهماً. إذ ملأت عليّ أيامي قطعة قطعة؛ قدماها، خصرها، فمها. وعندما راجعت حياتي ومرضي، أحببتهما وفهمتهما! كم كانت الحياة جميلة لو خلت من أولئك المعافين، الذين يضربون زوجاتهم، أو يفكرون بذلك، كل يوم عدا لحظات معينة. أما أنا، فالحب رافقني دائماً. وعندما لم أفكر بزوجتي، فكرتُ فيها أكثر لتغفر تفكيري بنساء أخريات. أما الآخرون، يتركون نساءهم لأنهم محبطون ويائسون من الحياة. ولم تكن حياتي تخلو من الرغبة يوماً وسرعان ما يولد الوهم ثانية بأكمله بعد كل غرق، خلال حلم بأعضاء وأصوات وتصرفات تامة للغاية.

تذكرت حينئذ واحدة من بين الأكاذيب الكثيرة التي ألّفتها للملاحظ العميق الدكتور س، وهي أنني لم أخن زوجتي أبداً بعد مغادرة آدا. أخذ يبني نظرياته على هذه الكذبة أيضاً. لكني هناك، على ضفاف النهر،

تذكرت فجأة وبفزع أنه صحيح أني لم أحاول مصاحبة نساء أخريات منذئذ حقاً؛ أو ربما منذ أن تركت العلاج. هل شفيت كما ادّعى الدكتور س؟ منذ زمن والنساء لم يعد ينظرن إليّ وأنا عجوز هكذا. ستنتهي أية علاقة لي بهن إذا توقفت عن النظر إليهن.

ولو خطر هذا الشك ببالي في تريستا لاستطعت أن أبدده فوراً؛ أما هنا فالوضع أصعب بكثير. قبل بضعة أيام وقعت بين يدي ذكريات دابونتي، المغامر المعاصر لكازانوفا. لقد مرّ هو أيضاً من لوشينكو مما جعلني أحلم بلقاء تلك النسوة المكحّلات وبأعضاءهن المخفيات تحت التنانير. يا إلهي!.. كيف تستسلم تلك النساء بسهولة وبشكل متكرر، وهن محصنات بكل تلك الثياب؟..

بدا لي تذكّر تلك التنانير، بصرف النظر عن العلاج، مثيراً كفاية. لكن رغبتي كانت محدودة جداً ولم تكف لطمأنتي.

وقد حصلت على التجربة التي كنت أبحث عنها بعد قليل، وكانت كافية لطمأنتي، لكنها لم تكلفني القليل. أفسدتُ أطهر علاقة في حياتي لأحصل على تلك التجربة.

صادفت تيريزينا، أكبر بنت لمزارع يعمل في أرض تقع قرب الفيلا. كان والدها أرمل منذ سنتين، فوجدت ذريّتُه المتعددةُ الأمومةَ في تيريزينا؛ تلك الفتاة المكتنزة التي تستيقظ في الصباح للعمل، وتنهيه عند النوم لتستريح قبل أن تباشر في اليوم التالي. في ذلك اليوم، كانت تقود الحمار الذي اعتاد على أخيها الصغير؛ وكانت تمشي جانب العربة المليئة بالأعشاب الطازجة، لأنّ الحيوان الصغير لا يستطيع أن يحمل الفتاة فوق ظهره النحيل. بدت لي الفتاة في العام السابق طفلة ولم يكن لديّ سوى استلطاف أبوي نحوها. لكني وجدتها كبرت، عندما رأيتها

twitter @baghdad_library

في اليوم الماضي. وبصرف النظر عن أنّ وجهها الأسمر أصبح جاداً أكثر، وأكتافها النحيفة عريضة فوق صدرها الذي يتقوّس خلال نشوء جسدها الضعيف، فكنت لا أزال أراها طفلة غير ناضجة. ولم يثرني سوى نشاطها غير المعتاد وغريزة الأمومة التي يحصل عليها إخوتها الصغار. وكان بوسعي أن أغادر لوشينكو دون أن أزعج براءتها لو لم يكن ذلك العلاج الملعون موجوداً؛ فكان من الضرورة أن أتحقق إلى أي حال وصل مرضي.

لم تكن ترتدي من تلك التنانير، ولا يعرف وجهها الممتلئ والضاحك مساحيق التجميل. كانت قدماها عاريتين وجزءاً من ساقيها أيضاً. ولم تثرني بوجهها وساقيها. كان لأجزائها العارية لون وجهها نفسه، لأنها مفتوحة على الهواء؛ فلم يكن من سوء أن تُكشف في الهواء. وربما لم تثرني لهذا السبب. لكني فزعت ما إن شعرت بالبرد. هل يقتضي أن ألبس تنورة بعد العلاج؟

بدأت بملامسة الحمار الذي سمحت له بقسط من الراحة. ثم حاولت أن أعود إليها ووضعت في يدها عشرة كرونات. كانت هذه الجريمة الأولى! ففي العام السابق وضعت في أيديها، وأيدي أخوتها، بضعة قروش فقط لأعبّر عن مودتي الأبوية. ولكن من المعروف أنّ الحب الأبوي مختلف. فوجئت الفتاة بالأعطية الكبيرة. ورفعت ثوبها بمهارة لتضع المبلغ الكبير في جيب مخفي، فرأيت جزءاً آخر من ساقها، وكان أسمر ونقياً أيضاً.

عدت إلى الحمار وقبّلته على رأسه، وأثرت حنانه بحناني. فاستطال ذقنه وأصدر نهيق حب أصغيت إليه باحترام. كم يعبر النهيق المسافات، وكم له من دلالة حينما يبتهل ويتكرر مرتفعاً ثم منتهياً بشهقة يائسة!

لكنه كاد يخدش طبلة أذني لأني سمعته عن قرب.

ضحكت تيريزينا، فشجعتني ضحكتها. عدت إليها وأمسكت ساعدها على الفور وصعدت، بيدي، من عليه باتجاه كتفها ببطء، متّبعاً حدسي. حمداً للسماء.. فلم أكن قد شفيت بعد! إذ توقفت عن العلاج في الوقت المناسب.

لكن الفتاة أمرت الحمار أن يسير بضربة العصا لتتبعه وتتركني، فضحكت مبتهجاً حتى لو لم تود تلك القروية البقاء معي. قلت لها:

– هل أنت متزوجة؟.. عليك أن تتزوجي.. حرام أنك لست متزوجة بعد!..

قالت لي، وهي تبتعد عني أكثر:

– سأختار زوجاً شاباً، أكثر من سيادتكم، إن فكرت بالزواج!...

ولم تحرق سعادتي بقولها. وددت أن ألّقنها درساً، وحاولت أن أتذكّر ما كتبه بوكاتشو: «المعلم ألبرتو دي بولونيا، بعبارات ذكية، يُشعر سيدة بالخجل بعد أن أرادت السخرية منه لأنه أحبها»[1]. ولكن تفكير المعلم ألبرتو لم يكن له تأثيره، لأنّ السيدة مرغريتا دي جيسولينيري قالت له: «...إن حبك لي ثمين مثلما يجب أن يكون حب رجل حكيم ورصين، وستجدني، باستثناء ما يمس كرامتي وشرفي، رهن إشارتك»[2].

حاولت أن أقول ما هو أفضل:

– ومتى تنذرين نفسك للكبار يا تيريزينا؟ – صرخت لتفهمني بعدما ابتعدت.

(1) الاقتباس من (الديكاميرون) المؤلف جوفاني بوكاتشو؛ ترجمة صالح علماني. المدى 2007. ص: 89

(2) المصدر نفسه. ص: 92

twitter @baghdad_library

– عندما أكبر أنا أيضاً! - صرخت ضاحكة دون أن تتوقف.

– لكن الكبار لن يرغبوا بلمسك حينها. اسمعيني! إنني أعرفهم جيداً!..

كنت أصرخ، لأرتضي بطرافتي التي تنبثق عن شهوتي الجنسية مباشرة.

انفتحت الغيوم في تلك اللحظة، في مكان ما من السماء، وتركت أشعة الشمس تمرّ حتى وصلت إلى الفتاة، وقد باتت بعيدة عني بأربعين متراً ومرتفعة بأكثر من عشرة أمتار. كانت سمراء، صغيرة، لكنها مثيرة!.. لم تترني الشمس! فعندما نصبح كباراً، نبقى في الظلّ حتى لو كنا من الظرفاء.

26 حزيران 1915

وصلت إليّ الحرب!.. أنا الذي كنت أتابع أخبارها كما لو كانت حرباً من أزمان سالفة تبعث الدردشة في تفاصيلها متعة رائعة، ومن الغباء القلق بشأنها. وها أنا أقع في خضمّها مشدوهاً ومستغرباً من عدم الانتباه أني سأنغمس فيها عاجلاً أم آجلاً. كأني كنت أعيش، بهدوء تام، في بناية يحترق طابقها الأرضي دون أن أتوقع اشتعال المبنى برمّته، عاجلاً أم آجلاً، بما فيه أنا.

لقد خطفتني الحرب، بل هزّتني بعنف كأني قطعة قماش بالية؛ وسلبتني من عائلتي كلها، ومن وكيلي أيضاً، بضربة واحدة. فأصبحت رجلاً جديداً كلياً بغضون ساعات؛ وللدقة، أصبحت كل ساعاتي الأربع والعشرين جديدة بالكامل. ولم أهدأ إلا بالأمس لأني عرفت أخبار عائلتي أخيراً، بعد انتظار شهر. إنهم بخير في تورينو، بينما كنت

سأفقد الأمل برؤيتهم ثانية.

عليّ أن أقضي النهار كله في المكتب. لم يكن لديّ ما أفعله لو لم يرحل أوليفي وابنه، بما أنه كان مواطناً إيطالياً. بل رحل جميع الموظفين المجتهدين، واحد هنا وآخر هناك، فتوجب عليّ البقاء مكاني لأراقب الوضع. وفي المساء أعود إلى البيت حاملاً مفاتيح المخزن الضخمة. حملت معي إلى المكتب هذا المخطوط علّه يساعدني في قضاء الوقت الطويل طالما أنني كنت هادئاً اليوم. لقد وفر لي ربع ساعة رائعة حقاً علمت خلالها بوجود حقبة هادئة تماماً، في هذا العالم، تسمح للمرء أن ينشغل بألعاب مسلية كهذه.

وكم كان عظيماً لو دعاني أحد ما للسقوط جدياً في حالة وعي نصفي، لدرجة أن أعيش ساعة واحدة من حياتي السابقة. بل كنت سأزدريه علناً. فكيف يمكن أن أترك حاضراً كهذا لأضني نفسي في البحث عن أشياء ليست لها أية قيمة؟ يبدو لي الآن فقط أنني منعزل عن صحتي ومرضي نهائياً. أمشي في شوارع مدينتنا البائسة، وأشعر أني رجل مميز لا يذهب إلى الحرب ويجد طعامه كل يوم. وأشعر بالسعادة، مقارنة مع الآخرين، - خصوصاً مذ طمأنتني أخبار عائلتي - وتخيلت أني أتسبب بغضب الآلهة حتى لو كنت على ما يرام.

التقيت بالحرب بشكل عنيف، ويبدو لي اللقاء مضحكاً قليلاً الآن. فكنت عائداً مع أوغوستا إلى لوشينكو لنقضي عيد الحصاد مع الأولاد. وفي الثالث والعشرين من أيار، استيقظتُ في ساعة مبكرة. كان عليّ أن آتي بالملح وأن أقوم بنزهة قبل أن أشرب القهوة. وخلال أيام النقاهة في الريف، انتبهتُ أنّ القلب، عندما لا نأكل شيئاً، ينهمك بنشاط أكبر في إصلاحات أخرى فيضمن السلامة لجميع أعضاء الجسد. وكان لنظريتي أن تكتمل في ذلك اليوم نفسه عندما أجبرت على التألم من الجوع

twitter @baghdad_library

الذي جعلني بخير.

رفعت أوغوستا رأسها الأبيض عن المخدة لتلقي عليّ التحية. وذكّرتني بأني وعدت ابنتي أن أشتري لها الأزهار. ذبلت شجرة الورد الوحيدة، وكان عليّ أن أتدبر الأمر. أصبحت ابنتي فتاة جميلة تشبه آدا؛ ومن لحظة لأخرى، نسيت أن أربّيها ببربرية، فعاملتها بتلك الفروسية التي تجبرك على احترام الأنوثة حتى في ابنتك. لقد شعرت بسطوتها باكراً وتجاوزت حدودها برضا والديها. أرادت الأزهار وما كان عليّ إلا تأمينها.

فكرت أن أتمشى لساعتين، فكانت الشمس رائعة، ولم أحمل معي السترة ولا القبعة بما أن قررت المشي دون توقف حتى أعود إلى المنزل. وتذكرت، لحسن الحظ، أنه يجب دفع ثمن الأزهار، لذا لم أترك المحفظة في جيب السترة.

توجهت صوب المزارع القريبة قبل كل شيء، عند والد تيريزينا، لأطلب منه أن يقصّ لي الأزهار التي سأحملها معي عندما أعود. دخلت إلى الباحة الكبيرة المحاطة بسور محطّم ولم أجد أحداً. ناديت تيريزينا، فخرج الطفل الأصغر من البيت وكان يبلغ حينها الستة أعوام. وضعت بعض القروش في يده، وأخبرني أنّ العائلة كلها استيقظت في الصباح الباكر وذهبوا إلى الطرف الآخر من النهر، للعمل في حقل البطاطا الذي يحتاج إلى تقليب التربة.

ولم يؤسفني ذلك، فكنت أعرف الحقل وأعلم أني سأحتاج لساعة من الوقت كي أصل إليه. وأعجبني أن أضع لنزهتي هدفاً محدداً، محتاطاً من أي هجوم مباغت للكسل. مضيت عبر السهل الذي كان أعلى من الشارع، فلم أشاهد سوى الهوامش ورؤوس بعض الأشجار المزهرة. وكنت سعيداً حقاً، أمشي بقميص غير رسمي ودون قبعة؛ فشعرت

بالخفة. استنشقت الهواء النقي، وكنت أقوم، كما اعتدت منذ زمن، بالرياضة الرئوية التي علّمني إياها صديق ألماني. إنها مفيدة حقداً لمن يعيش حياته جالساً طوال الوقت.

عندما وصلت إلى ذلك الحقل، ورأيت تيريزينا تعمل في الجزء القريب من الشارع بالضبط، اقتربت منها وانتبهت أنّ أخوتها يعملون مع والدهم بعيداً قليلاً. ولم أتمكن من تحديد أعمارهم، إذ تتراوح بين العشرة والأربعة عشر عاماً. قد يشعر الكبار بالإنهاك إذا بذلوا جهداً؛ لكنهم يشعرون بالعنفوان إذا رافق الجهد إثارة ما، لا يشعرون بها حينما يهمدون. اقتربت أكثر من الفتاة ضاحكاً: - ما زال لديك الوقت تيريزينا.. لا تتأخري!..

لم تفهمني ولم أشرح لها شيئاً، فلم يكن من داع. وبما أنها لم تتذكر شيئاً، فمن الممكن أن نعود إلى علاقتنا القديمة. كنت أعيد التجربة التي أثمرت نتائج طيبة حتى في هذه المرة. فكنت ألمسها بهذه الكلمات القليلة أكثر من نظرة العين وحدها. تذكرت الأزهار حالما تكلمت مع والدها. وسمح لي بقطف ما أريد، ثم إننا لم نكن لنتشاجر على السعر. كان يريد العودة إلى العمل بسرعة بينما كنت أستعد للنزول إلى طريق العودة. لكنه ندم وركض خلفي. وسألني بصوت خافت جداً:

- ألم تسمع سيادتكم شيئاً؟.. يقولون إنّ الحرب قد اندلعت...
- حقاً!... الجميع يعرف ذلك!.. منذ سنة تقريباً! - أجبت.
- لا أتحدث عن تلك. - قال فاقداً صبره - أتحدث عن هذه ضد الـ... - أومئ بيده إلى الحدود الإيطالية القريبة - ألا تعلم شيئاً عنها؟... - وانتظر إجابتي بقلق.
- إن لم أعلم أنا بشيء - قلت بثقة عالية - فهذا يعني أنه لا يوجد شيء. قدمت من تريستا، وآخر الأخبار التي سمعتها تفيد

twitter @baghdad_library

بـأنّ الحـرب قـد وضعـت أوزارها نهائياً. ففي روما انقلبوا على الحكومة التي أرادت الحرب، والآن لديهم جوليتي[1].

فارتاح على الفور:

– وعليه فإنّ هذه البطاطا المباركة التي نقوم بتقليبها ستكون لنا وحدنـا! يوجـد الكثيـر مـن الثرثاريـن فـي هذا العالـم! – مسـح عرقه المنسكب من جبهته بكمّ القميص.

رأيتـه سـعيداً جـداً، فحاولـت أن أجعلـه أكثـر سـعادة، لأنـي أحب الأشـخاص السـعداء. ولذا قلت أموراً لا أحبّ أن أتذكرها حقاً. أكدت لـه أنَّ الحـرب لـن تـدور رحاهـا هنـا حتـى لو اندلعت. فقبل كل شـيء، هنـاك البحـر حيـث كانـوا يحاربـون فوقه حينئذ. ثم إنَّ أوروبا لا تنقصها ساحات القتال لمن أراد الموت؛ فهناك الفلاندر[2] وبعض المناطق من فرنسـا. وكنـت قـد سـمعت مـن يقـول – ولـم أذكر مـن يكون – إنّ هذا العالم كان في عوز شديد للبطاطا، حتى أنهم باتوا يجنونها بكدّ من أرض المعركـة أيضـاً. تحدثـت كثيـراً، وأنـا أنظر إلى تيريزينا دوماً، تلك الطفلة الصغيرة التي تختفي في الأرض لتجسّها قبل أن تضرب فيها المعول.

عـاد الفـلاح إلـى عملـه مطمئنـاً. أمـا أنا، فقد بقي عندي القليل من

(1) جوفاني جوليتي (1842–1928) أهم السياسيين اللبراليين في تاريخ إيطاليا الموحّدة. انتخب رئيساً للوزراء أكثر من مرة، وقدّم الكثير من الإصلاحات التي أدخلت البلاد في الحداثة الاقتصادية والصناعية والثقافية. خاض صراعات سياسية كبرى بهدف حماية الديمقراطية وسلطة مجلس الشعب ضد صلاحيات الملك؛ كالصراع الذي احتدم بشأن المشاركة في الحرب العالمية الأولى، حيث كانت أكثرية البرلمان تعارض دخول البلاد في هذه الحرب. المترجم.

(2) مقاطعة بلجيكية كان متنازعاً عليها تاريخياً في أوروبا نظراً لموقعها الجغرافي والاجتماعي المهم، إذ تقع في قلب القارة. المترجم.

السكينة بعد أن أعطيته جزءاً كبيراً منها. ومن المؤكد أننا في لوشينكو قريبون من الحدود. كنت سأتحدث مع أوغوستا بهذا الشأن. ربما كنا سنحسن صنعاً لو عدنا إلى تريستا أو ذهبنا إلى أي مكان آخر. كان جوليتي قد عاد إلى السلطة دون شك، لكن لم نكن نعرف إذا ما بقي يرى الأمور كما عندما كان غيره في سدة الحكم.

ثم ازدادت عصبيتي عندما قابلت سرية من المشاة بالصدفة وهي تمشي على الشارع في طريقها إلى لوشينكو. لم يكن الجنود شباناً. كانوا مدججين بالأسلحة ويرتدون ثياباً مقززة، إذ يتدلى من خصرهم ما نسميه الدرلندانة في تريستا، وهي عبارة عن حربة طويلة أخرجها النمساويون من المستودعات القديمة صيف 1915.

ومشيت خلفهم بعض الوقت بقلق يشدّني إلى المنزل. ثم أزعجتني رائحة كريهة تفوح منهم، فأبطأت من خطوتي. كنت غبياً في قلقي واستعجالي. وكان من الغباء أن أقلق لأني رأيت قلق ذلك الفلاح. فبتّ أرى منزلي من بعيد، ولم تعد السرية في الشارع. فأسرعت من خطوتي لأصل إلى فنجان القهوة بالحليب بسلامة.

بدأت مغامرتي حينها. فعند انعطاف الطريق، استوقفني حارس يصرخ:

- *Zurück!* – صرخ متخذاً وضعية إطلاق النار أيضاً. أردت أن أكلّمه بالألمانية كونه صرخ بها، لكنه لم يكن يعرف من هذه اللغة سوى تلك الكلمة التي كررها أكثر من مرة مهدداً.

فعدت إلى الوراء مستجيباً لأوامره، ناظراً إلى الخلف خوفاً من أن يطلق النار ليجعلني أستوعب أمره أكثر. فرجعت بتوجس استمر حتى عندما لم أعد أرى الجندي.

غير أني مازلت مصرّاً على الوصول إلى منزلي فوراً. ففكرت أني

twitter @baghdad_library

لو عبرت الهضبة من على يميني لوصلت إلى خلف الحارس المخيف بكثير؛ ولن يكون النزول صعباً لأنّ الأعشاب الطويلة كانت منحنية من قبل كثير من الناس التي توجّب عليها أن تمرّ من هناك قبلي. لا بدَّ أنهم أرغموا على اجتناب المرور من ذاك الشارع مثلي. وعادت إليَّ الثقة خلال المسير، وفكرت أن أصعد إلى أعلى الفيلا، ما إن أصل، لأحتجّ على هذا الأسلوب الذي عوملتُ به. فلن يأتي أحد إلى الريف إذا ذُلّ أهل المدينة هكذا!..

وعندما وصلت إلى أعلى الهضبة، صدمت بالمفاجأة الشنيعة؛ إذ وجدتها محتلة من تلك السرية ذات الرائحة الكريهة. وكان الكثير من الجنود يستريحون في ظل بيت لأحد الفلاحين الذي أعرفه منذ زمن بعيد. وكان بيته خالياً وفارغاً حينها. ويبدو أنَّ مهمة الحراسة أوكلت إلى ثلاثة منهم، ولكن ليس على السفح الذي جئت منه. وشكّل آخرون شبه دائرة أمام ضابط كان يعطيهم التعليمات، ويشير إلى خارطة طبوغرافية يمسكها بيديه.

لم أحمل القبّعة التي قد تنفعني بإلقاء التحية. فأثنيت رأسي غير مرة، وبابتسامة لم أعهدها على وجهي، اقتربت من الضابط الذي ما إن رآني حتى توقّف عن الحديث مع جنوده وبقي ينظر إليَّ. حتى حرّاسه الخمسة الذين أحاطوا به، أعاروني جلّ انتباههم. وكانت حركتي ثقيلة فوق الأرض الوعرة وتحت تلك النظرات. صرخ الضابط:

- *Was will der dumme kerl heir?* (ماذا يريد هذا الأبله؟)

فذهلت أنه يسيء إليَّ دون أن أستفزّه. أردت أن أبدي استيائي بطريقة صبيانية. لكني غيّرت طريقي رغم هيبة الحالة وحاولت الوصول إلى السفح الذي سيأخذني إلى لوشينكو. أخذ الضابط يصرخ حتى إنه كاد يطلق النار لو قمت بأي خطوة أخرى. فأصبحت محترماً من جديد

حـالاً، وبقيـت محترمـاً منـذ ذلـك اليـوم حتى هذا الـذي أكتب فيه الآن. وكان مـن غيـر الإنصـاف أن أجبـر علـى التعامـل مع ضخـم كهذا، لكنه يتكلـم الألمانيـة بطلاقـة، وكانـت هذه ميزته الوحيدة. فنجحت بالتحدث إليه بلطف بفضل هذه الميزة حينما تذكرتها. سـحقاً لدابّة مثله لا تتقن اللغة الألمانية! فلولاها كنت سأذهب في خبر كان.

ومن سوء الحظ أنني لم أكن أتكلم تلك اللغة بطلاقة، وإلاَّ فكنت سـأميت ذاك الرجـل المكفهـرّ مـن الضحـك. أخبرتـه أنّ فنجـان القهـوة بالحليب كان ينتظرني في لوشينكو، ولم يكن يفصلني عنه إلا سريته.

فضحـك بعـد أن اطمـأنَّ لجانبـي. ضحـك وهو يجدّف، ولم يصبر لأنهي كلامي. فقال إنّ فنجان القهوة بالحليب سيشربه الآخرون هناك. وعندما علم بأنّ زوجتي كانت بانتظاري إضافة إلى ذاك الفنجان، صرخ:

- *Auch Ihre Frau wird von anderen gegessen werden.*

(حتى زوجتك سوف يأكلها الآخرون).

بـات بمـزاج معتـدل. ويبـدو أنه انزعج لما تفوّه به، فكانت كلاماته مهينة حتى أضحكت حرّاسـه الخمسـة بشـدة. فأصبح جدياً وشـرح لي أنني لا أستطيع أن أحلم بالعودة إلى لوشينكو لبضعة أيام، بل نصحني كصديق أن لا أسأل أبداً عن هذا لأن سؤالاً واحداً كان كافياً ليزجّ بي في المخاطر!..

- *Haben Sie verstanden?!* (هل فهمت؟!).

لقد فهمت، لكن لم يكن سهلاً أن أتكيف مع العدول عن فنجان القهوة الذي يبعد عني أقل من نصف كيلو متر. لذا ترددت في الذهاب بعيداً، لأنه كان واضحاً أني لم أكن لأصل إلى الفيلا في ذلك اليوم أبداً إن حاولت نزول تلك الهضبة. فسألته بلطف لأكسب الوقت:

- إلى من عليّ أن أتوجه لأسـتطيع العودة لجلب السـترة والقبعة

twitter @baghdad_library

على الأقل؟

كان عليّ أن أفهم مسبقاً أنَّ الضابط مستاء لوجوده هناك مع الخريطة بصحبة الجنود. ولكني لم أتوقع أن أتسبب له بالغضب الشديد.

فصرخ حتى ارتجّت أذناي، لأنه قال لي مسبقاً إنه لا يجدر بي الإكثار من الأسئلة. ثم تمنى أن يحملني الشيطان حيث أراد (*wo der Teufel Sie tragen will*). ولم تزعجني الفكرة لأني كنت متعباً جداً، ومازلت متردداً. أنهك الضابط من صرخاته، واستدعى إليه أحد رجاله الخمسة بنبرة مخيفة جداً: (أيها العريف!). أمره أن يجرّني إلى أسفل الهضبة ويراقبني إلى أن أختفي في الطريق المؤدية إلى كوريزيا، وأن يطلق عليَّ النار إذا خالفت الأوامر. فنزلت من تلك القمة بسرور بالغ:

- *Danke schön* - شكرته دون قصد بالسخرية.

كان العريف سلافياً يتقن اللغة الإيطالية. ومن واجبه أن يكون عنيفاً في حضور الضابط. فصرخ في وجهي ليأمرني بالمضي في النزول.

- *Marsch!* - ولكن عندما ابتعدنا قليلاً أصبح طيباً وأخوياً.

سألني إن كان عندي أخبار عن الحرب، وإن كان التدخل الإيطالي وشيكاً. كان ينظر إليَّ بترقب ينتظر الإجابة.

حتى من كان يخوض الحرب لا يعلم إن اندلعت أم لا! فأردت أن أجعله سعيداً ما استطعت. وأعطيته الأخبار التي ألّفتها لوالد تيريزينا. ثم أنّبني ضميري على قصّ تلك الأخبار: أرجّح أنهم ماتوا جميعهم، أولئك الذين طمأنتهم، أثناء تلك العاصفة الفظيعة والمباغتة. ومن يدري أية مفاجأة تكون قد طبعت على وجوههم حين التقوا بالموت! كان تفاؤلي لا يكبح له جماحاً. ألم أشعر بالحرب في كلمات الضابط وفي وقعها أيضاً؟!..

سُعد العريف بكلامي جداً؛ ونصحني، كمكافأة، أن لا أحاول

الوصول إلى لوشينكو، كما قال الضابط. واعتقد، مستنداً على أخباري، أنّ الأوضاع التي أعاقتني من العودة إلى البيت ستزول في اليوم التالي. لكنه بالمقابل نصحني بالذهاب إلى تريستا إلى الآمر العسكري حيث بوسعي أن أحصل على إذن خاص.

- حتى تريستا؟! - سألت بفزع - إلى تريستا، دون سترة، دون قبعة، ودون القهوة بالحليب؟!..

كان العريف على علم بأنّ طوقاً من الجنود المشاة أغلق المعبر إلى إيطاليا، بينما كنا نتحدث، صائغاً بذلك حدوداً جديدة صعبة الاختراق. وبابتسامة فوقية قال إنّ الطريق الأقصر إلى لوشينكو كانت تلك التي تقود إلى تريستا.

واستسلمت إلى نصائحه، ومضيت نحو كوريزيا لآخذ قطار الثانية عشرة المتجه إلى مدينتي. كنت مرتبكاً، لكني كنت على ما يرام حقاً. وقد دخنت قليلاً على معدة خاوية. شعرت بخفة لم تراودني منذ زمن. ولم يكن يؤسفني أن أواصل المسير. انتابني ألم في ساقي، لكني كنت أستطيع الوصول إلى كوريزيا، بما أنني حرّ وأتنفس بشكل جيد. ولم يتعبني المشي بعد أن حميَتْ ساقيّ من الخطى. وعاد إليّ تفاؤلي ومزاجي المعتدل بفضل سرعتي الفجائية التي تقضم الوقت. كان ثمّة تهديد من هنا وتصعيد من هناك، لكنهم لن يحاربوا. وعندما وصلت إلى كوريزيا ترددت في حجز غرفة في فندق، حيث أقضي ليلتي لأعود في اليوم التالي إلى لوشينكو لأدلي باحتجاجي من أعلى الفيلا. هرعت حينها إلى المكتب البريدي لأتصل بأوغوستا، لكن أحداً لا يرد في منزلي.

اقترب مني الموظف عندما رآني غاضباً من الهاتف الصامت. وكان رجلاً صغيراً ذا لحية خفيفة، - هذا ما أتذكره منه - ويبدو عنيداً بشكل مضحك. قال لي:

twitter @baghdad_library

– إنها المرة الرابعة التي لا يجيب أحد في لوشينكو اليوم.

وعندما استدرت إليه، لمع في عينيه مكر عظيم وسعيد (أخطأت! أذكر هذا الشيء أيضاً!) ليرى في عينيّ إن كنت مذهولاً وغاضباً حقاً. كان يلزمني عشرة دقائق كاملة لكي أستوعب. ما من شك إذن. لوشينكو تقع، أو ستقع بعد بضعة ساعات، على خط النار. عندما فهمت جيداً تلك النظرة الفصيحة، اتجهت إلى المقهى لأتناول الفطور مع فنجان القهوة بالحليب الذي كان عليّ أن أشربه صباحاً. فغيّرت وجهتي فوراً وذهبت إلى المحطة. أردت أن أكون أقرب إلى عائلتي، فاتجهت صوب تريستا آخذاً بتعليمات صديقي العريف.

واندلعت الحرب خلال تلك الرحلة القصيرة.

في المحطة، لم أتناول فنجان القهوة الذي رغبت به كثيراً برغم اتساع الوقت، ربما لأني كنت أتطلع للوصول إلى تريستا. صعدت إلى مقصورتي وحيداً، وفكرت بأفراد عائلتي الأعزاء وكيف انفصلت عنهم بطريقة غريبة.

وصل القطار إلى مونفالكوني بسرعة لا بأس بها. يبدو أنَّ الحرب لم تصل بعد إلى هناك. فاستعدتّ هدوئي مفكراً أنّ الأمور في لوشينكو تجري مثلما جرت على هذا الخط من الحدود على الأرجح. وافترضت أن تكون عائلتي قد رحلت إلى الداخل الإيطالي. وعندما اشتبكت هذه الطمأنينة بجوعي الشديد والمفاجئ، غططت في نوم عميق. وأيقظني الجوع ذاته، أغلب الظن، حينما توقف القطار عند ساسونيا دي تريستا. لم يكن البحر في متناول العين، رغم قربه، لأنّ ضباباً خفيفاً كان يحجب النظر للبعيد. وكان لساحل الكارسو جمال رائع في أيار، يفهمه من ليس معتاداً على غزارة ألوان الربيع في أرياف أخرى. إذ يحيط الأخضر المغرور بكل الصخور التي تبرز هنا، ليصبح علامة فارقة لهذا المنظر

بأسره.

كنت سأغضب جداً في ظروف أخرى لأنني كنت جائعاً ولم أستطع أن آكل. لكن أحداث ذاك اليوم التاريخية التي أشرفت عليها حالت بيني وبين الغضب وأجبرتني على الاستسلام. ولم يستطع السائق، الذي أهديته بعض السجائر، أن يدبّر لي كسرة خبز. لم أخبر أحداً بتجاربي التي مررت بها في الصباح؛ كنت سأرويها لصديق ما في تريستا. لم أسمع عند الحدود صوت قذائف أو مدافع، وكنا متوقفين في ذلك المكان لنجعل أكثر من ثماني قطارات تعبر نحو إيطاليا. لقد فُتح الخدش السرطاني (كما أطلق النمساويون على الحدود الإيطالية حينئذٍ) ليؤمّن المواد التي تداوي قيحه. وكان الجنود المساكين يذهبون صوبه وهم يقهقهون ويغنون. كانت تخرج أصوات الفرح والنشوة ذاتها من كل تلك القطارات.

هبط الليل على المدينة قبيل وصولي إليها، وأنار وميض الحرائق من ظلامه. صرخ صديق إذ رآني ذاهباً صوب منزلي بقميص غير رسمي:

– هل انضممت إلى العصابات أنت أيضاً؟!..

ووصلت أخيراً لآكل شيئاً ما وأنام على الحال.

دفعني الإرهاق الشديد إلى السرير. أظن أنه كان نتيجة الآمال والشكوك التي تشاجرت في رأسي. كنت دائماً على ما يرام. وأذكر أنني، في الوقت الوجيز الذي يسبق الحلم حيث تدربت على تأليف الصور بفضل التحليل النفسي، ختمت ذاك اليوم بفكرة صبيانية متفائلة: عند الحدود لم يمت أحد بعد، فما زال السلام ممكناً إذن.

والآن أعرف أنّ عائلتي بخير وسلام، ولا تؤسفني الحياة التي أمارسها. ليس لديّ الكثير للقيام به، لكنني بالمقابل لست متقاعساً في مكاني. لا تستطيع أن تشتري أو تبيع، فالتجارة سوف تستأنف بحلول

twitter @baghdad_library

السلام. يرسل إليّ وكيلي بنصائحه من سويسرا. آه لو يعلم كيف تشعر نصائحه بالغربة في هذا الجوّ الذي تغيّر كلياً!.. أما أنا، في هذه اللحظة، لا أفعل شيئاً على الإطلاق..

24 آذار 1916

لم ألمس هذا الدفتر منذ حزيران العام الماضي، وهاهي الرسائل تأتيني من الدكتور س. من سويسرا يطلب مني أن أرسل إليه كل ما كتبت. إنه طلب غريب، لكني لا أعارض إرسال هذه الأوراق التي سيرى فيها بوضوح كيف أفكر به وبطريقته في العلاج. إنه يمتلك كل اعترافاتي، فليأخذ هذه الأوراق القليلة أيضاً، وصفحة أخرى سأرفقها بكل سرور ليستفيد منها. وليس لديّ الوقت، فأعمالي تملأ عليّ حياتي. غير أني أريد أن أنعت هذا السيد الدكتور بما يستحق. وفكرت كثيراً في هذا الأمر، حتى اتضحت أفكاري للغاية.

قد يعتقد أنه سيستلم اعترافات أخرى تخصّ الضعف والمرض، لكنه سيستلم توصيفاً لعافية راسخة ومكتملة بقدر ما تسمح به سنواتي المتقدمة. إنني شفيت! لا أريد أن أتوقف عن التحليل النفسي فحسب، بل لست محتاجاً إليه أيضاً. ولا تنتج عافيتي من شعوري بالتميز بين الكثير من الشهداء فقط؛ فلست أشعر بالعافية من مقارنتي بغيري. إنما أنا معافى، كلياً. إنني أعلم، منذ وقت طويل، أنّ عافيتي ليست إلاّ قناعتي بها؛ ولم تكن قناعتي إلا غباء شخص نائم مغناطيسياً يحاول معالجة مرضه بدل أن يحافظ عليه. ومن المؤكد أني أعاني من بعض الأوجاع، لكنها مجرّد دلاء لا تكدّر بحر العافية التي أعوم فوقه. بوسعي أن أضع المرهم هنا أو هناك؛ أما ما تبقّى، فعليه أن يسعى ويحارب وأن لا يستسلم أبداً

لإحباط يصيب مرضى السرطان. لا بأس بالحب والآلام، ولكن ليس من الممكن أن نعتبر الحياة مرضاً لمجرد أنها قاسية.

أوافق أنّ القدر استجاب وأنعش جسدي بالصراع، أو بالانتصار على وجه الخصوص، لأبلغ القناعة بالعافية. كانت التجارة ما جعلني أشفى، وأريد أن يعرف الدكتور س. ذلك.

جلست أنظر إلى حطام هذا العالم، وأنا مبهور بلا حركة، حتى أوائل آب العام الماضي. بدأت (أشتري) حينئذ. أضع هذا الفعل بين قوسين لما يحمله من معنى أعمق مما كان يحمله قبل الحرب. فكان القصد التجاري من ورائه الاستعداد لشراء بضاعة ما. ولكن عندما قلته أنا، قصدت به أني اشتريت أية بضاعة عُرضت عليّ. وكما عند كل الأقوياء، لمعت في رأسي فكرة وحيدة، وعشت عليها، فجلبت لي السعد. لم يكن السيد أوليفي في تريستا، ومن المؤكد أنه لم يكن ليسمح بمجازفة كهذه بل كان سيتركها للآخرين. أما بالنسبة لي ليست بمجازفة، لأني كنت على وثوق تام بنتيجتها السعيدة. شرعت أحوّل كل ثروتي إلى ذهب في البداية، كما اعتاد البشر أثناء الحروب؛ ولم يكن شراؤه وبيعه أمراً سهلاً. فكانت البضاعة هي الذهب السائل، كما تُلّقب، لأنها سهلة الحركة؛ وبدأت أحتكرها. إني أقوم ببعض المبيعات من حين لآخر، لكن بنسبة أدنى من المشتريات دائماً. فأصبحت المبيعات تدرّ الخير والسعادة لأني اشتريت في الوقت المناسب؛ حتى صار البيع يمدّني بالوسائل الكبرى التي أحتاج إليها لاستمرار الشراء. وأذكر، بفخر عظيم، كيف بدت أولى المشتريات غبية لأني قصدت تحقيق فكرة جديدة حالاً: صفقة بخور صغيرة. وكان البائع يمتدح البخور بمقدرته على أن يصبح بديلاً عن الصمغ الذي راح ينفد للتو. وكنت متأكداً، كوني كيميائياً، من أنّ البخور لا يصلح أن يأخذ مكان الصمغ الذي يختلف عنه اختلافاً

twitter @baghdad_library

كلياً. لكن فكرتي رأت أنّ العالم في طريقه إلى كارثة تجعلنا نقبل حتى بالبخور بديلاً عن الصمغ. فاشتريت! وبعت كمية صغيرة، واسترجعت ما دفعته في ثمن الصفقة. وفي اللحظة التي وضعت ِتلك النقود في جيبي، انتفخ صدري من الإحساس بالقوة والعافية.

عندما سيستلم الدكتور هذا الجزء الأخير من كتاباتي، عليه أن يعيدها إليَّ كلها، لأكتبها بوضوح حقيقي من جديد. فكيف كنت سأفهم حياتي دون أن أعيش هذه الحقبة الأخيرة؟.. لعلّ تلك السنين كلها كانت مجرد تحضير لهذه الحقبة!

أنا لست بصافي النية طبعاً، وأعذر الدكتور لأنه رأى في الحياة نفسها برهاناً على المرض. فالحياة تشبه المرض بكيفية سريانها يومياً بين أزمات وحلول، وبين تحسّن وتدهور. لكن الحياة فانية دوماً، خلافاً لبقية الأمراض. فهي لا تحتمل العلاج، الذي يبدو كمحاولة لسدّ الفتحات الموجودة في الجسد لاعتقادنا أنها جروح. سنموت خنقاً ما إن نجحت المحاولة، وشفينا..

إنّ الحياة الحالية ملوّثة حتى جذورها. وضع الإنسان نفسه في محلّ الأشجار والحيوانات ولوّث الهواء، وسلب المكان الفارغ. وقد يحدث ما هو أسوأ من هذا.. فقد يكتشف هذا الحيوان التعيس والنشيط قوىً أخرى ليضعها تحت خدمته. ثمة خوف من هذا في القادم من الأيام، وسينتج عنه ثراء فاحش... ولكن في عدد البشر. فكل متر مربع سيحتله إنسان ما. وكيف سنشفى من نقص الهواء والمكان عندئذ؟ إني أختنق لمجرد تفكيري بذلك!.. وليس هذا فقط..

بل سيكون عبثياً أيُّ جهد نبذله لنحصل على العافية. وهذا لا يصلح إلا على الحيوان الذي يقوم بتطور واحد، وهو التطور البدني. فالنورس عندما أدرك أنه ما من إمكانية أخرى للعيش سوى الهجرة،

أخذ يضخم العضلة التي تحرّك جناحيه لتصبحا الجزء الأهم في جسده. والخلد اختبئ تحت الأرض فإذ بجسمه ينصاع لتلك الضرورة. والحصان كبر فغيّر شكل ساقيه. ولا نعرف تطور بعض الحيوانات الأخرى، لكنه موجود على الأرجح ولن يؤذي صحتهم أبداً.

أما الكائن البشري، ارتدى نظارتين سميكتين! وشرع يصنع الأسلحة خارج جسده. وإن كان من اخترعها يتّسم بالنبل والعافية، فإنّ من يستخدمها غالباً ما يكون مريضاً وعديم الأخلاق. إنّ الأسلحة تُباع وتُشترى وتُسرق، ويصبح الإنسان دوماً أكثر دهاءً وضعفاً. بل أجد أنّ دهاءه وضعفه ينموان بتوافق وانسجام. وكانت أولى الأسلحة تبدو كاستطالة لذراعه ولم تكن ناجعة إلاّ بفضل قوة الذراع نفسها. فتطوّرَ السلاحُ إلى أن أصبح لا يمتّ بصلة لأعضاء الجسد. وإنّ السلاح هو الذي يخلق المرض في غياب القانون الذي خلق الأرض بأسرها. فاندثر قانون الأقوى وأضعنا خَيار الخلاص. يلزمنا ما هو أعمق من التحليل النفسي حين تزدهر الأمراض ويكثر عدد المرضى في ظلّ قانونٍ يضعه مالك أكبر عدد من الأسلحة.

ربما ننعم بالعافية عبر كارثة لا مثيل لها تنشأ عن الأسلحة. عندما لا تكفي الغازات السامة، سيقوم إنسان ما يشبه الآخرين، يعيش في غرفة سرية من هذا العالم، باختراع مادة متفجرة لا تضاهى، تصبح المتفجرات الحالية لعب أطفال بريئة أمامها. وهذه المادة سيسرقها إنسان آخر، يشبه الآخرين أيضاً، لكنه مريض أكثر منهم بقليل. سيتسلق الأخير عرش الأرض، ليضع المادة في المنتصف حيث يتجاوز التأثير حدّه الأقصى. فيحدث انفجار مهول، لن نتمكن من سماعه لشدته. والأرض، إذ تعود إلى شكلها السديمي، سوف تتسكع في السموات خالية من الأمراض والكسالى المتطفلين.

twitter @baghdad_library

ضمير السيد زينو

رواية من إيطاليا

أنا الطبيب الذي يرد ذكره في هذه القصة، أحياناً، بكلمات تفتقر إلى اللطف. ومن يعلم شيئاً عن التحليل النفس ي يعرف كيف يصنّف الكراهية التي يكنّها لي هذا المريض.

لن أتحدث عن التحليل النفسي، فالكتاب يحتوي عليه بما فيه الكفاية. لكن عليّ الاعتذار لأنني أقنعت المريض بكتابة سيرته الذاتية، فالكثير من الأحداث سوف تثير اشمئزاز الباحثين في علم النفس. ولكنّه كان متقدماً في السن، فاعتقدت أنه سيستعيد نضارته من خلال استحضار ماضيه، وأنّ كتابة السيرة الذاتية قد تكون خير بداية للتحليل النفسي. وما زلت عند فكرتي هذه لأنها أوصلتني إلى نتائج لم تكن في الحسبان. وربما كانت النتائج في ازدياد لو أنّ المريض لم يتملّص من متابعة العلاج في ذروته سارقاً مني ثمار جهد طويل في تحليل ذكرياته. وأنشر ذكرياته هذه انتقاماً منه، وأتمنى أن يزعجه ذلك. ورغم هذا، فليعلم أنني مستعد لأقاسمه المكافآت الرائعة التي سأنالها عن هذه الرواية شرط أن يستأنف العلاج.

الدكتور س

مكتبة بغداد

تصميم الغلاف : مهدي عبده

twitter@baghdad_library

ISBN 978-614-01-0746-5

9 786140 107465

أثر